مكتبة

يان ليانكه

حلمُ قرية دينغ

ترجمة: حيدرة أسعد

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING | مرايا

حلمُ قرية دينغ

سجل في مكتبة

اضغط الصفحة

SCAN QR

مكتبة
t.me/soramnqraa

الكاتب: **يان ليانكه**

عنوان الكتاب: **حلمُ قرية دينغ**

ترجمة: **حيدرة أسعد**

العنوان باللغة الأصلية: Dream of Ding Village (丁庄梦)

الكاتب: Yan Lianke (阎连科)

تصميم الغلاف: يوسف العبدالله

تنضيد داخلي: سعيد البقاعي

ر.د.م.ك: 978-9921-808-18-6

الطبعة الأولى - يوليو/ تموز - 2024

1000 نسخة

جميع الحقوق محفوظة للناشر ©

Copyright © Yan Lianke 2005, 2011

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING

الكويت - الشويخ الصناعية الجديدة

تلفون: 40 04 81 98 965 +

بغداد - شارع المتنبي، بناية الكاهجي

تلفون: 60 58 00 11 78 964 +

takween.publishing@gmail.com

takweenkw

takween_publishing

TakweenPH

www.takweenkw.com

يان ليانكه

مكتبة
t.me/soramnqraa

حلمُ قرية دينغ

رواية

ترجمة

حيدرة أسعد

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING | مرايا

الكتابُ الأوَّل

حلم السَّاقي

كُنتُ فِي حُلمِي وَإِذَا كَرمَةٌ أَمامِي. وَفِي الكَرمَةِ ثَلاَثَةُ قُضبانٍ، وَهِيَ إِذ أَفرَخَت طَلَعَ زَهرُهَا، وَأَنضَجَت عَنَاقِيدُهَا عِنَبًا. وَكَانَت كَأسُ فِرعَونَ فِي يَدِي، فَأَخَذتُ العِنَبَ وَعَصَرتُهُ فِي كَأسِ فِرعَونَ، وَأَعطَيتُ الكَأسَ فِي يَدِ فِرعَونَ.

حلم الخَبَّاز

كُنتُ أَنَا أَيضًا فِي حُلمِي وَإِذَا ثَلاثَةُ سِلاَلٍ حُوَّارَى عَلَى رَأسِي. وَفِي السَّلِّ الأَعلَى مِن جَمِيعِ طَعَامِ فِرعَونَ مِن صَنعَةِ الخَبَّازِ. وَالطُّيُورُ تَأكُلُهُ مِنَ السَّلِّ عَن رَأسِي.

حلم فِرعَون

وَحَدَثَ مِن بَعدِ سَنَتَينِ مِنَ الزَّمَانِ أَنَّ فِرعَونَ رَأَى حُلمًا: وَإِذَا هُوَ وَاقِفٌ عِندَ النَّهرِ، وَهُوَذَا سَبعُ بَقَرَاتٍ طَالِعَةٍ مِنَ النَّهرِ حَسَنَةِ المَنظَرِ وَسَمِينَةِ اللَّحمِ، فَارتَعَت فِي رَوضَةٍ. ثُمَّ هُوَذَا سَبعُ بَقَرَاتٍ أُخرَى طَالِعَةٍ وَرَاءَهَا مِنَ النَّهرِ قَبِيحَةِ المَنظَرِ وَرَقِيقَةِ اللَّحمِ، فَوَقَفَت بِجَانِبِ البَقَرَاتِ الأُولَى عَلَى شَاطِئِ النَّهرِ، فَأَكَلَتِ البَقَرَاتُ القَبِيحَةُ المَنظَرِ وَالرَّقِيقَةُ اللَّحمِ البَقَرَاتِ السَّبعَ الحَسَنَةَ المَنظَرِ وَالسَّمِينَةَ. وَاستَيقَظَ فِرعَونُ. ثُمَّ نَامَ فَحَلُمَ ثَانِيَةً: وَهُوَذَا سَبعُ سَنَابِلَ طَالِعَةٍ فِي سَاقٍ وَاحِدٍ سَمِينَةٍ وَحَسَنَةٍ. ثُمَّ هُوَذَا سَبعُ سَنَابِلَ رَقِيقَةٍ وَمَلفُوحَةٍ بِالرِّيحِ الشَّرقِيَّةِ نَابِتَةٍ وَرَاءَهَا. فَابتَلَعَتِ السَّنَابِلُ الرَّقِيقَةُ السَّنَابِلَ السَّبعَ السَّمِينَةَ المُمتَلِئَةَ. وَاستَيقَظَ فِرعَونُ، وَإِذَا هُوَ حُلمٌ.

[تك: ٤٠-٤١]

الكتاب الثاني

الفصل الأوَّل

مكتبة
t.me/soramnqraa

١

كان ذلك غسق يوم من أيَّام الخريف المتأخرة. بدتِ الشمس الغاربة فوق سهل خنان الشرقيِّ مثلَ كُرة حمراء بلون الدم ترمي ظلًّا قرمزيًّا على الأرض والسماء. مع تغلغل اللون الأحمر، يتحوَّل الغسق ببطءٍ إلى ظلام. الخريف في أواخره، والبرد يزداد كثافةً. كلُّ شوارع القرية مهجورةٌ.

الكلاب في الوُجُر.

الدجاج جاثمٌ في الخممة.

الأبقار عادت باكرًا من الحقول وباتت تنعمُ بدفء الحظائر.

الصمت يغمر القرية. مع ذلك، رغم انعدام الأصوات، فقرية دينغ لا تزال على قيد الحياة. يُحكم الموتُ عليها الخناقَ، لكنَّها ليست بميتة. في هذا الصمت، في هذا الغسق، في هذا الخريف المتناهي، ذبلت القرية وأهلُها. انكمشوا وذبلوا بمرور الأيَّام كالجثث المدفونة في جوف الأرض.

أصبح عشبُ السهلِ هشًّا وجافًّا. كلُّ الأشجار عارية والمحاصيل ذابلة. القرويُّون مُحتجَزون داخل بيوتهم، فلا يخرجون منها أبدًا.

منذ أن تدفَّق الدمُ. منذ أن طغتْ حمرتُه.

كان الغسق قد انتشر في أرجاء السَّهل حين عاد جدِّي دينغ شوي يانغ من المدينة. تركته الحافلة التي تصل بين مقاطعة وي شيان (مركز المقاطعة) ودونغ جينغ (عاصمة المقاطعة) عند حافَّة الطَّريق الرئيس كورقةٍ سقطتْ من شجرة.

لم يكن الطريق المعبَّد الذي يربط قرية دينغ بالعالم الخارجي موجودًا قبل عشر سنوات، آنَ تورَّط كلُّ أهل القرية في موجة بيع الدم. بينما كان جدي يقف على جانب الطريق ناظرًا نحو القرية، بدا أنَّ نسمةَ ريحٍ قد صفَّت ذهنه ورتَّبتْ أفكاره المبعثرة. أشياء لم يستوعبها من قبل باتت الآن في مكانها الصحيح. ولأوَّل مرة منذ أن غادر القرية في وقتٍ باكر من ذلك الصباح للقاء مسؤولي المقاطعة، بدا أنَّ الضباب قد انقشع. هناك، واقفًا على الطريق الذي يربط قرية دينغ ببقيَّة العالَم، هبطتْ عليه البصيرة. أدركَ بأنَّ الغيوم تجلب المطر. بأنَّ أواخر الخريف تجلب برد الشتاء. بأنَّ أولئك الذين باعوا دماءهم قبل عشر سنوات ستصيبهم الحُمَّى الآن. وأنَّ المصابين بالحُمَّى سيموتون حتمًا كما تموت أوراق الأشجار المتساقطة.

تختبئُ الحُمَّى في الدم كما يختبئ جدِّي في الأحلام.

تحبُّ الحُمَّى دماءها كما يحبُّ جدِّي أحلامه.

كان جدِّي يحلمُ كل ليلة. في الليالي الثلاث الأخيرة ظلَّ يرى الحلمَ نفسه: *في المدن التي زارها، دونغ جينغ ووي شيان، كان الدم يتدفق عبر*

الأنابيب التحتيَّة التي تمتدُّ كشبكة عنكبوت عملاقة. من خلال الشقوق والأكواع، كان الدم يتدفق كالماء ويتصاعد كالنوافير نحو السماء، ليهطلَ مطرًا أحمَر مالحًا يفوح برائحة نفاذَّة تزكم الأنوف. هناك، في كلِّ أرجاء السهل، رأى مياه الآبار والأنهار صارت حمراء وباتت رائحتها كريهة كالدم النتن. في كلِّ مدينة وبلدة، انتحب الأطباء يأسًا أمام اجتياح الحُمَّى. لكن في شوارع قرية دينغ جلس طبيب وحيد يضحك. كانت القرية المغمورة بأشعة الشمس الذهبيَّة صامتة ومسالمة وأهلها يتحصَّنون خلف أبواب بيوتهم الموصدة. لكن هذا الطبيب الذي يبلغ من العمر قرابة الأربعين عامًا، والجالس على صخرةٍ تحت شجرة الصفيراء، مرتديًا معطفه الأبيض وحقيبة أدواته عند قدميه، كان يضحك من قلبه. ها-ها-ها-ها-ها. طفحَ نورُ الشمس بصوت الضحك. ضحكة صاخبة وكبيرة، ترنُّ بجهور كالجرس، قوية بما يكفي لجعل الأشجار ترتعش والأوراق الصُّفر تنهمر كما تفعل ريح الخريف الفتَّاكة...

وحين انتهى الحلم، استدعى ذوو الشأن في المقاطعة -كبار المسؤولين- جدِّي لعقد اجتماع. نظرًا لكون قرية دينغ باتت بلا عمدة، فقد أُلقيت مهمَّة إدارة شؤونها على عاتق جدِّي الذي عاد إلى القرية وقد فهم بعض الحقائق، مثل حلقاتٍ متتالية في سلسلة، تجرُّ الواحدة الأخرى.

الشيء الأوَّل الذي علمه جدِّي هو أن الحمَّى ليست بحمَّى على الإطلاق. الاسم الطبيُّ الصائب لها هو متلازمة العوز المناعي المكتسب أو الإيدز. الشيء الثاني هو أنَّ أولئك الأشخاص الذين باعوا دماءهم منذ سنوات عديدة وعانوا من الحمَّى بعد أسبوعين من بيعه،

قد أصيبوا بالإيدز الآن. الشيء الثالث هو أنَّ أول أعراض الإيدز لا تظهر إلا بعد مرور ثمانية أو تسعة أو حتى عشرة أعوام. معظم الناس ممَّن ظنُّوا أنَّ الأعراض ليست سوى نزلة برد عابرة تناولوا الأدوية لخفض درجة الحرارة وسرعان ما عادوا إلى طبيعتهم. لكن بعد بضعة أشهر، كان المرض يتفشَّى من جديد وتتفاقم الأعراض سوءًا: وَهن وبثور وتقرُّحات على الفم واللسان وجفاف وفقدان وزن. بحلول ذلك الوقت، يكون أمام المرء بضعة أشهر فقط ليعيشها. قد يتمكَّن من الصمود لستة أشهر، وربَّما حتَّى ثمانية أو تسعة، ولكن قلَّة قليلة ستتمكن من البقاء لمدة عام. في النهاية كلُّ مَن يصاب بالمرض سيموت.

لقد ماتوا كالأوراق المتساقطة.

انطفأ ضوؤهم وولَّى عن هذا العالَم.

الشيء الرابع كان أمرًا يعرفه جدِّي مسبقًا: إنَّ الموت فتكَ بأهل القرية خلال العامين الماضيين. لم يمضِ شهرٌ دون وفاة واحدة على الأقل، وفقدت كلُّ عائلة تقريبًا فردًا من أفرادها. بعد ما يزيد عن أربعين وفاةً خلال سنتين، كانت القبور في مدفن القرية قد اكتظَّت كحزم القمحِ في الحقول المحصودة. شُخِّصَ بعض المرضى بالتهاب الكبد وآخرون بالسُّلِّ، لكنَّ آخرين، ممَّن تمتعوا بأكباد سليمة ورئات معافاة، فقدوا الشهيَّة للطعام وما عادوا قادرين على ابتلاع لقمة. في غضون أسبوعين أو أكثر، بعد أن تحوَّلوا إلى هياكل عظميَّة وباتوا يتقيَّؤون وعاءً من الدم أو ينفثونه مع سعالهم، ماتوا. *ماتوا كالأوراق المتساقطة، وولَّى ضوؤهم عن هذا العالَم*... وفيما بعدُ، كان القرويُّون يقولون إنَّ فلانًا مات بسبب

التهاب المعدة أو الكبد أو السُّلِّ، ولكن في الحقيقة ماتوا من جرَّاء الحُمَّى. جميعُهم ماتوا بسبب الإيدز.

خامس الأشياء التي علمها جدِّي هو أنَّ الإيدز كان في الأصل مرضًا يخصُّ الأجانب، مرضًا مرتبطًا بالمدن الكبرى ويُشاع بأنَّه يصيب المنحرفين فقط. لكنَّه بات الآن منتشرًا في الصين أيضًا، حتَّى في الأرياف، وبين الأشخاص المستقيمين الذين لا تشوب سلوكهم شائبة. جاء المرضُ على شكل موجات، كأسراب الجراد التي تغزو الحقول وتدمِّر المحاصيل. إن أُصيب شخص واحد، فاليقين الوحيد هو أنَّ أشخاصًا كثر آخرين سيتبعونه قريبًا.

الشيء السادس هو أنَّك إذا أُصبتَ بالإيدز فأنتَ محكومٌ عليك بالهلاك. الإيدز مرض حديث وعضال، لا يمكن لأي مبلغٍ من المال أن ينجيك منه. ما جرى ليس سوى البداية، وهذا هو الشيء السابع. الذروة الحقيقيَّة ستنفجرُ العام القادم أو في العام الذي يليه. حينها سيموت الناس كالعثِّ في اللهب. الآن هم يموتون كالكلاب، والجميع يعلم أنَّه في هذا العالَم، الكلاب أكثر استحقاقًا للاهتمام من العثِّ.

الشيء الثامن كان يتعلَّق بي، أنا المدفون خلف جدار الطوب للمدرسة الابتدائيَّة. كنتُ في الثانية عشرة من عمري فقط، في الصف الخامس، عندما متُّ. متُّ لأنني تناولتُ حبَّة طماطم مسمومة وجدتُها في طريق عودتي من المدرسة إلى البيت. قبل ستَّة أشهر، سَمَّم أحدهم دجاجاتنا. ولم يمضِ وقتٌ طويل حتَّى مات خنزير أمِّي بعد أن تناولَ حبَّة فجلٍ مسمومة. بعد ذلك ببضعة أشهر، وجدتُ حبَّة الطماطم

موضوعة على صخرة بجانب الطريق. لا بدَّ أن أحدهم وضعها هناك، وهو يعلم بأنني سأراها في طريق عودتي. بمجرد أن تناولتها، آلمني بطني، كأنَّ أحدهم راح يطعن أحشائي بالسكاكين. قبل أن أتمكَّن من المشي بضع خطوات، سقطتُ في منتصف الطريق. حين وجدني أبي وحملني بين ذراعيه إلى البيت، كان الزبد يخرج من فمي. وحين مددني على سريري، كنتُ قد متُّ بالفعل.

لم أمتْ بسبب الحمَّى، ولا بسبب الإيدز، بل لأن أبي كان يدير محطَّةً لجمع الدم في قرية دينغ قبل عشر سنوات. كان يشتري الدم من القرويين ويبيعه للربح. لقد متُّ لأنَّ أبي كان أكبر تاجر دماء ليس في قرية دينغ فحسب، بل في ضيعة الصفصاف وقرية الينبوع الأصفر وقرية تو-لي وعشرات القرى الأخرى على بعد أميال. لم يكن مجرَّد تاجر دماء، بل إمبراطور الدماء.

لم يبكِ أبي يومَ متُّ. جلس على حافة سريري ودخَّن سيجارةً. ثم خرج إلى القرية برفقة عمِّي، شقيقهِ الصغير. حمل أبي مجرفة مدببة وحمل عمِّي سكينًا بنصلٍ لامعٍ. وقفا عند مفترق طرق القرية، يشتمان ويصرخان بأعلى صوتيهما.

«اخرجوا واكشفوا عن وجوهكم، إن كانت لديكم الجرأة!»، صرخ عمِّي دينغ ليانغ. «لا تظنُّوا أنَّ بإمكانكم الاختباء أيُّها الأوغاد القتلة! أخرجوا لتروا إن لم أقطعكم إربًا إربًا!».

«إذًا فأنتم تغارون مني، أليس كذلك؟»، صاح أبي، دينغ هوي، وهو يغرس مجرفته في الأرض. «لم تستطيعوا أن تتحمَّلوا أنني غنيٌّ ولم

تصبْني الحمَّى؟ حسنٌ، اللعنة عليكم وعلى أسلافكم! قتلتم دجاجاتي ثم خنازيري والآن تظنونَ أنَّ بإمكانكم الإفلات بعد أن سمَّمتم ابني؟».

وقف الشقيقان يصيحان ويكيلان الشتائم عند مفترق الطرق منذ الظهيرة إلى أن خيَّم الظلام، لكن واحدًا من القرويين لم يخرج. لم يرغب أحدٌ في الردِّ على عمِّي أو مواجهة أبي.

في النهاية، كلُّ ما كان بوسعهما فعله هو دفني.

وضعاني في حفرةٍ بجوف الأرض وأهالا عليها التراب.

وفقًا للتقاليد، كنت أصغر سنًّا من أن أُدفن في مقبرة أجدادي، لذلك حمل جدي جثتي الصغيرة إلى المدرسة الابتدائيَّة، حيث كان يقيم كحارس. صنع لي نعشًا خشبيًّا صغيرًا وملأه بكتبي المدرسيَّة ودفاتري وأقلامي، ودفنه خارج باحة المدرسة، وراء الجدار الخلفيِّ لمسكنه.

لطالما كان جدِّي يتخيَّل نفسه عالـمًا. لقد ذهب إلى المدرسة وقضى حياته حارسًا للمدرسة وقارعًا للجرس، وكان معروفًا في كل أنحاء القرية باسم الأستاذ دينغ. لذا كان من الطبيعيِّ أن يرغب في دفني مع كتبي: كتابَ القصص المفضَّل لدي ومجموعة من الحكايا الشعبيَّة وبعض المجلَّدات من الأساطير الصينيَّة وقاموس اللُّغتين الإنكليزيَّة - الصينيَّة.

بعد أن رحلتُ، كان جدي يقف عند قبري ويتساءل عمَّا إذا كان القرويون سيحاولون قتل شخص آخر من عائلتنا. هل سيسمِّمون حفيدته، أختي الصغيرة ينغ تزي؟ أم حفيده الوحيد المتبقِّي، ابن عمِّي الصغير جون؟ راح يفكر في أنْ يجعل أبي وعمي يذهبان إلى كل بيت في القرية ويتذلَّلان. أن يجعلهما يركعان على التراب، ويضربان رأسيهما

بالأرض ثلاث مرات، ويتوسَّلان إلى القرويين كي لا يسمِّموا المزيد من أفراد عائلتنا. يتوسَّلان إليهم ألا يقطعون نسلَ عائلتنا.

وبينما كان جدِّي يفكِّر مليًّا في هذا الأمر، أُصيب عمِّي بالحمَّى.

أدرك جدِّي أنَّ ذلك كان قَصاصًا. مرض عمِّي لأنَّه عمل فيما مضى لدى والدي، حيث كان يشتري الدم من القرويين ويبيعه من جديد لأجل الربح. عندما اكتشف جدِّي ذلك، غيَّر رأيه بشأن مطالبة عمِّي بالتذلُّل للقرويين، وبدلًا من ذلك قرَّر أن يجعل والدي يفعل ذلك بمفرده.

الشيء التاسع الذي علمه جدِّي هو أنه في غضون عام، وربَّما عامين، ستنتشر الحمَّى في كلِّ أنحاء السَّهل. ستتدفق فوقنا كفيضان يجتاح قرية دينغ وضَيْعة الصفصاف وقرية الينبوع الأصفر وقرية تو-لي والكثير من القرى الأخرى في طريقه. كما يتلاطم النهر الأصفر على ضفتيه، ستتدفَّق عبر عشرات وربما مئات القرى. حين يحدث ذلك، سيموت الناس كالنمل. سيتناثر الموتى على الأرض كأوراق الشجر المتساقطة. وبمرور الوقت، سيموت معظم القرويين وستختفي قرية دينغ إلى الأبد. كالأوراق على شجرةٍ تحتضر، سيذبل القرويُّون ويتساقطون على الأرض، وستجرفهم الرياح بعيدًا.

الشيء العاشر الذي علمه جدِّي هو أن كبار المسؤولين قرروا عَزْل كلِّ المرضى في القرية كي لا ينقلوا العدوى إلى الأصحَّاء الذين لم يبيعوا الدماء.

«أستاذ دينغ، ابنك أكبر تاجر دماء في القرية، لذا يجدر بك أن تتدخَّل

الآن. عليك أن تستخدم نفوذك لإقناع كل مريض في القرية بالانتقال إلى المدرسة»، قال له المسؤولون.

عندما سمع جدِّي ذلك، ظلَّ صامتًا لفترة طويلة. حتى الآن، جعله ذلك متضايقًا يقلِّب أفكارًا من الأفضل تركها طيَّ الكتمان. حين فكَّر جدي بموتي، أراد أن يجبر والدي، إمبراطور الدماء، على الركوع والتذلُّل أمام كلِّ سكان القرية. وحين يتمُّ ذلك، سيكون بمقدور أبي أن يرمي نفسه في بئر أو يتجرَّعَ بعض السمِّ أو يشنقَ نفسه. أي طريقة يمكن أن أن تفي بالغرض طالما أنه سيموت. كلَّما حدث ذلك مبكِّرًا، كان أفضل، ليشهدَ كلُّ فردٍ في القرية موتَه.

لقد كانت فكرةً صادمة أن أتخيَّلَ أبي يتذلَّل أمام القرويين ثم يُجبَرَ على الانتحار، فكرة لم يعتقد جدِّي أنه قادر على القيام بها. لكن حين مرَّت الصدمة، راح جدِّي يمشي في القرية باتجاه بيتنا.

كان يريد حقًّا أن يفعل ذلك. كان يريد أن يطلب من أبي الاعتذار أمام الجميع ثم الانتحار.

لأنَّه كلَّما مات أبي مبكِّرا، كان ذلك أفضل.

٢

ما حدث لقرية دينغ كان مأساويًّا: ففي أقل من عامين، فقدت هذه القرية الصغيرة التي تحتوي أقل من مئتي بيت وثمانمئة نسمة أكثر من أربعين شخصًا جرَّاء الحمَّى. خلال العام المنصرم، كان هناك في المتوسط حالتا وفاة أو ثلاث كلَّ شهر. بالكاد مرَّ أسبوع دون وفيَّات. لكن موسمَ

الموت كان قد بدأ للتوِّ. في الأشهر القادمة، سيصبح عدد الموتى كعدد الحبوب المحصودة في الخريف، وستغدو القبور كثيرة كحزم القمح في الصيف. سيكون الموتى من الكبار في الخمسينات من العمر، أو أطفالًا تتراوح أعمارهم بين الثالثة والخامسة. في كلِّ هذه الحالات، يبدأ بحمَّى تستمرُّ عدة أسابيع، ومن هنا أخذ المرض لقبه؛ الحمَّى. لقد انتشرَ حتى أخذ بتلابيب القرية، وبدا الآنَ أنَّه ما من نهاية لسطوته الخانقة. ما من نهاية للموت، ما من نهاية للدُّموع.

اضطرَّ نجَّارو النعوش في القرية إلى شراء فؤوس ومناشير جديدة لثلاث أو أربع مرَّات.

كلَيلةٍ شديدة الظلام، جثم الموت بلا هوادة على قرية دينغ والقرى المجاورة. لم تكن الأخبار التي تنتقل ذهابًا وإيابًا في الشوارع كلَّ يوم أقلَّ سوداويَّة. فإن لم يكن الخبر أنَّ شخصًا آخر قد أُصيب بالحمَّى، فقد كان أنَّ شخصًا ما فقد أحد أفراد أسرته في منتصف الليل. ذاعت أخبار بأنَّ امرأةً مات زوجها بسبب الحمَّى كانت تخطِّط للزواج مرة أخرى في قرية جبليَّة بعيدة، بعيدة قدر الإمكان عن هذا السهلِ الملعون، الذي سادت فيه الحمَّى.

مرَّت الأيَّام كعذابٍ لانهائيٍّ. كان الموت يحوم في المداخل، يطنُّ متنقِّلًا من بيت إلى آخر كالبعوض الذي ينشر المرض وحينما يلمس أحدًا، فستجده في غضون بضعة أشهر ميتًا في فراشه.

كان الموت في ازدياد أكثر فأكثر. وبينما في شرق القرية، كانت إحدى الأسر تبكي طوال اليوم قبل دفن فردٍ من أفرادها في نعشٍ خشبيٍّ

أسودَ كلَّفهم مدَّخرات حياتهم، اكتفت عائلة أخرى، في غرب القرية، بالجلوس حول جثة الفقيد بصمت، دونما دموع، بل مع تنهيدات حزينة، قُبيل الدفن.

عمل نجَّارو القرية الثلاثة المسنُّون ليلَ نهارٍ لصنع النعوش. عانى اثنان منهم من آلام الظهر بسبب الإرهاق. قُطعت كلُّ أشجار الپولونيا لهذا الغرض ولم يتبقَّ خشبٌ في القرية.

ظلَّ السيد وانغ العجوز، صانع أكاليل الجنائز، مشغولًا في قصِّ أوراق الأزهار وتقليمها، إلى أن غطَّت البثور يديه ثم جفَّت وتحوَّلت إلى ندوب صُفر ثخينة.

أصبح القرويون كسالى وغير مبالين بالحياة اليوميَّة. فمع تخييم الموت عند عتبات بيوتهم، لم يعد أحد يتجشَّم عناء حراثة الحقول أو الزراعة. لم يكلِّف أحد نفسه عناء مغادرة القرية بحثًا عن عمل موسميٍّ. قضى القرويون أيامهم في بيوتهم، مغلقين الأبواب والنوافذ لمنع الحمَّى من الدخول.

لكن هذا ما كان ينتظرونه، ينتظرون أن تتسارع الحمَّى وتقتلهم. ظلُّوا، يومًا إثر يوم، ينتظرون ويراقبون. قيل إنَّ الحكومة تخطِّط لإرسال الشاحنات والجنود لسَوْق المصابين بالحمَّى ودفنهم أحياءً في صحراء جوبي، كما اعتادوا أن يفعلوا مع ضحايا الطاعون فيما مضى. رغم معرفة الجميع بأنَّها مجرَّد شائعات، كانوا في أعماق قلوبهم قد صدَّقوا الخبر. أقفلوا أبوابهم ونوافذهم، ولازموا بيوتهم منتظرين قدوم الحمَّى، وموت المزيد منهم.

وإذ يموت القرويُّون، فكذلك تموت القرية.

أجدبتِ الأرض. لم يدقّ أحدٌ محراثه في التراب.

جفَّتِ الحقول. لم يرذَّ أحدٌ قطرةَ ماء على المحاصيل.

في بعض البيوت التي زارها الموت، توقَّفت الأُسَر عن القيام بالأعمال البيتيَّة. كفُّوا عن غسل القدور والمقالي. بين الوجبة والأخرى، كانوا يطبخون الأرزَّ في الوعاء غير المغسول نفسه، ويأكلون في الأطباق نفسها وباستخدام العيدان المتَّسخة نفسها.

إن لم تكن قد رأيت أحدهم في القرية منذ أسابيع، فليس عليك أن تسأل إلى أين رحل. يمكنك أن تفترض فورًا أنَّه مات. إذا حدث أن صادفته بعد بضعة أيام، ربَّما أثناء سحب المياه من البئر، ستتوقَّف وتحدِّق مشدوهًا. ستمرُّ فترة طويلة من الصمت وأنتما تحدِّقان بعضكما ببعضٍ مذهولين. ثم ستقول: «يا إلهي، أما زلتَ حيًّا!»، وقد يجيبك: «لازمتُ الفراش بسبب الصداع. ظننتُ أنها حمَّى، لكن يبدو أنَّها ليست كذلك». بعد شيء من الضحك الصاخب، ستتلامسان إذ تمرَّان بجانب بعضكما، وعلى كتفيك حمَّالة يتدلَّى منها دلوان خشبيتان مملوءتان بالماء، بينما يكمل هو طريقه إلى البئر حاملًا دلويه الفارغتين.

هذا هو الحال الذي باتت عليه قريتنا.

قرية دينغ في أيام الحمَّى، أيام العذاب والانتظار.

بعد أن اتخذ قراره بالتحدُّث مع أبي، غادر جدِّي المدرسة، وسار بتثاقلٍ على الطريق المؤدِّي إلى القرية. غرُبتْ الشمس وبدأ الضوء يتلاشى بالفعل. حين وصل جدي إلى مركز القرية، رأى ما شيانغ لين جالسًا أمام

بيتهِ وهو يصلح آلته الموسيقيَّة ذات الوترين، والتي تسمَّى: زويهو. كان ما شيانغ لين مغنيًا وحكواتيًّا هاويًا. كان مصابًا بالحمَّى. الآلة الموسيقيَّة التي اعتاد أن يعزف عليها أثناء غنائه لم تُستعمل منذ عدة سنوات، وكان سطحها المطليُّ متشقِّقًا ومتقشّرًا. بنى ما شيانغ لين بيتَ عائلته المكوَّن من ثلاث غرف نوم بالمال الذي تقاضاه عن بيع دمه. الآن، بينما كان جالسًا تحت سقف القرميد في البيت الذي اشتراه ودفع ثمنه، تناول آلته وراح يغنِّي بصوتٍ أجشَّ، بصوت خشنٍ كلحاء الشجر:

الشمس التي تغرب عند التلال الغربية

وتشرق من البحر الشرقيِّ

تجلبُ يومًا آخرَ من البهجة،

أو يومًا آخرَ من البؤس...

الحصاد الذي تبيعه بفتات المال

يجلب يومًا آخر من الوفرة،

أو يومًا آخر من الفاقة...

لدى استماعك إلى ما شيانغ لين يغنِّي، لن يخطر لك أنَّه مريض. لكن جدِّي رأى لون الموت طاغيًا عليه. عندما اقترب أكثر، لاحظ اخضرارًا خفيفًا على جلد ما شيانغ لين. ثم لاحظ القروح والبثور التي تصلَّبت وتحوَّلت إلى قشور حُمرٍ داكنة تنقِّط وجهه كحبوب البازلاء المجففة. حين رأى ما شيانغ لين جدِّي، وضع آلته الموسيقيَّة وابتسم. لقد كانت تلك

الابتسامة العليلة، المفعمة بالأمل، المتلهِّفة، لمتسوِّل يأمل الحصول على الطعام.

«أستاذ دينغ»، صاحَ ما شيانغ لين بصوته الغنائيِّ. «سمعتُ أنَّك كنت في اجتماع مع كبار المسؤولين».

لم يستطع جدِّي أن يكفَّ عن التحديق.

«شيانغ لين، منذ متى فقدت كلَّ هذا الوزن؟».

«لم أفقد الوزن. ما زلتُ قادرًا على تناول رغيفين من الخبز دفعة واحدة... ماذا قالوا إذًا؟»، سأل ما شيانغ لين بصبرٍ نافد. «هل وجدوا علاجًا؟».

فكَّر جدِّي للحظة.

«بالتأكيد. قالوا إن الدواء الجديد قد يتوفَّر هنا في أي يوم. بجرعة واحدة ستُشفى كليًّا».

ابتسم شيانغ لين.

«متى نحصل على الدواء الجديد؟».

«لن يستغرق ذلك وقتًا طويلًا».

«كم من الوقت يعني هذا الوقت الذي ليس طويلًا؟».

«ليس أكثر من بضعة أيام».

«كم يومًا بالضبط؟».

«إن لم نحصل على الدواء خلال بضعة أيام، سأعود وأسألهم».

استدار جدي وتابع طريقه نحو بيت أبي.

متَّجهًا نحو زقاق ضيِّق، لاحظ جدي لافتات العزاء البِيض المعلَّقة عند عتبات البيوت. بعض تلك اللافتات قديم ومصفرٌّ، وبعضها الآخر جديد وناصع البياض. مع وجود كل هذه الأوراق البِيض المتطايرة في مهبِّ الريح، بدا الزقاق كأنّه قد تعرَّض لعاصفة ثلجيَّة. أسفل الزقاق، مرَّ جدي ببيت عائلة مات ابنُها بسبب الحمَّى قُبيل عيد ميلاده الثلاثين. يقول مقطع العزاء المكتوب على اللافتة:

منذ أن رحلتَ غدا البيتُ خاويًا والخريف لا نهائيًّا؛

لقد خبا النور وغربت الشمس غروبها الأخير.

في بيت عائلة لي، ماتت زوجة الابن بسبب الحمَّى بعد وقت قصير من عقد القِران. كانت قد أُصيبت بالمرض في مسقط رأسها ونقلته إلى زوجها ووليدها. على أملٍ بأن يلاقي ابنهم وحفيدهم حظًّا أوفرَ، دوَّنت العائلة هذا المقطع:

لقد غرق القمر، وخفتت النجوم، وبيت العائلة بات مظلمًا؛

لكنَّ هناك أملًا بمجيء الغد، حينما ستشرق الشمس من جديد.

في البيت التالي، كان هناك لافتتان بيضاوان، واحدة على كل جانب من جانبَي الباب، وليس عليهما أيَّة كتابة. ثار فضول جدي حول السبب الذي يدفع شخصًا ما لتعليق لافتة عزاء فارغة، واسترق نظرةً عن كثب. حين مرَّر أصابعه على اللَّافتتين، اكتشف أنَّ ثمة طبقتين من الورق تحتهما. مات ما لا يقلُّ عن ثلاثة أشخاص بالحمَّى في هذا البيت. يبدو أنَّ العائلة قد ضاقت ذرعًا، وجدت أنَّه من غير المجدي تكلُّف عناء كتابة المزيد من المقاطع الجنائزيَّة فاكتفت بتعليق اللافتات الجديدة الفارغة.

بينما كان جدي واقفًا عند مدخل البيت يحدِّق في اللافتات الفارغة، سمع ما شيانغ لين، الذي تبعه إلى الزقاق، يصيح وراءه.

«أستاذ دينغ! ما دام أنَّ الدواء الجديد سيتوفَّر عمَّا قريب، لماذا لا نحتفل بذلك؟ أخبر الجميع أن يأتوا إلى المدرسة، سأقيم حفلًا موسيقيًّا لكلِّ سكان القرية. أنت تعرف كم أجيد الغناء، والناس بحاجة إلى ذريعة كي يخرجوا من بيوتهم»، قال ما شيانغ لين.

استدار جدي بتباطؤ.

تقدَّم ما شيانغ لين بضع خطوات.

«المدرسة هي المكان المثاليُّ لحفلي الموسيقيِّ. كل ما عليك هو دعوة الناس، والجميع سيستجيب. تمامًا كما فعلتَ حين طلبت منهم أن يبيعوا دمهم. باعوا دماءهم لابنك دينغ هوي، رغم أن الجميع يعلم أنَّه كان يستخدم الإبر والمماسح القطنية نفسها مرات ومرات. لا داعي لتذكُّر الماضي الآن... لكن في كل مرة بعتُ فيها دمي، كنتُ أذهب إلى ابنك، سواء كان يستخدم الإبر المستعملة أم لا. بعته كل ما بحوزتي، والآن حين أصادفه في الطريق، لا يتكرَّم حتى بأن يلقي التحية. بالطبع هذا كلُّه من الماضي، ولا فائدة من استذكاره الآن. كلُّ ما أريده منك هو أن تدعو الجميع للمجيء إلى المدرسة حيث سأغني لهم بعض الأغاني. لا أقصد الإلحاح بالحديث في أمور الماضي يا أستاذ، حقًّا لا أقصد. اسمح لي أن أغني بعض الأغاني التقليديَّة بينما أنتظر الدواء الجديد، وإلَّا فإنَّ الحزن سيودي بي قبل أن أرى أيَّ دواء».

لكن ما شيانغ لين بات الآن واقفًا بلا حراك على بعد خطوات قليلة

من جدِّي، يحدِّق فيه كمتسوِّلٍ يريد شيئًا يأكله كي لا يموت جوعًا. من فوق كتف ما شيانغ لين، رأى جدِّي العديد من سكان القرية الآخرين ينظرون إليه بترقُّب. لي سانرين وتشاو شيو تشين وتشاو دي تشيوان. يعرفهم جدِّي جميعًا، ويعلم أنَّهم مصابون بالحمَّى. كما يعلم بالضبط ما جاؤوا من أجله.

أعلنَ بصوتٍ عالٍ:

«الدواء الجديد قد يتوفَّر في أيِّ يوم. شيانغ لين، متى تريد أن تقيمَ حفلك؟».

أشرقَ وجهُ ما شيانغ لين على الفور.

«هذه الليلة. لكني أظنُّ أنَّ الأوان قد فات، فلتكن ليلة الغد. أخبر القرويين أنني سأغنِّي كل ما يحلو لهم، لدرجة أنهم سيطلبون مني الغناء كلَّ ليلة!».

٣

بعد الوداع، توجَّه جدِّي نحو بيتنا. كانت عائلتي تعيش في الشارع الجديد جنوب القرية. بُني الشارع الجديد خلال موجة بيع الدم وهو أحدث شوارع القرية. حالما تصبح ثريًّا من شراء الدم وبيعه، يمكنك أن تنتقل مع عائلتك من مركز القرية إلى الشارع الجديد وتبني بيتًا جديدًا من طابقين، وهو الارتفاع الذي تسمح به لوائح الأنظمة المحليَّة. يُشيَّدُ البيتُ على أحد جوانب قطعة أرض مساحتها قرابة واحد مو[1]، جوانبها

(١) وحدة قياس مساحة تستخدم في شرق آسيا، تعادل ٠٦٦٧, ٠ من الهكتار. (م)

الثلاثة المتبقية مُحاطة بسورٍ من الطوب. كانت كل البيوت مكسوَّة ببلاط من البورسلين الأبيض، والجدران مبنية من الطوب الأحمر. الأحمر والأبيض؛ لونا البهجة والحزن. على مدار العام، فاحَ الحيُّ برائحة الحداثة والثراء. لمسات ذهبيَّة ورائحة كبريتيَّة. كان الشارع بأسره يفوح برائحة الكبريت والطوب والملاط.

قبع بيتُنا وسط كلِّ هذا. ليلَ نهار، عشعشت رائحة الكبريت في أنوفنا وهيَّجت أعيُننا وأثارت غيظ الحسَّاد. أراد الجميع امتلاك بيتٍ في الشارع الجديد، ومَن لم يستطع دفع تكاليفه، كان على استعداد لبيع دمه من أجل ذلك.

هكذا أصيبوا بالحمَّى.

في المجمل، عاش قُرابة عشرين عائلةً في الشارع الجديد. على رأس كلِّ بيت كان ثمَّة تاجر دماء، أو «رأس دم». رؤوس الدم هؤلاء كسبوا أموالًا أكثر من أي شخص آخر، ولهذا السبب تمكَّنوا من تحمُّل تكاليف العيش في الشارع الجديد. انتقلوا إلى جنوب القرية وبنوا بيوتًا جديدة. رؤوس الدم هم مَن جعلوا الشارع الجديد على ما هو عليه.

كان أبي أوَّل تجَّار الدم في القرية وسرعان ما أصبح أثراهم. هذا هو السبب في أنَّ بيتنا المبنيَّ وسط الشارع الجديد مكوَّن من ثلاثة طوابق، رغم أنَّ أنظمة البناء المحليَّة حدَّدت ارتفاع كل بيتٍ بطابقين فحسب. لو حاول أيُّ شخص آخر أن يفعل الشيء نفسه لمنعته الحكومة من ذلك. لكن عندما أضاف أبي طابقًا ثالثًا، لم يمانعْ أحدٌ ذلك.

لم نخطط لبناء بيتٍ من ثلاثة طوابق، على الأقل في البداية. عندما

كان الجميع يعيشون في أكواخ القشّ المبنية من الطوب الطينيِّ، بنى أبي بيتًا بطابق واحدٍ من الطوب والبلاط. وحين بدأ الجميع يبنون بيوتهم من الطوب والبلاط، هدم أبي بيتنا وبنى مكانه واحدًا جديدًا من طابقين. عندما بدأ الجميع ببناء بيوتٍ من طابقين، أضاف أبي طابقًا ثالثًا. عندما حاول الآخرون إضافة طابق ثالث أو بناء بيتٍ جديد مكوَّن من ثلاثة طوابق، تدخَّلت الحكومة قائلة إن لوائح الأنظمة تقتصر على السماح بتشييد المباني المكوَّنة من طابقين في القرى النموذجيَّة.

لكن بيتنا كان مكونًا من ثلاثة طوابق؛ طابق إضافي دونًا عن الجميع.

شأننا شأن معظم سكَّان القرية، كانتْ لدينا حظيرة خنازير وخُمّ دجاجٍ في فناء البيت. بدت هذه الأشياء في غير مكانها، لم تتسق مع التصميم المعماريِّ لبيتنا. حتَّى أقفاص الحمام الموجودة أسفل الأفاريز بدت في غير محلِّها. أثناء تصميم البيت، حاول أبي أن يستنسخ الأسلوب الفاخر للبيوت الغربيَّة التي رآها في مدينة كايفنغ الكبيرة. طلب تبليط الأرضيات بالرخام الأبيض والورديِّ ورَصْف الفِناء بألواح إسمنتية مربَّعة. وبدلًا من مرحاض القرفصاء الخارجي الذي اعتاد الصينيُّون استخدامه منذ مئات وربما آلاف السنين، كان لدينا مرحاض داخليٌّ مصنوع من الخزف الأبيض. لكن والديَّ لم يتأقلما مع التغوُّط بوضعية الجلوس، وانتهى بهما الأمر، على أية حال، إلى بناء مرحاض قرفصاء خلف البيت.

امتلكنا غسَّالةً أيضًا وغرفةً للغسيل، لكن والدتي فضَّلت إخراج حوضها إلى الفِناء للقيام بالغسيل هناك.

كان المرحاض والغسالة للعَرْض فحسب. الأمر سيَّان مع الثلَّاجة والبرَّاد وغرفة الطعام والمائدة. كنا نملك هذه الأشياء في بيتنا فقط لكي نُظهر أننا قادرون على دفع ثمنها. لكن أحدًا منَّا لم يستخدمها.

حين وصل جدِّي إلى بيتِنا في ذلك المساء، وجدَ البوَّابة الأماميَّة مقفلة وأفراد الأسرة جميعهم في الفِناء يتناولون العشاء المكوَّن من الخبز المطهوِّ على البخار وحساء الأرزِّ والمعكرونة واللفت والملفوف. التصقت قطع صغيرة من الفلفل الأحمر بأوراق الملفوف، مما جعل الأمر يبدو كأن أحدهم مزَّق الروزنامة في طبق الحساء. كان والدايَ وأختي جالسينَ على مقاعد منخفضة حول طاولة صغيرة وسط الفناء، يتناولون العشاء، عندما سمعوا طرقًا على البوَّابة وأدركوا أنَّ الطارق جدِّي.

دعته أختي الصغيرة للدخول وأغلقت البوَّابة. سحبت أمي مقعدًا آخرَ وملأت طبقًا إضافيًّا من الحساء. تناول جدي عيدان الطعام، وبدلًا من أن يأكل راح يحدِّق في أبي كأنه غريب. لم يشعَّ وميضُ الدفء في عينَي جدِّي.

نظر أبي إلى جدِّي بالمقدار نفسه من البرودة. غريبان كليًّا.

سأله أخيرًا: «أبي، لماذا لا تأكل؟».

«يا بني، هناك شيء يثقل روحي وأريد أن أقوله».

«هل تنتظر حتى ننتهي من تناول الطعام؟».

«لا، لن أتمكن من بلع لقمة أو إغماض جفن قبل أن أقول ما لديَّ».

أنزلَ أبي طبقَه، ووضع عيدانه على الحافة ورمق جدي بنظرة جانبيَّة.

«لا بأس. تفضَّل!».

«حضرتُ اجتماعًا في المقاطعة اليوم...»، استهلَّ جدي كلامه، فقاطعه أبي قائلًا:

«وأخبروكَ أن الحمَّى هي الإيدز، وأن الإيدز مرض جديد عضال، أليس كذلك؟ من الأفضل أن تتناول عشاءك يا أبي لأن كلَّ ما ستقوله لي أنا أعرفه جيدًا. ثلاثة أرباع سكان القرية يعرفون ذلك، ومعظمهم يتظاهرون بعدم المعرفة».

نظر إلى جدِّي بازدراء. نظرة الطالب لأستاذ يعدُّ امتحانًا في مادَّة أتقنها طلابه منذ فترة طويلة. ثم، متجاهلًا جدِّي، تناول طبقَه وعيدانه وانغمسَ في الأكل.

كان جدِّي مدرّسًا، أو شيئًا من هذا القبيل. لقد أمضى جلَّ حياته يعمل في المدرسة ويقرعُ جرسَها. الآنَ، في عامه الستين، ما زال مُكلَّفًا بصفتهِ الحارس وقارعَ الجرس. أحيانًا، عندما يمرض أحد المعلِّمين أو لا يتمكَّن من إعطاء الدروس لسبب ما، يُستدعَى جدِّي ليحلَّ محلَّه. في هذه الحالات، كان يقضي نصف نهارٍ في تدريس المقاطع الافتتاحيَّة من كتاب «كلاسيكيَّة الأحرف الثلاثة»، التي كان يدوِّنها بخطٍّ دقيقٍ وكبير على السبورة.

كان أبي ذات يوم تلميذًا في صفِّ جدِّي، لكنَّه لم يعد يذعن له باعتباره مُدرِّسًا سابقًا له. استطاعَ جدِّي أن يلاحظ عدمَ الاحترام في عينَي ابنه. بينما كان يشاهد أبي وهو يتناول طبقه ويواصل تناول طعامه، وضع جدِّي طبقه وعيدانه على الطاولة بهدوء.

وبعد صمت طويل، قال:

«بنيَّ، ليس الأمر شاقًّا كأنني أطالبك بالانتحار. أظنُّ فحسب أنَّ عليك الاعتذار أمام القرويين عمَّا فعلته».

حملقَ أبي نحوه.

«لماذا عليَّ أن أفعل ذلك؟».

«لأنَّك كنتَ تاجر الدم».

«هكذا كان كلُّ من يعيش في هذا الشارع».

«لقد ساروا على خطاك. لم يكسب أحدهم أموالًا طائلة من الدم كما فعلتَ أنت».

رمى أبي طبقه بقوَّة وانسكب الحساء على الطاولة. ألقى عيدانه فتدحرجت على سطح الطاولة وسقطت على الأرض. قال محدِّقًا في جدِّي:

«أبي... إن فتحت هذا الموضوع مرة أخرى فلن أعدَّك أبًا لي بعدها. ولتنسَ حينها دعمي لك في شيخوختك. لن أحضر جنازتك حتَّى».

تجمَّد جدِّي محدِّقًا في الطاولة. في نهاية المطاف تكلَّم:

«بنيَّ، إنَّني أتوسَّلُ إليك... أبوك المسنُّ يريدك أن تركع على ركبتيك وتعتذر أمام أهل القرية. هل تأبى القيام بذلك؟»، قال بهدوء.

«أبي، هلَّا غادرتَ»، كاد أبي يصرخ. «إن قلتَ كلمة أخرى فلن أعدُّك أبًا لي بعدها».

«هوي، لستُ أطالبك بالكثير. اعتذار صغير وسنتجاوز كلَّ شيء».

«اخرج»، صرخ أبي. «لستَ أبي ولستُ ابنك!».

تمهَّل جدِّي قليلًا كي يستوعبَ ما قاله أبي.

«مات أكثر من أربعين شخصًا في هذه القرية»، قال وهو ينهض للمغادرة. «هذا يعني أربعين اعتذارًا، أربعين ركعةً. أم أن هذا شاقٌّ عليك؟ هل ستموت إن اعتذرت؟».

بدا جدِّي فجأةً مُستنزَفًا، كأنَّ الجهد الذي بذله لإلقاء هذا الخطاب قد أنهكه. نظر إلى أمي ثم إلى أختي الصغيرة.

«ينغ تزي، تعالي غدًا إلى المدرسة، سأساعدك في تعويض الدروس الفائتة. مدرِّسكِ لن يعود، لذا سأعطي دروسَ اللغة من الآن فصاعدًا».

عندما غادر جدِّي، لم يكلِّف أحد عناء مرافقته إلى الباب. جرَّ خطواته ببطءٍ، ظهره محدودبٌ ورأسه منحنٍ، مثل عنزة جبليَّة عجوز بعد رحلة طويلة مضنية.

الفصل الثاني

١

ثمَّة ثلاثة شوارع في قريتنا. الأوَّل يربط الشرق بالغرب والثاني يربط الشمال بالجنوب. وقبل بناء الشارع الجديد، كان شارعا القرية يرسمان صليبًا مثاليًّا، كالرمز الصينيِّ الذي يشير إلى الرقم عشرة [十]. بعد بناء الشَّارع الجديد، صارت القرية أشبه بصليبٍ وتحته خطٌّ أفقي، كالرمز الصينيِّ الذي يعني أرض [土].

بعد معركته مع أبي، غادر جدِّي الشارع الجديد وتوجَّه إلى بيت عمِّي حيث شرد مفكِّرًا لبرهة قبل أن يقطع ميلًا في طريق عودته إلى المدرسة الابتدائيَّة. كانت المدرسة في الأصل جزءًا من معبد القرية المكرَّس لغوان يو، إله الثروة والحظِّ. يحتلُّ ضريح غوان يو القاعة الرئيسة، أمَّا الصفوف ففي جناح مجاور. اعتاد القرويُّون لعقود من الزمن على المجيء إلى المعبد لحرق البخور والصَّلاة طلبًا للثروة، ولكن عندما بدأ الثراء يأتيهم من بيع الدم، هدموا المعبد. ما عادوا يؤمنون بالإله غوان يو بعد ذلك الحين؛ لقد باتوا يؤمنون ببيع الدم.

بعد أن انصرف القرويُّون إلى بيع الدم، بنوا مدرسة جديدة على رقعة من الأراضي غير المزروعة جنوبيَّ القرية. شيَّدوا جدارًا من الطوب الأحمر وبناءً مدرسيًّا من طابقين يطلُّ على الجهة الشرقيَّة. ركَّبوا الألواح الزجاجيَّة في النوافذ وعلَّقوا لوحات خشبيَّة على أبواب الصفوف: الصف الأوَّل الشعبة الأولى، الصف الثاني الشعبة الأولى، الصف الثالث الشعبة الأولى؛ ولأنَّ القرية كانت صغيرة جدًّا فلم يكن هناك سوى شعبة واحد لكلِّ صف. وضعوا مرمًى لكرة السلَّة في باحة المدرسة ونصَّبوا لافتةً خشبيَّة على البوابة الرئيسة كُتب عليها: «مدرسة قرية دينغ الابتدائيَّة». انتقل جدِّي ليقيم فيها بصفته الحارس الدائم. إلى جانبه، كان هناك مدرِّسان آخران، أحدهما للرياضيات والآخر مدرس لغةٍ. كلاهما شابَّان وعُيِّنا من خارج القرية. المشكلة الوحيدة كانت... أنه عندما اكتشفا انتشار الحمَّى في قرية دينغ، توقَّفا عن التدريس ولم يعودا إلى القرية قطُّ. لقد امتنعا بعنادٍ عن العودة.

هكذا وجد جدِّي نفسه وحيدًا في المدرسة. كان يعتني بالأبواب والنوافذ ذات الألواح الزجاجيَّة، بالمقاعد والكراسي والسبورات. كان جدِّي حارس المدرسة في أيام الحُمَّى البائسة التي اجتاحت القرية والسَّهل.

حتى الآن، وبعد مرور سنوات، ما زال المكان يحتفظ بتلك الرائحة الكبريتية؛ رائحة الحداثة. في ليالي أواخر الخريف، كانت الرائحة المنبعثة من المدرسة أقوى من تلك المنبعثة من الشارع الجديد. لكن جدِّي وجدَ رائحة الكبريت باعثة على الهدوء. لقد كانت تريح ذهنه وتجعله يفكِّر في الأيام المنصرمة.

في تلك الأمسية الخريفيَّة بالذات، حلَّ الغسق وانقشعَ بينما عمَّ الصمتُ أرجاء المدرسة. كان صمتُ السهلِ المُطبِق على هيئة هدوءٍ تسرَّب إلى مبنى المدرسة ثم تصاعد من جديد كالضَّباب. جلس جدِّي عند قاعدة مرمى السلَّة وسط باحة المدرسة ورفع رأسه إلى السماء، متلذِّذًا برطوبة هواء الخريف الذي يلامس وجهه. عندئذٍ فحسب أدركَ أنَّه جائع. وبسبب رحلته إلى المقاطعة لم يكن قد تناول شيئًا تقريبًا خلال ذلك اليوم. كان الجوع يوتِّر أعصابه ويجعله يحسُّ بضيق في صدره. مع كل تألُّم بسبب الجوع، وكلِّ وخزة في أعصابه، كانت كتفاه ترتجفان.

عادت به الذكريات إلى وقت الربيع قبل سنوات عديدة. تراءت أمام عينيه الأحداث، واحدًا تلو الآخر، كأنَّها وقعت بالأمس. كأوراق متبرعمة حديثًا، تجلَّت المشاهد وتبدَّت أمامه بوضوح البَدْر في السماء.

رأى جدِّي كلَّ تفصيل من تفاصيل ذلك الربيع بوضوحٍ تامٍّ، وأدركَ شيئًا.

هبَّة ريح مفاجئة تسببت في حفيف أوراق الأشجار، وذكَّرته بربيع قديمٍ منسيٍّ. حينها، جاء مدير التعليم في المقاطعة، برفقة اثنين من المسؤولين، لحشدِ القرويين كي يبيعوا دماءهم. لم يبلغ الربيع إلَّا منتصفه، لكنَّ القرية كانت قد انغمست بالفعل في دفء الفصل وبحبوحته، في نسيمه المنعش وعطوره اللَّطيفة التي تفوح في الشوارع. كان ذلك إلى أن جاء مدير التعليم للقاء لي سانرين، عمدة القرية، وأخبره أنَّ السلطات قررت تنظيم حملة لبيع الدم بين القرويين.

ظلَّ العمدة عاجزًا عن الكلام لوهلة قبل أن يهتف: «يا إلهي! تريدون من الناس أن يبعوا دماءهم!».

بعد ثلاثة أيام، حين لم يرتِّب العمدة اجتماعًا لحشد أهل القرية، زار مدير المقاطعة قرية دينغ مرة أخرى. بينما كان المدير يدافع عن موقفه، قرفصَ العمدة على الأرض واكتفى بالاستماع وهو يدخِّنُ سيجارةً.

بعد أسبوعين، عاد المدير مجدَّدًا. لم يأتِ هذه المرة للضغط على العمدة بشأن حملة بيع الدم، بل جاء لإقالته.

بعد أربعين عامًا من تولِّيه منصب عمدة قرية دينغ، طُرد لي سانرين.

بعد إعلان قصير، عُقد اجتماع في القرية. جلسَ لي سانرين أثناء الاجتماع فاغرَ الفم، مشدوهًا وعاجزًا عن الكلام. لم يكن الأمر مهمًّا لأنَّ مدير المقاطعة أدار دفَّة الحديث. بعد سيطرته على اللقاء، وجَّه نداءً شخصيًّا إلى القرويين لبيع دمائهم. تحدَّث بإسهابٍ عن الماضي والمستقبل وتطوير «اقتصاد البلازما» وعن الحاجة إلى «صينٍ قويَّة ومزدهرة».

عندما أنهى حديثه، حدَّق المدير بالقرويين الصَّامتين.

«حسنٌ، هل سمعتم ما قلتُه؟ تكلَّموا!»، زمجرَ. «تعلمون أنني لم آتِ إلى هنا كي أسمع صدى صوتي. ما المشكلة أيُّها الناس؟ هل نسيتم آذانكم في البيت؟ هل أكل القطُّ ألسنتكم؟».

صراخُه روَّع الدواجن. بعيدًا عن مقرِّ الاجتماع، ارتعدت الدجاجات ونقنقت. نباحُه روَّع كلاب الصيد. فزَّ كلبٌ، كان مستلقيًا على الأرض بجانب صاحبه، على قوائمه وثارت أعصابه وراح ينبح. هذا بدوره روَّع

صاحبَ الكلب الذي ركل حيوانَه على بطنه وصرخ: «اسكت بحقِّ الرب! اسكت! ما لك تنبح على الذاهب والآتي!».

ركض الكلب متذمِّرًا وذيله يهتزُّ بين ساقيه.

أفرغ مدير المقاطعة ما في جعبته وارتمى على كرسيِّهِ متعبًا. بعد برهة، غادر قاعة الاجتماع وذهب إلى المدرسة قاصدًا جدِّي.

لم يكن جدِّي مدرِّسًا رسميًّا، لكنَّه كاد أن يصبح واحدًا. كان بلا شكٍّ الأكبر سنًّا هناك. عندما كان صبيًّا، حفظ كتاب «كلاسيكيَّة الأحرف الثلاثة»، وبمقدوره أن يسرد «كتاب الألقاب» وأن يحسب تواريخ الميلاد والحظوظ وفقًا للتقويم القمريِّ لسلالة يوان. بعد الثورة الشيوعيَّة، كان هناك حملة واسعة لمحو الأميَّة في الأرياف. افتتحت السلطات مدرسة صغيرة في معبد القرية وأصبح جدِّي مدرِّسًا فيها. أوَّل شيء فعله هو تعليم الطلاب قراءة كل الأسماء الواردة في «كتاب الألقاب»، ثم علَّمهم كيفيَّة رسم الأحرف على التراب باستخدام العصي. وبعد أن قرر المسؤولون جمع كلِّ الطلاب من قرية دينغ وضيعة الصفصاف وقرية الينبوع الأصفر وقرية تو-لي في مدرسة المعبد، أرسلوا مدرِّسًا مؤهَّلًا حلَّ مكان جدِّي ودرَّس المنهج الجديد المكوَّن من: «كلاسيكيَّة الأحرف الثلاثة المنقَّحة» والشعر الصينيِّ والتربية المدنيَّة (وطنُنا هو جمهوريَّة الصين الشعبيَّة وعاصمتها بكين). بعد أن توقَّف جدِّي عن التدريس تولَّى منصبَ الحارس. كان يقرع جرس المدرسة ويعتني بالأرض ويحمي المعبد من السرقة.

استمرَّ الحال على هذا المنوال لعقود. بينما تقاضى المدرِّسون العلاوات والمكافآت، تمثَّلَ التعويض الذي حصل عليه جدِّي بالفضلات المجمَّعة

من مراحيض المدرسة لاستخدامها في تخصيب حقول عائلتنا. عامًا تلو آخر، عقدًا تلو آخر، اعتنى جدِّي بالمدرسة وعُومل كمدرِّس، على الأقل من قبل القرويين. أمَّا المدرسة، حين كان الأمر يتعلَّق بدفع الرواتب، فلم تعامل جدِّي كمدرِّس. فقط في بعض الظروف التي تناسبهم؛ كأن يحدث شحٌّ في عدد المدرِّسين أو حين يحتاجون شخصًا ما لإعطاء بعض الدروس، سرَّهم استدعاؤه بديلًا.

بعد ظهر ذلك اليوم، حين وصل مديرُ المقاطعة إلى المدرسة، كان جدِّي في الخارج يكنسُ الباحة. احمرَّ خجلًا عندما أدرك أنَّ المدير قد جاء للقائه شخصيًّا وألقى مكنسته جانبًا وسارع لاستقباله. لدى رؤيته المدير واقفًا عند بوابة المدرسة، امتقع وجه جدِّي بلونٍ غامق كظلال الخريف.

«مرحبًا أيُّها المدير! تفضَّل للجلوس».

«لا وقتَ للجلوس يا أستاذ دينغ... لقد صدرت الأوامر لكلِّ لجان الإقليم بالذهاب إلى القرى وإقناع المزارعين ببيع دمائهم. خُصصت إدارتي بخمسين قرية. ولهذا السبب أنا هنا اليوم. عقدت اجتماعًا لحشد القرويين، ولكن قبل أن أتمكَّن من قول بضع كلمات واجهتُ بعض العقبات».

«هل قلتَ بيع الدم؟».

«أنت تحظى باحترام كلِّ من في القرية، والجميع يجلُّونك»، قال المدير. «وبما أن قرية دينغ بلا عمدة في الوقت الحالي، فقد حان الوقت لكَ كي تعتلي الصهوة».

«يا إلهي! تريدهم أن يبيعوا دماءهم؟».

«صدرت الأوامر لإدارة التعليم بتجهيز خمسين قريةً كمراكز لجمع بلازما الدم. قرية دينغ واحدة من هذه القرى. إن أنتَ لم تأخذ زمام المبادرة في هذا الأمر، فمن تراه سيفعل؟».

«ولكن، بحقِّ الرب، أنت تريد من الناس أن يبيعوا دماءهم؟».

«أنتَ رجل متعلِّم يا أستاذ دينغ. لا بدَّ أنك تعرف أنَّ دم الإنسان يشبه ينبوعًا طبيعيًّا: كلَّما نهلتَ منه تدفَّق أكثر فأكثر».

وقف جدِّي أمام المدير، واللَّون يتلاشى من وجهه.

ما كان قرمزيًّا كظلال الخريف بات الآن قاحلًا كسهلٍ في الشتاء.

تابع المدير: «هل لي أن أذكِّرك يا أستاذ دينغ بأنَّك حارس هذه المدرسة وقارع جرسها، ولست مدرِّسًا. لكن في كلِّ مرة كنت تُرشَّح كمعلِّم نموذجيٍّ، كنتُ أوقِّع بالموافقة على الفور. وباعتبارك معلِّمًا نموذجيًّا، حظيتَ بشهادات تقدير ومكافآت نقديَّة. الآن أوكلُ إليك مهمَّة صغيرة وتأبى تنفيذها. هل تحاول أن تظهر لي الجحود والنكران؟».

وقف جدِّي عند بوَّابة المدرسة صامتًا. راح يتذكَّر أنه كل عام عندما يحين وقت ترشيح المعلِّم النموذجيِّ كان مدرِّسا الرياضيات واللغة يتنافسان على هذا الشرف. كانت المنافسة شرسة جدًّا بينهما لدرجة أنه لم يكن هناك إجماع على أحدهما، لذلك رشَّحته إدارة المدرسة بدلًا منهما. بعد موافقة مدير المقاطعة، استُدعيَ جدِّي لاستلام شهادة التقدير والمكافأة النقديَّة. ورغم أنَّ المكافآت لم تكن مجزية كثيرًا، حيث كانت تكفي لشراء كيسين من الأسمدة الكيميائيَّة، لكنَّه لا يزال يحتفظ بشهادات التقدير ذات اللون الأحمر الزاهي معلَّقة على جدران بيته.

«لقد أقامت المقاطعات الأخرى ما لا يقلُّ عن سبعين أو ثمانين قرية كمراكز لجمع بلازما الدم. فإن لم أتمكَّن من إقامة أربعين أو خمسين مركزًا، سأفقدُ وظيفتي»، توسَّل المدير.

لم يحر جدِّي جوابًا. في أثناء ذلك، انسلَّ الطلَّاب من صفوفهم محدِّقينَ في جدِّي والمدير، وتزاحمتْ رؤوسهم عند أبواب المدرسة وعتبات نوافذها.

راقبَ المعلِّمان اللذان لم يحظيا قطُّ بلقب المدرِّس النموذجيِّ المشهدَ عن بعد، تعلو وجهيهما تعبيراتٌ غريبة. بدا كلاهما متشوِّقًا للتحدُّث مع المدير، لكنَّه لم يعرْ انتباهًا لوجودهما.

الشخص الوحيد الذي كان المدير مهتمًّا به هو جدِّي.

«أستاذ دينغ، لستُ أطالبك بالكثير. ما عليك سوى أن تخاطب القرويين وتشرح لهم أن بيع الدم فرصة لا تعوَّض. أخبرهم أن دم الإنسان يشبه ينبوعًا طبيعيًّا: كلَّما نهلتَ منه تدفَّق أكثر فأكثر. هذا كل ما عليك قوله، بضع كلمات فحسب، بالنيابة عنِّي وعن إدارة التعليم. هل ستسدي لي هذه الخدمة؟».

«لا بأس... سأحاول»، تمتم جدِّي أخيرًا.

«بضع كلمات فحسب، هذا كل ما أريده منك».

قرع جدِّي الجرس مشيرًا لعقد اجتماع في ساحة القرية. ذكَّره مدير التعليم بأن يكون خطابه موجزًا ومركَّزًا على الموضوع: دم الإنسان يشبه ينبوعًا طبيعيًّا: كلَّما نهلتَ منه تدفَّق أكثر فأكثر... إلى آخره.

وقف جدِّي تحت شجرة الصفيراء وسطَ القرية وحدَّق طويلًا في

القرويين المتجمهرين قبل أن يبدأ حديثه قائلًا: «اتبعوني إلى مجرى النهر، أريد أن أريكم شيئًا».

بمنتهى الطاعة، تبع القرويُّون جدِّي إلى مجرى النهر شرق القرية. كان جافًّا رغم الأمطار الأخيرة. من سوء حظِّ قرية دينغ أنَّها واقعة على طول المجرى القديم للنهر الأصفر، وحين غيَّر النهرُ مساره، انحسرت المياه عن قرية دينغ والقرى والضيع المجاورة وباتت جافَّة وظمأى. والحالُ هذه منذ زمن بعيد. منذ مئات بل آلاف السنين. في الوقت الحاضر، تتجمَّع المياه القليلة في هذا المجرى من أمطار الربيع.

حاملًا مجرفةً في يده، قاد جدِّي الموكب. تبعه مدير التعليم واثنان من المسؤولين لحق بهم القرويُّون.

حين وصل جدِّي إلى مجرى النهر، بحث حوله عن بقعة رطبة من الرمل وفركها بين يديه وبدأ يحفر حفرة صغيرة. سرعان ما امتلأت الحفرة بالماء حتى منتصفها. أخرج جدِّي وعاءً خزفيًّا مكسورًا وراح يغرف الماء من الحفرة ويسكبه على الرمل. كان يغرف مرارًا وتكرارًا ويسكب وعاءً من الماء تلو الآخر على الرمل. بمجرَّد أن جفَّت الحفرة كما يبدو توقَّف جدِّي. وفي غضون لحظات، بدأ الماء يتسرَّب وامتلأت الحفرة بالمياه مجدَّدًا.

كلَّما نهلَ منها تدفَّق فيها الماء أكثر فأكثر. كما قال المدير بالضبط.

رمى جدِّي الوعاء فوق الرمل ونفض الغبار عن يديه.

سأل وهو يرمق القرويين من حوله: «هل رأيتم ذلك؟ ماء النهر لا ينفد. كلَّما نلهتَ منه تدفَّق أكثر فأكثر».

رفع صوتَه.

«وكذلك هو الدم. الدم يجدِّد نفسه دائمًا. كلَّما نهلتَ منه تدفَّق أكثر فأكثر».

أشاح جدِّي بنظره نحو مدير المقاطعة.

«إنَّهم ينتظرونني في المدرسة. إن لم أكن هناك لقرع الجرس، فلن يعرف الأطفال متى ينتهي الدرس».

المدير، الذي لا يهمُّه إن عرف الطلاب موعد نهاية الدرس أم لم يعرفوا، نظر إلى جدِّي أولًا ثم إلى القرويين.

«هل فهمتم الآن؟»، زمجرَ. «ماء النهر لا ينفد، ولذلك لن تستنفدوا دمكم إن بعتموه! الدم كينبوع المياه. هذه حقيقة علميَّة بديهيَّة!».

تابع المدير راكلًا الوعاء المرمي في الرمل:

«بمقدوركم أن تصبحوا أثرياء أو أن تظلُّوا فقراء. القرار بأيديكم. يمكنكم أن تسلكوا الدرب الذهبيَّ نحو الثروة والرخاء أو أن تختاروا عبور الجسر الوعر الذي سيرميكم في مزيد من البؤس والفقر المدقع. قرية دينغ هذه أفقر قرى المقاطعة. أنتم فقراء لدرجة أنَّكم لم تسمعوا في حياتكم صوت احتكاك قطعتين نقديتين ببعضهما... عودوا إلى بيوتكم وفكِّروا برويَّة؛ أتطمحون للثروة أم تفضِّلون الفقرَ!».

وأكمل:

«فكِّروا برويَّةٍ... هناك، في أماكن أخرى في المقاطعة، يبيعون الدم بكلِّ حماسة. مبانٍ من عدة طوابق تُبنى في القُرى الأخرى. لكن بعد

عقودٍ من التحرير، بعد عقود من الاشتراكية وعقود من قيادة الحزب الشيوعيِّ، فكل ما بوسعك أن تراه في قرية دينغ هو صفوف الأكواخ المسقوفة بالقش!».

قال هذه الكلمات ثمَّ انصرف.

غادر جدِّي بمفرده.

تفرَّق القرويُّون وعادوا إلى بيوتهم. الثراء أو الفقر؛ الأمر متروك لهم وحدَهم.

مع حلول الغسق، صارَ مجرى النهر الجافِّ قاتمًا ومقفرًا. غمرتْ أشعة الشمس الغاربة التربة الرمليَّة، تاركةً بقعًا بلون أحمر وخمريٍّ تشبه الدم المتخثِّر. فاحت رائحة البراعم الخضرِ المنعشة واصلةً من حقول القمح البعيدة وتدفَّقت عبر الرمال كالماء، تاركةً تموُّجات لامرئيَّة على الشاطئ.

أبي، الذي بقي بعد أن غادر الآخرون، راح يتسكَّع عند مجرى النهر، بجوار الحفرة التي حفرها جدِّي. لقد حدَّق في تلك الحفرة طويلًا. أخيرًا، انحنى وغرف بيديه المتلاصقتين وراح يشرب ويرذُّ الماء على وجهه ويضحك.

أدخلَ يديه في الحفرة وأخذ يحفر، محوِّلًا الحفرة شبه الجافَّة إلى ينبوع حيٍّ. بقبقَ الماء على حافة الحفرة وفاض على الرمل الظامئ. انجرف عود مكسور، كان عالقًا في دوَّامة المياه، بعيدًا.

جلس أبي، ذو الثلاثة والعشرين عامًا، القرفصاء وضحك.

٢

لم يخلد جدِّي إلى النوم إلَّا بعد منتصف الليل.

رأى حلمًا. في الحلم، عادت إليه صور بيع الدماء مع ريح الليل. لقد رأى بوضوح مسيرة الحمَّى بكلِّ تفاصيلها. رأى تجارة الدماء بكلِّ تفاصيلها. رأى السبب والنتيجة بوضوح تامٍّ: فما تزرعه في الربيع، ستحصده في الخريف، وأنت لا تحصد إلَّا ما قد زرعتَه.

ينام جدِّي في مبنى من الطوب مكوَّن من غرفتين بجوار بوَّابة المدرسة. لم تحتوِ الغرفة الداخليَّة من الأثاث سوى سريرٍ ومكتبٍ. ضمَّت الغرفة الخارجيَّة موقدًا بسيطًا وكراسي وأطباقًا وعيدانَ طعام وحوضًا ولوح تقطيع. كان الحفاظ على ترتيب هاتين الغرفتين هو الشغل الشاغل لجدِّي. فقبل النوم، كان يجمِّع الكراسي قرب الحائط ويرتِّب الأطباق والعيدان على لوح التقطيع ويخزّن دلاء مياه الشرب تحت الموقد. في الغرفة الداخليَّة، أزال قطع الطباشير المكسورة ووضعها في صندوق في الزاوية العلويَّة اليمنى للمكتب. جمع أكوام الكتب المدرسيَّة القديمة ودفاتر الواجبات البيتيَّة وأودعها في أدراج المكتب. اعتقدَ جدِّي أنَّه إذا تمكَّن من الحفاظ على بيته منظَّمًا، بوجود كلِّ شيء في مكانه، فبمقدوره أن يحافظ على تنظيم أحلامه وترتيبها على السواء. في الصباح، عندما تشرق الشمس ويفتح جدِّي عينيه، تلازمُه أحلامُ الليلة الفائتة، حقيقيَّة تمامًا كسويقات القمح في حقلٍ أو كحبَّات الفاصولياء على النبتة المتعرِّشة. بلا نسيانٍ لأيَّة كلمة، بلا فقدان لأيِّ تفصيل.

كل ليلة، قبل النوم، يرتِّب جدِّي بيته. وكل ليلة، تكون أحلامه مرتَّبة ومنظَّمة كدفتر واجبات تلميذ مجتهد.

في أحلامه، رأى بوضوحٍ تامّ الأحداث التي قادت إلى بيع الدم.

في أحلامه، فهم أخيرًا كلّ شيء.

ضاربين بمطارقهم الأرض، ركَّبوا أوَّل محطة لجمع الدم في قرية دينغ، وهي عبارة عن خيمة قماشيَّة خضراء داكنة تنبثق من التراب مثل حبَّة لفتٍ خضراء طازجة. أشارت الحروف الحُمر المرسومة على لافتة خشبيَّة خارجَ الخيمة إلى أنَّها بنك الدم التابع لمستشفى المقاطعة. ولكن في اليوم الأوَّل لم يأت أيٌّ من القرويين لبيع دمه. حدث الأمر نفسه في اليوم الثاني. وفي اليوم الثالث، ظهر مدير التعليم في المقاطعة بسيارته الجيب عند بوَّابة المدرسة. كان بحوزته بعض الأشياء التي يريد قولها لجدِّي.

«أستاذ دينغ، سيطردني حاكم المقاطعة إن لم أشغِّل محطة الدم هذه. ماذا تقترح أن نفعل؟ لستُ أقصد وضعك في موقف حَرِج يا أستاذ دينغ. لقد أمرتُ بتسيير شاحنات غدًا لنقل بعض أهالي قرية دينغ في جولة بمقاطعة تساي. إنَّها أغنى مقاطعات خنان، ونموذج يُحتذى به في الإقليم برمَّته. كل ما أريدك أن تفعله هو تعيين فرد واحد من كلِّ أسرة للانضمام إلى الجولة».

وتابع:

«سنمنح كل واحد منهم إعانةَ سفر مقدارها عشرة يوانات يوميًّا، ليس هذا فحسب، بل سنمرُّ أيضًا عبر عاصمة الإقليم، وسنتوقف

لمشاهد برج السابع من فبراير الشهير[1]، وسوق يا شي يا الكبير... آسف يا أستاذ دينغ، ولكن إن لم تساعدني في تنظيم هذا الرحلة، فلن تحتاج إلى قرع الجرس في هذه المدرسة بعد الآن، لأنَّ قرية دينغ لن يبقى لديها مدرسة».

بعد قول هذه الكلمات، صعد مدير التعليم على متن سيارته وانطلقَ إلى القرية التالية الموجودة على قائمته. قطعتْ السيارة المسافات بسرعة كبيرة، بينما كان محرِّكها يصدر هديرًا هادئًا، بخلاف الجرَّارات الصاخبة المدوِّية عبر السهل. وقف جدِّي عند بوَّابة المدرسة وحدَّق في سحب الدخان التي خلَّفتها السيارة في أعقابها. امتقع وجهه. لطالما سمع بأنَّ مقاطعة تساي، الواقعة في ناحية أخرى من خنان، بحالة مزرية. كيف، بحقِّ الرب، أصبحت نموذجًا يحتذى به في الثراء على مستوى الإقليم برمَّته؟

بعد مغادرة مدير التعليم القرية، لم يكن أمام الجدِّ خيار سوى الذهاب من بيت إلى آخر ومحاولة انتداب فردٍ من كل عائلة للاجتماع في وقت باكر بسوق القرية وانتظار الشاحنات التي ستقلُّهم إلى مقاطعة تساي.

«هل حقًّا سيحصل كلُّ واحد على عشرة يوانات في اليوم؟»، سأله القرويُّون.

«هذا ما قاله المدير، وهو رجل لا يخلف كلمته»، أجابهم جدِّي.

«وفي طريق عودتنا إلى القرية، هل سنقوم حقًّا بجولةٍ في العاصمة؟».

---

(١) يقع هذا البرج في مدينة تشنغ تشو، عاصمة خنان، وهو إحياء لذكرى إضراب السابع من فبراير عام ١٩٢٣ الذي قمعه أمير الحرب وو بي فو بوحشية. (م)

«هذا ما قاله المدير، وأنا أثقُ بأنَّه رجل لا يخلف كلمته»، قال جدِّي متنهِّدًا.

هكذا جرت الأمور. مثلما كان المزارعون يخصِّبون حقولهم كلَّ ربيع استعدادًا لحصاد الخريف، مهَّدت هذه الرحلة الطريق أمام سكَّان قرية دينغ للبدء في بيع دمائهم. كلَّما رأى جدِّي تلك الجولة ضمن مقاطعة تساي في أحلامه، امتلأتْ عيناه بالدموع وتقلَّب في سريره وتنهَّد.

تبعد مقاطعة تساي شيان ما يزيد عن مئة وخمسين كيلومترًا عن وي شيان. رغم أنَّ أهل القرية انطلقوا في الشاحنات باكرًا، لكنهم لم يصلوا إلى وجهتهم إلَّا بحلول الظهيرة. كانت وجهة رحلتهم قرية تسمَّى شانغ يانغ، وبمجرَّد دخولهم إليها شعروا بأنهم يطؤون الجنَّة. اندهش القرويُّون عندما رأوا على جانبي الطريق الرئيس بيوتًا حديثة مكوَّنة من طابقين ومبنيَّة من الطوب الأحمر والبلاط. كانت صفوف البيوت مرتَّبة ومتناسقة كأنَّ أحدهم قد رسمها على الورق باستخدام المسطرة. ثمَّة زهور عند كل مدخل، وأشجار في كلِّ فناء، وطرق إسمنتية واسعة. على الجدار الخارجي لكلِّ بيتٍ ثمَّة لوحة مربعة ذات حدود حُمرٍ عليها ثلاث أو أربع أو خمس نجوم ذهبيَّة لامعة. كانت لوحات النجوم الخمس مخصَّصة لأولئك الذين برعوا في بيع دم، أو ما سُمِّي بـ«الأسر المتفوِّقة في التبرُّع بالدم». مُنحت لوحات النجوم الأربع للأُسَر الوصيفة، ولوحات النجوم الثلاث للأسر ذوات المساهمة المتوسطة.

اصطحب مدير المقاطعة زوَّاره في جولة من بيتٍ إلى آخر. لم يتخيَّل أحدٌ من أهل قرية دينغ أنَّ قريةً يمكن أن تبدو كمدينة كبرى. فحتَّى

الشوارع كانت تحمل أسماء فخمة: شارع الشروق، جادَّة التناغم، شارع الازدهار، درب السعادة. على كل باب لافتة كُتب عليها اسم الشارع ورقم البيت بوضوح. لا وجودَ لحظائر الخنازير وخمم الدجاج في الساحات، بل جُمعت خارج القرية وأُحيطت بجدران منخفضة من الطوب الأحمر النظيف.

داخل البيوت، بدت الأجهزة والمفروشات بترتيب موحَّد: البرَّادات على يسار البهو، التلفزيونات مقابل الأريكة في غرف المعيشة، والغسَّالات في الحَمَّام بجوار المطبخ. كانت إطارات النوافذ والأبواب مصنوعة من الألمنيوم الجديد اللمَّاع. الصناديق والخزائن ودواليب الملابس مطلية باللون الأحمر ومذهّبة. كانت الأسرَّة مكدَّسة بألحفة الحرير والساتان والملاءات الصوفيَّة، وكل الغرف تفوح برائحة طيبة.

تولَّى مدير التعليم قيادة الجولة. تبعه أبي عن كثب، وكان أهالي قرية دينغ في الخلف.

في الشارع، صادفوا مجموعة من نساء القرية المثرثرات والمقهقهات، يحملن حزمًا من الخضراوات الطازجة وأكياس الأسماك واللحوم. وعندما سأل القرويّون النساء عمَّا إذا كنّ قد خرجن للتسوُّق، أجابت النساء بأنّه لا حاجة للتسوُّق، لأنَّ لجنة القرية تقدّم المواد الغذائيَّة مجّانًا. وما عليك سوى الذهاب إلى مقرِّ اللجنة وأخذ ما تحتاجه كل يوم. إن كنت تريد السبانخ أو الملفوف أو الثوم فما عليك إلا أن تتناول بعضًا منها عن الرفّ. إذا أردت لحم الخنزير، فهاكَ شريحة من كشك الجزَّار. وإذا أردت السمك، فإليك ما تريد من البركة العامَّة.

حدَّق الزوَّار في أعين النساء غير مصدّقين، وساورتهم شكوك أشدّ غلاظة من أسوار المدينة. «حقًّا؟ هذا ليس حقيقيًّا بالتأكيد»، تساءل أبي. بدت كلماته مسيئة للنساء، وما كان منهن إلا أن حدّقن ببرود إليه وإلى القرويين الآخرين ثم استدرن وغادرن بلا أيّة كلمة أخرى. كان لديهنّ أشياء أهمّ لفعلها بدلًا من التحدّث مع مجموعة من المتخلِّفين الريفيين. بينما سِرنَ بعيدًا، استدرنَ لإلقاء نظرات اشمئزازٍ نحو أبي.

للحظة، وقفَ مذهولًا وسط ذلك الشارع النظيف والمنظَّم بشكل جيّد. وبعدها، حين رأى امرأة أخرى في منتصف العمر، محمّلة بأكياس السمك والخضراوات، ركض واستوقفها.

«مرحبًا! هل حقًّا حصلتِ على كل هذا الطعام مجّانًا؟»، قال لاهثًا.

رمقت المرأة أبي بنظرة متشكّكة.

«أعني: مَن يدفع ثمن كل هذه الأسماك واللحوم؟ من أين يأتون بكل هذا المال؟».

على سبيل الإجابة، شمّرت المرأة كمَّها، وكشفت عن بقعة من علامات وخز الإبر على ساعدها. كلُّها مثل حبَّات السمسم الصغيرة الحمراء بالحجم واللون. قالت وهي تنظر إلى أبي شزرًا:

«إذا كنتَ هنا في جولة، فلا بدّ أنك تعرف ذلك بالفعل... نحن القرية النموذجيَّة في بيع الدماء على مستوى الإقليم، على مستوى الإقليم بأكمله. ألا تعرف بأنَّ الجميع هنا يبيع دمَه؟».

حدَّق أبي في الوخزات الصغيرة على ذراع المرأة. وحين بدأ الصمت يكتسب طابعًا مُحرِجًا رفع نظره وسألها: «هل هذا مؤلم؟».

ضحكت المرأة.

«أشعر بحكّة طفيفة حين يهطل المطر، ليست أكثر من لدغة نملة».

«هل تشعرين بالدوار وأنت تبيعين الدم كل يوم؟».

نظرت المرأة إلى أبي ذاهلة.

«مَن قال إننا نبيع كل يوم؟ لا، تقريبًا مرّة كل عشرة أيام إلى أسبوعين. وإن لم تبع على هذا المنوال على الأقل، ستتورّم عروقك. يصبح الأمر كأنك ممتلئ بالحليب ولست قادرًا على إرضاع طفلك».

بعد أن أشبع القرويون فضولهم، سمحوا للمرأة بمواصلة طريقها. لقد شاهدوها تدخل مشترياتها إلى بيتها ذي الرقم ٢٥، في شارع الشروق.

تفرَّق الزوَّار وتجوَّلوا في أزقَّة القرية وحدّقوا باندهاش في البيوت المكوَّنة من طابقين التي تصطفُّ على جانبي كل شارع واكتشفوا حظائر الخنازير وخم الدجاج. زاروا روضة الأطفال ذات الأسقف الخُضر، والمكسوَّة بالبلاط الأحمر، وأبدوا إعجابهم بالمدرسة الابتدائيَّة الجديدة النظيفة جدًّا. ذهبوا أينما أرادوا، وطرحوا كلّ سؤال خطر لهم، وعبرّوا عن دهشتهم أمام هذه القرية الشبيهة بالجنَّة؛ النموذج الذي يحتذى به في المقاطعة والإقليم، والتي لم تكن لتصبح على هذا النحو لولا بيع الدم.

تقع محطّات الدم في المقاطعة عند مفترق طرق القرية. بدت كل واحدة كمستشفى، مع شعار الصليب الأحمر فوق المدخل والأطباء المرتدين معاطفَ بِيضًا يجولون في الداخل. قضى الأطباء اليوم بأكمله في سحب الدم وفحصه وتصنيفه إلى زمر. وفي النهاية، كانت تُجمع البلازما

في أكياس وزجاجات كبيرة جرى تعقيمها وإحكام إغلاقها ومعالجتها قبل شحنها إلى أماكن أخرى.

بعد أن زار أبي محطّات جمع الدم، رافق مجموعة من شباب القرية إلى نادٍ اجتماعيّ في شارع الازدهار وهو أوسع شوارع القرية. كان النادي مكتظًّا بالشباب الذي تتراوح أعمارهم بين المراهقة ومنتصف الثلاثينيات. كلّهم يبدون في حالة معنويَّة عالية، وجوههم تتوهّج بوهجِ الصحة التامّة. بعضهم يلعب البوكر أو الشطرنج، بينما كان آخرون يقرؤون الكتب أو يقصقصون البذور وهم يشاهدون التلفزيون. تفاجأ أبي برؤية بعض الرجال يلعبون كرة الطاولة، ففي ذلك الوقت كانت كرة الطاولة رياضة نادرة ولا توجد عادة إلا في المدارس أو صالات الألعاب الرياضيَّة في المدن الكبرى.

في ذلك العام، كان الطقس دافئًا على غير العادة. ورغم أنَّ الربيع في منتصفه فحسب، فقد انتهى رجال القرية من أعمال الزراعة لفصل الربيع وما كان لديهم شيء يفعلونه سوى الترويح عن أنفسهم في النادي. مغمورين بحماسة ألعاب الورق ومباريات الشطرنج ومسابقات كرة الطاولة، كانوا يرفعون قمصانهم ويلوّحون بأذرعهم ويصرخون بهتافات التشجيع أو ببعض الألفاظ النابية المُلطَّفة. لاحظ أبي أن كل هؤلاء الشباب الأصحّاء، شأنهم شأن النساء اللواتي التقى بهنّ في الشارع، سواعدهم مثقوبة بآثار الإبر. كشفت كل ذراع عارية عن بقعة من النقاط الصغيرة الشبيهة بحبات السمسم الحمراء الداكنة التي تُركت لتجفَّ تحت الشمس.

بعد برهة، غادر أبي النادي برفقة أصدقائه. وقفوا معًا على امتداد الشارع الإسمنتيِّ الواسع مستمتعين بأشعة الشمس، متلذّذين برائحة القرية ودفئها. لقد شمّروا أكمامهم وعرّضوا سواعدهم لشمس الظهيرة اللاذعة. جنبًا إلى جنب، كانت أذرعهم العارية والمسمرَّة تشبه صفًّا من ثمار الجزر المنتفخة المعروضة على كشك بائع الخضراوات. لفحت الحرارة جلودهم، وملأت الهواء برائحة أجسادهم المتعرِّقة والكريهة على نحو غامض. طفت روائح متمازجة على الطريق مثلما يطفو الطمي على مياه النهر.

نظر الزوّار إلى أذرعهم الناعمة والخالية من الندوب وهتفوا: «يا لحماقتنا حين أضعنا على أنفسنا كل هذا!». ربّتوا على عروقهم غير المستثمرة وتمتموا: «يا إلهي، دعونا نبيع دماءنا. ما الذي سنخسره؟».

صفعوا أذرعهم وقرصوا عروقهم حتَّى صار الجلد مسودًّا ومزرقًّا، مرقَّشًا كقطعة من لحم الخنزير المليئة بالدهون، وفكَّروا: «سحقًا لكِ أيتها القرية... هل تظنِّين نفسك أفضل من قريتنا؟ هل تظنين أن دماء أبنائك فقط تعادِلُ وزنها ذهبًا؟».

٣

هكذا بدأ سكَّان قرية دينغ يبيعون دماءهم. ما بدأ كقطرات متفرِّقة سرعان ما أمسى سيلًا جارفًا. سرعان ما اندلعت موجة بيع الدم.

في هذه القرية التي يبلغ عدد سكانها ثمانمئة نسمة، ظهرت عشرات المحطّات لجمع الدم بين عشيَّة وضحاها. شاركت في هذا العمل

كل المؤسسات الحكوميَّة تقريبًا: مستشفى المقاطعة ومستشفى القرية والصليب الأحمر الصيني والمستشفى البيطري ومركز تربية الماشية وإدارة الإعلام والتعليم وإدارة شؤون القرية، ومنظمة الحزب وغرفة التجارة وقوات الشرطة وحتّى الحامية المحليَّة لجيش التحرير الشعبي الصيني كان لديها بنوك للدم. كل ما تطلّبه الأمر هو تثبيت لافتة خشبيَّة مكتوب عليها بضعة أحرف بخطٍّ اليد والعثور على ممرضتين ومحاسب وبعض المعدّات الطبية لتكون محطة جمع الدم جاهزة للانطلاق.

افتُتحت بنوك الدم في سوق القرية وعند مفترق طرقها وفي الغرف الفارغة ضمن البيوت الخاصَّة. افتُتحت حتّى في حظائر الأبقار بعد تهيئتها. كان المالكون، ببساطة، ينظّفون الأرضيَّات والجدران ويضعون ألواحًا خشبيَّة فوق أحواض العلف لصنع الطاولات وتعليق قوارير جمع الدم على العوارض. بهذا، إلى جانب بعض المعدَّات الأساسيَّة كالإبر والمحاقن والأنابيب البلاستيكيَّة وزجاجات الكحول والقوارير، كانوا على أهبة الاستعداد للبدء في شراء الدم وبيعه.

في جميع أنحاء القرية، كانت الأنابيب البلاستيكيَّة المملوءة بالدماء معلَّقة كعرائش الكرمة وزجاجات البلازما تتدلَّى كعناقيد العنب الأحمر المكتنزة. أينما تنظر تجد قوارير ومحاقن زجاجيَّة مكسورة، كرات قطنيَّة مهملة، إبرًا مستعملة، وبقعًا من الدم المتخثِّر. تدلَّت زجاجات جمع البلازما وتصنيفها من العوارض الخشبيَّة وتناثرت على أسطح المقاعد والطاولات. طوال اليوم، كانت الرائحة الواخزة للدم الطازج معشعشة في الهواء.

استنشقت أشجار القرية، الماهوجني الصينيّ والدردار والپولونيا، هذا الهواء نفسه، وبدأت أوراقها ولُحِيُّها تصطبغ بلون أحمر باهت. في الماضي، كانت أوراق أشجار الصفيراء ناعمة ورقيقة، بلونها المصفرّ الشاحب وخيوطها البنيَّة المخضرَّة. أمَّا هذا العام، كانت الأوراق المتبرعمة حديثًا مشوبة بلون ورديّ وعروق أرجوانيَّة بنيَّة. جمع المستشفى البيطري، الذي أقام بنك الدم الخاصّ به تحت شجرة صفيراء عند الطرف الغربيّ من القرية، كميات كبيرة من الدم لدرجة أنَّ أوراق الشجرة سرعان ما تخضّبت بلون برتقاليٍّ محمرٍّ، وأصبحت أكثر نضجًا واكتنازًا ممَّا كانت عليه في السنين السابقة.

كلاب القرية التي أثارتها رائحة الدم قضت الأيَّام بطولها تتنشَّق الهواء وتخدش أبواب بنوك الدم. في بعض الأحيان كان أحد الكلاب يتمكَّن من الدخول ويلتقط بفكّيه بعضًا من القطن المتشرِّب بالدماء قبل أن يُطَرد. بعد ذلك، كان يعود الكلب إلى مخبئه كي يقضم غنيمته ويبتلعها.

عجَّت القرية بالأطباء والممرِّضات ذوي المعاطف البِيض. بدا أنَّهم يعملون بلا استراحة، وتصبَّبت جباههم بالعرق، راكضين جيئة وذهابًا كالمتسوِّقين في مهرجانات المعبد. أمضوا أيامهم في سحب الدم وتوزيع لصاقات القطن المعقَّم، طالبين إلى الناس أن يظلُّوا ضاغطين القطنة على أذرعهم خمس دقائق على الأقل. «اضغط لخمس دقائق... اضغطي لخمس دقائق...». كرَّر الأطباء والممرِّضات هذه العبارة كثيرًا حتى أصبحت شعارهم.

نصح الأطباء القرويين بشرب الماء المضاف إليه السكر بعد سحب

الدم. سرعان ما نفدت كل المتاجر المحليَّة من السكر واضطرَّ الناس لطلب الإمدادات من المقاطعات الأخرى.

نصح الأطباء القرويين بأخذ قسط من الراحة في الفراش لعدَّة أيام بعد سحب الدم. لذلك، في أيام الشمس المشرقة، كانت الشوارع والأزقَّة والساحات والمداخل مزدحمة بالقرويين المسترخين على كراسي الخيزران والأسرَّة الخشبيَّة.

شجَّع الأطباء سكَّان القرى والضيع المجاورة على المجيء إلى قرية دينغ لبيع دمائهم. سرعان ما اكتظَّت شوارع القرية وفاضت بطوفان لا ينتهي من الزوَّار. افتتحت القرية مطعمَين جديدين لتلبية احتياجات المارّين، وكشكَين لبيع الملح والسكر والحاجيات الأخرى من المواد المغذية والمنشطة للدم.

ضجَّت قرية دينغ بلا هوادة، لقد ازدهرت وانتعشت.

لم تلبث قرية دينغ أن أصبحت القرية النموذجيَّة لبيع الدم في مقاطعة وي. في العام نفسه، باع مدير المقاطعة سيارته الجيب واشترى سيارة جديدة فاخرة بصفين من المقاعد. عاد إلى القرية متأنقًا، وتجوَّل في الشوارع بسيارته التي يقودها سائق، متوقفًا عند كل محطّة دم على طول الطريق من أجل زيارة تفقُّدية. توقَّف عند بيت والديّ وتناول طبقين من المعكرونة مع الفطر والبيض، ثم مرَّ إلى المدرسة كي يحيّي جدِّي ويوجّه إليه بعض كلمات الثناء غير المتوقّع.

«أستاذ دينغ، أنت المنقذ لقرية دينغ. لقد حرّرتَها من الفقر ومهّدت طريقها نحو الثراء!»، قال مصافحًا جدِّي بحرارة.

لكن موجة بيع الدم في قرية دينغ لم تدم طويلًا.

بدأت التصدُّعات تظهر. انحسر الازدحام والضجيج. أخذت الأمور تهدأ.

حينها اعتلى أبي العرش.

٤

كان سكَّان قرية دينغ يبيعون الدم وفق نظام تناوب يعتمد على العمر وزمرة الدم والصحة البدنيَّة وعوامل أخرى. صدرت بطاقة للتبرُّع بالدم لكلِّ أفراد القرية ممَّن تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والخمسين، حجمها كحجم البطاقة المهنيَّة تقريبًا، مطبوعة على ورق بنيٍّ رخيص. يحتوي الوجه الأماميُّ الاسم والعمر وزمرة الدم والأمراض المزمنة. الوجه الخلفيُّ عبارة عن جدول تُسجَّل عليه مواعيد عمليَّات بيع الدم ومقدارها. ولحسن حظِّ القرويين، سمح لمعظمهم ببيع الدم مرة واحدة في الشهر. بعض القرويين الذين تتراوح أعمارهم بين الثامنة عشرة والخامسة والعشرين - بحكم شبابهم وصحتهم الجيّدة - سُمح لهم ببيع قارورة دم واحدة كلّ أسبوعين. كان عدد قليل منهم يقتصر على البيع لمرة واحدة كلّ شهرين أو ثلاثة أشهر.

لهذا السبب، اضطرَّت بنوك الدم لأن تصبح وحدات دم متنقّلة: أقاموا معسكرًا في قرية دينغ لمدة شهر، ثم انتقلوا إلى ضيعة الصفصاف، ثم إلى قرية الينبوع الأصفر، ثم قرية تو-لي في الشهر الذي يليه.

وبعد أن أصبح العمل متنقّلًا، خرجت الأمور عن مسارها. لم

يعد بإمكان القرويّ أن يأتي إلى بنك الدم المحليّ بذراع ممدودة ووعاء من الطعام، يأكل ويشرب بينما يقطر الدم من عروقه في زجاجة تجميع متدلّية من حزامه، ثم يخرج ببطن ممتلئ وحفنة من النقود في جيبه. لم يعد بإمكان القرويَّة، كما كان من قبل، أن تتوقّف عند بنك الدم وهي في طريق عودتها إلى بيتها من الحقول، وتبيع زجاجة دم وتغادر مع ورقة نقديَّة جديدة من فئة مئة يوان في جعبتها، لا تلبث أن ترفعها نحو ضوء الشمس لتتأكَّد من أنَّها غير مزيَّفة. وحين تلمع ابتسامة الرئيس ماو على الورقة، يضيء وجهها بابتسامة على الفور كما يضيء وهج الشمس قارورة الدم.

إلى أن جاء اليوم الذي ذهب أبي فيه برحلة إلى المدينة وعاد إلى البيت بحوزته كمية كبيرة من الإبر والمحاقن والأنابيب البلاستيكيَّة والمناديل القطنيَّة المعقَّمة والقوارير الزجاجيَّة. ألقى مشترياته على السرير وأحضر لوحًا خشبيًّا من حظيرة الخنازير وحوّله إلى لافتة مكتوب عليها بخطّ اليد: «بنك عائلة دينغ للدم». ثم خرج إلى شجرة الصفيراء وسط القرية وقرع الجرس المعدنيّ بحجر، وصاح بصوتٍ عالٍ تسمعه كل القرية: «إذا أردتم بيع الدم، تعالوا إلى دينغ هوي، في بنك عائلة دينغ للدم... يدفع الآخرون ثمانين للقارورة، أنا سأدفع خمسةً وثمانين يوانًا!».

تيقَّن القرويون بعد أن كرر أبي نداءه عدَّة مرات وبدؤوا يخرجون من بيوتهم. بحلول الظهيرة، كان بيت عائلتنا محاطًا بأناسٍ يطالبون ببيع دمائهم بصخب.

ذلك كان اليوم الذي وُلد فيه بنك عائلة دينغ للدم.

في غضون ستة أشهر، أنجبت قرية دينغ عشرات بنوك الدم الخاصَّة. ولأنَّ أصحابها كانوا يفتقرون إلى المعرفة الكافية بمكان بيع الدم الذي جمعوه، فقد باعوه لأبي الذي، بدوره، أعاد بيعه بسعر أعلى إلى شاحنات جمع الدم التي تتسكَّع خارج القرية في وقت متأخِّر من الليل. مرَّة أخرى اجتاح بيعُ الدم قرية دينغ وما يجاورها. وبعد عشر سنوات، حين حلَّ المرض في السهل، واكتشف أولئك الذين باعوا دمهم أنَّهم أُصيبوا بالحمَّى، غدا الموت مألوفًا. مات الناس كالعث في اللهيب.

لقد ماتوا كالأوراق المتساقطة.

انطفأ ضوؤهم وولّى عن هذا العالَم.

الفصل الثالث

١

إنَّها أواخر الخريف، وفجر يوم جديد. الشمس المشرقة فوق سهل خنان الشرقيِّ تبدو ككرة حمراء بلون الدم ترمي ظلًّا قرمزيًّا على الأرض والسماء. مع تغلغل اللون الأحمر، ينبلج الصبح. ويبدأ يوم جديد.

استيقظ جدِّي مع شروق الشمس ليبدأ جولاته وينشر خبر حفل ما شيانغ لين في المدرسة مساء ذلك اليوم.

«هل هناك أحد هنا؟»، صاح جدِّي داسًّا رأسه عبر باب البيت الأوَّل. «ثمَّة حفل موسيقيّ في المدرسة هذه الليلة، احتفالًا بالدواء الجديد. عليكم أن تنضموا... هذا أفضل من المكوث في البيت».

«هل هناك دواء جديد حقًّا؟»، جاءه الصوت من الداخل.

«كنتُ معلِّمًا طوالَ حياتي»، قهقه جدِّي، «هل رأيتَ مني كذبًا؟».

عند البيت التالي، دفع جدِّي الباب الأماميّ.

«مرحبًا! كفاكم مكوثًا في الداخل طوال اليوم ينهشكم القلق. انضموا إلينا في المدرسة هذه الليلة، سيقام حفل موسيقيّ».

«من سيعزف؟»، سأل الرجل في الداخل. «ما شيانغ لين؟».

«ومَن سواه؟»، أجاب جدِّي. «لا بدّ أنك لاحظت أن مرضه يتفاقم. إن حضر الجميع حفلته الليلة، سيفرح بعض الشيء، فلنمحه القوَّة كي يصمد ريثما يصل إلينا الدواء الجديد».

«هل هناك دواء جديد حقًّا؟».

«كنتُ معلِّمًا طوالَ حياتي... هل رأيتَ مني كذبًا؟».

وهكذا في باقي البيوت، واحدًا تلو الآخر.

حين وصل جدِّي الشارع الجديد، رأى والديّ وأختي في طريقهم إلى البيت. لقد عادوا للتو من الحقل، وكانت أمي تحمل عدة حزم من الخضراوات. عندما رأوا جدِّي، تسمَّرت العائلة بأكملها في الطريق، كأنَّهم صادفوا شخصًا لا يودّون لقاءه. وقف جدِّي وسط الشارع تعلو وجهه ابتسامة غريبة.

«ينغ تزي»، نادى حفيدته. «تعالي الليلة إلى المدرسة واستمعي إلى بعض الحكايات والأغاني. سيكون أمرًا أكثر متعة من البقاء في البيت ومشاهدة التلفزيون».

وقبل أن تتمكّن ينغ تزي من الردّ، أمسكتها أمي من مرفقها ودفعتها إلى داخل البيت، مارَّةً بجوار جدِّي دون أن تنبس بأيَّة كلمة.

بعد أن غادرتا، ظلَّ جدِّي وأبي وحدهما في الشارع، عالقين في مأزقهما. ألقت الشمس فوق رأسيهما ضوءًا حادًّا على الجدران وأسطح البيوت المبلّطة في الشارع الجديد. قادمًا من الحقول الممتدة خارج القرية، جاء برد الخريف الخافت ممتزجًا برائحة التربة المحروثة حديثًا. عندما

رفع جدِّي رأسه بحثًا عن مصدر هذه الرائحة، رأى من بعيد وانغ باو شان، زوج تشاو شيو تشين، وهو يعمل في أرضه. قبل وقت ليس ببعيد، قرَّر وانغ باو شان أن يريح أرضه. فمنذ أن أصيبت زوجته بالحمَّى، قال: ما الفائدة من الحراثة والزراعة؟ عمَّا قريب لن يتبقى لديه عائلة يطعمها. ولكن بعد أن سمع أخبار الدواء الجديد، خرج من بيته وراح يعمل في حقله.

تقليب التربة يبقيها رطبة؛

ما زال هناك متسع من الوقت لزراعة بعض الملفوف الشتويّ.

حتّى لو لم نزرع هذا العام، لا بدّ من الاعتناء بالتربة.

هناك دائمًا عامٌ مقبلٌ.

شاهد جدِّي وانغ باو شان منغسمًا في عمله، يحرث حقله ويقلّب تربته. التفت نحو أبي مبتسمًا.

«عليك أن تحضر حفلة ما شيانغ لين هذه الليلة».

«لماذا؟».

«لأنَّ أهل القرية كلهم سيكونون هناك. هذه فرصة ممتازة. بوسعك أن تنحني على المنصة وتعتذر، تلتمس الصفح من الجميع وحينها سينتهي كل شيء. اعتذار صغير، وسنتجاوز كل المشكلات».

«أبي، هل فقدتَ رشدك؟»، سأله أبي محدِّقًا بلا تصديق. «لا أحد في هذه القرية يمكنه أن يخبرني ماذا عليَّ أن أفعل، لا سيّما أنت. لستُ مدينًا بالاعتذار من أيٍّ كان».

نظر جدِّي برفق إلى وجه ابنه. كان الغضب مدويًّا كما في صور الآلهة الشرسة تلك، التي علَّقها القرويّون على أبواب بيوتهم لطرد الأرواح الشريرة.

«هل تظنّني أحمق يا هوي؟»، شخر. «هل تعتقد أنني لا أعرف بأنك استخدمت المناديل القطنية نفسها ثلاث وأربع مرات حين كنت تسحب الدم؟ الرب وحده يعلم كم مرة استخدمتَ تلك الإبر!».

النظرة التي تلقَّاها في المقابل كانت نظرة الكراهية المطلقة.

«لو لم تكن أبي، لصفعتك على هذا الوجه، أيُّها العجوز».

بهذه الكلمات، تجاوز أبي جدِّي وتبع أمي إلى البيت.

«هوي! لا بأس، لن أجعلك تتوسَّل أمام القرية كلها. ولكن أليس بوسعك أن تقول بضع كلمات اعتذار؟».

لم يكلّف أبي نفسه عناء الالتفات. لقد سمع ما يكفي.

«لستَ على استعداد حتّى للاعتذار؟ هل هذا ما تريد قوله لي يا بني؟»، استجداه وهو يلاحقه.

عندما بلغ أبي بوَّابة الفناء، توقَّف.

«لا تضيّع وقتك في الحقد عليّ، سنغادر القرية قبل نهاية هذا العام ولن ترى أيًا منا مرة أخرى أبدًا»، قال بصوت عالٍ واضح.

دخل أبي وأغلق الباب خلفه، وترك جدِّي واقفًا كعمود خشبيّ قديم ومتآكل في شارع حديث وأنيق.

لكن جدي قال كلمته الأخيرة:

«تذكّر كلماتي جيّدًا يا هوي... ستكون نهايتك وخيمة. تذكّر هذا فحسب!».

٢

في وقت لاحق من ذلك اليوم، بعد أن غربت الشمس وبزغ القمر، تجمَّع القرويون في المدرسة من أجل الاستماع للموسيقى والأغاني والحكايات.

باستخدام الكابلات الكهربائيَّة المأخوذة من الصفوف، علَّق جدِّي وبعض رجال القرية عددًا من المصابيح بقوّة مئة واط على مرمى كرة السلَّة، فغرقت باحة المدرسة بالضوء المتوهِّج. وضعوا أبوابًا خشبيَّة على أكوام من الطوب لتكوين شيء شبيه بالمسرح. أضافوا مقعدًا مرتفعًا ليجلس عليه ما شيانغ لين أثناء عزفه وغنائه، ومقعدًا منخفضًا عليه إبريق شاي وكوب، تحسُّبًا لشعوره بالعطش. وبمجرَّد أن بات كل شيء جاهزًا، بدأ الحفل.

احتشد القرويون في ملعب كرة السلَّة أمام المسرح، وكان المرضى والأصحاء يجلسون متربعين على الأرض، متلهّفين للانخراط في المرح ومعرفة السبب الكامن وراء كلّ هذه الجلبة.

حضر قرابة ثلاثمئة قرويّ الحفل. لقد ملؤوا الملعب وباحة المدرسة مثل قطيع من الغربان في حقل. جلس المرضى في المقدّمة قرب المسرح. أمَّا أولئك الأصحاء، الذين لم تمسّهم الحمَّى، فجلسوا في الخلف.

كان الفصل موشكًا على الانتهاء، وتغلغلت نسمات أواخر الخريف

الباردة في هواء الليل السَّاكن. شعر بها سكَّان القرى والضيع المجاورة أيضًا. لقد انتشر برد أواخر الخريف في كل أنحاء المقاطعة والإقليم، مجتازًا كلَّ أنحاء السهل.

كان بعض القرويين القادمين لمشاهدة أداء ما شيانغ لين قد ارتدوا سترات قطنيَّة مبطّنة أو اكتفوا بإسدالها على أكتافهم. وبالنسبة للمصابين بالحمَّى، فقد كانت الإصابة بنزلة برد مصدرَ قلقٍ بالغٍ، فقد أُصيب بالفعل عدد لا بأس به من سكَّان القرية بنزلات البرد وماتوا من جرّائها. حتّى نزلة البرد الطفيفة قد تكون مهدِّدة للحياة عند الأشخاص الذين يعانون من ضعف في جهاز المناعة، لذا جلس القرويون المرضى، ملتحفين بمعاطفهم المبطنة، كأنَّهم في أوج الشتاء. ضمَّت باحة المدرسة خليطًا من المثرثرين والمقهقهين الذين تحدَّثوا عن الدواء الجديد الشافي بحقنة واحدة. أشرقت وجوههم فرحًا. تحدَّثوا عن حسن حظِّهم وتبادلوا عبارات المواساة الهشَّة كأجنحة الزيزان.

بحلول ذلك الوقت، كان القمر قد طلع فوق مبنى المدرسة، وكان ما شيانغ لين على المسرح، جالسًا على الكرسي الذي أعدّوه من أجله، ممسكًا بكمنجته. كان وجهه مشوبًا باخضرارٍ شاحبٍ، هو لون الموت. أدرك القرويون أنَّ مرضه قد استفحل، وأنّه لم يعد أمامه الكثير من الوقت ليعيشه. وإذا لم تصل الأدوية الجديدة سريعًا، فمن المحتمل أن يموت في غضون أسبوعين.

ومع ذلك، لو كان بمقدوره أن يقضي كلَّ أيامه على هذا النحو، يعزف ويغنّي همومَه كلَّ مساء، لسُرَّ وتمكَّن من تغيير مصيره. ربّما كان

الفارق بين الموت والحياة بهذه البساطة. ربّما كان سيتمكّن من الصمود لبضعة أسابيع أخرى، أو حتّى بضعة أشهر أخرى. طالما شغفه للغناء متّقد، ولاقى من القرويّين استعدادًا للاستماع إليه.

خرج جدّي من غرفته ومعه وعاء حافظ للحرارة وكوبان. «هل من عطشان؟»، نادى الناس المحتشدين أمام المسرح. انحنى ليسأل بعض المسنّين عما إذا أرادوا أن يشربوا شيئًا. وبعد أن أكّد له الجميع أنّهم ليسوا بحاجة أيّ شيء، وليسوا عطشى إطلاقًا، وضع جدّي أغراضه عند زاوية المسرح والتفت نحو العازف العليل.

«هلّا بدأنا؟»، سأل جدّي بصوته العالي. «لقد طلع القمر».

«هيّا»، أجاب ما شيانغ لين بصوته الغنائيّ.

بهذه الكلمات، تحوّل ما شيانغ لين بأعجوبة. راح يضبط كمنجته ويفحص أوتارها بثقة (كانت الآلة مدوزنة بشكل ممتازٍ، وكان يعرف ذلك). يعلم الجميع أنّ شعره الأشيب وجلده المتقشّر وشفتيه ولثته الأرجوانيّة جميعها نُذُر شؤم؛ علامات اقتراب الأجل. ولكن عندما بدأ يعزف، استعاد وجهه شيئًا من لونه، بتوهُّجٍ بدا قادمًا من الأعماق. تبسّم للقرويين، ثم أعاد ترتيب تعابير وجهه وهو يمرّر قوسه على الأوتار. بدا أنّه مبتهجًا كشابٍ متورِّد الوجنتين يستعدُّ لحفل زفافه. حتّى القروح على وجهه توهّجت بالحمرة تحت أضواء المسرح، مثل بقعٍ صغيرة من النور.

بدا أن الدم عاود مساره في شفتيه الداكنتين، فتضمّختا بالحمرة من جديد. بعينين نصف مغمضتين، راح يهزُّ رأسه بالتزامن مع الموسيقى، كأنّه يعزف لأجل نفسه فحسب ولا وجود للجمهور. تحرّكت أصابع

يده اليسرى صعودًا ونزولًا على عنق الكمنجة؛ بتسارعٍ تارة وبتباطؤ تارة أخرى. كان الصوت المنبثق كمياهٍ تتدفّق عبر رمال الصحارى الظمأى. واضحٌ ولطيف، لكنَّ تيارًا من اللهيب الخانق في جوفه. حارٌّ وشائك، لكنَّ وعدًا بالنقاء والنضارة كامن فيه. بعد عدّة إيماءات برأسه، أعلن ما شيانغ لين أنَّه سيستهلُّ حفله بأغنية «رحيل الابن» التقليديَّة التي يعرفها القرويّون جيّدًا. تنحنح ليصفّيَ حنجرته وبدأ يغنّي:

نحو البعيد، عزم الابن على الرحيل
وعند أبواب القرية رافقتْه الأُمّ للوداع
لم يلقِ بالًا للكلمات التي قالتها
لكنَّه سيعرف أنَّها أغلى من الذهب

يا بني، قالت، يا بني
العالَم في الخارج لا يشبه البيت
تذكّر أن تلبس الثياب الدافئة
حين يصير الطقس باردًا
ولا تدع زوّادتك تخلو
لكيلا تتضوَّرَ جوعًا

مكتبة
t.me/soramnqraa

وإذا مررتَ برجلٍ عجوز
احترمه كما تحترم أباك

وإذا مررتَ بامرأةٍ مسنّة

خاطبها كما تخاطب أمَّك

نادِ السّيدات الكبيرات: يا عمّتي

ونادِ النساء الشابات: يا سيّدتي

وعامل المرأة كأنّها أختك

وعامل الرجل مثل أخٍ في القبيلة...

عندما انتهى ما شيانغ لين من الغناء، شرع في أغنية أخرى عن مو غوي ينغ، الجنرالة الشهيرة المنحدرة من سلالة سونغ. غنَّى عن تشنغ ياو جي، تاجر الملح الذي قاد انتفاضة الفلّاحين خلال عهد سلالة سوي. روى مغامرات «الفرسان الثلاثة المُطَوِّفين والإخوة الخمسة الأوفياء» وغيرهم من الأبطال المعروفين في التاريخ الصينيِّ.

بينما كان ما شيانغ لين ينعم بمجد الوقوف على المسرح، تذكّر القرويون التفاصيل الصغيرة التي نسوها عنه. لسببٍ ما، لم يكن ما شيانغ لين يتمتَّع بموهبة تذكُّر كلمات الأغاني. عندما كان شابًّا، لم يتمكّن من حفظ كتاب الأغاني والنصوص الأوبراليّة التي كان على كل طلاب الأوبرا التقليديَّة في خونان أن يحفظوها. ورغم كونه طالبًا متحمّسًا إلا أنَّ عدم قدرته على الحفظ وميله إلى الغناء والعزف بلا قواعد دفعا أستاذه إلى طرده من الفرقة المسرحيَّة. وهكذا، بعد حرمانه من الاحتراف المهنيّ، أمضى حياته يغني ويعزف على كمنجة الزويهو في فناء بيت عائلته. هذه الليلة، أمام جمهور من ثلاثمئة شخص، لم يكن

الأمر مختلفًا: فما زال ما شيانغ لين غير حافظٍ لكتاب الأغاني والنصوص الأوبراليّة الكبير ذاك. ولأنَّه ليس بمستطاعه تذكّر كل الكلمات، راح ببساطة يغنّي المقاطع التي يحفظها. ولحسن الحظ، كانت تلك المقاطع التي يتذكّرها هي المقاطع الأجمل.

أدَّى أغنياتٍ محبوبة كثيرًا، ومقتطفات من مسرحيّاته الأثيرة وشيئًا من مقاطع الأوبرا. لم تكن هذه هي المرَّة الأولى التي يعزف ويغنّي فيها أمام القرويين فحسب، بل كانت المرَّة الأولى التي يقف فيها على مسرح حقيقيّ. كانت حفلته اللائقة الأولى، وربّما الأخيرة. ولكل هذه الأسباب، إضافة لكون جدِّي قد تكبّد الكثير من المتاعب لترتيب أمور هذا الحفل، قدَّم ما شيانغ لين كلَّ ما استطاع حشده من شغف وتركيز. وقف منتصبًا وشامخًا، رأسه مرفوع. غنَّى بعينين نصف مغمضتين، لا يبصر أحدًا، منغمسًا في موسيقاه كليًّا. بينما تراقصت أصابع يده اليسرى على الأوتار، كان يسحب القوس بيده اليمنى ذهابًا وإيابًا. ورغم خشونة صوته بعض الشيء، لكن هذه الخشونة كانت مثل رشَّة الملح في وعاء من حساء اللحم؛ كانت الشيء الذي جعل المرق بمذاقٍ ألذَّ.

غنَّى باللهجة المحليَّة وكان جمهوره يفهمون كل كلماته. غنَّى عن الجنرالات والمتمرّدين، عن اللصوص والأبطال، وعن شخصيَّات حقيقيَّة من تاريخ الصين، وكانت أسماء كلّ هؤلاء معروفة لمعظم القرويين، كبار السنّ على الأقل، فقد كانت صور وجوههم تزّين الملصقات الملوَّنة للسنة الصينيَّة الجديدة. ورغم أنَّ هذه الشخصيات قد عاشت منذ مئات، بل آلاف السنين، لكن مغامرتها مألوفة لدى

القرويين كأنَّها حدثت بالأمس. وبالنسبة لأولئك الذين يعرفون القصص عن ظهر قلب، كان سماع ما يؤديه ما شيانغ لين مثل تذوُّق أشهى الأطباق في المأدبة. أمَّا بالنسبة للمراهقين والأطفال، الذين ليسوا على دراية بتداعيات هذه القصص، فقد أُعجبوا بمشاهدة إيماءات ما شيانغ لين وتعبيراته.

كان العرق يتصبَّب من جبهته، ووجهه متوهِّج بلون قرمزيّ. وعندما أمال ما شيانغ لين رأسه في اللحظة المناسبة مع إيقاع الموسيقى، تطايرت حبَّات العرق عن وجهه وتناثرت على الجالسين بالقرب منه. كان نقرُه بقدميه على خشب المسرح، لضبط الإيقاع، يذكِّرهم بصوت قرع طبلة السمكة التقليديَّة في المعابد. وعندما كان يصل عند مقطع شديد الإثارة، كان يخبط على الألواح بقدمه اليمنى كأنَّه يقرع طبلًا عملاقًا.

رغم امتلاء باحة المدرسة بالموسيقى والأغاني، كان صمتُ المساءِ مخيفًا. لم يصدر أحدٌ من الجمهور صوتًا. كان القمر والنجوم بلونٍ أبيض حليبيّ، والضوء الآتي من علٍ ساطعٌ ومشعٌّ فوق السهل. ومن حقول القمح البعيدة، التي باتت الآن مغطَّاة بالغراس الخُضر الشاحبة، جاءت همسة الحياة الجديدة، صوت خافت حدّ اللاإحساس، كسحابة من الريش تنجرف في مهبِّ الريح. وفي الحقول التي ظلَّت بلا زراعة -فبالنسبة لبعض القرويين، ليس هناك جدوى من الزراعة لهذا الموسم- كانت صفوف السويقات الذابلة تلمع تحت ضوء القمر، وتنبعث منها نفحات العُقم والعفن. بالقرب من ذلك، تفوح من المجرى القديم

للنهر الأصفر رائحة الرمال، كما لو أنَّ الحبوب المحصودة قد سُخِّنت على النار ثم غُمرت بالمياه. امتزجت الروائح في باحة المدرسة مع هواء الليل البارد، مضفية على أجواء الحدث طابعًا مختلفًا، طابعَ السكينة والوسن، على أنغام موسيقى ما شيانغ لين.

ابتسم العازف وأومأ برأسه بالتزامن مع الإيقاع. كمايسترو يقدّم أعظم الحفلات في حياته المهنيَّة، كان منغمسًا في غنائه لدرجة أنَّه بالكاد لاحظ صوته المخشوشن أكثر فأكثر. كان القرويون منتشين بالمقدار نفسه. فيما يشاهدون أداء ما شيانغ لين المتقد عاطفةً، كان من السهل عليهم تناسي أنَّهم لا يختلفون عنه بشيء، وأنَّهم أيضًا مصابون بالحمَّى والموت قد يخطفهم في أيّة لحظة. كان شغفه معديًا. بوسع المرء أن ينسى كلّ شيء بمنتهى السهولة، وألا يفكّر سوى بالموسيقى، أن يترك نفسه ينجرف مع غناء ما شيانغ لين، وألحان كمنجته، وإيقاع نقر قدميه على خشبات المسرح.

كان هذا كل ما جرى هناك. لا شيء آخر.

خيَّم صمتٌ غريب، كالموت، في باحة المدرسة. جمهور من ثلاثمئة شخص كأنَّهم شخص واحد، ينصتون إلى ما شيانغ لين يغنّي:

ممتشقًا السيفَ بيده

سار شيوه رن غوي غربًا

لأيام وليالٍ، قاطعًا مئات الفراسخ

كابدَ رجالُه المشقَّة

واستُنفِدتِ الجيادُ،

لكنَّهم،

عابرين القرى والبلدات والمدن،

وصلوا في النهاية

وهزموا جيش العدوّ الجبَّار

بغتة، ما عاد الصمت مخيّمًا على باحة المدرسة كما كان من قبل. سرعان ما تحوَّلت الوشوشات الهامسة إلى أحاديث صاخبة. تلفَّتَ بعضُهم ينظر إلى الوراء. ورغم أنّه لم يكن واضحًا الشيء الذي ينظرون إليه إلا أن الآخرين فعلوا الشيء ذاته. وفي خضمِّ كل هذه التلفُّتات والإيماءات والهمسات والأحاديث، نهضت تشاو شيو تشين برفقة زوجها وانغ باو شان وصاحت: «أستاذ دينغ... أستاذ دينغ!».

توقفتِ الموسيقى والغناء فجأة. نهض جدِّي من مكانه بالقرب من المسرح.

«ما الخطب؟».

«هل هناك حقًّا دواء جديد يشفي الحمَّى؟»، سألته تشاو شيو تشين بصوتٍ عالٍ وهي تنظر إليه. «لا تكذب عليَّ كذبتك التي انطلت على كل أهل القرية».

«كنتُ معلِّمًا طوالَ حياتي... هل رأيتِ مني كذبًا؟»، أجاب جدِّي.

تابع وانغ باو شان بالنيابة عن زوجته: «لكن ابنك دينغ هوي، الجالس في الخلف هناك، يقول إنَّه لم يسمع قطُّ عن هذه الأدوية الجديدة التي تشفي الحمَّى».

التفت لينظر نحو الجزء الخلفي من باحة المدرسة.

بمجرَّد التفاته، أدار الجميع رؤوسهم للنظر.

هناك، كان أبي واقفًا خلف الحشد برفقة أختي ينغ تزي. لم يتخيَّل أحد أنه سيحضر هذا الحفل. لكنَّه لم يرغب في أن يفوته شيء، لذلك جاء للمشاركة في التسلية والاستماع إلى الموسيقى والحكايا شأنه شأن بقية القرويين. ويبدو أنه، في أثناء وقوفه هناك للاستماع، أخبر أحدهم أنَّه لا وجود لأيَّة أدوية جديدة يمكنها أن تشفي الحمَّى.

كان هذا ما سبّب الجلبة والفوضى التي تلتها.

في تلك اللحظة، كان كلّ القرويين يحدِّقون في أبي. ترقّبوا أن يتكلَّم كأنَّ كلماته تحمل في طيّاتها الشفاء الذي يأملون وجوده.

كفَّ ما شيانغ لين عن الغناء. وقف على خشبة المسرح يراقب ما يجري في الأسفل. كان الصمت الذي أعقب ذلك يصمُّ الآذان. ذلك النوع من الصمت الذي يسمعه المرء بعد إشعال الفتيل في حزمة من الديناميت أو برميل من البارود. بدا أن أهالي القرية يحبسون أنفاسهم، كأنَّ أدنى زفير منهم قد يؤدي إلى الانفجار. حدّقوا في أبي وجدِّي وانتظروا رؤية ما سيحدث. لقد انتظروا الانفجار وعواقبه.

تحدَّث أبي أوّلًا.

«ماذا تستفيد من الكذب؟»، صاح فوق رؤوس الحشد. «لماذا لا تخبرهم الحقيقة فحسب؟ حقيقة أنَّه ليس هناك أي دواء جديد».

مرَّة أخرى، توجَّهت كل الأنظار نحو جدِّي.

لم يقل جدِّي شيئًا.

وقف بلا حراك يحدِّق في القرويين. ثمّ، ملتفًّا عند حافّة الحشد، سار نحو أبي. تقدَّم ببطءٍ وتأنٍّ، يكافح تحت وطأة نظرات الجمهور، حتى بلغ الجزء الخلفي لباحة المدرسة وبات واقفًا وجهًا لوجه أمام ابنه. تحت وهج الضوء الأصفر للمصابيح الكهربائيَّة بدا وجه جدِّي مرقّشًا باللونين الأزرق والأرجوانيّ، عيناه الحمراوان الغاضبتان تكادان تجحظان من محجريهما. فيما يحملق في ابنه، أطبق قبضتيه بلا وعيٍ وعضَّ على شفته السفليَّة وخدشها بأسنانه.

كان أبي، بالمقابل، يحدِّق أيضًا في جدِّي، وجهه متجمِّد، كأنَّه يتحدَّاه لفعل أقصى ما في وسعه. حدَّقا بعضهما ببعضٍ ببرود وعناد وبلا نيَّة للتراجع. أمام حشد القرويين المتفرِّجين، بدت باحة المدرسة طافحة بأزواج الأعين كما الأشجار في الغابة. الجوُّ زاخم كالعواصف الرمليَّة التي تهبُّ عبر السهل. كانت النظرات المتبادلة بين الأب والابن بادرة كالجليد، حادَّة كالخناجر. نظرات تقتلُ.

تطاولت اللحظات. ما زال جدِّي مطبقًا قبضتيه، وقطرات العرق تتساقط من ظهره. بدأت زاوية فمه ترتعش كأنَّها مشدودة بخيطٍ غير مرئيٍّ. ارتعاش لا إراديّ آخر، وبعد ذلك، بصرخة عالية، شنَّ جدِّي غارته. مدَّ ذراعيه واندفع إلى الأمام وأمسك أبي من رقبته وأفقده توازنه. وقبل أن يتمكّن أحد من القيام بردّة فعل، كان جدِّي قد ألقى أبي أرضًا وطوَّق يديه حول حلقه مصمّمًا على خنقه.

«من قال لك إنه لا يوجد دواء جديد؟»، صرخ جدِّي. «من قال لك ذلك؟.. سأعلّمك كيف تشتري دماء الناس! سألقّنك درسًا لن تنساه!».

مواصلًا الصراخ والشتم، غرز جدِّي إبهامه في حلق أبي وقطع عن رئتيه الهواء بمهارة. كان أبي مستلقيًا على الأرض حيث سقط، يركل بساقيه محاولًا إبعاد جدِّي الذي أحكم الخناق على صدر أبي وراح يضغط بإبهامه على غضروف حنجرته. بضغطةٍ قويّة، انسحق مجرى الهواء في صدر أبي وغارت عيناه اللتان كادتا تخرجان من محجريهما. تباطأت ركلاته وخبطت قدماه الأرض عدّة مرات قبل أن تتوقّفا. تراخت يداه وسقطتا عن صدر جدِّي.

حدث ذلك بسرعة، كرعدٍ في سماء زرقاء صافية. قبل لحظات، لم تلح سحابة في الأفق، أمَّا الآن فكان جدِّي قد بدأ ينتزع روح أبي. لا إمكانيَّة للعودة. لا إمكانيَّة للتراجع. ورغم ذلك، فقد كان جدِّي هو والد أبي، وكان أبي هو ابن جديّ: لحمه من لحمه، ودمه من دمه. لم يكن من المفترض أن يجري ذلك، أن يحاول الأب والابن قتل بعضهما بعضًا، أن يتعاركا حتَّى الموت. ولكن هذا ما جرى بالضبط: الموت أو الموت.

جانبًا، كانت أختي ينغ تزي تشاهد وهي تبكي على أبيها أولًا، ثم على جدّها.

الجميع في حالة صدمة. قد تكون صدمة أو ربما كانت شيئًا آخر. لم يُقْدِم أيٌّ من القرويين المتجمهرين حول الرجلين على محاولة لوقف القتال. لم يقل أحدٌ شيئًا. ساد الصمت المطبق لجمهور يشاهد ثورَين يتصارعان، صمت المتفرجين أمام مصارعة الثيران أو مصارعة الديوك، والترقُّب القَلِق لمعرفة المنتصر.

كان أهل القرية كلّهم ينتظرون ليروا ما إذا كان جدِّي سينتزع روح ابنه أم لا.

«بابا، بابا، لا....!»، صرخات أختي حطَّمت الصمت. «توقّف يا جدِّي، توقّفْ!».

مثَّلتْ صرخات ينغ تزي بالنسبة لجدِّي ضربةً على مؤخرة الرأس. ماكان منه إلا أن خفّف قبضته على حلق أبي. ارتخت يداه وبعدها... تركه.

انتهى الأمر بالسرعة الخاطفة نفسها التي بدأ بها. عاصفة رعدٍ عابرة، زخة مطر مفاجئة.

كرجل يستيقظ من حلم مزعج، هزَّ جدِّي رأسه وكافح ليقف على قدميه. بدا مرتبكًا من تجمهر الناس، مصابًا بالدوار بسبب وهج الأضواء فوق رأسه. وبينما كان يحدِّق في ابنه الممدَّد على الأرض، تمتم بينه وبين نفسه بصوت منخفض لا يُسمَع: «كل ما طلبتُه منك هو الاعتذار... هل كنت ستموت لو اعتذرت؟».

كان أبي مرميًّا على الأرض يجهد لالتقاط أنفاسه. ظلَّ حيث هو لفترة طويلة قبل أن يتمكَّن من الجلوس. كان تنفُّسه متقطّعًا وجلده مبقّعًا باللونين الأحمر والأبيض. بدا كأنَّه قد تسلَّق جبلًا شاهقًا وبلغ القمَّة أخيرًا، منهوك القوى. أرخى أبي ياقته ليستنشق بعض الهواء وفكَّ سترته الرماديَّة الخريفيَّة كاشفًا عن أثرِ بصمتَي إبهامٍ على رقبته تبدوان كحروق محمرَّة شنيعة. دمعت عيناه لكنَّه لم يكلّف نفسه عناء مسح الدموع ولم يقل شيئًا. لم يكن ليستطيع ذلك حتَّى لو حاول. كانت الأصوات القادمة من حنجرته تشبه أزيز المصابين الربو.

بعد برهة، هدأ الأزيز ونهض أبي على قدميه. رمق جدِّي بنظرة باردة ملأى بالكراهية ثم مدَّ يده ليصفع أختي على وجهها.

«لقد قلتُ لك إننا لا يجب أن نأتي»، قال مزمجرًا. «لكنّكِ أصررتِ! كان عليكِ أن تسمعي كلمتي! في المرة القادمة ستسمعينها رغمًا عنك!».

حدَّق أبي في جدِّي -آه لو كان بوسع النظرات أن تقتل- قبل أن يلتفت نحو القرويين، القرويين الذين وقفوا يشاهدونه يُخنَق على يد أبيه. لم يحاول أحد منهم إيقاف القتال، لم يتدخّل أحد لإنقاذه. استدار أبي وأمسك بيد ينغ تزي وخرج ساحبًا أختي الباكية خلفه.

ظلَّ جدِّي يراقب أبي وهو يبتعد حتى اختفى كسراب في الظلام.

بعد ذلك، عاد جدِّي نحو المسرح وقد تغطَّى وجهه بالعرق، ولم يتوقف إلا عندما كان واقفًا وجهًا لوجه أمام ما شيانغ لين. يبدو أن الموسيقيّ لم يبرح مكانه على الإطلاق، متجذّرًا حيثُ كان على المسرح. التفت جدِّي إلى القرويين الذين كانوا، بدورهم، متجمّدين في أماكنهم. حدَّق فيهم للحظة قبل أن يسقط على ركبتيه سقطةً قويَّة. وبصوتٍ قويٍّ بما فيه الكفاية ليسمعه الجميع أعلن جدِّي:

«كما ترون، لم أعد شابًّا. أركع أمامكم الآن وقد بلغت عامي الستين، لأعتذر للجميع نيابة عن ابني الأكبر دينغ هوي. أعرف أن الكثير منكم أُصيب بالعدوى بسبب بيع الدم له، وهو المذنب في ذلك. لكن أرجو أن تتذكروا أن ابني الأصغر يعاني من الحمَّى أيضًا وأنَّ حفيدي ذا الاثني عشر عامًا مات مسمومًا. نظرًا لما وصل إليه الأمر، أتمنَّى أن تجدوا في قلوبكم حيِّزًا لمسامحتنا».

انحنى جدِّي وضرب رأسه بألواح المسرح.

«أرجو منكم قبول اعتذاري. أتوسّل إليكم ألّا تكنّوا الضغينة لأسرتنا».

ضربة قويَّة. الركعة الثالثة والأخيرة.

«أريد أن أعتذر أيضًا على مساعدتي الحكومة في تنظيم الرحلة إلى مقاطعة تساي. الرحلة التي جعلتكم تبيعون دمكم وتشترون المرض الذي تعانون منه الآن».

بعد الاعتذار الأوَّل، قفز العديد من القرويين فوق المسرح وحاولوا رفع جدِّي. «لا حاجة لهذا»، قالوا له. «لا حاجة لهذا حقًّا». لكن جدِّي لم يتأثر بهم، وأدَّى الركعتين الأخيرتين، وبهذا استكمل طقس الاعتذار. نهض على قدميه كرجل وفَّى بنذرٍ أو بوعدٍ طال انتظاره.

كان جدِّي يحدِّق في الحشد الكبير كمعلِّم يتملَّى في صفٍّ مليء بالطلاب. كانوا ينظرون إليه بترقُّب كأنَّهم ينتظرون أن يعلن بدء الدرس.

بلهجته الرسميَّة قال:

«ابتداء من الغد، يمكن لأيّ مريض أن يأتي ويقيم في مدرسة القرية. أعلم أنَّ القرية باتت بلا مسؤول يديرها منذ سنوات، لكن إذا وضعتم ثقتكم بي، فأعدكم أن أعتني جيدًا بكم. سأوفّر لكم الطعام والسكن في المدرسة. سألتقي بكبار المسؤولين لطلب المواد الغذائية. كل ما تطلبونه سيحضر لكم. وإذا رأيتم أنني لا أبذل كلّ جهدي من أجل تلبية احتياجاتكم، فبوسعكم الذهاب إلى بيوت ابنيَّ وتسميم خنازيرهم ودجاجاتهم وما تبقّى لي من أحفاد».

وتابع جدِّي:

«ومن الأفضل أن أخبركم الحقيقة. لم يأتِ كبار المسؤولين على أيّ ذكر للأدوية الجديدة التي تشفي الحمَّى. لقد أخبروني أنَّ الحمَّى هي الإيدز وهو مرض معدٍ كالطاعون. حتَّى الحكومة لا تمتلك علاجًا له. إنَّه مرض جديد، ومميت بمجرَّد الإصابة به. فإن لم تكونوا خائفين على عائلاتكم، فيمكنكم البقاء معهم في البيوت. وإلّا فالمدرّسة ترحِّب بكم للإقامة فيها، ولتتركوا عائلاتكم في البيوت حيث لن يصيبهم أي مكروه».

توقَّف جدي للحظة متفحّصًا حشد القرويين. وعندما أوشك على مواصلة حديثه، دوَّى صوت ارتطام آتٍ من الخلف، كأنَّ عمودًا خشبيًا انهار على المسرح. استدار جدِّي ليرى أن ما شيانغ لي قد سقط عن كرسيّه، وقد التوى عنقه بشكلٍ غريب، وابيضَّ وجهه كبياض لافتات العزاء. كمنجته مرميَّة على الأرض بجواره، وما زالت أوتارها تهتزُّ من أثر السقوط.

حين أعلن جدِّي أنَّه لا وجود لأيَّة أدوية جديدة، انهار ما شيانغ لين. تدفّق الدم من فمه وأنفه.

غصَّت باحة المدرسة برائحة الدم اللاذعة. لقد رحل ما شيانغ لين. لقد مات فوق المسرح الوحيد الذي غنَّى عليه.

٣

عاون جدِّي زوجة ما شيانغ لين على القيام بترتيبات الدفن. حتّى أنه كلَّف فنّانًا من خارج القرية برسم صورة الموسيقيّ. الفنَّان، بالطبع، لم يكن يعرف شيئًا عن الحمَّى التي اجتاحت قرية دينغ ولم يكلِّف جدِّي نفسه عناء إخباره. كانت الصورة الجنائزيَّة عبارة عن لوحة مرسومة على لفافة يظهر فيها ما شيانغ لين بعينين مغمضتين، منغمسًا في موسيقاه وهو يؤدّي حفلَ العمر لجمهور هائل. كان الآلاف يشاهدونه ذاهلين، يستمعون بانتشاء إلى أغانيه وعزفه. ازدحمت اللوحة بوجوه الناس الجالسين على جدار باحة المدرسة أو على أغصان الأشجار. كان حشدًا هائلًا، بحرًا من البشر. بدا الأمر شبيهًا بمهرجان المعبد، حيث يتجوَّل الباعة بين الحشود، يبيعون البطاطا الحلوة وعيدان التفاح المحلَّى. كانت لوحةً ساحرةً.

وفي الجنازة، لفَّوا اللوحة ووضعوها في نعش ما شيانغ لين، إلى جانب كمنجة الزويهو الأثيرة لديه.

هكذا دفنوا ما شيانغ لين، برفقة أحلى لحظات عمره وأحبّ آلاته. دقَّوا مسامير النعش ثمّ وضعوه في جوف الأرض.

الكتاب الثالث

الفصل الأوَّل

١

بعد جنازة ما شيانغ لين، تهافت المرضى إلى مدرسة القرية. قدم بعضٌ لتناول وجبات الطعام فحسب، بينما انتقل بعض آخر للإقامة فيها بشكل نهائيّ.

جاء الشتاء وجلب معه البرد وأولى العواصف الثلجيَّة. لقد هطل بضراوة، كثيفًا كزغب الإوز، وغطَّى اللون الأبيض كلَّ شيء. حدث ذلك بين عشيَّة وضحاها تقريبًا. بات السهل كورقة بيضاء ناصعة رسُمت عليها ملامحُ القرى، وبدا الناس والحيوانات كنقط متناثرة تلطّخ المشهد.

ومع اشتداد برودة الطقس، كان مرضى القرية الذين لا ملجأً آخر لديهم سعداء للغاية بالانتقال إلى مدرسة القرية. المبنى الذي كان مدرسة ابتدائيَّة، وقبل ذلك معبدًا للإله غوان يو، أصبح الآن مأوى للمصابين بالحمَّى. الفحم والأحطاب والمواقد التي دفّأت الصفوف الدراسيَّة سابقًا باتت الآن تدفِّئ المهاجع المؤقتة، الأمر الذي جذب المزيد من القرويين المرضى للمجيء إلى المدرسة.

ذات يوم، وأثناء زيارته للمدرسة، قرَّر لي سانرين، عمدة القرية السابق، الذي تفاقمت لديه الحمَّى بشكل خطير عدمَ العودة إلى البيت. كان يقيم في البيت مع زوجته. ورغم أنها كانت تحضر له الطعام وترتّب له السرير وتغسل له الثياب وتغلي له الأعشاب المفيدة، لكنَّه وجد مستوى عنايتها غير كافٍ.

«أستاذ دينغ، ما رأيك في أن آتي وأقيم هنا في المدرسة؟»، قال والابتسامة تضيء وجهه العليل.

وكان هذا ما فعله بالضبط. عاد لي سانرين إلى البيت وأخرج لفَّة فراشه وودَّع زوجته وانتقل إلى مسكنه الجديد في المدرسة. كانت الحياة في المدرسة أفضل بمرَّات من حياته في البيت، فالجدران أكثر ثخانة وغير معرَّضة لتيارات الهواء الشديدة، إضافة لتوفر الكثير من حطب التدفئة. كان يتشارك بعضًا من وجباته مع جدِّي، وبعض آخر كان يعدّه بنفسه في غرفة صغيرة في الطابق العلوي.

حلَّ الشتاء.

جلبت أيَّام الشتاء الأولى موتًا جديدًا معها إلى القرية، وهذه المرّة توفّيت امرأة أصابها المرض رغم أنَّها لم تبع قطرة دم واحدة. لم تتجاوز وو شيانغ تشي الثلاثين من العمر حين ماتت، وبالكاد كانت قد بلغت الحادية والعشرين حين تزوجت دينغ يويه جي، أحد أقاربنا. كانت وو شيانغ تشي من صنف الفتيات الخجولات، الحسَّاسات، اللواتي يُغمى عليهنّ عند رؤية الدم. ولهذا السبب دلَّلها زوجُها دائمًا. «أفضّل الموت على أن أدع زوجي تبيع دمها»، كان يقول. «أفضّل أن

تجفَّ عروقي على أن أدع زوجتي تتورَّط في مثل هذه التجارة القذرة».
ومع ذلك، فالزوج الذي باع دمَه كان لا يزال حيًّا ويتمتَّع بصحة جيدة؛ بينما ترقد زوجته ميتة في قبرها. قبل عدَّة سنوات، فقد الزوجان طفلتهما الصغيرة بسبب الحمَّى، الطفلة التي أرضعتْها وو شيانغ تشي. لم يصدِّق القرويّون ذلك. هل بهذه الطريقة تنتشر الحمَّى؟ هل بهذه الطريقة أُصيبت عائلات بأكملها؟

أدَّى الخوف واللايقين إلى تدفُّق المزيد من الناس إلى المدرسة. وسرعان ما بات كلّ القرويين المصابين بالحمَّى يعيشون تحت سقف المدرسة الابتدائيَّة. وكان عمِّي دينغ ليانغ آخر القادمين.

كان الثلج يتساقط يومَ أوصلته زوجته إلى بوَّابة المدرسة. وقف الزوجان بإحراج، يجرَّان قدميهما في الثلج. قال عمِّي أخيرًا:

«من الأفضل أن تعودي. يوجد الكثير من المرضى هنا. وإن لم أنقل لك العدوى فقد ينقلها شخص آخر».

لكن زوجة عمِّي ظلَّت واقفة هناك، وندفات الثلج تهطل على شعرها.

«اذهبي إلى البيت. لا تقلقي بشأني. سأكون بخير. أبي موجود هنا»، قال عمِّي.

بمنتهى الطاعة، استدارت زوجة عمِّي وسارت مبتعدة. راقب عمِّي اختفاءها في جوف العاصفة الثلجيَّة. وحين صاح: «لا تنسي زيارتي! تعالي لأراكِ كلّ يوم!» كانت قد ابتعدت كثيرًا. أومأت برأسها مؤكِّدة أنَّها سمعتْه، لكن عمِّي لم يحرّك ساكنًا. وقف عند البوَّابة ينظر

إلى زوجته. كانت نظرة العاشق، نظرة رجل يخشى ألَّا يرى زوجته مرة أخرى. كان عمِّي يحبُّ زوجته. لقد أحبَّها بقدر ما كان يحبُّ هذه الحياة.

عانى عمِّي من أعراض الحمَّى لفترة، ولكن الانزعاج الأوَّلي كان قد ولَّى. ورغم أنَّه لم يكن يقوى على رفع دلوٍ من الماء، لكنَّه استعاد شهيّته للطعام وصار بوسعه تناول خبزة كاملة ونصف طبق من الحساء في وجبة واحدة. قبل عدّة أشهر، حين ظهر المرض لأوَّل مرة، ظنَّ أنه مصاب بنزلة برد. وبعد فترة قصيرة من الراحة تعافى خلالها كما يبدو، عانى من حكّة. وصباح ذات يوم، استيقظ عمِّي ليجد بثورًا قبيحة المظهر تغزو وجهه وجذعه ومغبنيه. كانت الحكَّة لا تطاق، شرسة جدًّا لدرجة جعلته يرغب في ضرب رأسه بالحائط. بدأ يعاني من التهاب مجهول السبب في الحلق ونوبات من الغثيان وعدم القدرة على تناول الطعام حتَّى عند الجوع. بدا وكأنَّه يتقيّأ ضعف كميَّة الطعام التي تمكَّن من ابتلاعها بعد بذل قصارى جهده. وبحلول ذلك الوقت، أدرك عمِّي ما كان يحدث، أدرك أنَّه مصاب بالحمَّى. وخوفًا من نقل العدوى إلى زوجته وابنه، قرَّر الانتقال من غرفة النوم إلى حجرة منفصلة في البيت.

«يومًا ما سأموت»، قال لزوجته. «بمجرَّد رحيلي أريدك أن تأخذي جون وتغادري قرية دينغ. تزوّجي رجلًا يعيش في مكان بعيد، بعيد قدر الإمكان عن هذا المكان البغيض».

لكنّ حديثه مع أبي كان مختلفًا تمامًا. قال له: «أخي، ذهبت زوجتي وابني إلى المدينة لإجراء الفحوص وجاءت نتيجتهما سلبيَّة. عندما أموت

أريدكَ ألا تدعهما يغادران القرية. إن تزوّجت تينغ تينغ من شخص آخر فسأتقلّب من العذاب في قبري. لن ترقد روحي بسلامٍ أبدًا».

نعم، لقد أحبَّها بقدر ما كان يحبُّ هذه الحياة.

ذات يوم، وبينما كان يفكّر في مرضه، وبحقيقة موته الوشيك، انهمرت دموعه.

«لماذا تبكي؟»، سألته زوجته.

«لا أخشى الموت»، قال متنشّقًا. «إنني أخشى من فكرة أن أتركك وحيدة. عديني أنكِ، حين أموت، ستتزوجين رجلًا آخر وتأخذين ابننا بعيدًا عن هذه القرية».

أمَّا حديثه مع جدِّي فكان أيضًا مختلفًا تمامًا. حيث قال له:

«أبي، أنتَ تعلم أنَّ تينغ تينغ تطيعك وتثق بك. أمَّا أنا فأعلم أنَّ أحدًا في كل هذا العالم لن يحبّها مثلي، ولن يعاملها أفضل مني، أرجوك أن تقنعها بالبقاء في القرية وعدم الزواج مرة أخرى أبدًا».

لكن جدِّي لم يكن مستعدًّا لقطع هذا الوعد.

«إن بقيتَ على قيد الحياة يا بني، فلن يكون لديها سبب للزواج مرة أخرى. هناك استثناءات لكلّ قاعدة، أليس كذلك؟ أناس كثر يُشخّصون بالسرطان في المرحلة النهائيّة كل يوم، لكن بعضهم يبقون على قيد الحياة لعشر سنوات».

وعلى أمل أن يكون استثناءً للقاعدة، واصل عمِّي حياته، متناولًا حصصًا إضافيَّة من الوجبات وجرعاتٍ مزدوجة من ويسكي الذرة

البيضاء على سبيل التحلية. وكونه رجلًا في مقتبل الشباب، يبلغ التاسعة والعشرين من العمر، وله زوجة جذّابة في الثامنة والعشرين من العمر، كان القلق الأكبر يكمن في حياته الجنسيَّة. رفضت زوجته السماح له بأن يلمسها، أو أن يمسك يدها حتّى. ما الفائدة من تحدّي الصعاب ومواصلة الحياة إن لم يكن لحياتك معنى؟ كان يودُّ لو أنَّ لديه شخصًا يتحدّث إليه، أمَّا عندما يتعلَّق الأمر بالجنس، فلم يكن يعرف شيئًا عن كيفية طرح الموضوع.

أوه نعم، لقد أحبَّ عمِّي زوجته. لقد أحبَّها ولكنَّه أحبَّ حياته أيضًا.

ومن المؤسف أنَّها بعد أن تركت زوجها واقفًا عند بوَّابة المدرسة، نسيتْ أن تلتفت وتنظر إليه. ظلَّ عمِّي يراقبها، منتظرًا منها أن تستدير، لكنَّها لم تفعل ذلك قطُّ. عضَّ على شفته بقوَّة حتى نزفت لكنَّه لم يكن ليبكي.

هناك، ركل حصاة على الأرض وهو لا يزال عاضًّا على شفته.

اكتظَّت مدرسة القرية شيئًا فشيئًا. وفي الوقت الحاضر، ما عاد أولئك المتجوّلون في القاعات من تلاميذ المدرسة الابتدائيَّة، بل من الرجال والنساء، معظمهم تتراوح أعمارهم بين الثلاثين والخامسة والأربعين. بناءً على تعليمات جدِّي، فُصِلَ بين الجنسَين: مساكن الرجال موجودة في صفوف الطابق الثاني ومساكن النساء في الطابق الأوَّل. أحضر بعضٌ أسرَّة ملائمة من بيوتهم؛ في حين نام آخرون على الأبواب والألواح الخشبيَّة. أمَّا الأقل حظًّا فقد رتَّبوا المقاعد بجانب بعضها

وناموا فوقها ببساطة. لم يُغلق الصنبور في باحة المدرسة لوهلة، كان طابور المنتظرين أمامه لا ينتهي. بالقرب من الصنبور كان ثمَّة حجرتين صغيرتين للتخزين، مكدّستين بالمقاعد والكراسي والمعدَّات المكسورة. حوِّلت إحداهما إلى مطبخ للمقيمين. وبمجرَّد أن يخلي أحدهم مساحةً بالقرب من الباب ويشعل الموقد، كان يأتي آخر ويثبّت لوحًا خشبيًّا لعجن الخبز تحت النافذة، وهكذا إلى أن تزدحم الحجرة الصغيرة ولا يبقى فيها حيّز لموطئ قدم.

الثلج الأبيض النظيف الذي غطَّى باحة المدرسة حوَّلته الأقدام طينًا.

امتلأت المساحات أسفل السلالم بالجِرار والأواني الفخاريَّة وأكياس الأرزّ والحبوب.

كان جدِّي يتجوَّل في أنحاء المدرسة، يعطي التعليمات للمقيمين ويشرف على ما يجري نقله. تأكَّد من من إفراغ الصفوف من الأثاث المدرسيَّة. جُمعت السبورات والطباشير والكتب ودفاتر الواجبات البيتيَّة التي تركها الطلاب في غرفة للتخزين وأُقفلت بإحكام.

فرغم توقُّف الطلاب عن الحضور، ظلَّت المدرسة قيد الاستخدام. كان هناك أشخاص بحاجة إليها. انكبَّ جدِّي، الذي تبلَّل جبينه بعرق الفتوَّة، على تأمين احتياجات الجميع. وجودُ شيء يقوم به جعله يشعر بأنَّه أصغر سنًّا وأكثر نشاطًا. حتَّى ظهره المحدودب بدا أكثر استقامة. ورغم أنَّ شعره لا يزال أشيب، لكنَّه بدا أشدَّ لمعانًا وحيويَّة من ذي قبل.

في شعبة الصفّ الثاني، وضع المقيمون المقاعد بمحاذاة الجدار ورتّبوا الكراسي وسط الغرفة لتشكيل قاعة الاجتماعات. اقترح أحد المقيمين وهو رجل لا يتقن الطهي قائلًا: «بما أن معظمنا مريض وسنموت قريبًا، فلماذا على كل واحد أن يطهو طعامه بنفسه؟ أليس من المنطقي أكثر أن نتشارك الوجبات؟».

بعد إجراء بعض الحسابات السريعة، اتّفق المقيمون على أنَّ الطهي بشكل منفصل مضيعة للوقت والمال. فمن خلال تشارك الوجبات يمكنهم توفير الحطب والترشيد في استهلاك مخزون الغذاء. كان الأمر الأكثر أهميَّة حينها هو الدعم الحكوميّ الموعود للمواد الغذائيَّة. وعد كبار المسؤولين بتوفير الأرز عالي الجودة والدقيق لكل المصابين بالحمَّى الذين وافقوا على الحجر الصحيّ في المدرسة. كان السبب أنَّه بهذه الطريقة لن يضطرّ القرويون المرضى لإعداد الطعام بأنفسهم ويكون بوسعهم توفير المال المهدور على الطعام والسكن.

دعا جدِّي المقيمين إلى اجتماع. بدا ذلك ملائمًا لأنَّه كان قبل كل شيء مدرِّسًا. حسنٌ، شيء من قبيل المدرِّس. كان العديد من المقيمين أميّين، غير قادرين على كتابة أو قراءة إلا بضعة أحرف، أمَّا المتعلِّمين منهم فقد كان جدِّي ذات يوم مدرِّسًا بديلًا لهم. وقد كانوا، إلى حدٍّ ما، طلّابه. باتوا الآن رجالًا بالغين ونساء بالغات، لكنّهم يقيمون في المدرسة، وهي المكان الوحيد الذي كان جدِّي فيه الشخص المسؤول عن الأمور. كلُّهم كانوا مرضى وقد يموتون في أيّ يوم. كان جدِّي الوحيد في المدرسة الذي لم يُصب بالحمَّى، ولم يكن يخشى أن تنتقل إليه

العدوى. كان من الطبيعيّ أن ينظروا إليه بصفته قائدًا. حسنٌ، شيء من قبيل القائد.

دخل المقيمون إلى الصفّ وشغلوا مقاعدهم. كان من بينهم دينغ يويه جي وتشاو شيو تشين وتشاو دي تشيوان ولي سانرين وتشو آنغ تزي ومجموعة من القرويين الآخرين، عددهم بضع عشرات في المجمل. ازدحم الصفّ. كان الناس في كل مكان، جالسين أو واقفين أو متكئين على الجدران. بدا الجميع مرتاحين ومبتسمين وسعداء بوجودهم معًا. ومثل طلاب ينتظرون ابتداء الدرس، ترقَّبوا جدِّي بهدوء.

كان جدِّي واقفًا في مقدِّمة الصف على منصَّة مبنيَّة من ثلاث طبقات من الطوب، يحدِّق في القرويين كمعلِّم يتفحَّص وجوه طلابه. «هيَّا، فلتتخذوا مقاعدكم!»، قال. وعندما جلس أولئك المتكئين على الجدران والنوافذ، خاطب جدِّي الجماعة بصوتٍ متمرِّس.

«بادئ ذي بدء، لقد قضيتُ حياتي أعمل في هذه المدرسة، وأعتقد أنَّ بوسعي القول إنني بمنزلة معلِّم. والآن، بعد أن أقمتم في هذه المدرسة، فسوف تستمعون إلى كلامي وتفعلون ما أطلبه. إن كان لدى أيٍّ منكم مشكلة في ذلك، فليرفع يده».

تملَّى جدِّي في المجتمعين وانتظر. بعض القرويين البالغين راحوا يقهقهون في مقاعدهم كتلاميذ المدارس. رمقهم جدِّي بنظرة صارمة.

«حسنٌ، بما أنَّ أحدًا لم يرفع يده، فقد حُسم الأمر. نبدأ بالبند الأوَّل على جدول الأعمال: ريثما نحصل على الدعم الحكوميّ للمواد الغذائيَّة، سيتعيَّن علينا أن نجمع إمداداتنا الأساسيَّة من الطعام. سيكون دينغ

يويه جي مسؤولًا عن الحسابات. ستُصنَّف مساهماتكم في الدقيق والأرز والحبوب بناءً على الجودة وتُسجَّل في حساباتكم. إن ساهمتم بكمية تفوق حصّتكم الشهريَّة، ستُخفَّض مساهمتكم للشهر التالي. وبالمثل، إذا ساهمتم بأقلّ من الحصة الشهريَّة، فيجب عليكم التعويض في الشهر التالي».

«ثانيًا: رغم أنَّكم لن تدفعوا الرسوم مقابل المياه التي تستخدمونها، لكنّنا سنحصِّل منكم فاتورة الكهرباء كلّ شهر. لا أريد أن أرى شخصًا يترك المصابيح مضاءة طوال الليل. عليكم الحفاظ على الكهرباء كما كنتم تفعلون في بيوتكم».

«ثالثًا: ستتولَّى النساء أعمال الطبخ، وسيتولَّى الرجال الصيانة والأعمال الأخرى في أنحاء المدرسة. سيؤدي أصحاب المرض الشديد أعمالًا أخفَّ عبئًا، بينما يجب على الأصحَّاء نسبيًّا تحمُّل الأعباء الثقيلة. ستكون تشاو شيو تشين مسؤولة عن الطهي. عليكن أيتها السيِّدات التناوب في الطهي وفق النظام الذي يناسبكنَّ».

«رابعًا: أنا في الستينيات من العمر الآن، وأيامي معدودة شأني شأن معظمكم. لا أحد منّا يعلم كم يتبقى لديه من الوقت ليعيش، لذا دعونا نكون صادقين بعضنا مع بعضٍ. سنموت وسيتابع سكَّان القرية الآخرون حيواتهم. ذات يوم، سنغادر هذه المدرسة وسيعود الأطفال إلى صفوفهم الدراسيَّة. لذلك دعونا نتفق أنَّه ابتداءً من اليوم، لن تعودوا إلى بيوتكم طوعًا أو قسرًا، ولن تقبّلوا أزواجكم وأطفالكم وتنشروا المرض بين عائلاتكم».

«شيء آخر: بما أنّكم تقيمون هنا في هذه المدرسة، فأنا على ثقة بأنّ الجميع سيحترمون ممتلكات المدرسة. هذا ينطبق على كل شيء، بما في ذلك الكراسي والمقاعد والنوافذ والجدران. لا تظنّوا أنّه طالما هذه الأشياء ليست ملككم فيمكنكم أن تفعلوا بها ما تشاؤون. أرجو أن تعاملوا هذه المدرسة بالمقدار ذاته من الاهتمام والحرص الذي تعاملون به بيوتكم».

«خامسًا: لا يقتصر سبب وجودنا في هذا المكان على تجنُّب نقل العدوى إلى الآخرين، بل لجعل حياتكم أكثر متعة، وكي تستمتعوا بما تبقى لديكم من وقت. يمكنكم لعب الشطرنج أو مشاهدة التلفزيون أو مطالعة الكتب أو النوم. إذا رغبتم بنشاط خاصّ أو وجبة معيّنة فما عليكم سوى أن تعبروا عن رغبتكم. يمكنكم القيام بكل ما يحلو لكم. يمكنكم أن تأكلوا ما يطيب لكم. وهناك شيء واحد أريد أن أقوله للجميع هنا: أعلمُ أن الحمّى تبدو مثلَ نهاية العالم، ولكن طالما العالَم سينتهي بكل الأحوال، فلا بدّ أن تكون أيامكم الأخيرة هي أسعد أيامكم».

هنا، توقّف جدّي والتفت لينظر من النافذة نحو العاصفة الثلجيّة. كانت ندفات الثلج كبيرة جدًا، بحجم أزهار الكمثرى، وناصعة البياض مثلها بالضبط. ومع هطولها، تتحوّل باحة المدرسة الموحلة والتي وطأتها الأقدام إلى مساحة بيضاء كبيرة.

دخل تيّار من الهواء البارد عبر الباب، واختلط برائحة المرض الكريهة المعشعشة في الصفّ كدفقةٍ من مياه عذبة رقراقة تتدفّق في مستنقع موحل. في باحة المدرسة، جلس تحت مرمى السلّة كلب مرقّط جاء على الأرجح يتبع صاحبه إلى المدرسة. بدا أنّه يحدّق في نوافذ الصف

على أمل العثور على سيّده بالداخل. الآن وقد غطّاه الثلج بدا كخروف صغير تائه.

حوَّل جدِّي انتباهه مرَّة أخرى نحو الصفّ. راح يعاين حشد القرويين، حشدًا يبدو كبحرٍ من الوجوه العليلة المرقَّطة بقشورٍ سودٍ، وسأل: «هل يوجد مَن يودُّ أن يقول شيئًا؟ إذا لا، فلنبدأ بالطهي. اليوم سنأكل وجبتنا الأولى معًا، لذا، وبغض النظر عمّن سيطهو، فلنحرص على إعداد وجبة شهية. ولأننا سنطهو للجميع، فيمكنكم استخدام القدور الفولاذيّة الكبيرة التي اشتريناها من أجل الطلاب القادمين من خارج القرية. المواقد موجودة في مطابخ الطلاب على الجانب الغربي من ملعب كرة السلّة».

وبهذا رُفع الاجتماع.

وسط الكثير من الضحك والثرثرة المفعمة بالحماس، تجمَّع القرويون حول الموقد الموجود وسط الصفّ. عاد آخرون إلى أماكن نومهم لإعداد الأسرَّة وإفراغ الممتلكات والأغطية.

غادر جدِّي الصفّ وخرج إلى العاصفة، كانت رقائق الثلج تلتصق بوجهه كقطرات الماء. مع كلّ هبّة ريح، كان المزيد من الثلج ينهمر على وجهه الذي ما زال متوهّجًا بدفء الصفّ. شعر جدِّي بالسعادة حيالَ البنود التي تطرَّق إليها في خطابه، والقواعد التي وضعها لتنظيم الحياة في المدرسة.

سرعان ما ذاب الثلج المتراكم على بشرته الدافئة، وتدفَّق على وجهه كالدموع.

عالم أبيض. كانت باحة المدرسة أشبه بسهل أبيض فسيح، صوت الانسحاق يدويّ من تحت قدميه وهو يمشي.

«أبي! هل سأنام في المهجع الكبير مع الآخرين؟».

استدار جدِّي ليرى ابنه قد لحق به.

«ما رأيك أن تقيم معي؟»، اقترح جدِّي. «غرفتي صغيرة ودافئة».

«بالتأكيد»، وافق عمِّي وقد بدا منشرحًا. «ولكن يا أبي لماذا وضعت دينغ يويه جي مسؤولًا عن الحسابات؟».

«لقد كان محاسب القرية. لديه خبرة طويلة في هذه الأمور».

«ومع ذلك، كان من الأفضل لو كنتُ أنا المسؤول عنها».

«كيف ذلك؟»، سأله جدِّي.

«أنا ابنك. ومهما كان الأمر، فأنت تعلم أنَّه يمكنك الوثوق بي».

«أعلم أنني أستطيع الوثوق به أيضًا».

ضحك عمِّي.

«أعتقد أنّه لا يهمُّ مَن اخترتَ. فبكل الأحوال، سنموت جميعنا عمَّا قريب، والأمر لا علاقة له بدوافع السرقة».

سارا نحو غرفة جديّ بجوار بوَّابة المدرسة، وسرعان ما ابتعلتهما العاصفة الثلجيَّة.

تصاعد صوتاهما في الهواء.

تلاشت ملامحهما في الثلج.

٢

بعد ذوبان الثلوج، شعر القرويّون المرضى بأنَّ الحياة في المدرسة أفضل ممَّا تصوَّروا. حتَّى الجنَّة ليس بمقدروها أن ترتقي لهذا الحدّ. وعندما كان جدِّي يصرخ قائلًا إنَّ الطعام جاهز، كان الجميع يحتشدون حاملين أطباقهم. بوسع المرء أن يختار وينتقي ما يحلو له وبالمقدار الذي يريده. كان هناك عدَّة أصناف للاختيار: أطباق مالحة أو حلوة، دسمة أو خفيفة، عصائد أو مرق، خضراوات مقليّة أو لحم أو سمك. حين تنهي وجبتك، تغسل طبقَك في الحوض وتعيده إلى الرف المخصَّص لك، أو تضعه في إحدى الحقائب الكثيرة المعلَّقة في كلِّ مكان، حتَّى على أغصان الأشجار. حين يعثر أحدهم على نباتٍ عشبيٍّ يُقال إنَّه يشفي الحمَّى، كانوا يغلون هذه الأعشاب في مرجل كبير ويسكبونها في أوعية ليشرب منها الجميع. وحين يحصل أحدهم على مكافأة شهيَّة، كالزلابية أو الخبز المحشوّ بلحم الخنزير، كان يتقاسمها مع المجموعة بأكملها.

بعيدًا عن تناول الوجبات وتجريب الأدوية، لم يكن هناك الكثير من الأشياء التي يفعلونها. الاستلقاء تحت أشعة الشمس أو مشاهدة التلفزيون أو الاجتماع في رباعيَّات للعب البوكر. اختار بعضهم الاجتماع في ثنائيَّات للعب شيانغ تشي أو وَيْ چي[١].

(١) شيانغ تشي تعني لعبة الفيل وهي الشطرنج الصينية، من أشهر ألواح الألعاب في الصين، وَيْ چي هو الاسم الصيني للعبة الغُو الشهيرة. (م)

لم يكن ثمَّة مدعاة للتفكير أو موجِب للقلق. بوسعك المشي لمسافات طويلة في الفناء أو البقاء في الفراش طوال اليوم إن أردت. لن يزعجك أحد أو يأمرك بشيء. أنت حرٌّ كالهندباء في الحقل.

إن اعتراك الحنين للبيت، يمكنك أن تزور عائلتك في القرية. إذا حان موعد حصاد محاصيلك، بوسعك الذهاب لتفقُّد أراضيك. إن كنتَ بحاجة شيء ما، يمكنك أن تبعث رسالة إلى عائلتك وسوف يحضرون لك حاجتك إلى المدرسة.

لبضعة أسابيع، بدت الحياة في المدرسة كجنَّة لا مثيل لها. لكن هذه الجنَّة لم تدم طويلًا.

كان ثمَّة لصٌّ في المدرسة. تبيَّن أن بوسعه الانسلال إلى كلّ ركن وزاوية مثل فأر. بدأ الأمر حين اختفى نصف كيس أرزّ من المطبخ. ثمّ اختفى كيس صويا كامل من الزاوية بجوار الموقد. وبعد فترة وجيزة، اشتكى لي سانرين من اختفاء مبلغ أربعين يوان كان قد خبّأه تحت وسادته. كانت الشابَّة يانغ لينغ لينغ، زوجة دينغ شياو مينغ، الضحيَّة التالية. دينغ شياو مينغ ابن أحد عمومتنا من جهة الأب. جدُّه أخٌ لجدي، أي أنه ابن العمّ اللزم لأبي وعمِّي. اكتشفت لينغ لينغ التي كانت في مطلع العشرينيات من عمرها أنَّها مصابة بالحمَّى بعد وقت قصير من زواجها في قريتنا. اتَّضح أنَّها باعت دمها قبل بضع سنوات، حين كانت تعيش مع عائلتها. ورغم أنَّها لم تلم أحدًا على نقل العدوى إليها، لكنَّها قضت كل أيَّامها في صمت وقلق. لم تبتسم قطّ. يومَ علم زوجها بإصابتها صفعها صفعة قويَّة على وجهها وصرخ: «في أوّل مرة التقينا

سألتُكِ إذا كنتِ قد بعتِ دمك في يوم من الأيام وأقسمتِ أنّك لم تفعلي! ما الذي سيشفع لك الآن؟».

تركت هذه الصفعة تورُّمًا في وجهها وكدماتٍ في روحها. جعلتها غير راغبة في الابتسام مرَّة أخرى. جعلتها غير راغبة في مواصلة العيش. لا سيَّما بعد أن اصطحبها زوجها إلى المدرسة لتقيم مع المرضى الآخرين.

بعد أسبوع من وصولها إلى المدرسة، اكتشفت لينغ لينغ أن لا أثرَ للسترة الجديدة المبطّنة بالحرير الأحمر والتي علَّقتها على عمود سريرها. ففي إحدى الأماسي، حين ذهبت لارتدائها لم تعثر عليها.

غزت السرقات المدرسة كما تغزو الفئران. وكان لا بدَّ من فعل شيء حيال الأمر. دعا جدِّي إلى اجتماع آخر في الصفّ الكبير.

بدأ جدِّي حديثه بصوتٍ عالٍ قائلًا: «في هذه المرحلة، معظمكم يدنو من أجله. لماذا بحق الربّ يسرق أحدكم مالًا أو حبوبًا أو سترةً حريريَّة جديدةً؟ ما فائدة المال إن لم تكن على قيد الحياة لتنفقه؟ ما فائدة الحبوب عندما تكون راقدًا في قبرك؟ لديكم هنا المواقد والكثير من الحطب للتدفئة... فلماذا يحتاج أيٌّ منكم لسرقة أغراض شخص آخر؟».

وتابع جدِّي: «ابتداءً من اليوم، لن يغادر أحدٌ المدرسة لزيارة بيته. أريد أن أتأكَّد من أنَّ الأشياء المسروقة لا تخرج من هنا. هذا أولًا. أمَّا ثانيًا: فلن أجرِي تحقيقًا لمعرفة المسؤول، لكنني أتوقَّع من اللصِّ أن يعيد المسروقات. بإمكانه الانتظار حتى منتصف الليل ثم وضع الأغراض في مكان ما في الظلام. أريد أن تعود الحبوب إلى المطبخ والأموال إلى مالكها القانونيِّ والسترة إلى عمود السرير الذي كانت معلَّقةً عليه».

تهادت الشمس الغاربة فوق الفناء، وملأت الصفَّ بأشعَّتها القرمزيَّة. عصفت رياح الشتاء فجأة فتناثر الرماد من الموقد في شتَّى الاتجاهات. بينما كان جدِّي يتكلَّم، حدَّق القرويُّون بعضُهم نحو بعضٍ بارتياب، يبحث كلُّ واحدٍ في وجوه الآخرين -بعضها شديد السقم وبعضها أكثر معافاة- عن أَمَارات اللصوصيَّة. لكنَّ مجرَّد التحديق بهم لم يكن كفيلًا بتمييز السارق من البريء.

ومن وسط الحشد صرخ عمِّي: «فتِّشوا الغرف! فتِّشوا الغرف!». ردَّد العديد من الشباب صيحته: «فتِّشوا الغرف! فتِّشوا الغرف!».

حاول جدِّي استعادة الهدوء. قال وهو على المنصّة: «لا حاجة للتفتيش. كل ما أريده هو أن تُعاد الأغراض الليلة. وإن كان السارق مُحرَجًا من مواجهة أصحاب الأشياء، فبإمكانه تركها في الفناء بعد أن يخلد الجميع للنوم».

بهذه الكلمات أنهى جدِّي الاجتماع وتفرَّق القرويون. عمَّ التذمُّر أثناء مغادرة الصفّ، وكان مصدره في الغالب الرجال الذين تساءلوا عن هوّية هذا اللقيط الجشع الذي سوّلت له نفسه سرقة نصف كيس من الحبوب وهو على وشك الموت.

وفي طريق الخروج، التقى عمِّي بزوجة ابن عمِّه.

«كان يجدر بكِ أن تضعي ملابسك في مكان أكثر أمانًا يا لينغ لينغ».

«إنَّها مجرَّد سترة. أين كان من المفترض أن أعلِّقها؟».

«لديّ سترة إضافيَّة، يمكنكِ استعارتها إن أردتِ».

«لا، شكرًا لك. لست بحاجة لها. أرتدي سترتين بالفعل».

تلك الليلة، كان بعض المقيمين يدردشون ويشاهدون التلفزيون كالمعتاد. بعض آخر في المطابخ والصفوف يغلون خلطاتهم من الأعشاب المفيدة. في كلِّ صفٍّ وحجرة تخزين وممرٍّ وعند كلّ سلَّمٍ كان ثمَّة مواقد صغيرة مؤقتة وأوانٍ فخارية مملوءة بالأعشاب، يشرب منها القريّون باعتبارها علاجًا للحمَّى. كانت الرائحة النفاذَّة والمريرة تملأ المدرسة ليلَ نهار وتنجرف خارج الفناء وعبر السهل. بدا الأمر كأنَّ المدرسة الصغيرة قد غدت مصنعًا صيدلانيًّا لخلطات الأعشاب الطبيَّة.

بعد أن يتناول الجميع جرعتهم من الدواء، يكون وقت النوم قد حان. يغفون واحدًا تلو الآخر. كانت باحة المدرسة صامتة كالسهل، وكان السهل صامتًا كالصحراء. كلُّ ما يمكن سماعه هو صفير ريح الشتاء في الخارج.

في غرفة جدِّي، كان عمِّي مستلقيًا في سريره تحت النافذة. عندما انتقل للعيش هنا، كان عليه إزالة أكوام من دفاتر الواجبات البيتيَّة القديمة لإفساح المجال لسريره. لقد اعتراه القلق منذ أن غادرت زوجته تينغ تينغ القرية وعادت للعيش مع والدتها.

«أبي، هل تحدّثت مع تينغ تينغ بشأن ذلك الموضوع الذي طلبته منك؟».

«أيّ موضوع؟».

«موضوع عدم زواجها بعد موتي».

«نم يا بني».

توقَّف الحديث بعدها. هذه الأمسية الشتويَّة الكئيبة جعلت الظلام داخل الغرفة الصغيرة أشدَّ وطأةً وكثافةً، والهواءَ لزجًا كالغراء. الوقت متأخِّر والليل عميقٌ ومظلمٌ كبئر. وسط هذا الصمت المخيف، سمع عمِّي صوتًا يشبه الخطى في الخارج. انتظر لحظةً منصتًا بعناية، ثم تقلَّب في سريره وسأل:

«أبي، من هو اللصّ برأيك؟».

في غمرة الصمت، وبينما كان ينتظر إجابةً من جدِّي، ظنَّ عمِّي أنَّه سمع صوت الخطى من جديد. ثمَّة أحد هناك، كان متأكِّدًا من ذلك.

«أبي! هل نمت؟»، همس.

ومن جديد، لا جواب.

وبما أنَّ جدِّي لم يحرِّك ساكنًا، نهض عمِّي ببطءٍ. أراد أن يخرج إلى الفناء محاولًا رؤية اللصّ. انسلَّ من فراشه بهدوءٍ وارتدى معطفه. كان على وشك الخروج من الباب حين تقلَّب جدِّي في سريره.

«إلى أين ستذهب؟».

«أوه، ظننتُك قد نمتَ».

«سألتكَ إلى أين ستذهب».

«لقد عادت تينغ تينغ إلى بيت أمّها اليوم، لستُ في مزاج يسمح لي بالنوم».

بجهدٍ، نهض جدِّي من سريره.

«بصراحةٍ، لم أفهم ماذا تريد يا فتى».

«أبي، هناك شيء لا تعرفه أنت. الحقيقة هي أن تينغ تينغ كانت مخطوبة لرجل آخر قبل أن تتزوجني. تعيش عائلته في قرية أمّها نفسها. هذا هو سبب قلقي الشديد».

نظر جدِّي إلى ابنه لكنَّه لم يقل شيئًا. في الظلام، لم يستطع رؤية وجه عمِّي، كان مجرَّد خيالٍ غامضٍ يحوم قرب الباب. ربّما كان ينظر إلى عمود من الخشب المتفحِّم، لا إلى ابنه.

بعد وهلة، سأله جدِّي: «هل تناولتَ دواءكَ اليوم؟».

«لا عليك يا أبي. أعلم أنَّه لا يوجد علاج لمرضي».

«مهما يكن، لا ضير في المحاولة».

«انس ذلك. طالما الحمّى لا تُشفى فهذا يعني أنها لا تُشفى. أتمنّى لو أستطيع أن أنقل العدوى لتينغ تينغ لكيلا تتزوج بعد رحيلي. حينها سترقد روحي بسلامٍ».

ارتعد جدِّي، متفاجئًا وغير قادرٍ على قول شيء.

فتح عمِّي الباب وغادر ساحبًا معطفه. في باحة المدرسة الفارغة، غطَّى ضوء القمر الشاحب سطحَ الأرض مثل طبقة رقيقة من الجليد. مشى عمِّي بحذر كرجل يعبر بحيرة متجمِّدة ويحاول ألَّا يكسر السطح الصقيل كالزجاج. بعد عدّة خطوات تجريبيَّة، توقّف وألقى نظرة خاطفة غربًا، نحو مبنى المدرسة ذي الطابقين. لقد حُوّلِت صفوف الطابقين إلى مهاجع للمرضى، يأوي كلٌّ منها ما بين خمسة إلى ثمانية رجال ونساء. باتت المدرسة ديرًا يقطنه المحمومون.

لكنَّها أيضًا كانت مَخبأً لِلِّصِّ.

الجميع نائمون داخل المدرسة. بإمكان عمِّي أن يسمع صوت شخيرهم والصدى يتردَّد عبر الفناء مثل همهمات عميقة تنتقل عبر الأنابيب. وبينما كان عمِّي يسير نحو المبنى المعتم، خُيِّل له أنَّه رأى شيئًا ما أو شخصًا ما يتوارى في الظلّ. يبدو أنَّه اللص وهو ينحني لترك كيس الأرزّ الذي سرقه. سارع العم خطواته.

وعندما اقترب، رأى أنَّ هناك شخصًا يجلس القرفصاء على الأرض. ليس أي شخص، بل زوجة ابن عمه، لينغ لينغ، التي تزوَّجت في القرية قبل ستة أشهر فحسب.

«من هناك؟».

«أنا. هل هذا أنت يا دينغ ليانغ؟».

«لينغ لينغ؟ ماذا تفعلين هنا في منتصف الليل؟».

«أردتُ أن أعرف من كان اللصُّ. أردتُ أن أرى مَن سرق سترتي الحريريَّة الجديدة».

ضحك عمِّي.

«يبدو أنّنا أردنا الشيء ذاته. كنت أودّ أن أتبيّن اللص وأعرف من سرق سترتكِ».

جلس عمِّي على الأرض بجوار لينغ لينغ التي تحرَّكت لتفسح له المجال. جثما جنبًا إلى جنب في الظلال، مثل كيسَيْن من الحبوب يتكئان على جدار المبنى.

ألقى القمر ضوءه على قطّة ضالَّة تطارد فأرًا في الزاوية البعيدة

لباحة المدرسة. انطلق الكائنان عبر ملعب كرة السلَّة، مخالبهما تخدش الأرض المغطَّاة بالرمال.

«هل أنتِ خائفة يا لينغ لينغ؟»، قال عمِّي.

«لقد اعتدت على أن أخاف من كل شيء. لم أقوَ على رؤية شخصٍ يذبح دجاجة دون أن يرتعد جسدي. حين بدأتُ بيع الدم صرت أقوى. أمَّا الآن، وبعد أن عرفت بأنني مصابة بهذا المرض، لم يعد ثمَّة ما يخيفني».

«لماذا بعتِ دمك بالأساس؟».

«كي أتمكَّن من شراء علبة شامبو جيّدة. كان هناك فتاة في قريتنا تستخدم نوعًا من الشامبو يجعل الشعر ناعمًا كالحرير. أردتُ أن أجرّبه لكنَّه كان باهظ الثمن. أخبرتني الفتاة أنَّها دفعت ثمنه عن طريق بيع الدم، لذلك قررت أن أفعل مثلما فعلت».

بعد أن أنهت لينغ لينغ كلامها، حدَّق عمِّي في السماء طويلًا. بدت السماء كبركة من المياه الزرقاء الغامقة.

«لم أكن أعرف ذلك»، قال أخيرًا.

«ولماذا فعلتَ ذلك أنت؟».

«كان أخي الكبير رأسًا من رؤوس الدم. رأيت أفواج الناس الذين يقصدونه لبيع دمائهم، وفعلت ذلك في نهاية المطاف».

حدَّقت لينغ لينغ مليًّا في عمِّي.

«يقول الجميع إن إخاك غشَّاش. كان يسحب لترًا من الدم ويدفع ثمن نصف لتر فحسب».

جعلته يضحك. وكز مرفقها بلطفٍ مع ابتسامة خاطفة.

«حين تعرفين أنَّ شخصًا ما قد سرق سترتكِ، فهل يخطر لك أن تستعيديها عن طريق سرقة سترة شخصٍ آخر؟»، قال مغيّرًا الموضوع.

«لا. على المرء أن يحافظ على سمعته»، أجابت.

«وإذا كنّا سنموت عمّا قريب، فلماذا علينا الاهتمام بسمعتنا؟ لقد عشتِ حياةً محترمة، ولكن حين عرف زوجك أنَّك مصابة بالحمَّى ضربكِ، أليس كذلك؟ لم يكفّ عن الاهتمام بكِ أو عن حبّك، بل راح يصفعك قبل طردك».

صمت عمِّي لوهلة. وتابع: «لو كنتُ مكانك لما أخبرتُه أساسًا. لكنتُ نقلتُ إليه العدوى. وهذا ما كان يستحقُّه».

حدَّقت لينغ لينغ في عمِّي، ذاهلة. أبعدت جسدها قليلًا عن جسده، كأنَّه غريب ينبغي أن تتحاشاه، كأنَّه لصٌّ لا تودُّ الاقتراب منه كثيرًا.

«هل نقلتَ العدوى لزوجتك؟»، سألتْه.

«كلا. لكنني سأفعل ذلك أولًا وآخرًا».

كان عمِّي يجلس القرفصاء على الأرضيَّة الإسمنتية، ظهره ورأسه متكئان على جدار الطوب. تسرَّب البرد الذي بثَّه الطوب عبر معطفه المبطَّن إلى جلده. لقد شعر فجأة بقشعريرة تسري في عموده الفقري، كأنَّ شخصًا يسكب ماءً متجمّدًا على ظهره. خفض رأسه بينما قطرتان من الدموع سالتا على خدَّيهِ.

لم تستطيع لينغ لينغ أن ترى دموعه، لكنَّها سمعت رعشةً في صوته.

«هل تكره زوجتك؟»، سألته وهي تخفض رأسها لتنظر إليه.

«لقد ظلَّت طيّبة معي إلى أن اكتشفت إصابتي بالمرض»، أجاب عمِّي وهو يمسح دموعه. شجّعه الظلام الغامر على الالتفات لمواجهة زوجة ابن عمه وقال: «أريد أن أخبركِ شيئًا يا لينغ لينغ ولا يهّمني إن سخرت مني. لا أشعر بالحرج من قول ذلك ولكن زوجتي لم تسمح لي بأن ألمسها منذ أن مرضتُ. هل تصدّقين ذلك؟ لم أبلغ الثلاثين من عمري حتّى وزوجتي لا تسمح لي بالاقتراب منها».

خفضت لينغ لينغ رأسها من جديد، كأنَّها تحاول أن تلمس به الأرض. ظلَّت لا تتكلَّم لفترة طويلة. لم يتمكَّن عمِّي من رؤية وجهها لكنَّها احمرَّت خجلًا وتضرَّج الدم في خديها. وبعد وقتٍ بدا طويلًا، حين استعادت بشرتها المحتقنة شيئًا من البرودة، حينها فقط تجرَّأت لينغ لينغ على رفع رأسها والنظر إلى عمِّي.

«الأمر ينطبق علينا جميعًا يا دينغ ليانغ»، قالت بهدوء. «لا أخشى أن أقول لك أيضًا إن... إن زوجي، بعد أن اكتشف مرضي، لم يلمسني مرة أخرى. كنت في الرابعة والعشرين، تزوّجتُه قبل بضعة أشهر فحسب. كنّا ما نزال عروسَين».

أخيرًا، التفتا ليواجه بعضهما بعضًا.

حدَّق كلٌّ منهما في عيني الآخر، الوجهان متقاربان جدًّا.

رغم أنَّ القمر قد مرَّ من فوقهما، كانت ساحة المدرسة تتلألأ كسطح بركة متجمِّدة، كالضوء المنعكس عن لوح زجاجي. حتّى في الظلّ حيث كان جالسين، رأى بعضهما وجهَ بعضٍ بوضوحٍ. استطاعا رؤية كلّ

التفاصيل الصغيرة. تراءى لعمِّي أنَّ وجه لينغ لينغ يشبه تفاحة، تفاحة ناضجة ومكتنزة وجاهزة للقطف. وجهها مرقَّط بالبقع البنيَّة كالتفاحة؛ علامات الحلاوة الكامنة تحت جلدها. يعتقد بعضهم أنَّ التفاح المرقَّط أشهى وأغنى بالنكهة. حدَّق عمِّي في لينغ لينغ بجُوع. راح يستنشق رائحة بشرتها، ممتزجةً بنفحة العُذريَّة الخافتة، رائحة مياه صافية نقيّة في جوف ينبوع جبليّ لم يمسَّه أحد، رائحة عروس شابَّة، رائحة دفقة ماء بارد تُسكب في قدر مملوء بمياه توشك على الغليان.

تنحنح عمِّي مستجمعًا شجاعته.

«أريد أن أقول لكِ شيئًا يا لينغ لينغ»، قال بجرأة.

«ما هذا الشيء؟».

«أوه، سحقًا لكلّ شيء!»، صرخ. «أنا وأنتِ ينبغي أن نكون معًا».

«لكن... كيف يمكننا ذلك؟».

بدت خائفة.

«اسمعي. كلانا متزوّج، وكلانا سيموت قريبًا. إن كنا نريد أن نكون معًا، فيجب أن نكون كذلك. يجب أن نكون قادرين على فعل كل ما يحلو لنا».

مرَّة أخرى، ساورها إحساسٌ شائن. حدَّقت في عمي ذاهلة، كأنَّها تراه للمرَّة الأولى.

الليل ازداد برودةً. وصلت الحرارة إلى درجة التجمُّد. صارت سحنة عمِّي مائلة إلى الازرقاق؛ بدت البقع البنيَّة على وجهه كحصى مدفونة في أرض متجمِّدة. حدَّقت لينغ لينغ فيه، وحدَّق بدوره فيها. وفي النهاية،

بعد أن عجزت عن تحمُّل رغبته الجارفة، كان لزامًا عليها أن تشيح بعيدًا. كانت عينا عمِّي مثل كهفين مظلمين يهدِّدان بابتلاعها. خفضت لينغ لينغ رأسها مجدّدًا.

قالت بهدوء: «دينغ ليانغ، أظنّك نسيتَ أنني متزوّجة من ابن عمّك».

«لو أنَّه عاملك معاملة حسنة، لما خطرت في ذهني هذه الفكرة أبدًا. لكنّ زوجك لم يكن جيّدًا معك، أليس كذلك؟ حتّى أنَّه ضربك. مهما بلغت معاملة زوجتي لي من السوء، لكنني لم أكن لأرفع يدي عليها أبدًا».

«بغض النظر عن كل شيء، أنت وزوجي أولاد عمومة. إنَّه يعتبرك كأخ كبير».

«أولاد عمومة، أخ كبير، أخ صغير... ماذا يعني كل هذا الآن؟ أنا وأنتِ سنموت قريبًا».

«إن عرفوا بالأمر، فسيسلخون جلدنا».

«فليفعوا ذلك. لن نبقى على قيد الحياة كثيرًا بكل الأحوال».

«لستُ أمزح. إذا انتشر الخبر فسيقتلوننا».

«كما قلتُ لكِ، سنموت قريبًا. إذا عرف الناس ذلك، فبوسعنا أنا وأنتِ على الأقل أن نموت معًا».

رفعت لينغ لينغ رأسها لتنظر إلى عمِّي. رمقته بنظرة فاحصة كأنَّها تحاول التأكُّد مما إذا كان هو أم لا الشخص الذي قال عنه ذلك، الشخص الذي سيموت قريبًا. بدا وجهه الذي كان شاحبًا جدًا في وضح النهار

بهيئة مختلفة في الظلال، بدا كغشاوة داكنة. كانت أنفاسه تتكاثف في نفحات بِيض عبر العتمة. وحين يتحدَّث تحسُّ بدفءٍ في وجهها كبخار يتصاعد من إبريق يغلي.

«عندما نموت، هل سندفن معًا؟»، قالت.

«آمل ذلك»، أجاب.

«قال لي زوجي إنَّه حتى بعد وفاته لا يريد أن يُدفن بجواري».

«أتمنّى أن يدفنوني بجانبكِ»، قال عمّي وهو يقرّب جسده منها.

حاول أن يحتضنها، فأمسك بيدها أولًا ثمَّ لف ذراعيه حولها. احتضنها كأنَّها خروف ضائع عثرَ عليه بعد سنين من البحث. ضمَّها بقوَّة كما لو كان يخشى أن تغيّر رأيها وتحاول الإفلات منه. مداعبةً صدرَه بأصابعها، سمحت له بأن يضمَّها.

كانت الليلة موشكة على الانتهاء. سرعان ما سيشرق الضوء ويبدأ يوم جديد. جاءت أصوات الصباح متهادية عبر السهل بعد راحة طويلة أثناء الليل. كانت هذه الساعة التي تتحوَّل فيها ركام الثلوج المختبئة في الظلال إلى جليد صلب. تحوَّلت ندفات الثلج إلى حبَّات بَرَد تهطل من السماء كحبوب الأرزّ الصغيرة. طقطقت هذه الحبَّات على أسطح البيوت وغطَّت باحة المدرسة لتحطَّ أخيرًا على لينغ لينغ وعمِّي اللذين كانا يجلسان متلاصقين، ملتفَّيْن بعضهما في حضن بعض.

جلسا هكذا لفترة طويلة. ثم، ومن دون كلمة واحدة، نهضا. شقَّا طريقهما بصمتٍ إلى غرفة صغيرة بجوار المطبخ. كانت مخزنًا لإمدادات

الغذاء وأشياء أخرى. بطريقة ما، ضمنيًّا، كانت هذه هي الغرفة التي اختاراها.

كانت الغرفة دافئة، وهما، بدورهما، ملأا الغرفة دفئًا.

هناك، في غرفة التخرين، استعادا معنى أن يكون المرء حيًّا.

٣

تنعَّمت قرية دينغ في دفء الشمس المتوهِّجة. في شتّى الجهات كانت الأزهار تتفتَّح بين عشيَّة وضحاها وتجتاح القرية كأمواج المدّ. اصطفَّت الأزهار النامية على جانبي كلِّ شارع وملأت كلَّ فناء وغطَّت الحقول الممتدة وراء البَّوابات. حتَّى القناة الجافَّة التابعة للمسار القديم للنهر الأصفر امتلأت بالأزهار: الأقحُوان وزهور البرقوق والفاوانيا والورد والأوركيد البرّي والياسمين الشتويّ والهندباء البرّية وأنواع أخرى من النباتات المزهرة التي لا تنمو إلا في قمم الجبال. ظلال من اللون الأحمر والأصفر، من الأرجوانيّ والورديّ، من البرتقاليّ واللاڤندري والأبيض، الأحمر المؤرجن والأرجواني المحمّر، الأزرق المخضّر والأخضر المزرق، والفيروزي المشوب بخضرة اليَشْم. أزهار من كلّ شكل ولون، وأصناف غريبة ليس بوسعك أن تعرف أسماءها؛ بعضها مفلطح كأطباق الطعام وبعضها الآخر صغير كأزرار الأثواب. تنمو من جدران حظائر الخنازير وأسطحها، وفوق خمم الدجاج وزرائب البقر، وتفوح روائحها في الشوارع غامرةً قرية دينغ كالفيضان، كأمواج من العطر...

جاب جدِّي الشوارع مرتابًا، لم يكن قادرًا على فهم كيف أمكن لمئات الزهور أن تتفتَّح بين عشيَّة وضحاها. متسائلًا في قرارة نفسه وهو يعبر القرية من الشرق إلى الغرب، لاحظ أنَّ وجوه القرويين -الشيوخ والبالغين والأطفال على حدٍّ سواء- كلّها مبتسمة. يذرعون ذهابًا وإيابًا الشوارع التي تصطفُّ على جانبيها الأزهار، يحمل بعضهم سلال الخوص المغطَّاة بالقماش التي تتدلَّى وتتأرجح من أعمدة الخيزران المحمولة على الأكتاف، وبعض آخر يسحب أكياسًا مربوطة بحبال ومنتفخة بمحتويات غامضة. حتَّى الصبية والبنات الذين لا تزيد أعمارهم عن بضع سنوات يحملون حزمًا ثقيلة. وعندما حاول جدِّي أن يسألهم عمّا كانوا يفعلون، لم يعره أحدٌ أيَّ انتباه. بدوا جميعًا في عجلة من أمرهم، يحثّون الخطى من وإلى البيوت، يتراكضون، كأنَّهم يتسابقون من مكان إلى آخر.

بدأ جدِّي يتتبّع مجموعة من القرويين، وراح يلاحقهم عبر الشوارع الملأى بالأزهار. وكان عليه أن يصل إلى الطرف الغربيّ للقرية كي يعرف سبب كل هذه الجلبة: لقد كانت الحقول المحيطة مُفترشة حرفيًّا بالأزهار، كانت بحرًا شاسعًا يعجُّ بها، مساحةً لانهائيَّة من البتلات المتموِّجة في مهبّ النسيم. مشهد فاتن. حتّى السماء من فوقها بدت مضمَّخة بالألوان نفسها: الورديّ المحمّر والأنثويّ والأصفر الشهوانيّ الطفيف. تجمَّع القرويّون أسرابًا وانكبّوا يعملون بجدٍّ في حقولهم. كان الرجال يحملون الفؤوس ويحفرون التربة حول النباتات المزهرة والأشجار. بدوا كأنَّهم يسارعون لحراثة التربة وغرس محاصيلهم من البطاطس الحلوة والفول السودانيّ قبل حلول الشتاء.

رأى جدِّي لي سانرين في حقله. ورغم أنَّه يبدو في العادة حزينًا وصامتًا، فقد كان يبتسم ابتسامات عريضة وهو يعمل جنبًا إلى جنب مع القرويين الآخرين. جبهته تتصبّب عرقًا وتبرز مؤخرته كلَّما دقَّ مجرفته في الأرض. بين الحين والآخر ينحني ويلتقط نباتًا مزهرًا كان قد استخرجه من الأرض ثم ينفض عن جذوره كتل التراب قبل أن يرميه جنبًا وينتقل إلى النبات التالي. بعد أن اقتلع ونفضَ كمًّا منها كان يجلس القرفصاء بجوار زوجته وأطفاله ويجمع كتل التراب من الأرض ويرميها في سلّتين من سلال الخوص. حين تمتلئ السلال كان يغطّيها بملاءات الأسرَّة ويحملها إلى البيت. مترنّحًا تحت وطأة هذه السلال، بدا لي سانرين محفوفًا بخطر السقوط، لكنَّه استجمع قواه وأجبر نفسه على مواصلة السير...

في يومٍ من الأيَّام كان لي سانرين عمدة قرية دينغ. يصغر جدِّي ببضع سنوات فقط، وكان من رجال الجيش الذين أُرسلوا في وقت سابق إلى مدينة هانغتشو الجميلة، المعروفة في كل أنحاء الصين بـ «جنَّة الجنوب». في ثكنة عسكريَّة محصّنة خارج المدينة، خدم بلاده وتلقَّى الثناء لقاء خدمته، وأصبح عضوًا رسميًّا في الحزب الشيوعيّ الصينيّ. ولكن عندما حان أوان ترقيته، خطر له الأمر فجأة. وبعد الكثير من مساءلة الذات وقضم الأظافر، كتب رسالة إلى قادته الضبَّاط. بدت الرسالة يمينًا مكتوبًا بالدم؛ فقد تعهَّد بالعودة إلى مسقط رأسه والمساعدة في تحويل قرية دينغ إلى «جنَّة الشمال».

وهكذا ترك الجيش.

على مدى العقود القليلة التالية، عمل لي سانرين ليل نهارَ لمساعدة القرويين في الزراعة والحصاد وريّ الحقول وجمع الروث للتسميد. لكنَّ السنين مرَّت كالأيَّام، وكذلك العقود. وبصرف النظر عن الزيادة في تعداد السكَّان، فقد ظلَّت القرية على حالها، تمامًا كما كانت حين تولَّى عمله فيها. أثناء كلّ هذه السنوات لم تتمكَّن قرية دينغ من بناء بيت واحدٍ جديد مسقوف بالقرميد. لم تحصل على آلة واحدة جديدة أو معدَّات زراعيَّة متطوّرة. حتَّى عدد الجرَّارات ظلَّ على حاله. ورغم أنَّ القرى المجاورة، ضيعة الصفصاف وقرية الينبوع الأصفر وقرية تو-لي، بقيت فقيرة جدًّا، لكنَّ قرية دينغ كانت فقيرة هيكليًّا بالمقارنة. قرية من جلد وعظم فحسب.

ذات يوم، اقترب أحد القرويّين من لي سانرين وبصق في وجهه. «هيي يا لي سانرين، كيف تجرؤ على أن تعتبر نفسك قائدنا! طوال السنوات التي كنتَ فيها عمدة القرية وأمينًا للحزب لم نشبع وعائلتي الطعام. لم نستطع أن نشتري الزلابية في رأس السنة الجديدة!»، صرخ الرجل متشكّيًا.

في النهاية، عُزل لي سانرين من منصبه. أُقيل بمجرَّد أن بدأ بيع الدماء. صار ميّالًا للصمت والكتمان، ونادرًا ما كان يتحدّث إلى أحد. شحب وجهُه وغدا رماديّ اللون كأنَّ أحدهم صفعه بنعل حذاء قذر.

بعد أن لاحظ كبار المسؤولين نجاح أبي في تجارة الدم كلّفوه بأن يصبح عمدة القرية. كانوا يأملون بأن يساهم في إقامة بضع محطَّات لجمع الدم وأن يرعى حشد عدد من تجّار الدم الناجحين بدلًا من قضاء وقته في جمع الدم لصالح محطته الخاصّة. رفض أبي الوظيفة مدركًا أنَّ

المزيد من رؤوس الدم يعني تنافسًا أشدَّ وطأة وأرباحًا أقلّ للعائلة، لذا ظلَّت القرية بلا عمدة. بقي المنصب شاغرًا سنوات عديدة. وحتّى اليوم، ما من عمدة للقرية.

عندما دعا كبار المسوؤلين سكَّان قرية دينغ لبيع المزيد من الدم، رفض لي سانرين الانخراط بعناد. لم يرغب بأن يكون جزءًا من الأمر. «لم أقضِ كل تلك السنوات عمدةً للقرية كي أرى الأمور تصل إلى هذا الحد... كي أرى أهالي القرية يبيعون دماءهم».

لكنَّ زوجة لي سانرين التي زارت بيوت الأصدقاء والجيران الجديدة الفاخرة والمسقوفة بالقرميد، بيوت الذين باعوا دمهم، راحت تشتم زوجها علنًا. «هل تخال نفسك رجلًا يا لي سانرين؟ لست رجلًا يجرؤ على بيع دمه حتّى. ولا عجب أنَّك حين كنت العمدة طوال تلك السنوات كانت نساء القرية غير قادرات حتَّى على شراء فوطهنّ الصحيَّة! هذا كلّه بسببك. لست سوى خصيًّا، جبانًا يخشى أن يبيع نصف لتر من الدم، بل أقل من نصف لتر، بل حتَّى قطرة! أيّ نوع من الرجال هذا الذي تخيفه بضع قطرات من دمه؟».

في ذلك اليوم، كان لي سانرين جالسًا القرفصاء عند باب بيته ويتناول عشاءه. سمح لزوجته أن تكيل له الشتائم، وتعرَّض لإهاناتها وإساءاتها بلا تعليق.

حين أنهت خطبتها، رمى طبقه الفارغ على الأرض وخرج دون أن يتفوَّه بكلمة. ظنَّتْ أنَّه سئم من الاستماع إليها وخرج للمشي. ولكن في وقت لاحق، حين كانت تغسل الأطباق وتستعدُّ لإعلاف الخنازير،

دخل لي سانرين المطبخ حاملًا فاتورة بقيمة مئة يوان. كان أحد كمّيه مشمّرًا حتى المرفق، يثني ذراعه المكشوفة ويضغط عليها. وجهه كان شاحبًا على غير العادة، وقطرات عرق التوتُّر تغطيه. عبر المطبخ ووضع الفاتورة على زاوية الموقد والتفت إلى زوجته.

«خذي... هل رأيتِ؟ لقد بعتُ دمي»، قال مجهشًا.

توقَّفت عن الغسل وحدَّقت في وجه زوجها الشاحب.

«حسنٌ، هذا هو الكلام. الآن غدوتَ رجلًا حقيقيًّا»، قهقهت. ثم نظرت إليه وقالت: «هل تريد بعض الماء بالسكّر؟».

«لا. لقد أمضيتُ نصف عمري أعملُ من أجل الثورة، والآن صرتُ أبيع دمي»، قال وهو يذرف الدموع.

سرعان ما أصبح لي سانرين يبيع دمه بانتظام. بدأ الأمر مرَّةً واحدة في الشهر، ثمّ مرَّة كل عشرين يومًا، ثمّ مرَّة كل عشرة أيام. في نهاية المطاف، صار إذا مضى وقت طويل دون بيع الدم يشعر بأنَّ عروقه منتفخة. كأنَّها تنفجر بالدم. وإن لم يُسحب الدم منها، فقد تبدأ بالتسرُّب من مسام جلده.

مع ازدياد عدد القرويين الذين يبيعون دمهم، زاد عدد رؤوس الدم. اشتعل التنافس بينهم. راح تجّار الدم يتنقلون بمعدَّاتهم من باب إلى آخر، يجمعون البلازما كأنَّها خردة معدنيَّة أو أحذية مهترئة. ليس عليك أن تغادر بيتك حتَّى. وكنتَ كلَّ يوم تسمع أصواتهم وهم ينادون: «جامع الدم! جامع الدم! هل هناك من يريد أن يبيع؟» كالباعة المتجوَّلين الذين يدورون مع بضائعهم وصيحاتهم.

خرج التجَّار إلى الحقول أيضًا لجمع الدم من المزارعين الذين يعملون في أراضيهم.

«مرحبًا!»، يصرخ التاجر. «هل لديك أيّ دم للبيع؟».

فيجيبه المزراع: «امض في طريقك، لقد بعتُه للتوّ».

لكنَّ التاجر لن يغادر.

«ما أجمل هذا القمح وما أجوده! يا لجمال لون البراعم!».

يبتسم المزارع بفخر.

«هل يمكنك تخمين كميَّة الأسمدة التي استخدمتُها؟».

يركع لإلقاء نظرة فاحصة، كأنَّه معجب بالقمح المتبرعم حديثًا.

«لا أدري كم استخدمت من السماد، لكنني أعرف أنّك دفعت ثمنه ببيع الدم. نصف لتر من الدم سيشتري لك كيسين من الأسمدة. ومن أجل هذه القطعة الصغيرة، فكيس واحد كفيل بأن يضمن لك محصولًا وفيرًا».

بصورة عابرة يقول التاجر: «بالطبع، الزراعة هي الشيء الأساسيّ. بعض الناس يتركون الزراعة أو يتخلّون عن أراضيهم حين يبدؤون بيع الدم. بالطبع، الدم يجدّد نفسه دائمًا، ولكن كم سيعمّر المرء! حتّى لو بلغ مئة عام، فعند سنّ معين لن يكون قادرًا على الاستمرار في بيع الدم. ولكن قطعة أرض كهذه... يمكنك أن تزرعها لمئة عام أو ألف عام، وستستمرّ بإنتاج المحاصيل الوفيرة. بيع الدم شيء مختلف. لا يمكنك أن تقوم به لمئات أو آلاف السنين. أليس كذلك؟».

الآن، بعد أن صارا يتكلّمان باللغة نفسها، ترك المزارع عمله وسار إلى طرف حقله ليتحدّث مع هذا الغريب الودود، تاجر الدم القادم من قرية مجاورة. بعد دردشة قصيرة، يشمِّرُ المزارع عن كمِّه بتهوُّر ويمدُّ ذراعه. «أأقول لك شيئًا... بما أننا متفاهمان لهذا الحدِّ، ما رأيك في أن أبيعك نصف لتر؟».

بعد أن باع المزارع نصف لتر آخر من دمه، ودفع التاجر ثمنَه، افترق الاثنان كالأصدقاء القدامى.

بعد أن وطَّد هذه العلاقة المربحة، عكف التاجر على زيارة القرية مرارًا. كلُّ بضعة أسابيع يصلُ إلى الحقل ومعه المحاقن والأنابيب كي يدردشَ قليلًا ويستخرج نصف لتر آخر من عروق المزارع. هكذا سار الأمر.

ذات يوم كان لي سانرين في حقله، يقلِّب بمعوله تربة الزوايا التي لا يصلها المحراث. كان موسم حصاد القمح قد انتهى وحان وقت زراعة الذرة الخريفيَّة. زراعة الخريف مختلفة عن زراعة الصيف، إنَّها أشبه بسباق مع الزمن. كلَّما تمكَّن المزارع من نثر بذور الذرة في الأرض باكرًا ولو بيومٍ واحدٍ فقد تنضج المحاصيل قبل أيام عديدة من موعدها، مما يسمح له بحصادها قبل هبوب الريح وهطول الأمطار. أيقنَ لي سانرين بأهمية أن يزرع بذوره في غضون يومين على أبعد تقدير.

تقليب التربة عند زوايا الأرض عملٌ شاقٌّ لا مفرَّ من القيام به بشكلٍ يدويٍّ. والآن، بعد أن اعتاد لي سانرين على بيع دمه مرتين أو ثلاث مرات في الشهر، غدا وجهه شاحبًا كأنَّه مغطًّى بغشاء رقيق من

الشمع. حين كان عمدة القرية، وسِعَهُ أن يدقَّ معوله بسهولة كأنَّه يكتب بريشةٍ، أمَّا الآن فقد بات الأمر أشبه بمحاولة زحزحة صخرة.

رغم أنَّ فصل الخريف قد جاء، لكنَّ حرارة الصيف لم تتلاشَ بعد. حين تنظر إلى الأفق ترى أنَّ الشمس الملتهبة تنوي أن تحرق السهل. بينما كان لي سانرين يهوي بمعوله، مفتِّتًا كتل التراب، تدفَّق العرق على وجهه غزيرًا. كان حافي القدمين، مجرَّدًا من ملابسه حتى الخصر، ظهره يلمع رطبًا كأنَّه خارج من بركة السباحة للتوِّ. جعله العرق يشعر بحكَّة في ذراعيه العاريتين، عند العلامات الحُمر لوخز الإبر، الصغيرة كحبَّات السمسم، والتي انتفخت الآن وصارت بحجم لدغات البعوض. قوَّته أوشكت على أن تنفد. في العام السَّابق تمكَّن من تقليب التربة على حدود أرضه خلال نصف يوم فحسب. أمَّا هذا العام، بعد ستَّة أشهر من بيع الدم، فقد استغرق يومين متتالين لإتمام نصف المهمَّة فقط.

الشمس عالية في السماء. تصاعد الدخان في الهواء، من مداخن القرية، وتطاير كسحبٍ من الحرير الأبيض. لقد ماتت جدَّتي منذ قُرابة ثلاثة أشهر. في ذلك اليوم، سقطت في حوض مليء بالدم تركه أبي على الأرض. فجأة باتت مغمورة بدمٍ من الزمرة A. حين رأت كلّ تلك الدماء انهارت تحت وطأة الخوف. ومنذ ذلك الحين باتت تعاني من نوبات الهلع واضطراب ضربات القلب. في نهاية المطاف، تبيَّن أنَّ قلبها لم يقوَ على تحمُّل كلِّ ذلك، فتوقَّف تمامًا عن النبض وماتت. أقسم أبي وعمِّي باكيين، عقب وفاتها، أنَّهما سيكفّان عن شراء الدم وجمعه وسيعتزلان

هذه التجارة نهائيًّا. لكن الآن، وبعد مرور ثلاثة أشهر فحسب، عادا من جديد لجولاتهما على العربة ذات العجلات الثلاث.

في ذلك اليوم بالذات، كان أبي وعمي عائدين إلى البيت من قرية نائية، بعيدة عن الطريق الرئيس، ذهبا إليها لجمع الدم. اكتظتْ عربتهما بالقوارير والأكياس المملوءة ببلازما الدم. إنَّه موسم الذروة بالنسبة للمزارعين الذين لم يجدوا وقتًا كافيًا لترك حقولهم والتوجُّه إلى أقرب محطَّة دم. لكن أبي كان قد وقَّع عقدًا يتعهَّد فيه بتسليم كميَّة معيَّنة لشاحنات جمع الدم يوميًّا.

ولأنَّ لديه مقدار لا بُدَّ من استيفائه، لم يكن لديه خيار آخر سوى الذهاب إلى القرى النائية والحقول البعيدة. لم يكن لديه خيار سوى الوقوف في الحقول ودعوة المزارعين للاقتراب وبيع دمائهم.

في طريق العودة للقرية، رأى عمي وأبي لي سانرين يقلَّب تربة حقله. أوقف عمِّي العربة عند طرف الحقل.

«يا هذا! هل لديك أيّ دم للبيع؟».

رفع لي سانرين رأسه وحدَّق للحظة في عمي قبل أن يستأنف عمله.

«أف!»، نادى عمِّي مجدّدًا. «ستبيع أم لا؟».

«أنتما يا أبناء دينغ... لن تشبعا من مصِّ دماء هذه القرية حتَّى تجفَّ عروقها»، بصقَ لي سانرين.

همسَ عمِّي، الذي كان في الثامنة عشرة يومذاك، يشتمه.

«اللعنة عليك يا بن العاهرة. جئناك إلى حقلك وأموالنا معنا، ومع ذلك لا تريد أن تبيع».

انضمَّ أبي إلى عمِّي عند طرف الحقل. بعد أن راقب لي سانرين قليلًا، تنحَّى وراح يمشي على التراب المنكوش. كان الأمر شبيهًا بالمشي فوق حقل من القطن، ومع كل خطوة تنطلق نفحة من رائحة حلوة غنيَّة. وحين بات يقف وجهًا لوجه مع لي سانرين، حيَّاه أبي بتهذيب.

«مرحبًا سيِّدي العمدة».

حدَّق لي سانرين بأبي ذاهلًا، وتجمَّد معوله في الهواء. لقد مرَّ أكثر من عامين على آخر مرَّة ناداه فيها أحدهم بلقب العمدة، ناهيك عن «سيِّدي». ورغم أنَّ لي سانرين لم يتفوَّه بشيء، لكنَّه وضع معوله جانبًا واستمع إلى ما يقوله أبي.

«سيِّدي العمدة، حضرتُ قبل بضعة أيَّام اجتماعًا للحديث عن تجربتي في تجارة الدم مع بعض مسؤولي المقاطعة. وجَّه كلٌّ من حاكم المقاطعة ومدير التعليم المسؤول عن التنمية الريفيَّة وتخفيف وطأة الفقر النقدَ لقرية دينغ لأنَّها لم تبع ما يكفي من الدم. كانا مستائين لعدم وجود مسؤولين في القرية يساعدون في تنظيم شؤون جمع الدم. لقد سألوني إذا كنتُ على استعداد للتدخُّل وتولِّي منصب العمدة».

هنا توقَّف أبي ورمق العمدة السابق كأنَّه يحاول أن يسبر ردَّة فعله. رمقه لي سانرين بدوره.

«بالطبع لن أقبل بهذه الوظيفة. لقد أخبرتهم أنَّ هناك شخصًا واحدًا في هذه القرية مؤهَّلٌ لمنصب العمدة، وهذا الشخص هو أنتَ».

حملقَ لي سانرين واتسعت حدقتاه.

«لقد أسَّست عائلتي هذه القرية، ورغم أنني أنا وأنت لا نشترك

باسم العائلة، ولكنّي سأكون أوّل من يقول إنَّ أحدًا لم يبذل جهدًا يضاهي الجهد الكبير الذي بذلتَه أنت من أجل القرية. طالما أنَّك على قيد الحياة فلن يحلَّ محلَّك أحد. طالما أنَّك هنا فلا وجودَ لمن هو مؤهَّل أكثر منك لإدارة هذه القرية».

حين أنهى حديثه، استدار أبي وعاد أدراجه عبر الحقل. قفزت الجنادب والحشرات من التربة التي قُلبت حديثًا وحطَّت على حذائه وفوق جسده. هزَّ ذراعيه محاولًا التخلُّص منها. وعندما وصل طرف الحقل، سمع لي سانرين ينادي من خلفه.

«عُد يا دينغ هوي! أعتقد أنني أستطيع المجازفة ببيع نصف لتر آخر».

«وجهُك مصفرٌّ بعض الشيء. ربَّما عليك الانتظار بضعة أيَّام»، قال أبي.

«حين تعيش ما عشتُه، وتمرُّ بكل ما مررتُ به، ستعرف أنَّ بيع القليل من الدم لا يبعث على الخوف. و... اللعنة! ما قيمة بضع قطرات من الدم إذا كانت ستساعد في ازدهار بلدي؟».

عندما كان لي سانرين مستلقيًا بشكلٍ مريحٍ في ظلِّ شجرة بجانب حقله، متكئًا برأسه على مقبض معوله، علَّق أبي كيسًا فارغًا على غصنٍ يتدلّى فوقه. أدخل عمِّي إبرةً في وريد لي سانرين وبدأ دمه المتدفِّق في الأنابيب البلاستيكيَّة -التي قطرُها كقطر عيدان الطعام- يملأ الكيس ببطء.

اللصاقة المطبوعة على الكيس تشير إلى: ٥٠٠ سم^3. لكنَّها تحتوي ٦٠٠ حين تمتلئ تمامًا. وإذا نقرتَ برفقٍ على الكيس أثناء سحب الدم فقد تتمكَّن من سحب ما يصل إلى ٧٠٠ سم^3 دون أن يدرك المعطي ذلك.

وبطبيعة الحال، نقر أبي على الكيس وهو يسحب دم لي سانرين، مدّعيًا أن هذا ضروريٌّ لمنع الدم من التخثُّر. وفي غضون ذلك الوقت تابع حديثه.

«لا يوجد مَن هو جدير بمنصب العمدة في هذه القرية إلا أنتَ».

«كفاني. لقد أمضيتُ نصف حياتي وأنا أعمل لأجل هذه القرية»، تنهَّد لي سانرين.

«لكنَّك لم تبلغ الخمسين حتَّى. ما زلت صغيرًا على التقاعد».

«إذا حدثَ وعدتُ إلى المنصب، أودُّ يا دينغ هوي أن تكون نائبي».

«لقد أخبرتُ حاكم المقاطعة ومدير التعليم أنَّ الموت أهون عندي من عدم تراجعك عن التقاعد وتولّيك القيادة... لن أقبل بهذا المنصب على جثّتي».

«كم من الدم سحبت؟».

«لا عليك. كاد الكيس يمتلئ».

سرعان ما امتلأ الكيس وكاد ينفجر. حين أنزله عمِّي عن الغصن، اهتزَّ مثل زجاجة منتفخة بالماء الساخن.

من الحقل الظليل، فاحت رائحة الدم الحلوة واللزجة. رائحة التوت الأحمر المقطوف للتوّ إذ يغلي في وعاءٍ من الماء. وبعد أن أزال عمِّي الإبرة من ثنية ذراع لي سانرين وبدأ يوضّب أدواته، ناول أبي العمدةَ السابق ورقة نقديَّة بقيمة مئة يوان.

«هل تريد الفكَّة؟»، سأله لي سانرين.

«حسنٌ، سعر البلازما منخفض هذه الأيّام. الكيس بثمانين يوانًا فقط»، أجاب أبي.

«سأعطيك العشرين».

«لا يا سيّدي العمدة، من فضلك لا تحرجني. إنَّها بضعة يوانات فحسب. حتَّى لو كانت خمسين يوانًا، فلن آخذها»، قال أبي ممسكًا بيده.

قبل لي سانرين المبلغ على استحياء. شحب وجهه شحوبًا غير طبيعيّ. جعله الشحوب وقطرات العرق المتساقطة على وجهه يبدو كتمثالٍ شمعيّ متروك تحت المطر. حاول الوقوف والعودة إلى حقله، ولكن قبل أن يخطو بضع خطوات، ترنَّح واضطرَّ للجلوس على الأرض متكئًا على مقبض معوله.

«دينغ هوي! أشعر بالدوخة. أشعر بأنَّ كل شيء يدور حولي»، صاح بأسى.

«لم أجبرك على شيء. أنتَ مَن كنت مصرًّا. هل تريد أن نقلبك رأسًا على عقب كي يتدفَّق دمك من جديد؟».

«نعم، هلّا حاولنا ذلك»، وافق لي سانرين.

استلقى على الأرض وسمحَ لأبي وعمِّي أن يمسكا بساقيه ويرفعاه في الهواء حتّى صار معلَّقًا رأسًا على عقب. تركاه متدليًّا لبعض الوقت وهما يدلِّكان ساقيه بلطف كي يتحرَّك الدم نحو رأسه، كأنَّه بنطال غُسِل للتوِّ يحاولان عصر الماء الفائض منه.

لمَّا انتهيا أنزلاه أرضًا.

«هل شعرت بأيِّ تحسُّن؟».

وقف لي سانرين على مهلٍ وخطا بضع خطوات، وابتسم.

«أفضل بكثير. حين تعيشان ما عشتُه، وتختبرانِ كلَّ ما مررتُ به، ستدركانِ أنَّ بيع القليل من الدم لا يبعث على الخوف».

ركب أبي وعمِّي في العربة وانطلقا.

توجَّه لي سانرين نحو حقله لمواصلة العمل رغم أنَّه ما زال مترنِّحًا بعض الشيء ويتكئ على معوله. راقبه أبي وعمِّي شاعرين بالقلق من أنَّه قد ينهار مرة أخرى، لكنَّ ذلك لم يحدث لحسن الحظ. حين وصل وسط حقله، استدار لي سانرين وصرخ: «لا تنسَ يا دينغ هوي! إذا أصبحتُ العمدة من جديد فأودُّك أن تكون نائبي!».

التفت أبي وعمِّي ليبتسما له وواصلا طريقهما. حين بلغا مدخل القرية، لاحظا أنَّ الكثير من أهالي القرية مستلقون تحت ضوء الشمس، على كلّ منحدرٍ صغيرٍ أو أرضٍ مائلة. رفعوا أقدامهم بينما بقيت رؤوسهم في الأسفل، كما كانوا يفعلون حين يبيعون الدم ويصيبهم الدوار. بعض القرويين الآخرين أخذوا أبوابًا خشبيَّة من فناءات بيوتهم وأسندوها على كرسيّين مختلفي الحجم، لتشكيل منصّة مائلة يمكنهم الاستلقاء عليها. بعض الشباب وقفوا على رؤوسهم وأسندوا كعوبهم على الجدران، في ممارسة تُعرف باسم «إرواء الدماغ». أدرك أبي وعمي أنَّهما وبينما كانا في قرية بعيدة يجمعان الدم، جاء طاقم مختلف من رؤوس الدم إلى قرية دينغ لتصيُّد زبائنهما. توقّفا في الشارع ونظرا من حولهما. كان أبي مصدومًا لدرجة عدم القدرة على قول شيء، وكان عمِّي غاضبًا جدًّا.

«يا لكم من أوغاد! يا لكم من سفلة!».

لم يتَّضح مَن كان يقصد بشتائمه؛ أهل القرية أم رؤوس الدم.

لم يكن لي سانرين قد بلغَ الخمسين من عمره عندما بدأ بيع دمه. بمجرَّد أن بدأ في الأمر لم يكن هناك سبيل للتراجع. ففي تجارة الدم هناك بدايات فقط، وما من وجود للنهايات. بحلول الوقت الذي أدرك فيه لي سانرين أنَّه مصاب بالحمَّى، كان قد بلغ الستين تقريبًا. وبسبب عمره بدا أنَّ المرض استشرى به أكثر من غيره، وجعله لا يقوى على الكلام. لقد كانت النهاية، شيء من قبيل النهاية. كانت نهاية لكل تلك السنوات التي قضاها على أمل أن يصبح عمدةً من جديد. بعد مرور عشر سنوات، كانت قرية دينغ بلا مدير، ولم يكلِّف كبار المسؤولين أنفسهم عناء تعيين عمدة جديد.

شاخ لي سانرين سريعًا. حين اقترب من الستين، بدا كعجوزٍ في السبعين. بدا موته وشيكًا، ربَّما في غضون أشهر. لقد وصلَ مرضه إلى مرحلة نهائيَّة. كان يمشي ببطءٍ، بألمٍ، كأنَّ قدميه مثقلتان بالصخور. «لا أفهم لماذا لا تستطيع العيش في المدرسة كالآخرين بدلًا من أن تبقى هنا وتجعلني جالسة بجوارك طوال اليوم»، اشتكت زوجته. وهكذا انتقل العمدة السابق إلى المدرسة للإقامة مع القرويين المرضى الآخرين. وبعدها لم يتحدّث إلا نادرًا. قضى الأيَّام وحيدًا، يمشي ببطءٍ منفردًا في باحة المدرسة، يراقب الآخرين ولا يتفاعل معهم أبدًا. في كل ليلة يصعد إلى السرير الذي وضعه في زاوية الصف وينام. كأنَّه يقضي وقته كلَّ يوم بانتظار الموت. لكن في هذا اليوم بالذات، طلعت الشمس وكانت ساطعة...

كانت زهور قرية دينغ تجعلها تنبض بالحياة، مغطِّية الأرض بالألوان ومالئة السماء بالعطر. خاض أهل القرية في بحر الزهور هذا، بعضهم يحفر الأرض بالمجارف والمعاول وبعض آخر يحمل الأكوام على الأكتاف والظهور. عملوا بثباتٍ وصمتٍ، جعلهم الكدُّ لا يقوون على الحديث، وكانت وجوههم متلألئة بالعرق ومكلّلة بالابتسامات، يتنقَّلون هنا وهناك، جيئةً وذهابًا. استطاع جدِّي من موقعه عند مدخل القرية أنَّ يرى لي سانرين يخرج من الحقل حاملًا سلّتين على عمود الخيزران فوق كتفه. ولأنَّ السلّتين مغطّاتان بملاءات، لم يتمكّن جدّي من رؤية ما بداخلها، ولكنَّ تدلّيهما يوحي بأنّهما تحتويان أشياء ثقيلة جدًّا. مع كل خطوة يخطوها يطرطقُ عمود الخيزران، ويئنُّ تحت ثقل السلَّتين. والآن بعد أن بلغ المرض ذروته، كان من المؤكَّد أن لي سانرين ما عاد أمامه الكثير من الوقت ليعيشه، لكنَّه رغم ذلك بدا سعيدًا بطريقة ما، مبتهجَ الوجهِ إذْ يكابد العبء الثقيل على كاهله. عندما اقترب، اندفع جدِّي ليسأله عما يحمل، وشأنه شأن القرويين الآخرين، ابتسم لي سانرين دون أن يقول شيئًا. توقَّف للحظة لينقل ثقل العمود إلى كتفه الأخرى، ثم تجاوز جدِّي مواصلًا طريقه. بدا أنَّه يقصد بيته. وإذا بحفيده ذي الخمس أو ستّ سنوات يظهر فجأة، ممسكًا بصرَّة كبيرة – بدت شيئًا ملفوفًا بالملابس. راح يركض وهو يصرخ: «جدِّي! جدِّي!» محاولًا اللحاق بلي سانرين. عندما مرَّ بجانب جدِّي، تعثَّر الصبيّ الصغير بشجيرة ياسمين شتويَّة نبتتْ في منتصف الطريق، وسقط أرضًا. طارت الصرَّة من بين ذراعيه وتناثرت محتوياتها على الطريق محدثةً الكثير من الخشخشة والرنين. التفت جدِّي ليرى سبب هذه الضجَّة فتجمَّد في

مكانه مندهشًا. دهشة بهيجة. لم يكن بمقدوره قطُّ أن يتخيَّل ما تحتويه تلك الصرَّة: سبائك ذهبيَّة متلألئة، وعملات ذهبيَّة لَمَّاعة، وشذرات ذهبيَّة بحجم حبَّات الفول السودانيِّ المكتنزة. تحت سطح السهل المكسوِّ بالأزهار، كان الذهب ينمو من التربة. لقد كان هناك طوال الوقت. جالسًا وسط الطريق، يحدِّق في الذهب الذي انزلق من قبضته، بدأ حفيد لي سانرين الصغير يبكي. جدِّي الذي اعتقد أنَّ عليه مساعدة الصبي، مشى ومدَّ ذراعه... وفي تلك اللحظة...

مكتبة
t.me/soramnqraa

انتهى الحلم. استيقظ جدِّي.

أيقظهُ لي سانرين الواقف بجوار سريرهِ.

٤

أدرك جدِّي أنَّه لا بدَّ وأن كان نائمًا. على الأقلِّ، خال أنَّه كان نائمًا. تذكَّر بشكل ضبابيٍّ لي سانرين يدخل إلى غرفته على أطراف أصابعه ويقف بجانب سريره لفترة من الوقت قبل أن يهمس: «شوي يانغ... دينغ شوي يانغ؟»، ممَّا تسبَّب في إيقاظه.

لاحظَ جدِّي أن ذراعه كانت مستلقية فوق لحافه، بدلًا من أن تنعمَ في الدفء تحته. كانت الذراع المنبسطة نفسها التي مدَّها لحفيد لي سانرين الصغير. بوسعه أن يتذكَّر المشهد بوضوحٍ، وما زال بوسعه أن يرى ذلك... بوسعه أن يرى...

... مساحة شاسعة من الأزهار في السَّهل، بحر من الأزهار يغطِّي قرية دينغ والحقول المحيطة ومجرى الماء البعيد حيث كان يتدفَّق النهر

الأصفر ذات يوم. قوس قزح من الألوان المتألِّقة، تحته بريق الذهب... طوب من ذهب، بلاط من ذهب، سبائك من ذهب، شذرات من ذهب، كتل من ذهب، وقطع صغيرة من ذهب، صغيرة وكثيرة مثل حبَّات القمح أو الرمل... أغمض جدِّي عينيه محاولًا تصوُّر الأزهار والذهب النامي تحتها، على أمل أن يستعيد المشهد...

لكن المشهد قد تلاشى. لقد اختفى.

عندما سمع جدِّي همسًا باسمه مرَّة أخرة تقلَّب في السرير مبتسمًا، كأنَّه يستعدُّ لإخبار لي سانرين عن الحلم الذي رآه. ولكن بمجرَّد أن لاحت له نظرة الغَمِّ على وجه لي سانرين، تبخَّرت الكلمات عن شفتيه.

«ماذا جرى يا سانرين؟»، سأله جدِّي وهو ينهض.

«ذلك اللصُّ اللعين...»، التهبَ صوت لي سانرين غضبًا، «لا يكنُّ احترامًا لأيِّ شيء. لا شيء يسلم من سرقة هذا الوغد».

«ماذا فقدت؟».

«الشيء الوحيد الذي لا أستطيع تحمُّل فقدانه».

«ماذا فقدت بحقِّ الربِّ؟»، سأله جدِّي بصبر نافد وهو يرتدي ثيابه. «بصراحة يا سانرين، حين كنت عمدة القرية لم يكن بوسع أحد أن يجاريك في طلاقة الحديث. أمَّا الآن فأنت لا تستطيع أن تقول جملة واحدة متماسكة».

تفحَّص لي سانرين وجه جدِّي. وبعد لحظة من التردُّد قال:

«سأقول لك الحقيقة يا شوي يانغ. بعد أن تركتُ منصبي، احتفظتُ

بالختم الرسميِّ للجنة الحزب في القرية. اعتقدتُ أنَّه طالما ستظلُّ القرية بلا عمدة أو أمين للحزب، فينبغي أن أحتفظ به صَونًا للأمانة. طوال تلك السنوات لم يغبْ الختم عن ناظري. الليلةَ الماضية، قبل أن أخلد للنوم، خبَّأتُ الختم وقليلًا من النقود تحت وسادتي. عندما استيقظتُ هذا الصباح، اختفى كل شيء».

وتابع بجدِّية: «لا تهمُّني النقود. لكنِّ لا أستطيع تحمُّل فقدان هذا الختم. عليَّ أن أستعيده، مهما حدث. لم يفارق عينيَّ منذ عشر سنوات، ولكن حين تفقَّدتُه هذا الصباح لم أجد شيئًا».

استنارت السماء أكثر فأكثر، وامتلأت الغرفة بأشعَّة الشمس الشاحبة. عندما لاحظ جدِّي أنَّ عمي لم يرجع بعد، وأنَّه غير موجود في سريره، أظلم وجهُه واكفهرَّ. للحظة بدا أنَّه قد نسي كلَّ ما يخصّ الختم المسروق. بعد ذلك، حين رأى جسد لي سانرين المنكمش والهزيل وملامح وجهه اليائسة سأل: «كم المال المفقود؟».

«لا تهمّني النقود، أريد أن أستعيد الختم فحسب».

«كم المال المفقود؟»، أصرَّ جدِّي.

«كما قلتُ لك، النقود لا تهمّني. أريد أن أعثر على الختم».

حدَّق جدي في لي سانرين، لم يسبق أن رآه بهذه الحالة من قبل، كان في غاية الاضطراب. وبعد لحظة، سأله جدِّي بهدوء: «ماذا تقترح للعثور عليه؟».

«تفتيش المدرسة»، كان صوت لي سانرين باردًا. «شوي يانغ، لقد كنت معلِّمًا طوال حياتك وكنتَ دائمًا تعلِّم طلابك ألَّا يسرقوا. والآن

دعوت كل هؤلاء القرويين المرضى للعيش في المدرسة وها هم يسرقون أمام ناظريك».

بلا ردٍّ، غادر جدِّي الغرفة. تبعه لي سانرين إلى الفناء.

غدا الأفق الشرقيُّ بِركةً من الضوء الذهبيِّ... *بحر من الزهور الذهبيَّة، يغطِّي الأرض والسماء، يربط كلَّ أرضٍ وكلَّ حقلٍ... أكداس الزهور بارتفاع سلاسل الجبال، وبامتداد المدى... تتساقط الزهور في باحة المدرسة، وتغرق المدرسة في غمار البتلات...*

كان مبنى المدرسة ذو الطابقين هادئًا. لا يزال كلُّ المقيمين فيه نيامًا. ففي صباحٍ شتويٍّ باكر كهذا الصباح كان البقاء متكوِّمًا تحت البطانيَّات أنعمَ دفئًا.

خارجًا، في باحة المدرسة، كان العَقعقُ يغني فوق أغصان شجرة البولونيا العالية. يُقال إنَّ غناء العَقعقِ فألُ خيرٍ وبِشارة. لا يمكن لهذا أن يعني سوى أنَّ شيئًا رائعًا قد حدث في باحة المدرسة؛ أنَّ شخصًا ما لديه سببٌ وجيهٌ للاحتفال.

متدلِّية من غصن شجرة واطئ، كانت الصفيحة المعدنيَّة المربَّعة الأشبه بناقوس مرتجل يستخدم كجرسٍ للمدرسة. تناول جدِّي قضيبًا معدنيًّا من ثنيَّة في الشجرة وضرب به الناقوس، محدثًا رنينًا صاخبًا. كانت هذه إشارة لكلِّ المقيمين أن يتجمَّعوا فورًا في باحة المدرسة.

كانت الصفيحة المعدنيَّة التي لم تُقرع منذ فترة طويلة متآكلة بالصدأ. حين ضربها جدِّي بالقضيب الفولاذيِّ تطايرت قشورُ الصدأ عن سطحها. منذ أن توقَّف الطلَّاب عن المجيء إلى الصفوف، خرج

جرسُ المدرسة عن الخدمة وتحوَّل إلى زينة شأنه شأن سارية العلم المنبثقة من المنصَّة الإسمنتيَّة في الجانب الشرقيِّ من باحة المدرسة. في الماضي كان كلُّ يومٍ دراسيٍّ يبدأ بمراسم رفع العلم الإلزاميَّة. أمَّا الآن تنتصب سارية العلم العارية طللًا من أطلال الأيَّام المنصرمة.

والآن، من جديد، ضجَّت المدرسة بصوت مألوف: رنين الجرس المدوّي الذي يتردَّد صداه في باحة المدرسة كنيران البنادق.

بدأ المقيمون الملتفّون بالمعاطف يظهرون من نوافذ الطابق الثاني. «ما الخطب؟»، صرخوا.

وبنبرة الصوت ذاتها التي نطق بها حين كان عمدة القرية، صارح لي سانرين: «اجتماع! هيَّا إلى الاجتماع في الباحة!».

«هل قبضتم على اللصِّ؟»، سأل أحدهم.

«تعالوا للاجتماع وستعرفون ذلك»، صاح لي سانرين.

خرج القرويُّون من مبنى المدرسة، بعضهم يفرك عينيه نعاسًا، وبعض آخر يرتدي ملابسه بعجالة أو يزرِّرها. تدفَّقوا إلى باحة المدرسة وملؤوا أرض الاجتماع بين شجرة البولونيا وملعب كرة السلَّة. كان عمِّي ولينغ لينغ هناك أيضًا. لم ينتبه أحدٌ، في خضمِّ الارتباك، إليهما وهما يخرجان من غرفة التخزين ويندمجانِ في الحشد. كلاهما لا يزال يعدِّل ثيابه، ووجهاهما يشعَّان بوهجٍ غريبٍ يجعلك، لولا أنَّك تعرف الحقيقة، لا تخمِّن أبدًا أنَّهما مريضان. وقفا بعيدًا عن بعضيهما كشخصين بالكاد يعرفان بعضهما بعضًا (وبالتأكيد كشخصين لم يقضيا، للتوِّ، الليلةَ معًا).

أشرقتِ الشمس بالفعل، وصبَّتْ لهيبها من الأفق الشرقيِّ في إشارةٍ إلى بداية يوم جديد: يوم جيِّد للقبض على لصٍّ.

«في هذه المرحلة، معظمكم في ذروة مرضه. أنتم هنا اليوم، ولكن قد لا تكونون هنا غدًا. ومع ذلك، في وقت كهذا، ما زلتم تسرقون... يسرق بعضكم بعضًا. الليلة الماضية سرق أحدهم مالًا من لي سانرين».

«لا يهمُّني المال»، قاطعه لي سانرين بصوتٍ عالٍ. «لكنَّ اللصَّ سرق الختم الرسميّ للجنة الحزب في قرية دينغ. طوال عشر سنوات، لم أترك الختم يغيب عن ناظري، لكنَّه سُرِق بالأمس».

«لذلك ليس أمامي من خيار سوى تفتيش المدرسة»، قال جدِّي. ثم رفع صوته وأردف: «مَن سيتطوَّع لمساعدتي أنا ولي سانرين في تفتيش المدرسة غرفة غرفة؟».

مرَّر جدِّي نظرته على سائر حشد القرويين. وقبل أن تصل عيناه إلى الجانب الآخر، شقَّ عمِّي طريقه إلى المقدِّمة. قال بحماس: «أنا سأساعد في التفتيش. ففي نهاية المطاف أنا ضحيّة أخرى. بلغت جرأة ذلك اللصّ حدًّا جعله يسرق السترة الجديدة لزوجة ابن عمِّي».

في تلك اللحظة، احمرَّت لينغ لينغ خجلًا، كانت وجنتاها بلون الشروق. شاهدت عمِّي وهو يخرج من الحشد مثل البطل المنتصر ويتخذ مكانه بجانب جدِّي.

بعد أن عثروا على متطوِّعَين آخرين، شرعوا في تفتيش المدرسة غرفة غرفة، من الأرض إلى السقف.

أظهر التفتيش اثنين من اللصوص. تشاو شيو تشين؛ المرأة التي

تولَّت طهي الطعام. كان مرضُها في ذروته. تصلَّبت البقع على وجهها وتحوَّلت إلى تكتُّلات منتفخة بحجم حبَّات البازلاء المطبوخة. كان الطفح الجلديُّ المتناثر الذي غطَّى معصميها ويديها مختلفًا: عناقيد من البثور الحُمر الزاهية، بلون ظلِّ الشمس المترامية فوق السهل. بمجرَّد أن يختفي أحد هذه البثور يظهر آخر محله. تزاحمت البثور لغزو المزيد من المساحة، وجعلتها تشعر بحكَّة شديدة لم تقوَ على تحمُّلها. تسبَّب الحكُّ المستمرّ في تجرثم البثور؛ وباتت قروحًا متقيِّحة تفوح منها رائحة كريهة ومالحة بذلت قصارى جهدها لإخفائها عن الآخرين.

عادة، بعد مرور ستَّة أشهر من المرض وتفشِّي هذا النوع من الطفح الجلديِّ أكثر من مرة، يقترب الشخص من الموت. لكن تشاو شيو تشين لم تكن شخصًا عاديًّا. لقد عانت من فوعات المرض أكثر من غيرها وظلَّت على قيد الحياة.

كان زوجُها وانغ باو شان والذي يكبرها بعشر سنوات قد باع دمه واقترض المال ليدفع مهرَها. وبعد أن أنفقت مهرَها لمساعدة شقيقها الأصغر في العثور على زوجة، لجأت تشاو شيو تشين إلى بيع دمها لمساعدة زوجها في سداد الديون. والآن، بعد مرور عقدٍ من الزمان، أُصيبت بالمرض بينما سلم زوجها.

قبل ستَّة أشهر، حين اندلعت الحمَّى لديها أوَّل مرة، أمضت أيّامًا مستلقية على الأرض في فناء بيتها، تخبط التراب بكعبيها وتلعن قدرها. «هذا ليس عدلًا... هذا ليس عدلًا...».

وعندما حاول زوجها أن يرفعها عن الأرض، خدشت وجهه

بأظافرها فسال منه الدم. «أنتَ مَن فعل كل هذا بي أيُّها اللقيط... هذا كلُّه بسببك»، راحت تصرخ.

ظلَّت لا تطاق لعدة أيَّام. شتمت وبكت وخبطت بقدميها مرسلةً سحب الغبار. وبعد ذلك، فجأة، توقَّفت نوبات الغضب والبكاء. استأنفت واجباتها البيتيَّة المعتادة: الطبخ لزوجها وإطعام الدجاجات.

والآن بعد أن أقامت في المدرسة، لم تكن تطبخ لأجل زوجها، بل لكل مرضى القرية. لم تكن تطبخ لهم فحسب، بل كانت تسرقهم أيضًا.

كان سرير تشاو شيو تشين في زاوية الصفِّ الأول في الطابق الأرضيّ. انتقل جدِّي ولي سانرين من صفٍّ إلى آخر، يقلبان الأسرَّة وينكشان الألحفة ويعبثان بالصناديق وصرر الملابس. حين وصلا إلى سريرها، لم تكن موجودة هناك. لقد بدأت بالطهي قبل شروق الشمس بوقت طويل. يومًا بعد يوم، ومن الصباح حتّى الليل، كانت تعمل بلا كلل وبلا تذمُّر: تعدُّ الوجبات وتغسل الأطباق وتجلي القدور وتقوم بكل ما يلزم. بالإضافة لكل ذلك، فقد كانت طبَّاخة ماهرة.

في ذلك اليوم، عندما وصل فريق التفتيش إلى سريرها، كانت في المطبخ تعدُّ الفطور. بينما كان جدِّي ينكش لحافها ويبحث تحت الفراش راح لي سانرين يهزُّ وسادتها. وجدها ثقيلة على نحو مريب، كأنَّها مملوءة بالرصاص. حين فكَّ الدرزات، انسكب الأرز الأبيض على الأرض. تساقطت حبَّات الأرز على الأرض كي يراها الجميع.

ذُهلوا جميعًا، تجمَّدت ملامحهم تحت وطأة الصدمة. لم يتخيَّلوا قطُّ أن المرأة التي تعدُّ لهم الطعام هي اللصُّ الذي كان يسرق مؤنهم الغذائيَّة.

أُرسل أحد أعضاء فريق التفتيش إلى المطبخ من أجل إحضار تشاو شيو تشين.

في تلك الأثناء، كان عمِّي في الطابق الثاني من مبنى المدرسة يسحبُ لصًّا آخر من فراشه. مرَّة أخرى كانت هُويَّة اللصِّ مفاجِئةً: تشاو دي تشيوان؛ المزارع دمث الخلق ذو الخمسين عامًا والذي لم يسبق أن رفع صوته على أحدٍ طوال حياته. مكتبة سُر مَن قرأ

وبينما احتشدَ الجميعُ في باحة المدرسة، ظلَّ تشاو دي تشيوان في سريره. ففي الأيَّام القليلة الماضية شعر بالتعب أكثر من المعتاد وبالكاد استطاع أن يستجمع القوَّة للمشي دون مساندة من أحد. الآخرون، الذين قلقوا بشأنِ موته الوشيك، لم يطاوعهم قلبهم لإزعاجه. وحين وصل عمِّي ومَن معه إلى سرير تشاو دي تشيوان، كانت كلّ الصفوف الأخرى في الطابق العلويّ قد فُتِّشت. وجدوا تشاو مستلقيًا فوق لحافه، يستريح. شعاع الشمس المتسلِّل عبر النافذة جعل وجهه يبدو محمرًّا وجافًّا كجثّةٍ متيبّسة تُركت تحت الشمس.

تفاجأ الجميع عندما عرفوا أنَّ تشاو دي تشيوان سارق. لقد كان مزارعًا درويشًا ساذجًا قضى عمرَه يعمل في الأرض. وحين كان يبيع محاصيله أو يتاجر بشيء ما، لم يكن يكلِّف نفسه عناء قراءة الميزان أو المساومة على الأسعار أو المراوغة في تقدير الأثمان. قبل ثماني أو عشر سنوات، خلال موجة بيع وشراء الدم الجنونيَّة، باع دمه دون أن يفكِّر ولو مرة واحدة في السؤال عن المبلغ الذي سيتقاضاه. كان يقبل أيَّ مبلغ يقدِّمه رؤوس الدم إليه ويسمح لهم بأن يسحبوا من عروقه المقدار الذي يريدونه.

حين كان أبي يسأله عن كميَّة الدم التي سيسحبها، كان تشاو دي تشيوان يجيب: «خذ بقدر ما تريد، وتوقَّف حين ترى وجهي قد اصفرَّ».

وبطبيعة الحال، كان أبي يختار أكبر أكياس البلازما الموجودة ويملؤه حتى يكاد ينفجر. لم يكن يُزيل الإبرة المغروسة في ذراعه حتّى يصفرَّ وجهه تمامًا ويتصبَّب جبينه بالعرق. وكان أبي يعطيه يوانات إضافيَّة مقابل كميَّة الدم الإضافيَّة التي سحبها.

«من بين جميع تجّار الدم الذين عرفتهم، أنت أفضلهم تعاملًا معي يا دينغ هوي»، كان تشاو يقول متناولًا النقود.

ومنذ ذلك الحين، ظلَّ يقصد أبي لبيع دمه.

وبطبيعة الحال، كان تشاو آخر شخصٍ يمكن لعمِّي أن يظنّه لصًّا، وآخر شخص يمكن أن يُشتبه في أنَّه سرق السترة الحريريَّة الحمراء التي كانت جزءًا من جهاز الزفاف الخاصّ بلينغ لينغ. تحت ضوء الشمس الساطع الذي غمر الغرفة قادمًا عبر النافذة، بدت ملامحه محنَّطة كمومياء. عيناه اللتان تغطيهما طبقةٌ بيضاء بدتا كعيني سمكة ميتة. وبينما كان يراقب أعضاء فريق البحث يتنقَّلون ذهابًا وإيابًا، ويفتِّشون الأسرَّة من حوله، لمعتْ عيناه الشبيهتان بعيني سمكة ميتة ببريق حسد غير مكبوح. حسد الرجل المريض تجاه أولئك الذين لم يتمكَّن منهم المرض كما تمكَّن منه. لقد حسدهم على طاقتهم، على الحياة المتبقّية أمامهم. امتلأت عيناه بالدموع وندَّت عنه تنهيدة ثقيلة. تنهيدة غائرة وطويلة.

عندما لاحظ بعضُهم اليأس البالغ الذي انتهى إليه تشاو، حاولوا الترويح عنه بالنكات والحيل. «يا هذا، كلَّما أسرعتَ في الموت، بدأتَ

حياتك التالية باكرًا!»، قهقه أحد الرجال. لم يتصوّر أيٌّ منهم أنَّه كان يتحدَّث إلى لصّ، إلى رجل سرق قطعة ملابس جميلة لعروس شابّة جميلة.

انتهى أعضاء الفريق من تفتيش الصفّ وأوشكوا على المغادرة من دون أن يكلّفوا أنفسهم عناء تفتيش ممتلكات تشاو. حينها توقَّف عمِّي لسبب ما عند الباب واستدار للتحديق في تشاو دي تشيوان. ولسبب لم يستطع توضيحه، حتّى لنفسه، اقترب من سرير تشاو وانتزع الأغطية وأخرج صرَّة ملفوفة بالقماش. حين فتحها عثر على سترة زفاف لينغ لينغ المسروقة بداخلها.

استُدعيت تشاو شيو تشين من مطبخها.

جُلِب تشاو دي تشيوان من سريره.

اللصّان يتشاركان بالاسم نفسه. لقد كانا عارًا على اسم تشاو، وقد جلبا العار على كلّ الملقّبين بهذا الاسم أينما كانوا.

كانت الشمس مشرقة وبدأ الدفءُ يعمُّ باحة المدرسة. فاحت رائحة منعشة وزكيّة قادمة من الحقول البعيدة. العصافير تغرِّد على الأغصان. احتشد عشرات القرويين الغاضبين في الفناء، ونادوا لتشاو شيو تشين كي تخرج وتواجههم كأنَّهم كانوا طوال الوقت يعرفون أنَّها السارقة. لم يساور أحدٌ شعور بأنَّها مظلومة أو متّهمة زورًا وبهتانًا. كانت هي من ظلمتهم؛ لقد خذلت القرية بأكلمها.

بعد أن داروا حول شجرة الپولونيا لفترة، قرَّر بعضهم الذهاب إلى المطبخ وإحضارها. ولكن إن كانوا يتوقّعون منها أن تخرج مطأطئة الرأس، شاعرة بالعار، والذنب يقطر من وجهها، فقد أخطؤوا كلَّ

الخطأ. لم يكن هناك أيُّ أثر للندم في تعابير وجهها عندما خرجت من المطبخ وهي تمسح يديها بمئزرها. لقد بدت منزعجة أكثر من كونها مذعورة لاستدعائها المفاجئ من عملها. بثقةٍ، وحتّى بتحدٍّ، عبرت باحة المدرسة ووقفت أمام التجمُّع كبطلة من أبطال القصص تواجه حشدًا من الأعداء.

حدَّق جدِّي في الوسادة المملوءة بالأرز والمسندة على جذع الشجرة، ثم التفت إلى الطبّاخة.

«هل هذا صحيح يا شيو تشين؟ هل أنتِ مَن سرق الأرز من المطبخ؟»، سألها.

«لا. ماذا يجري هنا؟».

«لقد سمعت شائعات بأنَّك اعتدتِ أن تسرقي المحاصيل من حقول الآخرين، لكنني لم أتصوّر قطُّ أنك قد تسرقين طعام الأشخاص الذين في نفس وضعك، الأشخاص الذين على حافّة قبرهم». بأسى نظر جدِّي إلى الأرض التي باتت مغطّاة بالأرز المنسكب من الوسادة. لاحقت تشاو شيو تشين عينيه. حين رأت الوسادة، تجمّدت في مكانها، عاجزة عن الكلام.

بعد ثوانٍ، اندفعت وضمّت الوسادة إلى صدرها كأنَّها طفل يحاول أحدهم أن يخطفه من بين ذراعيها. قرفصت على الأرض أمام جدِّي، تحتضن الوسادة وتخبط بقدميها على الأرض الترابيّة.

«لقد فتّشتم أشيائي! أيّها الأوغاد ناكرو الجميل... لقد فتّشتم أشيائي دون علمي!»، صرخت. «جميعكم مصابون بالحمّى، لكن ليس لديكم

ذرّة ضمير أو امتنان... كيف أمكنكم تفتيش سريري دون علمي؟ لماذا توجّب عليّ أن أبقى لرعاية مجموعة مرضى بينما بوسعي أن أعود لبيتي وأعتني بأسرتي؟ أستيقظ باكرًا كل يوم لأعدّ لكم الفطور، ثم تتناولون طعامكم حتى تنتفخ بطونكم وترمون أطباقكم جانبًا وتذهبون إلى أسرّتكم. لماذا توجّب عليّ أن أغسل أطباقكم القذرة؟ أنا دائمًا من يجب عليه الذهاب إلى البئر واستخراج كل المياه اللازمة للطهي والشرب، بينما أنتم لا تحاولون حتّى الحفاظ على قطرة ماء... تهدرون حوضًا كاملًا لغسل طبق صغير. أنا مريضة مثل كل واحد منكم، وأعرف أن أحدًا منّا لن يبقى على قيد الحياة لنهاية هذا العام. طالما أننا سنموت عما قريب، لماذا ينبغي أن أكون عبدة بلا أجر؟ هل يكون حصولي على القليل من الأرز كل شهر، بعد كل ما فعلته من أجلكم، أمرًا لا يطاق لهذه الدرجة؟ لو أنني أقوم بهذا العمل نفسه في أي مكان آخر لكنتُ حصلت على ذلك، بل وعلى بضع مئات من اليوانات شهريًّا. لكن هل طلبتُ يومًا أن أتقاضى أجرًا مقابل عملي هنا؟ هل طلبتُ فلسًا واحدًا؟ رغم أنّكم دائمًا تتغنّون بطعامي اللذيذ. ولكن لماذا عليَّ أن أقضي كل يومي أكدح في المطبخ، في خدمة حضراتكم، وبلا مقابل؟ كلُّ ما أردتُه هو كيس صغير بخس من الأرزّ».

طوال الوقت الذي كانت فيه تشاو شيو تشين تصرخ وتكيل الاتّهامات لم تذرف دمعة واحدة. كانت رعشة النشيج التي اعترت صوتها لا تصدر إلا عن شخصٍ كابد ظلمًا فادحًا. عندما أنهت خطبتها، مسحت عينها كأنّها قد بكت، ونظرت إلى القرويين من حولها.

«هل تحتاج عائلتك إلى الأرزّ لهذه الدرجة؟»، سألها جدِّي.

حدَّقت تشاو شيو تشين في وجهه.

«ليس بحوزتهم أي شيء. ليس بحوزتهم عود كبريت أو كسرة حطب».

«كان عليكِ إخباري بذلك!»، صاح جدِّي بغضب. «كنتُ سأعطيكِ بعضًا ممّا عندي من أجلهم».

«لست هنا لأتسوَّل منك. هذا الأمر أشدّ سوءًا بالنسبة لي. لم أرد سوى حقّي».

هذه المرَّة كان جدِّي هو العاجز عن الكلام. لم يكن هناك ما يمكن أن يقوله. يبدو أنَّ حشد القرويين أيضًا قد عُقدت ألسنتهم. لقد انقلبت الأمور: باتوا الآن هم مَن ظلموا تشاو شيو تشين، لا العكس. في تلك اللحظة، ظهر عمِّي وبعض رجال القرية، وهم يقودون تشاو دي تشيوان على درج المدرسة.

لم يكن لدى تشاو دي تشيوان شيءٌ من شجاعة الطبّاخة وسطوتها. ورغم أنَّه رجل، لكنّه لم يكن جسورًا -ولا شجاعًا- كما كانت تشاو شيو تشين. بوجهه الشاحب، المصفرّ، المتعرِّق بغزارة، رغم قرصة البرد التي ترافق منتصف الشتاء، بدا كسجينٍ يُقاد نحو المقصلة. جعلته خطواته الصغيرة المتعرِّجة يبدو وكأنه يتحرَّك للخلف، لا للأمام.

حين وصل أسفل الدرج، رفع تشاو دي تشيوان رأسه ورأى القرويين المتجمعين في باحة المدرسة. التفت ليقول شيئًا في أذن عمِّي. وحين التفت مرّة أخرى، بدا وجهه شاحبًا شحوب الموت. كان واضحًا

للجميع أنَّه في المراحل الأخيرة من المرض، يدنو من نهاية حياته. بدا نحيلًا كعصا. المعطف الذي كان يلائمه تمامًا فيما مضى بات الآن يتدلَّى على هيكله المنكمش؛ كان كُمَّا بنطاله أشبهَ بدلوين ضخمتين تتهدَّلان حول كاحليه وتصطدمان بساقيه حين يمشي. بعظامه الهشَّة كسويقات النبات، وجلده الرقيق كورق الشجر، بدا أنَّه لا يمشي بقدر ما يرفرف... ما عاد رجلًا، بل صار شبحًا. وهكذا طفا بينهم، ووقف أمام الحشد مطأطئ الرأس، كطالب قُبض عليه يغشُّ في الامتحان واستُدعي للمثول أمام الصفّ كلّه.

علقت قطرات صغيرة من العرق على جبهته، وتناوب لون جلده بين الاصفرار السقيم والابيضاض الأشدّ سقمًا. القرويّون الذين كانوا مركّزين انتباههم بشدة مع تشاو شيو تشين حوّلوا اهتمامهم الآن نحو تشاو دي تشيوان. كان من المستحيل التصديق أنَّ بقايا الرجل هذا، هذا الشبح، من الممكن أن يسرق سترة لينغ لينغ الحريريَّة الحمراء. لقد شقَّ عليها أن تصدِّق ذلك بنفسها. حدَّقت بارتباك في تشاو دي تشيوان، ثم في عمِّي الذي كان يحمل سترتها.

«عثرت على هذه أسفل سريره، تحت الأغطية»، قال عمِّي وهو يسلِّمها السترة.

بتباطؤ وتألُّم، قرفص تشاو دي تشيوان على الأرض وطأطأ رأسه خجلًا. كان الأمر كأنَّه، حالًا، لا يشهد تمرير السترة فحسب من يد إلى يد، بل تمرير شرف حياته إلى الهاوية. بدا وجهه أشدّ شحوبًا من ذي قبل: كأنَّه مصنوع من الشمع، عيناه عينا سمكة ميتة. حدَّق بثبات في أطراف أصابع قدميه، منكمشًا على نفسه ككلب مجلود يرتعد في الزاوية.

«دي تشيوان، هل أنت من سرق السترة حقًّا؟»، قال جدِّي.

تكوَّر تشاو دي تشيوان على الأرض ولم يقل شيئًا.

«إنني أسألك... هل أنت من سرقها؟».

انكمش تشاو دي تشيوان على نفسه وظلَّ صامتًا.

«إن لم تكن أنت فعليك أن تقول».

نظر تشاو دي تشيوان إلى جدِّي شزرًا، لكنَّه ظلّ صامتًا كبئر فارغة، جسده ذابل كورقة ميتة.

تحدّث عمي: «أنا من عثر على السترة تحت أغطيتك. هل تدّعي أنَّ هذا اتهام كاذب؟».

طأطأ تشاو دي تشيوان رأسه أكثر وظلَّ صامتًا.

رمق جدِّي عمِّي بنظرة متحجِّرة. «اخرس يا ولد. قلتَ ما فيه الكفاية».

سكت عمِّي وحملق ساخطًا.

بحلول ذلك الوقت، كانت الشمس قد انفلقت عن الأفق ووصلت إلى ارتفاع معيّن تسكب منه ذهبها المنصهر على باحة المدرسة. نقّل القرويون أنظارهم بين جدِّي وتشاو دي تشيوان مرارًا، مترقبين رؤية نهاية هذه الدراما.

«لقد خيّبتَ أملي يا تشاو دي تشيوان. ابنك سيتزوّج قريبًا وها أنت ذا تسرق سترة لينغ لينغ التي جاءتها كهديّة زفاف».

مع سماع هذه الكلمات تنامى توتُّر تشاو دي تشيوان. تساقطت قطرات العرق من جبهته على الأرض.

كان القرويّون صامتين. وفي خضمّ هذا الصمت، وقفت تشاو شيو تشين فجأة وسارت نحو المطبخ وهي لا تزال ممسكة بغطاء وسادتها المملوء بالأرزّ.

«إلى أين أنت ذاهبة؟»، سألها جدّي.

«لقد تركتُ القدر يغلي على الموقد. إذا احترق الطعام فلن نتناول فطورنا اليوم»، أجابت.

وجد لي سانرين فرصة سانحة. «إيه يا شيو تشين، ختم القرية ليس لديكِ، أليس كذلك؟»، قال بعفويّة.

«نعم. ما بكَ تتصرّف وكأنه مصنوع من الذهب!»، أجابت بتجهُّم.

فكَّر لي سانرين للحظة في ما قالته ثم قرفص بجوار تشاو دي تشيوان.

وبصوته العذب، الأكثر طمأنينة قال: «دي تشيوان... يا أخي ويا صديقي القديم... كلانا في الخمسينيات من العمر. إن كنتَ قد أخذتَ الختم من تحت وسادتي... حسنٌ، فقط أعده لي».

ببطءٍ ووقار، هزَّ تشاو دي تشيوان رأسه.

«هل أنت متأكّد من أنّك لم تأخذه؟»، حاول لي سانرين مرة أخرى.

أومأ تشاو.

وقف لي سانرين وقفةَ رجلٍ مهزوم. جبهته باتت الآن مغطّاة بطبقة رقيقة من عرق التوتُّر، كأنَّ قد التقط هذه القطرات من تشاو دي تشيوان. وبنظرة يائسة ومفعمة بالأمل، التفت إلى حشد القرويين وأعلن بصوتٍ

عالٍ: «مهما يكن مَن أخذ المال فبوسعه أن يحتفظ به. لكنني أرجو أن يعيدَ إليّ ختم القرية. طوال عشر سنوات لم يغب هذا الختم عن ناظريّ، خبّأته في صندوق مقفول في البيت وكنت آخذه معي كلّما خرجت. بالأمس، وقبل أن أخلد للنوم، وضعت المال والختم تحت وسادتي. عندما استيقظتُ هذا الصباح لم أجد شيئًا».

«كما سبق وقلتُ: لا تهمّني النقود»، رفع لي سانرين صوته. «ولكن الختم يجب أن يُعاد إليّ!».

وهكذا مرَّت الحادثة بهدوء. لم يُقَل أيّ شيء آخر بشأنها.

مرَّت الأيّام بسرعة وتلاشى اليوم إثر الآخر، وسرعان ما عاد الهدوء والسلام إلى المدرسة. ذات يوم، كانت لينغ لينغ في طريقها إلى حمّامات النساء. حمّامات الرجال كانت في الهواء الطلق، شرقيّ مبنى المدرسة مباشرة. وحمّامات النساء كذلك، كانت في الهواء الطلق، ولكن في الجهة الغربيَّة. مشت لينغ لينغ بخفَّة، مرتدية سترتها الحريريَّة الحمراء، وبدت كشمس صغيرة ملتهبة تتحرَّك عبر المدرسة، مارَّة بين المقيمين الذين يذرعون باحة المدرسة ويتمتّعون بأشعّة الشمس. جرعة من الدفء تخفِّف معاناتهم وتعينهم على تحمُّل ما تبقى لهم من الحياة. عندما مرَّت لينغ لينغ بصفٍّ من القرويين المسترخين الناعسين، تبعها تشاو دي تشيوان بعينيه. ثم نهض وبدأ يتبعها على قدميه.

كانت الحمّامات مؤقتة، وهي عبارة عن صفّ من مراحيض القرفصاء محاطة بجدار مرتفع. حين خرجت لينغ لينغ كان تشاو دي تشيوان بانتظارها. تبادل الاثنان النظرات لبضع ثوان. ثمَّ، وبتحديقة

ملأى بالازدراء، ابتعدت لينغ لينغ لكنَّ تشاو دي تشيوان تقدَّم مقاطعًا طريقها.

«لينغ لينغ، هل يمكنكِ أن... هل تستطيعين أن تبيعيني سترتك؟»، قال بصوت كالهمس.

حاول تشاو دي تشيوان أن يبتسم، لكنَّها بدت ابتسامة عليلة، ابتسامة عظميّة. «لم أشعر بالحرج من سؤالك لأنني أعلم أنَّه لم يبقَ أمامي الكثير من الوقت. لا أخالني سأصمد حتّى نهاية الشتاء».

اضمحلَّت ابتسامته. «خلاصة الأمر أنني عندما تزوجتُ، وعدت زوجتي بأنني سأشتري لها ذات يوم سترة حريريَّة حمراء، تشبه سترتك تمامًا. الآن ابني على وشك الزواج وأنا على وشك الموت، ولكنَّها لم تنسَ وعدي قطُّ. أريد أن أفعل هذا الشيء الوحيد قبل أن أموت... أريد أن أعطي زوجتي السترة التي وعدتُها بها».

حدَّقت لينغ لينغ به للحظة ثمّ همَّت بالابتعاد.

«سأعطيكِ ثمنها خمسين يوانًا!»، صرخ وهي تجتازه.

«طيِّب ثمانين!». تابعت لينغ لينغ سيرها.

استدارت لينغ لينغ وسألته: «لماذا لا تذهب إلى المدينة وتشتري واحدة؟».

٥

نعم، لقد مرَّت الحادثة بهدوء. ولم يُقَل أيّ شيء آخر بشأنها. ففي نهاية المطاف، لم تكن المسروقات كثيرة: قليل من الأرزّ وبعض النقود

وسترة وختم القرية، وقد قُبض على اللصوص المتورّطين. قبل وفاته، أراد تشاو دي تشيوان ببساطة أن يمنح زوجته السترة الحريريَّة الحمراء التي وعدها بها كهديّة زفاف. والآن، بعد أن كبر ابنهما وبات على وشك الزواج، صار الوعد أشدّ وطأةً عليه. إنَّه لأمر فظيع أن تكون مشارفًا على الموت بسبب الحمَّى وأنت تعلم أنَّك ما زلت مدينًا لزوجتك بوعد سترة زفاف من الحرير الأحمر. تلك هي الفكرة التي دفعته إلى فعل ما فعله. أمَّا تشاو شيو تشين فقد كانت سرقتها مُبرَّرة. ونظرًا لعملها في المطبخ ليل نهار وبلا أجر، فلم تأخذ إلا ما هو حقٌّ لها.

وفي ضوء هذه الأحداث، أصدر جدِّي بعض التعليمات الجديدة. أوّلًا: بما أنَّ تشاو دي تشيوان أعاد السترة إلى لينغ لينغ، فلن يُعاقب. ثانيًا: إذا أبدت تشاو شيو تشين ومن يساعدها الاستعداد لمواصلة واجبات الطهي، فستعفى ومَن معها من تقديم المساهمات الشهريَّة من الأرز والدقيق والحبوب. ورغم أنّهن لن يتقاضين أجرًا مقابل عملهنّ، لكنّهن سيحصلن على الطعام مجّانًا. ثالثًا: من الآن فصاعدًا، سيطرُد من المدرسة أيّ مقيم يُلقى القبض عليه بجرم السرقة. وبمقدور الجَشِع وعديم الأمانة وصاحب اليد الخفيفة أن يعود إلى داره ويموت في سريره.

ولأنَّ الجميع كانوا يعيشون آخر أيّامهم، بدا الاستمرار في المراوغة غير مجدٍ. وجد لي سانرين الذي لم يتمكّن بعد من العثور على ختم القرية المسروق صعوبة في تجاوز الحادثة رغم أنَّه تظاهر بخلاف ذلك. «لقد ضقتُ ذرعًا بالتفتيش. وبعد كل هذا، ما الفائدة حقًّا؟ لم يعد في قرية دينغ لجنة حزبيَّة منذ مدّة». لكنَّه بمجرَّد أن تفرغ الصفوف كان يتسلَّل إلى

الداخل لتفتيش الأسرَّة واختلاس النظر تحت البطانيَّات وبين ممتلكات الآخرين. وصل به الأمر إلى تفتيش الثقوب الموجودة في الجدران والتي تقطنها الفئران، فراح ينكش أعشاشها ويبحث بين أكوام فضلاتها.

لم يجد أثرًا للختم قطّ.

لقد عذّبته هذه الخسارة. أحيانًا، عندما يجلس وحيدًا كان يطلق تنهيدة طويلة وعميقة كأنَّ في دخيلته تمتدُ غياهب الندم الشاسعة. إلى أن جاء اليوم الذي لم يُعثر فيه على لي سانرين في أماكنه المعتادة. لم يكن في باحة المدرسة يستمتع بأشعة الشمس ولم يكن يجري حملة تفتيش للصفوف ولم يكن يجلس بجوار نافذة مشمسة في الطابق العلوي. كان مضطجعًا تحت أغطية سريره طوال اليوم. في الليلة السابقة انطمر في لحافه وبقي حيث هو حتّى الفجر وطوال الصباح. وعندما لم يخرج لتناول الغداء، أرسل جدِّي عمِّي كي يناديه.

وقف عمِّي عند باب الصف وهو يضرب عيدانه على وعائه ويصرخ: «انهض يا لي سانرين! حان وقت الغداء!».

ولّما لم يتلقَّ ردًّا، جرب حيلة مختلفة.

«سيّدي العمدة، ألستَ جائعًا؟».

وحين لم يصدر عنه جواب أيضًا، تقدَّم عمي نحو سريره ونكزه نكزة خفيفة. كان الأمر أشبه بمحاولة زحزحة عمودٍ من الحجر.

كان عمِّي لا يزال ممسكًا بوعائه وعيدانه، وبشكل مسعورٍ رمى أغطية السرير ورأى وجه لي سانرين المخضرّ. اخضرار داكن وعَفِن. كان لي سانرين ميتًا.

لقد مرَّ وقت على موته. ربّما حدث ذلك قبيل منتصف الليل أو في ساعات الفجر الأولى. ثمَّة بقعة صغيرة داكنة بجوار وسادته، بقعة الدم الذي سعله. لقد اسودَّ وتخثَّر كالطين. بقعة من الطين اليابس.

لم يتوقَّع أحد أن يموت لي سانرين بهذه السرعة. الأغلبيَّة اعتقدوا أنَّ تشاو دي تشيوان سيسبقه. إلا أنَّ لي سانرين هو من كان هنا، مقرورًا في سريره، بينما تشاو دي تشيوان لا يزال حيًّا. ورغم بقعة الدم، كانت ملامح لي سانرين مسترخية، تشي بأنَّه لم يكابد أهوال الاحتضار. ربّما، ببساطة، بصق بعض الدم ثمّ تُوفّي بهدوء. ربّما مات وقلبه طافح بالندم. عيناه مفتوحتان وفمه فاغر كأنَّه كان يحاول أن يقول شيئًا ما، لكنَّه مات قبل أن يتمكَّن من نطق تلك الكلمات.

وقف عمِّي بجانب سرير لي سانرين لوقتٍ بدا طويلًا، وجهه ممتقع وعيدانه متجمِّدة في الهواء. لم يكن الخوف سببَ شحوب وجهه، بل الحقيقة القاسية المتمثِّلة في إدراك أنَّه، هو أيضًا، سيموت قريبًا. بعد وهلة، وضع عمِّي وعاءه وعيدانه وانحنى للأمام كي يرى ما إذا كان لي سانرين يتنفَّس. حين قرَّب أصابعه بحذرٍ شديد من أنف الرجل، لم يشعر بأيّ نفس، بل أحسَّ بقشعريرة باردة تنبعث من منخريه. نهض عمِّي وفتح النافذة وانحنى. في الأسفل، رأى بعض المقيمين في طريقهم لتناول الغداء.

«هيي! لقد مات لي سانرين!»، صاح عمِّي.

نظر الجميع نحو الأعلى. «ماذا تقول؟»، صرخ أحدهم.

«لقد مات لي سانرين. جسده بارد كالثلج».

حدَّق القرويّون بعضهم في وجوه بعضٍ ذاهلين. ما عادوا في عجلة من أمرهم لتناول الغداء، بل صعدوا إلى الطابق الثاني للتأكُّد من موت الرجل. تناوب خمسة أو ستَّة منهم على التلويح بأصابعهم أمام أنفه للتحقُّق ممَّا إذا كان يتنفَّس.

جاء جدِّي إلى الصف، وكان يبدو في غاية الشحوب والامتعاض. وبعد التحقُّق من تنفُّس لي سانرين، التفت إلى القرويين.

«فليذهب أحدكم ويخبر عائلته. عليهم أن يجهِّزوا النعش والكفن».

«لماذا لا نتناول الغداء أوّلًا؟ سيبرد الطعام في هذه الحالة»، اقترح أحدهم.

بعد التفكير للحظة في الأمر، سحب جدِّي الملاءات وغطّى وجه لي سانرين، ثم قاد الجميع إلى الطابق السفليّ لتناول الطعام. خلال الغداء لم يتحدَّث أحدٌ عن لي سانرين. تناول الجميع طعامهم كالمعتاد؛ مَن سمعوا الخبر ومَن لم يسمعوا.

لقد كان يومًا هادئًا وساكنًا. أشرقت الشمس بسطوعٍ وغمرت باحة المدرسة بالدفء والسكينة. جلس بعض المقيمين على الأرض ووقف بعض آخر أثناء تناول الغداء المكوَّن من الخبز والحساء وعصيدة الذرة المجروشة التي كانت وصفة تشاو شيو تشين المميّزة. جلس بعض على مقاعد أحضروها من الصفوف بينما خلع آخرون أحذيتهم وجلسوا عليها. بينما كانوا يمضغون الخبز ويرتشفونَ الحساء، تحدَّثوا عن شؤون القرية وردَّدوا النكات نفسها -بعضها مضحك وبعضها لا- التي يتبادلونها منذ سنوات. انخرط بعضهم في الحديث وآخرونَ

ظلُّوا مستمعينَ. لقد كان غداءً نموذجيًّا، كأيِّ غداء آخر، كأنَّ شيئًا غيرَ عاديٍّ لم يحدث.

جلست لينغ لينغ بجوار عمِّي وسألته: «هل مات العمدة العجوز أو شيء من هذا القبيل؟».

«ما هذا الذي تتحدّثين عنه؟ لقد قال للتوّ إنه ليس على ما يرام ولا يستطيع أن ينزل لتناول الغداء»، قال عمِّي وهو يرمقها بنظرة غريبة.

«ليت مَن سرق ختمه يعيده إليه. عندها لن يظلَّ حزينًا هكذا طوال الوقت».

«لقد استعدتِ سترتك وهذا هو المهمّ. لا تقلقي بشأن الآخرين».

نظر جدِّي حوله إلى القرويين الذين يتناولون وجباتهم. بعضهم، ممّن أنهوا طعامهم، واصلوا أحاديثهم التي لا تكلُّ. وحين انتهى الجميع تقريبًا من تناول الطعام وقف كي يعلن شيئًا.

«لقد قرَّر لي سانرين أنَّه لا يريد البقاء في المدرسة بعد الآن». التفت إلى الطبّاخة وقال لها: «من الآن فصاعدًا يا شيو تشين خفّضي عدد الوجبات بمقدار وجبة واحدة».

عمَّ صمتٌ ذاهلٌ بعد أن استوعب القرويّون كلمات جدِّي. بدا أنَّهم فهموا ما قاله لكنَّه لم يكونوا متأكّدين تمامًا. حدَّقوا بعضهم في وجوه بعضٍ، ولم يجرؤ أحدٌ على طرح السؤال الذي دار في أذهان الجميع. كان الصمت في باحة المدرسة عاتيًا، الهدوء جعل صوتَ الأنفاس مسموعًا. أو صوتَ حبس الأنفاس.

ريشة وحيدة، محمولة مع هبَّة ريح، شقَّت الصمت. في تلك اللحظة،

تنحنح دينغ تزوي تزوي الجالس قرب باب المطبخ وأعلن أنَّه يريد أن يروي نكتة على مسامع الجميع.

بدأ كلامه قائلًا: «ذات مرَّة، كان هناك مسؤول مقاطعة يتمتّع بذكاء شديد جعله يؤدّي أيّ مهمة توضع أمامه بمنتهى السهولة. وفي يوم من الأيام، أحضره قاضي المقاطعة -راغبًا في اختباره- إلى ضواحي العاصمة. قال القاضي وهو يشير إلى فتاة جميلة تسير في طريق بجانب أرض مزروعة بالخضار: «اذهب وتحدّث إلى تلك الفتاة. وإذا سمحت لك بتقبيلها على شفتيها، فسأعطيك ختمي الرسمي وأدعك تتولّى أعمالي لمدة ثلاثة أيام كاملة. وإذا لم تسمح لك بذلك، فسأجلدك خمسين جلدة. موافق؟» بعد التفكير مليًّا، تقدَّم مسؤول المقاطعة الذكيُّ نحو الفتاة. وقبل أن يتكلَّم معها ببضع جُمل، رفعت وجهها نحو وجهه وفتحت ثغرها وسمحت له بتقبيلها على شفتيها. بعدها، تسلَّم المسؤول الذكي الختم وصار قائمًا بأعمال قاضي المقاطعة لمدَّة ثلاثة أيام. «الآن، ماذا تتوقّعون أنَّ المسؤول الذكي قد قال للفتاة؟»، سأل دينغ تزوي تزوي القرويين الذين توقَّفوا عن الأكل وأنصتوا إليه باهتمام بالغ».

أخذ رشفات قليلة من حسائه، لتشويقهم قليلًا قبل أن يجيب.

«بعد أن سحبها جانبًا، قال: «لماذا كنت تسرقين الكراث من أرض عائلتي؟». قالت: «لم أسرق شيئًا، كنت أسير بجانب الأرض بالمصادفة. هل تتهمني بالسرقة؟». ردَّ المسؤول الذكي: «لكنني رأيتك تقطفين الكراث وتأكلينه. هل يمكنك إثبات أنَّك لم تسرقي؟». قالت الفتاة: «لم أسرق. وإذا كنت لا تصدّقني، ألقِ نظرة إلى فمي. هل تستطيع أن

ترى شيئًا من الكراث فيه؟» أجابها المسؤول: «بالطبع لا أستطيع لأنّك ابتلعتِه». غضبت الفتاة. «ماذا يفترض بي أن أفعل إذًا؟ أشقّ بطني وأريك ما بداخله؟» قال لها المسؤول: «لستِ مضطرة لفعل ذلك. للكراث رائحة قوّية. دعيني أشمّ رائحة أنفاسك فحسب، وسأتبيّن الحقيقة فورًا». عندها فتحت الفتاة فمها ورفعت رأسها كي تسمح له بأن يشمّ أنفاسها، وحينها، بالطبع، قبّلها. لم يكن أمام قاضي المقاطعة من خيار سوى تسليم ختم الدولة الكبير إلى المسؤول الذكيّ. وفي غضون ثلاثة أيّام، استخدم المسؤول سلطته لنقل كلّ أصدقائه وأقاربه من الريف إلى المدينة ومنحهم مناصب رفيعة في إدارة المقاطعة وأعمالها التجارية. أصبحوا جميعًا أثرياء وعاشوا في سعادة دائمة».

وصل دينغ تزوي تزوي، الملقَّب بالثرثار، إلى المدرسة الابتدائيَّة قبل بضعة أيَّام. حين اكتشف إصابته بالحمَّى أخبر كلّ أفراد عائلته بأنَّه سينتقل إلى المدرسة للاستمتاع بـ«أيَّامه القليلة المتبقية في الجنَّة». ومنذ غادر أهله، عند بوَّابة المدرسة، بدأ يضحك ويثرثر. عمَّ الضحك أرجاء المدرسة منذ ذلك الحين، لا سيّما مع مخزونه اللانهائيّ من الحكايا والنكات.

أثار إعلان جدِّي بأنَّ لي سانرين سيغادر المدرسة ويعود إلى بيته الذعرَ لدى الآخرين. وبعد أن سمعوا النكتة التي رواها الثرثار، زال ذعرهم وانفرجت أساريرهم وراحوا يضحكون ويبتسمون. ضحك بعض بشفتين مزمومتين. آخرون تأرجحت رؤوسهم للخلف وانفجرت قهقاتهم. قلّة ضحكوا بشدة حتى سقطوا عن مقاعدهم ودلقوا أطباق الحساء على قمصانهم.

٦

في جنازة لي سانرين، عقب يومين من وفاته، لم تبكِ زوجته. بل سألت جدِّي بشأن جثمان زوجها. لماذا ظلَّت عينا هذا الشيطان العجوز مفتوحتين وفمه فاغر؟ هل كان هناك ما يزعجه قبيل وفاته؟ هل كان هناك ما يؤرِّق روحه؟

ذهب جدِّي برفقتها إلى خيمة الجنازة لإلقاء نظرة. كان لي سانرين مستلقيًا بعينين مفتوحتين وفم فاغر. بدت عيناه وهو ميت أكبر ممّا كانت في أيّ وقت خلال حياته، ابيضَّت مقلتاه، المتقهقرتان داخل محجريه، كبياض قبّعة الجنازة التي ترتديها أرملته. فكَّر جدِّي قليلًا ثم غادر القرية بمفرده دون أن ينبس بكلمة لزوجة الميت أو أيّ من الحاضرين. لم يكن متأكدًا من وجهته ولكنه كان يعرف ما ينبغي أن يفعله.

بعد عدَّة ساعات، عاد بحوزته ختم منحوت حديثًا، مكتوب عليه «لجنة الحزب الشيوعيّ – قرية دينغ». ختم مستدير وجديد ويبدو رسميًّا للغاية. كان قد أحضر أيضًا علبة صغيرة مستديرة من العجينة الحمراء اللزجة التي تستخدم في تحبير الأختام. وضع جدِّي هذه الأشياء داخل النعش، آملًا تبديد الخسران الذي خيَّم على أيَّام لي سانرين الأخيرة. بعد أن وضع ختم القرية في يده اليمنى، وعلبة الحبر في يده اليسرى، قال جدِّي للعمدة السابق: «انظر يا سانرين، لقد عثرتُ على ختمك أخيرًا. كان في المدرسة طوال الوقت ويبدو أنَّه قد سقط منك في صدع بين ألواح الأرضيَّة». وضع جدِّي يده على عيني لي سانرين وأغمضها بلطف. هذه

المرَّة ظلّت عيناه مغمضتين. فعل الشيء نفسه مع فمه، وتأكَّد من أنَّ شفتيه ظلَّتا منطبقتين معًا.

أُغمضت عينا لي سانرين أخيرًا، وأُطبقت شفتاه. بدا مختلفًا جدًّا بملامحه المطمئنّة. ورغم أنَّ جسده، في النعش، كان هزيلًا وضامرًا، إلا أنَّ وجهه بدا مسالمًا مرتاحًا. كوجه رجلٍ لم يكابد الخسران أو خيبات الأمل أو الندم. لقد كان وجهًا يشي بارتياح تامّ.

الفصل الثاني

١

دعوني أخبركم بعض الأشياء عن عائلتي، عن جدِّي وأبي. دعوني أخبركم عن الأحلام التي رآها جدِّي عن أبي وعن عائلتنا. أحلام لهم وعنهم؛ أحلام شاسعة البعد، لا قرار لها.

لقد قَرّر أبي أن ننتقل خارج القرية. أصبحت قرية دينغ مكانًا كئيبًا مقفرًا. أرضًا يبابًا. لقد فقدت زخم الحياة. انتقل معظم المرضى إلى المدرسة الابتدائيَّة، أمّا غير المرضى فقد أمضوا أيّامهم وراء أبواب بيوتهم الموصدة. الشوارع مهجورة؛ من النادر أن ترى شخصًا أو تسمع صوتًا. وفي مرحلة ما، توقّف القرويّون عن تعليق لافتات العزاء على الأبواب. غدا الموت أمرًا شائعًا للغاية، حدثًا يوميًّا، لدرجة أنَّ الناس ما عادوا يتجشّمون عناء تعليق لافتات العزاء أو شراء النعوش الفاخرة أو إقامة الجنازات اللائقة. توقَّف بعضهم عن حضور الجنازات نهائيًّا. بات الموتُ أشبهَ برفَّةِ العين. مثل إطفاء مصباح أو مشاهدة ورقة تسقط من شجرة في الخريف. كانت القرية صامتة ووحيدة. هادئة ومنعزلة كقبر. غادرت بعض العائلات الشارع الجديد وانتقلت إلى عاصمة

المقاطعة. حتَّى إنَّ إحدى العائلات انتقلت إلى مكان أبعد، إلى مدينة كايفنغ.

غادروا جحافل جحافل، تاركين القرية والبيوت الجديدة الفاخرة التي شيّدوها. أضحت قرية دينغ خاوية. صارت أرضًا يبابًا. فقدت زخم الحياة.

بعد أن حاول والدُه خنقَه، عقد أبي العزم على الرحيل. أراد أن يُخرج أسرته من القرية إلى الأبد. ولكن حين أجرى الحسابات اللازمة، أدرك أنَّه عاجز عن القيام بذلك. فإذا أراد الانتقال إلى عاصمة المقاطعة أو إلى كايفنغ، فسيحتاج إلى المزيد من المال. أرَّقت هذه المشكلات الماليَّة ليلَه. وفي فجر أحد الأيَّام، بعد أن قضى ليلته مسهَّدًا يتقلَّب في فراشه، خرج إلى القرية. سارع في الشوارع الهادئة حتّى وصل الجانب الغربي من القرية ووقف يراقب شروق الشمس. اليوم الجديد، المنبلج فوق السهل، جلب معه روائح الأعشاب الطبيَّة المرَّة. عرف أبي أنَّ الرائحة قادمة من المدرسة الابتدائيَّة بلا شكّ، حيث يكون المرضى قد استيقظوا وبدؤوا يغلون جرعاتهم الصباحيَّة من العلاجات العشبيَّة. بمجرَّد أن رأى الدخان يتصاعد من مبنى المدرسة -تلك الأعمدة البِيض الصغيرة المنبعثة من النيران المشتعلة وقدور الأعشاب المغليّة- أحسَّ بخفقان في صدره. كان قلبه يصطدم بأضلاعه كأنَّ هناك مَن يعتصره.

محدِّقًا في الدخان المتصاعد من المدرسة، الذي ما عاد أبيض تمامًا، بل بدا مشوبًا بانعكاساتٍ ذهبيّة وفضيّة، خطر بباله أنَّ أمام كلِّ هؤلاء

المرضى الذين ماتوا، وأولئك المشارفين على الموت، لا يمكن لكبار المسؤولين أن يظلّوا غير مبالين. لا بدَّ لهم أن يفعلوا شيئًا.

على الحكومة أن تقوم بشيء ما من أجل أهالي قرية دينغ. لا يمكن أن تستمرَّ في تجاهلهم فحسب. لا يمكن أن تظلَّ صامتة ومتعامية.

فهل من أحدٍ سمع عن حكومة لا ترى ولا تسمع ولا تقول؟ حكومة لا تفعل شيئًا ولا تتخذ إجراءً ولا تبدي أيَّ اهتمام أمام مشكلات شعبها؟

٢

كان أبي رجلًا من أولئك الرجال الذين يولدون في هذا العالم كي يحققوا أشياء عظيمة. لقد شاء القدر أن يجعله ابنًا لدينغ شوي يانغ، وابنًا لقرية دينغ، وأبًا لي.

بادئ ذي بدء، وجد نفسه مسؤولًا عن دماء قرية دينغ ودماء قرى أخرى تبعد أميالًا عنها. لم يكن مسؤولًا عن دمائها فحسب، بل عن مصيرها أيضًا. وفي النهاية، وجد نفسه مسؤولًا عن نعوشها وقبورها. لم يتخيَّل أبي أنَّه، في يوم من حياته، سيصبح مسؤولًا عن أشياء كثيرة لكنَّه شعر بأنَّه مضطرّ للمحاولة. وانطلاقًا من الإيمان بالتجربة والخطأ، ذهب لزيارة مسؤول من معارفه في المقاطعة، دون أن يعرف ما إذا كان الاجتماع سيثمر أم لا. كان أشبه برجل يحاول فتح بابٍ على أمل أن تشرق الشمس من ورائه. ولذا سافر أبي إلى عاصمة مقاطعة وي.

على مدى السنوات العشر الماضية، نمت العاصمة وتزايد ثراؤها على نحوٍ لا يُصدَّق. كان أبي على موعد مع المسؤول الأعلى رتبةً من معارفه: مدير التعليم السابق في المقاطعة والمسؤول عن التنمية الريفيَّة وتخفيف وطأة الفقر، الذي رُقّي بعد حين ليصبح نائب حاكم المقاطعة. كان أيضًا رئيس فريق العمل بمقاطعة وي المعنيّ بمكافحة فيروس الإيدز. وقد جرت بينه وبين أبي العديد من التفاوضات والاتفاقات في الماضي.

«لقد مات العشرات من الناس... لماذا لم تأتِ إليّ في وقت أبكر؟ ألا تعلم مدى الاهتمام الذي أوليه لقرية دينغ؟ أنت ووالدك، الأستاذ دينغ، تعرفان جيّدًا أنَّ قرية دينغ تحظى بمكانة رفيعة في قلبي»، قال النائب.

«إنَّ حكومة المقاطعة تقدّم النعوش مجّانًا لكلّ من مات بسبب الحمَّى. ألم يسمع أحد في قرية دينغ عن هذا القرار؟ ألم يخبركم أحد بذلك؟»، أضاف.

تحدَّث أبي ونائب الحاكم في سياق اللقاء عن أشياء كثيرة.

«ليس هناك ما يمكننا فعله لأولئك الذين ماتوا... لكن كلّ مَن هو على وشك الموت يمكنه تقديم طلب للمقاطعة وطالما أوراقه الثبوتيَّة سليمة وكاملة، فسيحصل على نعش أسود مجانًا».

وبعد انتهاء الاجتماع قال النائب: «عد الآن إلى قرية دينغ وأخبرهم بما قلتُه لك. وبالمناسبة، آه كم أشتهي أوراق الخردل الحارّة التي تزرعونها في القرية! حين تزورني في المرة القادمة لا تنس أن تجلب لي بعضًا منها... خصوصًا تلك الوريقات الغضّة».

٣

كان جدِّي يعلم أنَّه يحلم، لأنَّه كان يرى الأشياء التي لا يراها المرء إلا في الأحلام. لم يكن يريد أن يستمر في الحلم، لم يكن يريد أن يرى هذه الأشياء، لكنَّ مشهد الحلم كان عجيبًا جدًّا، وأجواؤه من الغرابة أنَّه لم يستطع كبح نفسه عن المتابعة. عاجزًا عن المقاومة، دلف عبر الباب...

... ووجد نفسه في فناء إسمنتيّ كبير، تحيط به المباني من كل الجهات.

كل هذه المباني عبارة عن معامل مشغولة بصنع النعوش.

وباستثناء ذلك، لم يكن يعرف جدّي أين كان. كان يعلم أنّه في حلم، لكنَّه لا يعلم شيئًا عن المكان الذي أخذه إليه هذا الحلم. تذكّر نفسه وهو يعبر سهلًا منبسطًا مقفرًا إلى أن وصل إلى المجرى القديم الجافّ للنهر الأصفر. وإذا به على أرض يغطيها الطمي، واقفًا في حوضٍ يمتدُّ على امتداد البصر. في كلِّ مكان حوله ثمّة كثبان رمليَّة تتراكم وترتفع كتلال صغيرة تنحدر في أخاديد ووديان. من خلال هذه الكثبان، لمح مصنع النعوش.

كان المصنع محاطًا بسياجٍ من الأسلاك الشائكة. الأرض داخل السياج مغطّاة بصفوف من النعوش السُّود الجاهزة. ولأنّها ذات أشكال وأحجام وسماكات مختلفة، فقد صُنِّفت، كما يبدو، إلى درجات مختلفة. تشير العلامات المكتوبة بالطباشير على سطح كلّ نعش إلى درجته: درجة أ أو درجة ب أو درجة ج.

لا بدَّ أنها الظهيرة، لأنَّ الشمس في أوج ارتفاعها فوق السهل. تدفّقت أشعة الشمس اللامعة في الهواء كخيوط من ذهب. ومن خلال السياج الصدئ، رأى جدِّي موجات متلألئة من ضوء الشمس تتلاطم فوق الأرض الرمليَّة وتتدحرج فوق الكثبان كمياه الطوفان.

وقف جدِّي محدِّقًا في بحر النعوش الجاهزة بأسطحها السُّود المصقولة التي تلمع تحت شمس الظهيرة. كان هناك الآلاف والآلاف منها، مصفوفة بأناقة على مساحة إسمنتية كبيرة جدًّا، أكبر من القرية برمّتها. كان رأس كلّ نعش مزيّنًا برمزٍ صينيّ كبير يعبّر عن احترام الموتى مكتوب بلون ذهبيّ وفرشاة عريضة. كلُّ رمزٍ بحجم حوض كبير؛ كلُّ ضربة فرشاة بثخانة ذراع رجل. انعكس ضوء الشمس على السطح المذهَّب مزغللًا عينيه.

أدرك جدِّي أنه معمل حكوميّ يصنع نعوشًا للأشخاص الذين يموتون بالحمّى.

لمح، على بوّابة المصنع، لافتتين ضخمتين من لافتات العزاء التي انتشرت في القرية. تقول اللافتة: «نكنُّ صادقَ التقدير لحياة مَن أصابهم الداء ونرجو أن يكون طريقهم إلى الجنّة معبّدًا بالسلامة والسكينة». حين وصل إلى البوّابة توقّف جدِّي للتحدّث مع حارس الأمن. سأله: «ما هذا المكان؟» وقيل له إنّه مصنع نعوش. «مَن بناه؟». «حكومة المقاطعة»، أجاب الرجل. وحين سأل جدِّي عمّا إذا كان بوسعه الدخول وإلقاء نظرة على المصنع، قال له الحارس: «على الرحب والسعة. أبوابنا لا تُغلَق في وجه مَن يودُّ التعرُّف على منشأتنا».

بمجرَّد عبوره البَّوابة رأى جدِّي آلاف النعوش السود المصقولة. كانت ممتدَّة أمامه كبحيرة داكنة من الزيت، وعلى كلِّ نعش رمز مذهَّب يتلألأ على السطح كسمكةٍ تتقافز.

سمع جدِّي، إذْ كان يدخل إلى أعماق المجمَّع، قعقعة الآلات الصاخبة كأنَّها هزيم الرعد. تبع مصدرَ الصوت ليصل إلى طريق إسمنتي يلتفُّ حول كثبان رمليّة كبيرة. وبينما كان يدور حول الكثبان الرمليَّة، رأى عن بعدٍ صفّين طويلين من ورشات العمل. العشرات من النجّارين والرّسامين والنحّاتين والنقّاشين والدهّانين يذرعون الورشات ذهابًا وإيابًا. يبدو أنَّه خطّ لتجميع الأجزاء أو شيء من هذا القبيل. هناك آلة كبيرة تخرج منها ألواح خشبيَّة غير مكتملة يجري فيما بعدُ تجميعها بشكل نعوش وتُنحت عليها الرموز وتُحمل إلى الخارج لتُوضَع على منصات حيث تُطلى بالأسود وتُصقَل. حين يجفُّ الطلاء والورنيش، يتولّى أحد العمّال تذهيب الرموز الموجودة عند رأس كل نعش. وبعد اكتمال هذه العمليَّة، يصنِّفُ عامل آخر النعوش الجاهزة وفقًا للجودة ويضع عليها علامات: درجة أ أو درجة ب أو درجة ج.

يعمل خطّ التجميع بوتيرة محمومة. كان النجّارون والرّسامون والنحّاتون والنقّاشون والدهّانون وحتّى مراقبو الجودة يتصبّبون عرقًا، يركّبون ويرسمون وينحتون ويفحصون بأسرع ما يمكن. لم يتوقّف أحدهم لحظة كي يتحدّث مع جدِّي؛ بل رمقوه بشكلٍ عابرٍ ثم انكبّوا على عملهم. انتقل جدّي إلى الورشة التالية. وفي طريقه رأى رجلًا في منتصف العمر بدا وكأنه المسؤول عن تصنيف النعوش.

«كيف تستطيع أن تصنّف النعوش إلى مراتب؟»، سأله جدّي.

«هناك مرتبة لكل شيء. بعض الناس يحصلون على القمح وآخرونَ يكتفون بالتبن»، أجاب الرجل.

مشى مبتعدًا وقد ترك جدّي مذهولًا في مكانه.

حين دخل جدّي إلى الورشة التالية وهي عبارة عن مبنى مشيّد من ألواح خشب الصنوبر والإطارات الفولاذيَّة، رأى أنَّ النعوش التي تُصنع في هذا المكان مختلفة تمامًا عن تلك الموجودة بالخارج. وبعد أن تملَّى في عشرات النعوش السود اللامعة، لاحظ أنَّ ثلاثة منها مصنوعة من ألواح خشب البولونيا بسماكة أربعة إنشات واثنين مصنوعان من ألواح الصنوبر الأحمر الأكثر سماكة. كان النوع الأخير من الأخشاب باهظة الثمن للغاية، والتي تتميّز بمقاومة عالية للرطوبة والتعفُّن وغزو الحشرات، إلا أنّها أخشاب نادرة. لم تكن الخامات وحدها ما يميّز هذه النعوش؛ بل الحرفيَّة. فبخلاف الرموز البسيطة التي زيّنت رؤوس النعوش الأخرى، كانت هذه النعوش تحتوي رموزًا مزخرفة بمنحوتات متقنة للتنانين والعنقاوات. كل جانب من جوانب النعش يرفل بنقوش دقيقة التفاصيل لأرواح تخرج من الأرض وتصعد إلى السماء لتلاقي الترحاب الكبير في جنّة النعيم البوذّية. كانت هذه النعوش، بمنحوتاتها المبهرجة وزخارفها الذهبيَّة، تبدو كقصور المتعة المنمنمة.

وبعد ذلك، وقع جدّي على نعش أكبر حجمًا مسنود على مقعدين. كان ثمّة أربعة نقّاشين، واحد على كل جانب من جوانب النعش، يزيّنون الألواح بمشاهد الأرواح المتسامية والتحايا السماويَّة، بالإضافة

إلى صور ملأى بالتفاصيل للفردوسين السماويّ والأرضيّ. فريق آخر من الفنّانين يمنحون المشاهد رونقًا مضيئًا بكميّات كبيرة من الطلاء الذهبيّ والفضيّ أعطت النعش مظهرًا شديد الفخامة. وهناك نقّاش آخر أسندَ غطاء النعش على الجدار وراح ينحت عليه مشاهد عامرة بحشود الأطفال والأحفاد والأقارب تصوّر الأعياد البهيجة وعودة الأرواح المجيدة إلى ملاذها. كان الأطفال المبتسمون والرجال الوسيمون والنساء الحسناوات والشيوخ الوقورون يمثّلون حياةً لا تصدَّق، كلُّ شخصية منهم منحوتة بإتقان يقارب الكمال، وبأدقّ التفاصيل. كانت الفتيات الراقصات والخادمات اللواتي حضرن عودة شاغل النعش المجيدة إلى ملاذه الأخير رشيقات وشديدات الغنج، جمالهنّ يفوق الوصف، يشبهن نساء القصور المنحدرات من سلالات الإمبراطورية السابقة. أظهرَ الحرفيّون إخلاصًا مهيبًا، وَرِعًا، في عملهم كما لو أنَّ هذا النعش لن يوارى تحت الثرى بل سيُعرض في متحف.

عندما تقدَّم جدي ليلقي نظرة عن كثب على عمل النقَّاشين الخمسة، اندهش حين رأى أنَّ النعش مصنوع بالكامل من خشب الأرْز. ليس هذا فحسب، بل من أجود أنواع الأرْز، كل صفيحة من الخشب لوح منفصل وغير ملحوم. وقف جدّي صامتًا أمام النعش، يحدِّق بتعجُّبٍ لاهثٍ في منحوتات التنانين الذهبية والعنقاوات الفضيَّة والحدائق الغنَّاء وقصور المتعة والقرى والنجوع والحقول الوافرة والأنهار المتدفّقة وسلال الجبال الشاهقة. أظهر أحد الألواح منحوتة لوليمة فاخرة، كانت المائدة مملوءة بعلب السجائر من نوع «الصين العظيمة» وزجاجات باهظة الثمن من

مشروب ماوتاي ودجاجات كاملة مشويّة وأطباق من أندر الأسماك التي سبحت في النهر الأصفر. كان ثمّة أحجار لعبة ماجونغ ورزم من بطاقات البوكر في حال كان شاغل النعش يرغب بلعبة حظّ إضافة إلى جاريات حسناوات وخدم أقوياء متأهبين طوع بنانه؛ سواء للتدليك أم للتهوية.

الأكثر غرابة هو أنَّ الحرفيين الذين نقشوا هذه المشاهد السماويَّة أضافوا إليها أجهزة التلفزيون والغسّالات والثلّاجات وغيرها من الأجهزة البيتيَّة التي لم يَرَ لها جدّي مثيلًا من قبل. وبجوار وسائل الراحة الحديثة هذه، كان هناك مبنى صينيّ تقليديّ كُتب فوق بابه نصف الدائريّ «بنك الشعب الصينيّ».

إنَّ اهتمام النقّاشين بأدق التفاصيل وتفانيهم التامّ في العمل جعل الأمر يبدو كأنّهم ينحتون تمثالًا لبوذا، لا مجرّد نعش جنائزيّ. التصقت قطرات العرق الناعمة على جباههم، وانتفخت أعينهم قليلًا في محاجرها بسبب إجهاد البصر المستمرّ. كانوا يستخدمون أدوات نقش مختلفة الأشكال، بعضها طويل ورفيع وبعضها الآخر بشكل هلال أو مزوّى قليلًا أو يشبه إلى حدٍّ كبير الشفرات التي تُستخدم لكشط مسامير القدم. حركة الأنصال جعلت قشور خشب الأرْز الذهبيَّة الشاحبة تتطاير في الهواء وترفرف قبل أن تحطّ على الأرض. كانت الأرضيَّة مغطاة ببساطٍ سميك من نشارة الأرزّ الغزيرة كالحبوب التي تملأ أرضيّات غرف البيادر أو كالبتلات التي تكسو المروج في أواخر الربيع. فاحت رائحة خشب الأرْز العطرة في أنحاء الغرفة وتسرَّبت إلى الخارج. تساءل جدّي

عن هويّة الشخص الذي يُصنع هذا النعش من أجله. إنَّ أثرى أهالي القرية الذين يعرفهم لا يستطيعون تحمُّل تكاليف نعش فخم كهذا، كان النعش يليق بملك. منتهزًا فترة الهدوء القصيرة حين توقَّف أحد النقّاشين لشحذ نصله، قال جدِّي: «يا له من نعش جميل!».

«هذا أفضل النماذج لدينا؛ التنين»، أجاب الرجل وقد رفع نظره نحو جدِّي.

«أوه! وللنعش اسم أيضًا؟». التفت جدِّي إلى النعش المصنوع من خشب الصنوبر. «ما اسم النعش الموجود هناك؟ الذي نُقش عليه استقبال الناس في الجنّة؟».

«العنقاء».

«والنعوش المصنوعة من خشب الپولونيا؟ تلك التي تحتوي نقوشًا على الأطراف فقط؟».

«الأسد الملك».

«حسنٌ، فهمتُ»، قال جدِّي رغم أنَّه لم. «لمن نعش التنين؟».

رفع النقَّاش رأسه نافد الصبر وحدَّق في جدِّي كما لو أنَّه قد طرح سؤالًا لا ينبغي طرحه. وبعد وهلة من التخبُّط في الصمت قرَّر جدِّي أن يغادر. عندما خرج من الورشة، تاركًا وراءه النعوش الغريبة، رأى أن الشمس قد صارت إلى جهة الغرب فوق الكثبان الرمليَّة. ورغم أشعة الشمس الشتويَّة، أحسَّ بقرصة البرودة الواضحة في الهواء. ما عادت النعوش المطلية باللون الأسود -مع درجاتها- تبدو كبحيرة مظلمة لَّماعة. بل بدت الآن أشبه بتشكيلٍ قتاليٍّ؛ كتيبة من النعوش.

ثمّة شاحنة كبيرة واقفة عند أحد الجوانب ومحمّلة بجبلٍ من النعوش السود. كان بعض العمال يوازنون بعناية النعوش القليلة الأخيرة في الذروة. في الأسفل، صاح أحد المشرفين بتعليماته للرجال الذين كانوا يحمّلون الشاحنة وطلب إليهم أن يتأكّدوا من عدم اصطدام النعوش أو انخداشها وتحقّق من أنّهم قد لفّوا كل نعش بحصيرة من القشّ قبل تحميلها على الشاحنة. كان المشرف، الذي يرتدي معطفًا قصيرًا مبطّنًا أزرق اللون عليه ياقة من الفراء الاصطناعيّ، يومئ بعنف وهو يصدر الأوامر لعمّاله. كان خطابه فظًّا وصاخبًا. شعر جدّي بأنَّ صوت الرجل مألوفٌ على نحوٍ غريب، صوت يشبه الأصوات التي تناهت إلى مسامعه في بيته بقرية دينغ.

وبدافع الفضول لمعرفة مَن كان يتحدَّث، استدار جدِّي ليلقي نظرة. كان متأكّدًا من أنّه صوت مألوف. لم يكن المشرف إلا أبي، دينغ هوي. وبعد لحظة من الدهشة، اندفع جدِّي عابرًا بحر النعوش باتجاه ابنه. كان الرجال قد انتهوا من تحميل النعوش وتثبيت الحمولة بالحبال. صعد أبي والرجال على الشاحنة بينما همَّ السائق بتشغيل المحرِّك. ومع نفخة العادم، انطلقت الشاحنة عبر بوّابة المصنع، تاركةً جدِّي بعيدًا خلفها.

وقف جدِّي بالضبط في المكان الذي كانت الشاحنة مركونة فيه قبل ثوانٍ. وإذْ رآها تختفي صرخ مناديًا ابنه: «هوي... ارجع يا بني! هوي...!».

استيقظَ جدِّي.

حين أفاق من حلمه، تفاجأ حين رأى أبي واقفًا عند طرف سريره وهو يهمس: «أبي؟ أبي؟».

أعلم جدِّي عن زيارته للمقاطعة وأخبره أنَّ مدير التعليم المسؤول عن التنمية الريفيَّة وتخفيف وطأة الفقر قد رُقِّي ليصبح نائبًا لحاكم المقاطعة ورئيس فريق العمل المعنيّ بمكافحة فيروس عوز المناعة البشريّ والإيدز في المقاطعة. أخبره أنَّ النائب طلب إليه أن ينقل أحرّ التحيّات إلى جدِّي وأنَّه قطع وعدًا بتزويد كلّ مريض بالحمَّى في قرية دينغ بزجاجة من زيت الطهي وحزمة من الألعاب الناريَّة كي يحتفلوا بالسنة الصينيَّة الجديدة كما يجب.

جلس جدِّي مذهولًا على حافَّة سريره، يحدِّق في أبي ويسترجع حلمه. شعر بأنَّه لا يزال هناك، في مصنع النعوش، غارقًا في حلم.

٤

جاءت السنة الصينيَّة الجديدة ومرَّت.

حدث الاحتفال الكبير المعتاد في اليوم الأوَّل من السنة القمريَّة والاحتفال الصغير المعتاد في اليوم الخامس.

ثمَّ حدث شيء غير معتاد. غير متوقَّع.

خلال رأس السنة، ذهب العديد من الناس لزيارة أقاربهم خارج القرية. وفي سياق هذه الزيارات علموا أنَّ حكومة المقاطعة تقدِّم نعوشًا مجانيَّة مطليَّة باللون الأسود لأسر الأشخاص الذين يموتون جرَّاء الحمَّى. علموا أيضًا أن هذه النعوش تُصنع في مصنعٍ خاصٍّ في مكانٍ ما

على مشارف العاصمة. ولمّا كانوا يعيشون في المقاطعة ذاتها، ويكابدون المرض ذاته... تساءل أهالي قرية دينغ عن سبب قبولهم بزجاجة رخيصة من زيت الطهي وحزمة زهيدة من المفرقعات الناريَّة بينما كان الآخرون يحصلون على نعوش يبلغ ثمنها مئات اليوانات.

لقد كان سؤالًا محقًّا. قرّروا أن يطرحوه على أبي، فقد كان صاحب الصفقة، لذا فهو المسؤول.

بعد أسابيع قليلة من رأس السنة الجديدة، ذهب دينغ يويه جي وتشاو شيو تشين لمقابلة أبي. حين وصلا، بعد الإفطار مباشرة، كان والدي منشغلًا بحفر التربة في زاوية فناء بيتنا. الزاوية نفسها التي كانت فيها حظيرة الخنزير وخم الدجاجات قبل أن يسمِّم القرويّون دجاجاتنا وخنزيرنا. حينها، بعدما لم يبق لديه حيوانات يعلفها، قرَّر أبي هدم الجدران وحفر التربة وتحويل المساحة إلى رقعة خضراوات لزراعة الخردل الحارّ. بجوار أكوام الطوب المحطَّم، بدت التربة المحفورة حديثًا موحلة وداكنة؛ روث غنّي تجمَّع على مدى سنوات من فضلات الدجاج والخنزير. ليس هناك أفضل من هذا المكان لزراعة الخردل الحارّ. كان للتربة رائحة مألوفة، لاذعة ودافئة، رائحة الحقل المسمَّد حديثًا، رائحة حديقة الخضروات الخصبة. كان قد خلع سترته القطنيَّة وبذل قصارى جهده في تقليب التربة. حينها ظهر دينغ يويه جي وتشاو شيو تشين وبعض أهالي القرية الآخرين عند بوّابة بيته، وطالبوه بمعرفة سبب حصول المرضى في القرى المجاورة على نعوش فاخرة في حين أنَّ كل ما حصلوا عليه كان زجاجة من زيت الطهي الرديء.

ترك أبي ما كان بيده، وذهب ليحادثهم عند البوَّابة.

«لولا كل الجهود التي بذلتُها لما حصلتم على زيت الطهي حتّى»، قال لهم.

ثمّ أخبرهم أنَّ هناك قرية يقطنها مئتا شخص فقدت نصف سكّانها في أقلّ من عام. بالمقارنة، كانت قرية دينغ محظوظة. فهل يريدون حقًّا أن يقيموا الدنيا ويقعدوها من أجل النعوش في حين أنَّ هناك مَن هم بحاجة إليها أكثر؟

ثمّ أخبرهم عن قرية أخرى أُصيب فيها بالحمَّى ثلاثمئة شخص من أصل عدد سكَّانها البالغ خمسمئة. فهل يريدون حقًّا أن يحصلوا على نعوش هؤلاء الأشخاص؟

لم يستطع أهالي القرية أن يجادلوه.

وحين رأى أبي أنَّهم ليس لديهم ما يقولونه، تركهم متسمّرين عند البوَّابة وعاد ليستأنف الحفر. سينتهي الشتاء قريبًا، والربيع على الأبواب، وبشأن زراعة الخردل الحار ما عليك سوى أن تنتظر أوّل أيام الربيع لتنثر البذور في الأرض وتسقيها كلَّ يومين. في غضون أسبوع ستنمو لديك البراعم. وفي غضون أسبوعين سيكون لديك نباتات صغيرة شاحبة بلون أزرق مخضوضر تملأ الهواء برائحتها النفّاذة.

في الوقت الذي كان فيه أبي يزرع الخردل حدثت وفاة أخرى في القرية. لم يكن الرجل الميت قد بلغ الثلاثين من عمره بعد، ولم تكن عائلته قادرة على دفع ثمن نعشه. جرَّ هذا الموضوع الكثير من القيل والقال بين القرويين. وفي نهاية المطاف جاء أحد أقارب الرجل للقاء أبي.

«نحن جميعًا إخوة هنا يا دينغ هوي. أليس بوسعك أن تطلب من كبار المسؤولين أن يعطونا نعشًا؟»، قال.

بحرجٍ قال أبي: «لو أنَّ بوسعي الحصول على نعوش، أتظنُّ بأنني قد أتوانى في طلبها؟ وكما ترى... لقد تمكّنت من الحصول على زيت الطهي والمفرقعات الناريَّة من أجل رأس السنة الجديدة، هذا كل ما استطعتُ تحصيله...».

غادر الرجل بعد أن أدرك أنَّ أبي لن يفعل شيئًا من أجله.

سرعان ما نمت نباتات الخردل الحارّ التي زرعها أبي بوفرة وملأت فناء بيتنا برائحتها النفّاذة. جاءت الفراشات. حطَّت هنيهاتٍ ثمَّ رفرفت بعيدًا. وكذا فعل النحل. كانت وريقات الخردل حارّة جدًّا لدرجة تنفِّر الفراشات، وعديمة الحلاوة بشكلٍ يعجزُ عن إغراء النحل.

ولكن في النهاية، ستغدو رقعة الخضراوات الصغيرة الخاصَّة بنا شديدةَ الإغراء.

وعمّا قريب ستتمتَّعُ عائلتُنا بكلّ لذائذ الربيع الحلوة.

الكتاب الرابع

الفصل الأوَّل

١

بدأت السنة الجديدة. مرَّت أيَّام الشهر القمريّ الأوَّل يومًا تلو الآخر. الأوَّل، ثمَّ الخامس، ثمَّ الخامس عشر... وانقضت كلُّها على المنوال نفسه، بلا أي تغيير. أشرقت الشمس وجلبت معها الدفء، هبَّت الريح وجلبت معها البرد. شرب المرضى منقوع الأعشاب المغليَّة. استفحل المرض ومات بعضهم ودُفنوا.

كانت مراسمُ الدفن تذكيرًا بالأيَّام الخوالي في المدرسة، أيَّام الثرثرة والضحك. قضى المرضى معًا صحبةً طيّبة وسعيدة. منذ أن عاد أهالي القرية المرضى إلى بيوتهم بمناسبة رأس السنة، ورجعوا إلى غرفهم المنعزلة وفناءات بيوتهم التي خيَّم عليها الصمت والوحدة، تفاقمت أحوالُهم الصحيَّة، فمَن كان منهم بحالة مستتبّة غدا في خطر، ومَن كان في مرحلة خطرة انتقلَ إلى مرحلته النهائيَّة، ومَن كان في مرحلته النهائيَّة طواه الموت. أرادوا جميعًا استئناف حيواتهم المشتركة في المدرسة، ولكن بعد الخلاف مع أبي بشأن النعوش؛ الخلاف الذي تطايرت فيه أقاويل بذيئة، شعروا بالحرج من لقاء جدّي. ففي نهاية

المطاف كان الرجل الذي أهانوه هو ابن الأستاذ دينغ، ابنه الذي من لحمه ودمه.

ذات يوم، وبعد الإفطار، كان تشاو دي تشيوان ودينغ يويه جي وجيا غن تشو ودينغ تشو شي وتشاو شيو تشين وآخرين في الخارج يستمتعون بأشعة الشمس. الشمس معلَّقة في الأعلى تغمر القرية بدفئها. كان عمي ولينغ لينغ هناك أيضًا، يقفان بعيدًا عن المجموعة، يحدِّقان في عيني بعضهما بعض كعاشقين. أو كلصّين يختلسان الحبّ.

قُوطعت لحظتهما المسروقة بقول أحدهم: «مَن سيخبر الأستاذ دينغ أننا نريد العودة إلى المدرسة؟».

قهقه عمِّي واستدار نحو المجموعة. «أنا سأذهب». تهامس الجميع فيما بينهم معلنين اتفاقهم على أنَّ عمِّي، بطبيعة الحال، هو الرجل المثاليُّ للقيام بهذا الأمر.

«ولكن من سيذهب معي؟».

وقبل أن يتمكَّن أيُّ أحد من الردِّ، قال عمِّي: «ما رأيكِ يا لينغ لينغ؟».

بدت لينغ لينغ متردِّدة، لكن تشاو شيو تشين شجَّعتها. «هيَّا يا لينغ لينغ، فلتذهبي. لم يفتك بك المرض، وما زالت ساقاكِ قويَّتين».

وهكذا غادر عمِّي ولينغ لينغ القرية متجّهين نحو المدرسة.

لم يكن الطريق طويلًا. الحقول على الجانبين بحران أخضران، ورائحة القمح المتبرعم حديثًا تفوح في الهواء المغمور بنور الشمس. كان الطقس صافيًا والجوُّ منعشًا ومُسكِرًا. تحت السماء الخاوية، جثمت القرى

المجاورة كظلال تغزو الأفق. كان عمي ولينغ لينغ قد بلغا مشارف القرية. ورغم أنَّهما ليسا بعيدين عن البيوت، لكنَّ أحدًا لم يكن في الجوار. ففي هذا الوقت، كان معظم الناس قد تجمّعوا وسط القرية، يتناولون الطعام ويستمتعون بالشمس. سارا معًا والكتف على الكتف، وقبل أن يمسك يدَها نظر عمِّي من حوله جيّدًا.

التفتت لينغ لينغ جهةَ القرية متوجِّسة.

«لا تقلقي... وحدنا هنا»، قال عمِّي.

«هل اشتقتَ لي؟»، سألتْه مبتسمة.

«ماذا عنكِ؟ ألم تشتاقي لي؟».

«لا». صار وجه لينغ لينغ جديًّا.

«لا أصدِّقكِ».

«لم أفكّر إلّا بمرضي الذي يتفاقم. سأموت في أيّة لحظة».

متمليًّا في ملامحها، لاحظ عمِّي أنَّ وجهها ما عاد مشرقًا كما كان قبل رأس السنة الجديدة. ثمَّة مسحة خفوتٍ تعتري بشرتها التي كانت متورِّدة، ثمَّة شيء آسن ومظلم تحت الجلد، شيء يشبه الماء القذر إذ يغمر قطعة قماش حمراء. عشرات البقع الأخرى ظهرت على جبهتها، ثآليل لامعة بلون بنيّ محمرّ يغطّيها غشاء أبيض. تحسَّس عمِّي معصمها وظاهرَ يدها، لكنَّه لم يعثر على بقع جديدة. احتفظت بشرتها بشيءٍ من توهُّج الشباب: رونق العروس الشابَّة، رونق امرأة في مطلع العشرينيات من عمرها.

«ستكونين بخير... ليس هناك ما يدعو للقلق»، طمأنها عمِّي.

«كيف لكَ أن تعرف؟».

«أصابني المرض منذ عام تقريبًا، لذا فيمكن أن تعتبريني طبيبًا». ثم ابتسم وقال: «الآن، دعيني ألقي نظرةً على وركَيْكِ».

وقفت لينغ لينغ تحدِّق في عمِّي.

«هيّا يا لينغ لينغ، لقد اشتقتُ إليك كثيرًا ولا أطيق التحمُّل أكثر...». محدِّقًا في وركيها، حاول أن يسحبها إلى الحقل العشبيّ بجانب الطريق. بدا الحقل مهجورًا منذ فترة، فالعشب فيه يصل إلى الركبة في بعض الأماكن ويفوقها في أماكن أخرى. في هذا الوقت من أواخر الشتاء غدا العشب جافًّا وهشًّا ولكنَّ وفرته لا تزالُ بادية. كان العشب الذابل يفوح برائحة عفنيّة جعلته يبدو نديًّا أكثر من العشب الأخضر الطازج أو من براعم القمح الغضَّة.

عندما رفضت لينغ لينغ أن ترافقه إلى الحقل، توسَّل إليها عمِّي. «ألم تشتاقي لي إطلاقًا؟».

«بلى»، اعترفت، الأمر الذي جعله يسحب يدها بقوَّة أكبر.

«ولكن ما الجدوى إن لم يكن هناك سبب للاستمرار في الحياة؟»، تساءلت.

في نهاية المطاف، تمكَّن عمِّي من إقناعها بالخروج عن الطريق. بأيدٍ متشابكة، سارا في الحقل وداسا على العشب. حين وصلا إلى رقعة يرتفع فيها العشب، استلقيا معًا، ومرّغا العشب بجسديهما.

هناك، وسط العشب الطويل، فعلا ما يمكن أن يفعله رجلٌ وامرأة.

فعلا ذلك بجنون. كانا مهوسيين ببعضهما، ونسيا أمرَ المرض، كأنَّ سوءًا لم يصبهما في الحياة. في ضوء الشمس الذي داعب جسديهما، رأى عمِّي أن البقع المنتشرة على جلد لينغ لينغ منتفخة بالدم، متوهّجة كالعقيق الأحمر المكتنز. كانت الثآليل على ردفيها وظهرها نقاطًا حُمرًا زاهية تشبه الأضواء المتلألئة على طول شارع كبير في المدينة. وفي غمار حماستها، بدا وجهها ورديًّا، الوهج الأحمر الخافت طمس الظلال الكامنة تحت سطحه. في تلك اللحظة، اكتشف عمِّي أن لينغ لينغ لا تتمتَّع بالشباب فحسب، بل بالجمال أيضًا: عيناها الكبيرتان المترقرقتان والحوراوتان، جسرُ أنفها الطويل والمستقيم كعود طعام شامخ. عندما استلقيا فوق العشب الطويل، في البداية، بعيدًا عن هبَّات الريح وأنظار المتطفّلين، بدت ذابلة وجافة كالعشب المحيط بها، أمَّا الآن فقدت أشرقت أساريرها. لم تكن تلك البقع التي غطَّت جسدها إلّا مظهرًا جليًّا لرقَّة صباها ونعومة بشرتها الشاحبة. كلَّما نظر عمِّي إليها اعتراه الجنون من جديد. كان مهووسًا بها. تصاعدت رغبتُها لتلاقي رغبته وتحتضن شهوته كما العشب الغضّ الصغير إذ يستبشر بدفء الربيع.

حين انتهى الجنون، تصبَّب العرق وذُرفت الدموع. استلقيا على ظهريهما، جنبًا إلى جنب فوق العشب، يحدِّقان عاليًا في الشمس.

«أتمنّى لو أنَّ بوسعنا أن نتزوَّج»، قال عمِّي.

«لا أعتقدُ أنني سأعيش حتَّى نهاية هذا العام».

«أودُّ أن أتزوّجك ولو لم يبقَ من عمري سوى شهر واحد».

«ماذا عن زوجتكَ؟».

«ولِمَ يهمُّني أمرها؟».

ابتعدت لينغ لينغ عن عمِّي ونهضت. وبعد لحظةٍ قالت: «انسَ الأمر. سنموت قريبًا بكلّ الأحوال».

بعد أن فكَّر في الأمر، لم يكن أمامَه سوى أن يوافق على ما قالته: الأمر لا يستحقُّ عناءَ الطلاق والزواج من جديد. وقفا ونظرا إلى رقعة العشب المسحوقة تحتهما وضحكا. واصلا طريقهما نحو المدرسة، يحاولان إخفاء ابتساماتهما.

حين وصلا، كان جدِّي يرتِّب قاعة الصفّ الكبيرة التي كانت مقرًّا لاجتماعات المقيمين. راح يمسح السبورة بقطعة قماش مبلَّلة، ماحيًا رسومات بالطباشير لخنازير وكلاب وحيوانات أخرى كُتِب تحتها أسماء العديد من القرويين. عندما رأى عمِّي عند باب الصفّ سأله مبتسمًا: «أأنتَ من رسم هذه الأشياء؟».

تجاهل عمِّي السؤال. «الجميع يريدون العودة إلى المدرسة يا أبي».

«لا». هزَّ جدِّي رأسه. «لقد حان الوقت لعودة الأطفال إلى دروسهم».

«ما الفائدة من المدرسة عندما يموت الكبار كلّهم؟»، قال عمِّي.

«بعد أن يموت الكبار سيظلّ الأطفال هنا»، أجاب جدِّي.

«ولكن مَن سيعتني بهم بعد رحيل آبائهم؟»، سألت لينغ لينغ وهي تتملَّى في وجه جدِّي. ذُهلت فجأة من مدى التشابه بينه وبين والد زوجها الذي لم تقابله قطّ. لقد مات قبل فترة طويلة من زواجها

بأحد أفراد العائلة، لكنّها رأت صورته مُسندة على الطاولة الطويلة التي مثَّلت ضريحَ الأجداد. كان رجلًا نحيلًا يحدِّق في الكاميرا بأسى، كأنَّه غير راغب في مغادرة هذا العالم. وبسبب التشابه العائليّ، وربّما بسبب علاقتها مع ابنه، رأت لينغ لينغ في جدِّي والدَ زوجها البديل.

وتساءلت: «إذا كان بإمكان آبائهم أن يعيشوا لفترة أطول بعد انتقالهم إلى المدرسة، ألن يعني هذا أنَّ تيتُّم هؤلاء الأطفال سيتأخَّر بضعة أيَّام على الأقل؟ وأنَّ أيَّام حزنهم على الفراق قد تنقص قليلًا؟».

علَّق جدِّي قطعة القماش على مسمار بجانب السبورة ونفضَ الغبار عن يديه. «حسنٌ، أخبرا الجميع أنَّ بإمكانهم العودة».

عاد عمِّي ولينغ لينغ إلى القرية لنقل الأخبار السارَّة. بمجرَّد أن غادرا باحة المدرسة، تشابكت يداهما. وعندما مرَّا بحقل العشب تبادلا النظرات والابتسامات. ثم، دون أن ينبسّا بكلمة، خرجا عن الطريق وسارا في الحقل، يدًا بيدٍ.

مكتبة
t.me/soramnqraa

مستتَرَيْن بالعشب جلسا.

مستتَرَيْن بالعشب استلقيا.

الشمس غمرت جسديهما العاريين.

٢

قبل أن يتمكَّن القرويّون من العودة إلى المدرسة كان لا بُدَّ من إيجاد حلٍّ لمسألة الإمدادات الغذائية. ما زال يتعيَّن على كلِّ مقيم أن يتبرَّع بكميَّة معيَّنة من الطحين ودقيق الذرة والأرزِّ والفاصولياء والبقوليَّات

كلَّ شهر. جُمعت التبرُّعات الأولى وسط القرية وأشرف عليها دينغ يويه جي بصفته محاسبًا. وبعد أن وزنَ الحبوب وفصل الناعم منها عن الخشن وتبيّن التبرُّعات الفائضة عن تلك الناقصة، طلب إلى القرويين جمع مساهماتهم في أكياس جماعيَّة. كانت تشاو شيو تشين، المعفاة من التبرُّع بصفتها الطبَّاخة، موجودة للمساعدة في أعمال الجمع. وبينما كانت تربط أحد الأكياس بحبل، اكتشفت أنَّ شخصًا ما قد وضع الطوبَ في الدقيق. كان ثمَّة أربعة قوالب طوب يزن الواحد منها خمسة أرطال، ما يعني أنَّ هذا الشخص قد تحايل نيابة عن المجموعة بمقدار عشرين رطلًا من الدقيق. فتّشت كيسَ دقيق آخر ولم تجد فيه طوبًا بل أحجارًا بحجم أوعية الحساء. أمَّا كيس الأرزِّ فلم تستخرج منه طوبًا أو حجارة بل بلاطات تزن الواحدة منها عدَّة أرطال.

رمت تشاو شيو تشين الحجارة والطوب والبلاط بغضبٍ في منتصف الشارع، فتطايرت سحب كبيرة من الغبار. كانت الحجرة الواحدة بحجم رأس رجل ويبدو أنَّ كومة الأحجار المغبَّرة بالدقيق هذه تزن مجتمعة ما لا يقلُّ عن مئة رطل. وحتّى ذلك الوقت، كان إجمالي المساهمات الغذائيَّة قد بلغ أربعة أكياس ونصف من الطحين وكيسين ونصف من الأرزّ وبضعة أكياس من دقيق الذرة وأكثر بقليل من كيس واحد من الفاصولياء. كانت الحجارة والطوب والبلاط تكفي لملء أكثر من كيس كامل. تجمَّع القرويون حول الكومة يهزوُّن رؤوسهم ويعربون عن استنكارهم.

«يا إلهي ما أفظع هذا الشيء! أهذا وقت مناسب للغشِّ والجميع على وشك الموت!».

«سنموتُ جميعًا بكلّ الأحوال! مَن تراه نفّذ هذه الحيل الفاسدة؟».

حاملةً طوبة مغطّاة بالدقيق صاحت شاو شيو تشين قائلة: «هل سيسمح لكَ جبنُك بالتصريح عن نفسك أيُّها الخسيس؟ كان من المفترض أن يتبرَّع الجميع بخمسين رطلًا من الدقيق، لكنّ كومة الطوب هذه تزن عشرين رطلًا على الأقل! أيها الوغد الغشّاش... بفعلتكَ هذه سرعان ما سينفد طعامنا وعندها سيعتقد الجميع أنني أنا من سرقتُه!».

رفعت الطوبة إلى الأعلى، وراحت تذرع جيئة وذهابًا أمام أكياس الطعام. «انظروا! لقد قلتم جميعًا إنني لصّ القرية، لكن أسوأ ما فعلتُه هو أنني أخذت رأس بصل أخضر من حقل أو نكشت حبَّة لفت لإطعام زوجي وابني. أو قطفتُ خيارة لأروي عطشي في يومٍ حارّ. ولكن حين يأتي شخص ويضع عشرين رطلًا من الطوب في كيس الدقيق أو كومة من الأحجار في كيس الأرز، فإنكم لا تسمونه لصًّا، صحيح؟». ألقت الطوبة باشمئزاز والتفتت لتنظر إلى حجر مغطّى بالدقيق. قبل المرض، كان بإمكانها أن ترفع هذا الحجر بسهولة، أو أن تحمل سلالًا ثقيلة على كتفيها، لكنَّ الحمَّى أنهكتها. استغرق الأمرُ منها عدَّة محاولات قبل أن تتمكَّن من رفع الحجر عن الأرض. راحت تسير جيئة وذهابًا أمام أهالي القرية، محتضنة الحجرَ بين ذراعيها كطفلٍ رضيع، ورفعت صوتها قائلة:

«انظروا كم هو ثقيل هذا الحجر! بالكاد تمكّنتُ من رفعه! من الغبيّ الأحمق الذي ظنَّ أنَّه صالح للأكل؟ أودُّ أن أراه وهو يحمل هذا الحجر إلى بيته ويطبخه في قدر!». أسقطتْ تشاو شيو تشين الحجر على الأرض

بضربة قوية ثم اتخذت وضعيَّة ذكوريَّة للغاية: قدم على الحجر والأخرى على الأرض، اليدان على الوركين والذارعان متقوّستان.

«إذًا هذا ما تطبخونه في البيت كلَّ يوم؟ الصخورَ بدلًا من الأرزّ؟ أولادكم يبلعون الحجارة ويتبرّزون الحصى؟ أتسدّون رمق عائلاتكم بالطوب والبلاط المكسور؟».

أخيرًا، بعد أن أنهكها السبابُ والحركة، ارتمت تشاو شيو تشين على أحد أكياس الحبوب. كان جمع الطعام قد بدأ بعد الغداء مباشرة. وبحلول هذا الوقت، كانت الشمس قد تربَّعت عرش السماء وغمرت القرية بالدفء. في هذا الوقت من العام، مع انحسار الشتاء المتباطئ وتواني الربيع عن القدوم، كان معظم الناس لا يزالون يرتدون المعاطف أو يسدلون السترات المبطّنة على أكتافهم. بعض كبار السن يرتدون سترات جلد الغنم للوقاية من البرد. ورغم البرد المستمرّ، بدأت أزهار أشجار الصفيراء بالتفتُّح؛ براعم خُضر وصُفر شفَّافة تتلألأ على الأغصان كقطرات الماء. في ذلك اليوم، خرجت قرية دينغ بأكملها لمشاهدة جمع الطعام. كان هذا الأمر، في حدّ ذاته، حدثًا مثيرًا. لم تشهد القرية حدثًا بهذه الإثارة منذ سنوات، حتَّى قبل وصول الحمَّى. غادر الصغار والكبار بيوتهم وجاؤوا ليتفرّجوا محتشدين حول كومة الحجارة والطوب يكيلون الشتائم على الوغد الغشَّاش الذي فعل ذلك.

وبطبيعة الحال، كي يشاهدوا تشاو شيو تشين وهي تشتم الوغد الغشَّاس الذي فعل ذلك.

أراد جيا غن تشو، الشاب الذي أُصيب بالمرض مؤخّرًا، أن يعيش في المدرسة أكثر من أيّ شخص آخر. حينها لن تضطرّ والدته لقضاء أيّامها في البكاء سرًّا ولن تضطرّ زوجته للقلق بشأن انتقال العدوى إليها أو لطفلها. ولهذا السبب لم يتبرَّع إلا بالأرزّ الأبيض وبأجود أنواع الدقيق. شعر بخيبة الأمل حين رأى نوعيَّة تبرُّعات الآخرين: حبوب خشنة وأرزّ ليس أبيضَ تمامًا. الآن، وهو يحدِّق في كومة الحجارة والطوب، أحسَّ بخديعة كبرى، فراح يشتم: «اللعنة عليكم! اللعنة عليكم! أعيدوا لي طعامي... لن أنتقل إلى المدرسة!».

«حسنٌ، ولكن إذا أردتَ استرداد تبرّعاتك فستخسر عشرة أرطال من الدقيق»، قال عمِّي.

«لماذا؟»، سأله جيا غن تشو وهو يحدِّق به غيرَ مصدِّق.

«لأنَّه إذا طالب الجميع باسترداد طعامهم، فسوف نعجز عن الإيفاء. ليس بوسعنا أن نعيد إليكم الطوب والحجارة، أليس كذلك؟».

فكَّر جيا غن تشو في الأمر. «أوه، حسنٌ. باعتقادي أنَّ الانتقال إلى المدرسة هو الأفضل».

احتشد المتبرّعون الآخرون حول كومة الأنقاض، يتذمّرون ويفحصون الطوب والحجارة المغطَّاة بالدقيق. الشمس تتزحلقُ غربًا غامرةً شوارع القرية بالظلال الحُمر. هبَّت رياح الشتاء المشارف على نهايته عبر السهل وخلَّفت برودةً لاذعة في الهواء. راح القرويّون يخبطون أقدامهم ويفركون أيديهم للحصول على الدفء.

في تلك اللحظة، وصل جدِّي إلى مكان الحدث. كان صبره قد نفد

وهو ينتظر قدوم الجميع إلى المدرسة، لذلك قرَّر الخروج لرؤيتهم. وعندما شرح له القرويّون ما حدث حدَّق في كومة الطوب والحجارة.

سأل جدِّي: «إذًا، في حال لم نكتشف الفاعل، لن تنتقلوا حينها إلى المدرسة، اتفقنا؟».

عمَّ الاحتجاج. كان الجميع متفقين على أنَّ العيش في المدرسة أفضل من الجلوس في البيت وانتظار الموت.

«حسنٌ. دعونا نذهب»، قال بصبرٍ نافد.

لكنَّ أحدًا لم يتحرَّك خطوة. حدَّقوا في كومة الصخور والطوب كمن يحدِّق في خسارة شخصيَّة كبيرة. بدوا متجذّرين في المكان، عاجزين عن الحركة.

أضاف جدِّي: «إذا كنتم غير راغبين بالذهاب إلى المدرسة فالأفضل أن تعودوا إلى بيوتكم». ظلَّ القرويّون صامتين.

«أمَّا إذا كنتم راغبين بذلك، فدعونا نحضر عربة ونأتي بهذا الطعام إلى المدرسة».

بعضهم واقف وبعضهم جالس، أيديهم محشورة في الجيوب والأكمام، تبادلوا النظرات الصامتة. بدا الأمر كأنَّ ثمَّة اتفاقًا غير معلن على أنَّه لا ينبغي ترك الأمور على هذا النحو. أنَّه لم يكن ينبغي أن يجري ما جرى بالأساس. ومع استمرار حالة الجمود، تهاوت الشمس في الأفق الغربيِّ كمذنَّب يتلاشى مطلِقًا موجة حرارةٍ أخيرة.

عندما رأى أنَّ ما من أحدٍ ينوي الإيتاء بحركة أو التفوُّه بكلمة، التفت جدِّي إلى دينغ يويه جي وسأله: «كم تزن هذه الحجارة؟».

«لستُ متأكّدًا. لماذا لا نزنها؟»، قال يويه جي.

حمَّل جيا غن تشو وتشاو دي تشيوان الحجارة والطوب والبلاط في السلال كي يتمكَّن دينغ يويه جي من وزنها بميزانه. بعد وزن كلّ سلّة، بلغ مجموعها ما يزيد عن مئة رطل. سأل جدِّي عن عدد الأشخاص الذين يريدون الذهاب إلى المدرسة وعن المبلغ الإضافي التي سيتعيّن على كل شخص المساهمة فيه لتعويض النقص. وقبل أن يتمكَّن جدِّي من إنهاء كلامه، قاطعه جيا غن تشو قائلًا: «يستحيل أن أساهم بأكثر مما ساهمت يا أستاذ دينغ. وإذا كنت لا تصدّقني، فيمكنك أن تسأل دينغ يويه جي... لقد ساهمتُ بأجود أنواع الأرزّ والدقيق. كلُّ حبَّة من الأرز ناصعة البياض كأسنان طفل، وكلُّ غَرفة دقيقٍ أنعمُ من زبد النهر».

حين أنهى جيا غن تشو حديثه، كان تشاو دي تشيوان الذي أسند وركه على كيس الدقيق متمتمًا بينه وبين نفسه، قد رفع صوته قائلًا: «وأنا... هه، وأنا لن أساهم في التعويض».

انضمَّ الآخرون إليهما احتجاجًا لأنَّهم، أيضًا، قدَّموا ما فيه الكفاية بالفعل.

وقف جدِّي للحظاتٍ يفكِّر في نفسه. بعدها، دون أن يقول كلمة توضيح، ترك القرويين وسار شرقًا. سار شرقًا حتّى وصل إلى الشارع الجديد. لم يكن لدى القرويين أيّة فكرة عن وجهة جدِّي أو ما ينوي فعله، ولم يكن أمامهم سوى انتظاره متجوّلين وسط القرية كضحايا الجفاف الذين يستجدون هطول الغيث. ما لبث جدِّي أن عاد إليهم مع غروب الشمس. برفقته أبي الذي كان يدفع درَّاجة محمّلة بكيسين

كبيرين من الدقيق. بينما كان الأب والابن يتّجهان نحو ساحة القرية، استقبلهما أهالي القرية بالصمت ونظرات عدم التصديق. لم يخترق الصمت إلا صوت الطقطقة الصادر عن جنزير درّاجة أبي. ومع اقترابهما أكثر فأكثر رأى القرويّون أن الدرّاجة محمّلة بأكياس الدقيق من النخب الأوّل باهظ الثمن الذي تنتجه المطحنة المملوكة للدولة. لم تكن عائلتنا تستسيغ إلّا الدقيق عالي الجودة، الدقيق ذاته الذي يتناوله سكّان المدينة.

عندما خرج برفقة جدّي من البيت بأكياس الدقيق، ارتسمت على وجه أبي ملامح الاستهجان؛ ملامح الازدراء الجليّ الذي يكنُّه لأهالي القرية. ولكن حين اقتربا من مفترق الطرق، وصار بإمكان القرويين رؤيته، ارتسمت على وجهه ابتسامة عريضة وسمحة. ألقى نظرة خاطفة على الحشد ورأى بينهم دينغ يويه جي وجيا غن تشو وآخرين ممّن جاؤوا إلى بيته لاستجوابه حول النعوش.

قال أبي: «ما قيمة مئة رطل من الدقيق إذا كنتُ سأقدّمها لأصدقائي القدامى وجيراني الأعزّاء؟ الجميع مرضى جدًّا والأمر لا يستحقُّ الكثير من الأخذ والردّ، أليس صحيحًا؟».

ملقيًا نظرة خاطفة على كومة الطوب والحجارة الكبيرة، فرّغ والدي حمولة الدرّاجة ووضع الكيسين بجانب أكياس الطعام الأخرى التي تمّ التبرُّع بها. قال وهو ينفض الدقيق عن المقعد الخلفيّ لدرّاجته: «هذه مئة رطل من الدقيق عالي الجودة. النوع نفسه الذي يأكله سكّان المدينة. أرجو أن تتقبّلوها كعربون صغير تعبيرًا عن احترامي ومحبّتي».

وبينما كان يحرِّك درَّاجته ويستعدُّ للمغادرة، قال بصوت أشدّ خشونة: «أريد منكم أن تتذكّروا هذا، أن تتذكّروا أنني لم أسئ معاملتكم يومًا ولم أخيّب أملكم قطّ. وإن كان بينكم في هذه القرية من قد تعرَّض لسوء المعاملة فهو أنا».

بهذه العبارة الوداعيَّة، قفز أبي على درَّاجته وانطلقَ.

يبدو أنَّ هذا قد حسم المسألة. كلّما فكَّر القرويّون في الأمر أكثر، شعروا بأنَّهم أساؤوا معاملة أبي، أساؤوا معاملة أسرة دينغ برمّتها. لوهلة، تبدَّدت شكوكهم بشأن أبي. سوف يستغرق الأمر بعض الوقت قبل أن تساورهم الشكوك تجاهه من جديد.

في وقت لاحق من تلك الليلة، عاد كلُّ شيء إلى مجراه. رجع القرويّون إلى المدرسة وما لبثوا أن ناموا في أسرّتهم. كان عمّي قد نام في غرفة جدّي، تمامًا كما من قبل.

بعد إطفاء الأضواء، استلقى عمّي وجدّي كلّ في فراشه وتسامرا.

«تبًّا!»، قال عمّي.

«ماذا؟»، سأله جدّي.

«أنا وضعتُ حجرًا صغيرًا في كيس أرزّ، وأخي تبرَّع بكيسين من الدقيق في نهاية المطاف».

نهض جدّي وحدَّق في ابنه الأصغر.

«أبي، مَن تظنُّ أنَّه وضع الطوب في الدقيق؟».

لم يجب جدّي.

قال عمِّي: «أعتقد أنَّه دينغ يويه جي. لقد كان يزن الدقيق، لذا فهو الوحيد الذي كان بإمكانه وضع عشرين رطل من الطوب دون أن ينتبه أحد. وهناك شيء آخر أيضًا... قبل رأس السنة الجديدة، حين ماتت زوجته، سمعتُ أنّه اشترى كمية من الطوب لبناء قبرها».

بينما كان عمِّي يتحدَّث، دوَّت أصوات في الخارج: سعال مكتوم وجرِّ أقدام ووقع خطى مبتعدة. توقَّف عمِّي منصتًا قبل أن يواصل كلامه. بعد وهلة، أخبر جدِّي أنَّه سيخرج إلى الحمَّام، فارتدى ملابسه وغادر الغرفة متتبّعًا جهة الخطى.

٣

بعد بضعة أسابيع، غرقت المدرسة في حالة من الهرج والمرج؛ كان أحدهم قد حبس عمِّي ولينغ لينغ في غرفة تخزين الحبوب المجاورة للمطبخ. نهض جدِّي من سريره وتجمَّع سكَّان المدرسة حول باب المخزن ينتظرون. كانوا جميعًا قد ارتدوا ملابسهم وخرجوا لحضور المشهد الطافح بالإثارة، دراما الحبّ المحظور لعاشقَيْن مُتلبّسَيْن بالجُرم.

الليلة باردة ونيّرة؛ انسكب ضوء القمر كتيّار الماء على باحة المدرسة. تجمهر الحشد خارج المخزن، يصرخون طلبًا إلى شخصٍ ما أن يفتح الباب ويدع عمِّي ولينغ لينغ يخرجان، لكنَّ أحدًا لا يعرف مكانَ المفتاح على ما يبدو.

حبيسًا داخل المخزن، سمع عمِّي وقعَ خطى بالخارج. وقعَ خطوات تندفع وتقترب ويعقبها الصمت. خامره شعورٌ بأنَّ الحشد قد تسلَّل إلى النافذة لسماع ما في الداخل. «هيّا، فلترحموا حالنا!»، صرخ عبر

النافذة. «جميعنا على وشك الموت... لا أحد منا أمامه متّسع من الوقت. كيف أمكنكم أن تفعلوا ذلك بنا؟».

تقدَّمت تشاو شيو تشين من بين الحشد ودخلت المطبخ لتضيء مصباحًا من شأنه أن يسكب بعض الضوء على المخزن المجاور. كان قفل باب المخزن جديدًا تمامًا، وسطحه المطليّ بالأسود لا يزال لَّماعًا. «دينغ لينغ! كنتُ أعرف أن شيئًا ما كان يجري بينك وبين لينغ لينغ، لكنّني لم أتفوَّه بكلمة لأيّ مخلوق. أقفلتُ شفتيّ بإحكامٍ كما أُقفل هذا الباب. لكنَّ هذا القفل ليس لي. لا بُدَّ أنَّ أحدهم قد أحضر القفل من القرية حتّى يتمكَّن من الإمساك بكما معًا»، صرخت.

سادت لحظة من الصمت قبل أن يعاود عمِّي الكلام. «فليكن ذلك، ما الذي يهمّني؟»، بدا نزقًا. «بإمكانكم أن تخرجوني وتطلقوا النار عليّ... لا يعنيني. كثيرون منّا قد ماتوا. والموت يطاردني كلّ يوم... ما الذي يهمّني إن قُبض عليّ نائمًا مع زوجة رجل آخر؟».

ظلالُ الحشدِ الصامت حجبت الضوء السَّاقط على الباب. لم يكن ثمَّة ما بوسعهم قوله. إنَّ الذي أقدم على حبس عمِّي ولينغ لينغ في المخزن، كائنًا من يكن، قد ارتكب خطأً... خطأً فادحًا. بدت الآن لحظاتُ المتعة التي استرقها عمِّي ولينغ لينغ مبرَّرة. بل مشروعة حتَّى. حدَّق المحتشدون بعضهم في وجوه بعضٍ وتساءلوا عمّا ينبغي لهم فعله.

تملَّى تشاو دي تشيوان، الذي يُعدّ من كبار القريّة وأرشدهم حكمةً، في الوجوه الغفيرة تحت ضوء المصباح. «هلّا حاول أحدكم فتحَ الباب؟»، ناشدهم.

رمقه جيا غن تشو قائلًا: «ولكنّ المفتاح بحوزة مَن؟».

قرفص تشاو دي تشيوان على الأرض، بصمتٍ وجمودٍ كعمود خشبيّ قديم.

تقدَّم دينغ يويه جي وتفحَّص القفل ثم عاد إلى الحشد. «مَن قفل هذا الباب؟»، سأل. «فيما سنموت جميعًا بين يومٍ وآخر، هناك بيننا من نصّبوا أنفسهم شرطة أخلاق؟ إن كانا قادرين على التمتُّع بيومٍ آخر من السّعادة، ما الضير في أن نسمح لهما بذلك؟».

وتابع: «حقيقةً، إنَّ دينغ ليانغ أحسن من أخيه. ولا يستحقُّ هذا. فلتفتحوا الباب».

تقدَّم جيا غن تشو أيضًا، وتفحَّص القفل. ثم قال مخاطبًا الآخرين: «فليفتح أحدكم هذا الباب. دينغ ليانغ ولينغ لينغ لم يتجاوزا العشرينيات من عمريهما، ورغم المرض، فلهما الحقّ في العيش بكرامة حتّى آخر أيّامهما. ومهما حدث فلن نسمح بأن ينتشر هذا الخبر في القرية وبين عائلتيهما، درءًا للخراب والعار».

وجَّهت قلّة من الحشد النداءَ نفسه، ولكن تبيَّن أنَّ أحدًا منهم لا يعرف مَن أقفل الباب أو مَن بحوزته المفتاح. في هذه الأثناء، كانت لينغ لينغ متكوِّرة في زاوية المخزن تبكي. تسلَّلت تنهيداتها من خلال شقوق الجدران كنسمات الهواء البارد. جميعهم شعر بالأسف عليها: فقد تزوّجت في القرية وهي فتاة صغيرة وأصابتها الحمَّى قبيل انتهاء شهر عسلها بقليل. ليسوا متأكّدين ممّا إذا كانت قد سارعت للزواج بعد معرفتها بأنَّها مريضة أو أنَّها اكتشفت مرضها بعد الزفاف مباشرةً،

ولكنّها في كلتا الحالتين جلبت داهية دهماء على زوجها وأهله. وبصرف النظر عمّا جرى تحديدًا، فقد حطَّمتْ سلام العائلة كلوح زجاج يتهشّم وتركتهم يجمعون شظايا سمعتهم الملطّخة. لم يكن من المستغرب أنَّها غدت منبوذة في بيتها، في ظلِّ ما تلقّته من تعامل فظّ وكلمات باردة من زوجها وأقاربه.

أمَّا الآن فقد كانت لينغ لينغ أسوأ من مجرَّد مريضة، لقد باتت زانية. وإن اكتشف زوجها ذلك، فثمَّة عقابٌ جهنميّ ستمتثل له. حقيقة أنَّ عشيقها هو دينغ ليانغ، ابن عمّ زوجها اللزم، زادت الطين بلَّة. لم يكن بوسعها سوى الانتحاب. كلّ الذين سمعوا تنهيداتها اليائسة انتابتهم الشفقة. بينما كان عمِّي يطرق أبواب المخزن ونوافذه محاولًا إيجاد مخرج. سمع جدِّي الضجيج وخرج من غرفته ليستطلع الأمر. عندها أدرك أنَّ في كل تلك الأوقات حين كان ابنه يغادر في منتصف الليل متذرّعًا بحجّة التحدُّث إلى شخصٍ ما أو لعب مبارة شطرنج، كان يلتقي بلينغ لينغ سرًّا.

عندما رأى القرويّون جدِّي يسير باتجاههم، تنحّوا جانبًا لإفساح الطريق له. أطبق الصمت على الحشد المرتقب لكيفيّة تعامل جدِّي مع الموقف. كان الصوت الوحيد هو أنين عمِّي من داخل المخزن. «أبي؟ أبي... هل هذا أنت؟».

«ستكونان سبب هلاكي»، زمجر جدِّي حين وصل إلى الباب. «أنت وأخوك ذاك».

«افتح الباب يا أبي، بعدها لكلّ حادث حديث».

لم يقل جدِّي شيئًا.

«افتح الباب فحسب. كي نتحدّث عن الأمر حينها».

ملتفتًا إلى الحشد، طلب جدِّي ممّن بحوزته المفتاح أن يتقدَّم ويفتح القفل. عمّ صمت مضطرب. حدّق سكَّان المدرسة بعضهم في بعضٍ، لا يعرفون مَن أقفل الباب ولا مَن بحوزته المفتاح. بحلول ذلك الوقت كانت لينغ لينغ قد توقّفت عن البكاء ووقفت بجوار عمِّي في انتظار أن يفتح أحدهم الباب ويسمح لهما بالخروج. لكنَّ أحدًا لم يتقدَّم حاملًا المفتاح، وأحدًا لم يقرّ بأنَّه رأى أحدًا يقفل باب المخزن.

خارج المدرسة، كان برد أواخر الشتاء يتعاظم متجاوزًا سور الباحة كالماء الفائض فوق السدود. للهواء البارد الذي يجتاح السهل صوتٌ بالإمكان سماعه. ذاعت أصوات النعيب والسقسقة التي يسمعها المرء في ليالي الشتاء المريرة، وكان من المستحيل تحديد مصدرها. ربّما أتت من المسار القديم للنهر الأصفر أو من إحدى زوايا السهل القصيَّة. كلَّما تغلغل الصمت عميقًا، تبدَّت الأصوات بوضوحٍ أكثر.

«فليعطِني أحدكم المفتاح رجاءً»، قال جدِّي. «إن رغبتم فسأركع الآن أمامكم وأعتذر نيابة عن لينغ لينغ وابني. مهما حدث نظلُّ جيرانًا، والموت على الأبواب».

«أبي! اخلع القفل فحسب!»، صاح عمِّي من الداخل.

بدأ القرويُّون البحث عن أشياء يمكن استخدامها لكسر القفل. صخور، مطارق، سواطير من المطبخ، أي شيء تقع عليه أيديهم. بينما كانوا على وشك تحطيم القفل، تسمَّر الجميع في أماكنهم.

لا طائل من خلع الباب أو تحطيم القفل. كان زوج لينغ لينغ يدخلُ بوَّابة المدرسة. كان دينغ شياو مينغ، ابن عمّ عمِّي، يسير في باحة المدرسة.

بخلاف زوجته، لم يكن دينغ شياو مينغ يعاني من الحمَّى. لم يُصب بالمرض لأنَّه لم يبع دمه قطّ. كان والده قد باع دمه، لكنَّ الحمَّى أخذته من سنوات ووضعت نهاية باكرة لمعاناته. دينغ شياو مينغ، المتمتّع بالشباب والقوّة والصحّة، كان يتجوَّل في الباحة متجهًّا نحو المخزن.

صاح أحدهم: «انظروا! أليس هذا زوج لينغ لينغ؟».

وبطبيعة الحال، التفت الجميع للنظر إليه.

لقد *كان* زوج لينغ لينغ فعلًا، يعدو نحوهم كنمر في رحلته لاصطياد فريسة. حين رآه جدِّي، بدوره، امتقع وجهه. كان جدِّي، بالطبع، يعرف دينغ شياو مينغ جيّدًا: إنَّه ابن أخيه. والد شياو مينغ شقيق جدِّي الذي يصغره بسنتين فقط. ولكن بعد أن بدأ بيع الدماء، افترقت العائلتان بسبب الثروة: كان أبي قد بنى بيتا من طابقين بواجهة خارجيّة من البلاط الأبيض بينما بنى عمِّي بيتا بسقف من القرميد. على الجانب الآخر، كانت عائلة شياو مينغ لا تزال تقطن في بيت من طوب الطين وأسقف القشّ. وبعد الوفاة المفاجئة لوالد شياو مينغ، ازدادت الأحوال سوءًا. وذات يوم، أشارت أمُّه إلى بيت عمي وقالت: «حمرةُ هذا القرميد من دمائنا!»، ثمّ أشارت إلى بيتنا وقالت: «هذه الجدران لم تُبنَ بالبلاط الأبيض. بل بعظامنا!». وحين وصلت هذه الكلمات إلى مسامع أبي وعمِّي، تباعدت العائلتان ولم يتلاقَ أفرادهما إلا عند قبور الأجداد.

بعد أن انتشرت الحمّى وسُمِّمتُ، ذاع خبر موتي في أنحاء القرية بسرعة كبيرة. عندما سمعت والدة شياو مينغ الخبر قالت: «إنَّه القصاص. إنَّه القصاص الإلهيّ». وبالطبع، وصلت كلماتها إلى أمي التي هرعت إلى بيتهم وتسبّبت بمشهدٍ قطع الشعرة الأخيرة بين العائلتين.

فيما بعد، غدت العائلتان غريبتين. انقطعت أواصر القرابة إلى غير رجعة. والآن، بسبب العلاقة المحرّمة بين عمِّي ولينغ لينغ، اندفع دينغ شياو مينغ إلى المدرسة مثل نمر. وقبل أن يصل إلى الحشد، تنحّى القرويّون وأفسحوا له الطريق بسرعة. كان من الصعب رؤية وجهه في ضوء القمر، لكن غضبه بدا واضحًا جدًّا. ابتعد القرويّون عنه وهو يسير إلى المخزن. وفي الضوء الخافت الآتي من باب المطبخ، بدت وجوههم بلا لونٍ. حتّى البقع الداكنة، علامات مرضهم، بدت مضمحلّة ومتلاشية؛ كانت وجوههم شاحبة، هامدة.

وقف جدِّي أمام الباب بلا حراك. الجميع وقفوا بلا حراك. حتّى أصوات الحشرات القادمة من السهل قد خبت؛ الكلُّ صامت.

الحشد يحدِّق في دينغ شياو مينغ الذي يدنو من المخزن. ما لم يتوقّعه أحد، ما لم يحسب حسابه أحد، هو أنَّ شياو مينغ بحوزته المفتاح. لكنَّه كان هو. اتخذ وقفةً أمام الباب، ثم أخرج مفتاحًا فضيًّا صغيرًا وحاول إدخاله في القفل. لكنّ القفل لم ينفتح لأنَّ المفتاح كان مقلوبًا.

أدار المفتاح. انفتح القفل.

كان انفتاح الباب أشبه بانقضاضِ عاصفة هوجاء في يوم صيفيّ. دوَّى ضجيج -اصطدام ورنين رافق انفتاح الباب- لكنَّه لم يستمر

سوى ثانية واحدة. في اللحظة التي فُتح فيها الباب، أمسك شياو مينغ بيد زوجته وأخرجها. بدا الأمر كأنَّها كانت تنتظر على الجانب الآخر من الباب حتّى يأتي ويمسكها.

كان شياو مينغ رجلًا قويًّا. لم يكن فارع الطول، لكنَّه ممتلئ الجسم، ووزنه زائد بعض الشيء. أمسك زوجته من ياقتها وراح يسحبها بعيدًا كنمر يجرُّ فريسته. كان وجه لينغ لينغ مذعورًا وشاحبًا، شعرها أشعث. قدماها بالكاد تلامسان الأرض، كأنَّها قد رُفعت وسُحبت من شعرها. ظلّ شياو مينغ صامتًا، وجهه يشتعل غضبًا. مرَّ أمام جدِّي دون أن ينبس بكلمة، عائدًا أدراجه وسط الحشد. عندما تنحَّى القرويّون لإفساح الطريق له، ألقوا نظرة خاطفة على لينغ لينغ، كان وجهها مشوبًا بظلٍّ أبيض يبعث على القشعريرة، يومض كالبرق. لم يقل جدِّي شيئًا عندما مرَّ به شياو مينغ؛ كان لا يزال تحت وطأة الصدمة. ولكن حين استدار ليشاهد شياو مينغ يمشي متغطرسًا بين الحشد، يجرّ زوجته خلفه، تقدَّم بضع خطوات كأنَّه يريد أن يتبعه.

«شياو مينغ!»، صاح جدِّي.

توقّف زوج لينغ لينغ والتفت.

«لينغ لينغ مريضة جدًّا»، قال جدِّي بتوسُّل. «ألا يمكنك أن تترفّق بها قليلًا؟».

لم يجب شياو مينغ على الفور، بل بقي صامتًا لفترة طويلة. حدَّق في الضوء محاولًا رؤية وجه جدِّي، ثم بصق على الأرض. تقدَّم بضع خطوات وبصق من جديد، هذه المرَّة عند قدمَي جدِّي.

«انشغل بشؤونك الخاصّة... وضُبَّ ابنك هذا!»، قال ببرود.

بهذه الكلمات، استدار شياو مينغ وغادر ساحبًا زوجته من ورائه.

لم يكن هذا صوابًا. هذا ما أجمع عليه كلُّ السكُّان المتجوِّلين في باحة المدرسة. لم يكن من الصواب أن تسير الأمور على هذا النحو. دراما واعدة من هذا القبيل تستحقُّ نهاية أفضل. حدّقوا بخيبة أمل في شياو مينغ إذ يجرُّ زوجته عبر باحة المدرسة ويقودها خارج البوَّابة. وحتَّى بعد أن اختفى ظلُّه تمامًا، ظلّوا بلا حراك كأنّهم غير متيقّنين ممَّا حدث للتوّ.

ربّما كانوا في حيرة من أمرهم. أو ربّما، ببساطة، لم يرغبوا في مغادرة باحة المدرسة؛ موقع المشهد الدراميّ. لذا وقفوا يحدِّقون بانشداهٍ بحماقة. هذا فحسب ما كانوا قادرين على فعله.

ثمّ تذكّروا عمِّي، فارتكاب الزنا يستلزم وجود شخصَين، ورغم أنَّ المرأة قد ذهبت لكنَّ الرجل لا يزال هناك. استدار القرويّون لإلقاء نظرة عليه، واكتشفوا أنَّ عمِّي، إذْ كانوا يشاهدون شياو مينغ يجرُّ زوجته بعيدًا، انسلَّ خلسةً دون أن يراه أحد. لقد رأوه جالسًا على عتبة المخزن، رأسه مُطأطَأ ويداه على ركبتيه، كطفل مذنب لم يجرؤ على الدخول إلى البيت ومواجهة والديه، صبيّ مشاكس بدأ يشعر بالجوع لكنَّ الخوف الشديد يحول بينه وبين الدخول لتناول العشاء. ولخيبة أملهم، كان يرتدي كلَّ ملابسه. حتَّى أنه ارتدى معطفه المبطَّن المزرَّر بأناقة حتى الياقة.

نقّل القرويّون نظرهم بجَزَع من جدِّي إلى عمِّي، من الأب إلى الابن، متسائلين عمَّا يمكن أن يحدث بعد ذلك.

بادر جدِّي. تقدَّم خطوة للأمام، رفع ساقه ووجَّه ركلة سريعة قويَّة نحو ابنه. «اذهب إلى غرفتك! ألم تذلّ نفسك بما فيه الكفاية اليوم؟».

وقف عمِّي وسار عائدًا نحو غرفة جدِّي. عندما مرّ بجوار الحشد، رأوا أنَّه كان يبتسم، ابتسامة ضئيلة لم يتمكَّن من إخفائها. قال لهم: «حسنٌ، لقد تسلّيتم بما جرى، بهذه النكتة الصغيرة... ولكنّي أرجوكم ألّا تخبروا زوجتي مهما حدث. أعلم أنني سأموت قريبًا بكلِّ الأحوال لكنني أخشى ممّا ستفعله إن عرفت الأمر».

كان عمِّي قد بلغ منتصف باحة المدرسة تقريبًا حين استدار فجأةً وصرخ: «أرجوكم جميعًا، وبكلّ جديّة أتوسّلُ إليكم... لا تدعوا زوجتي تعرف شيئًا ممّا جرى!».

الفصل الثاني

١

في اليوم التالي، زار دينغ يويه جي وجيا غن تشو جدِّي. كانا قد خطّطا جيّدًا لهذه الزيارة مسبقًا...

بدأ اليوم كأيّ يومٍ آخر. أشرقت الشمس فوق السهل طاردةً آخر رواسب الشتاء العالقة، غامرةً باحة المدرسة بالدفء. لقد ظهرت أولى تباشير الربيع. بدأ الاخضرارُ يطغى على أشجار الحور والپولونيا عبر براعم داكنة، زغباء، جرسيَّة الشكل، لم تكن موجودة في اليوم السابق. لقد تبرعمت بين عشيَّة وضحاها كأنَّ ليلة الشهوة التي اختلسها عمِّي ولينغ لينغ كانت بشرى قدوم الربيع.

فاحت رائحة منعشة في أرجاء المدرسة، العبقُ الخافت للعشب الضئيل الذي بدأ ينبت من شقوق جدران المدرسة. تلألأت الأوراق الشفيفة، الضاربة إلى اصفرارٍ واخضرارٍ شاحبَيْن، في ضوء الشمس كالقرابين الذهبيَّة. لقد تسلَّل الربيعُ على رؤوس أصابعه، بلا أدنى همسٍ أو وشوشة. ولأنَّ الشهوات استُرِقت في مكانٍ ما قرب باحة المدرسة،

وصلَ الربيعُ إلى هذا المكان أوّلًا، مبدِّدًا الجوَّ الشتويَّ البارد، مضرمًا لهيبَ الحياة.

كان سكَّان المدرسة لا يزالون غارقين في النوم، مرهقين بعد ليلةٍ طويلةٍ مشبعةٍ بالإثارة والدراما. أمَّا أهالي القرية الآخرين فكان معظمهم قد استيقظ مع شروق الشمس وفتحوا حظائر الخنازير وخمم الدجاج استعدادًا لأوَّل أيَّام الربيع. ورغم أنَّ الشمس قد طلعت منذ ساعات، كان أهل المدرسة قد دخلوا للتوِّ رحابَ الأحلامِ. للتوِّ بدأت حُلُوق المشخِّرين تتغرغر. للتوِّ بدأت أفواه المتكلِّمين نيامًا تهمس.

وبينما كان كلُّ مَن حولهم نيامًا، انصرف دينغ يويه جي وجيا غن تشو إلى العمل. كانا ينامان في الصفّ نفسه الموجود في الطابق الثاني على الجانب الشرقيّ من مبنى المدرسة. جيا غن تشو هو من نهض أوّلًا، أيقظه ضوءُ الشمس المتسرِّب إلى سريره من النافذة، غامرًا وجهَه بالدفء. بمجرَّد أن فتح عينيه، توجَّه إلى النافذة وأدرك أن الوقتَ قد تأخَّر بالفعل، وهرع إلى السرير المقابل يهزُّ دينغ يويه جي كي يستيقظ.

أفاقَ دينغ يويه جي إفاقة السكران. وبعد أن صفا ذهنُه، تذكَّر الأمر المهمَّ الذي لا بُدَّ من تنفيذه اليوم، فارتدى ملابسه بسرعة وغادر الصفَّ برفقة جيا غن تشو.

نزلا إلى الطابق السفليّ وعبرا باحة المدرسة متجهَيْن إلى المبنى الصغير المجاور للبوَّابة. حين وصلا إلى مسكن جدِّي، ألقيا نظرة خاطفة من خلال النافذة قبل أن يطرقا على الباب. بمجرَّد أن رفعا يديهما، سمعا صوتًا آتيًا من الخلف، فاستدارا ليجدا جدِّي واقفًا وراءهما.

كان عمِّي لا يزال نائمًا في سريره، منهكًا بعد أمسيته الزاخرة بالأحداث. كان قد غرق في النوم على الفور، عقب مناوشة قصيرة مع جدِّي، دارت بينهما همسًا.

«خيبة أملي كبيرة يا بني، لم أعتقد يومًا أنَّك ستقترف شيئًا مخزيًا لهذا الحدّ»، قال جدِّي.

لم يردّ عمِّي.

تابع جدِّي: «إذا تابعت في هذا الطريق فستكون عاقبتك وخيمة».

«ماذا تعني بالعاقبة الوخيمة؟ الحمَّى ستقتلني بكلِّ الأحوال».

«ماذا عن زوجتك؟ هل تعتقد بأنَّك كنتَ عادلًا معها بفعلتك هذه؟».

«أتريد أن نتحدَّث عن العدل؟ لم تكن عذراء حين تزوّجنا، ولم تعتذر قطُّ عن ذلك».

«حسنٌ، هل تعتقد بأنَّك كنتَ عادلًا مع ابنك؟».

«أنا متعبٌ يا أبي. أحتاج للنوم».

«كيف بوسعك أن تنام؟».

ظلَّ عمِّي صامتًا، محاولًا أن يغفو.

«ماذا لو عرفت تينغ تينغ أو أهلها بالأمر؟».

«كيف سيعرفون؟». تقلَّب عمِّي محاولًا أن ينام. بعد لحظات، كان يشخر بهدوء. لقد استُنزفت قواه بعد الجهد الذي بذله في الليلة السابقة، لا سيّما بعد أن قُبِض عليه متلبّسًا. كان بحاجة للراحة كعدَّاء مُنهك أنهى سباق الماراثوان للتوِّ.

لكنَّ جدِّي، الذي تتقاذفُه أمواج القلقِ والغضبِ المتلاطمة، لم يجد سبيلًا للراحة. جلس في السرير، مستقيظًا بكلِّ حواسّه، يستمعُ إلى شخير ابنه الرتيب تساوره رغبةٌ جارفة بأن يخنقه في فراشه. وكان سيخنقه، بلا شكّ، لو امتلك القوّة الكافية.

مرتديًا كلَّ ملابسه، متدّثرًا بلحافه، سرح الجدّ في خياله. فكَّر بأشياء كثيرة لكنَّه وجدَ نفسه لا يفكِّر بأيّ شيءٍ البتَّة. ظلَّ الطنين الشارد يئزُّ في رأسه حتَّى وقت متأخِّر من الليل. وبحلول الوقت الذي انقشعت فيه ظلمة السماء، كان ذهنُه غارقًا في الخواء، خواء ممتدّ وكئيب. أراد أن يكره ابنه لكنَّه لم يستطع؛ أراد أن يشفق عليه لكنَّه لم يستطع ذلك أيضًا. لم يكن لديه القدر الكافي من المشاعر لأيٍّ منهما؛ الكراهية أو الشفقة.

بينما كانت أشعة الصباح الأولى تتسلَّل عبر النافذة، كان جفنا جدِّي قد تثاقلا لكنَّ النوم لم يدنُ خطوةً منهما. قام من سريره متجهًا إلى الباب، مارًّا بسرير عمِّي. يا لسهولة أن ينحني نحوه ويخنقه. انحنى جدِّي، إنَّما كي يلتقط زاوية اللحاف الساقط على الأرض ويضعه على كتفي ابنه. حين فعل ذلك، لاحظ عدَّة بقع جديدة على كتف عمِّي، أربعة أو خمسة ثآليل بحجم حبة البازلاء الكبيرة.

مرَّر جدِّي أصابعه على الثآليل وتفحَّصها بعناية.

ثمَّ غادر الغرفة، وخرج من المدرسة للتنزُّه في الحقول.

حين عاد، وجد دينغ يويه جي وجيا غن تشو يطرقان بابه. سألهما، قادمًا من خلفهما: «ما الخطب يا أولاد؟».

اتَّضح أن الخطب كان شيئًا غير متوقَّع، شيئًا لم يكن بحسبان جدِّي.

كان غير متوقَّع كشروق الشمس من الغرب أو غروبها من الشرق أو كالاستيقاظ ذات صباح ورؤية جبلٍ خرج من السهل. غير متوقَّع كحقل قمحٍ صيفيٍّ ناضجٍ في عزِّ الشتاء أو كمياهٍ تتدفَّق في مجرى نهرٍ قديمٍ ظلَّ جافًّا لقرون.

حين سمعا صوت جدِّي، التفت الشابّان ليجداه على بعد بضعة أقدام فحسب. بدا جدِّي منهكًا، خائرَ القوى، بياض عينيه مغطّى بعروق حُمر عنكبوتيَّة. تحت وطأة المفاجأة، رمقَ الشابَّان أحدهما الآخر، يفكِّران بما سيقولانه.

تحدَّث دينغ يويه جي أوَّلًا. «عمِّي! هل بقيت مستيقظًا طوال الليل؟».

أجاب جدِّي بضحكة حزينة: «لم أستطع النوم».

نظر جيا غن تشو إلى دينغ يويه جي نظرة ذات مغزى، ثمّ تنحنح قائلًا: «أستاذ دينغ، هناك أمرٌ نودُّ أن نناقشك بخصوصه».

«نعم. تفضّل».

أمال غن تشو رأسه باتجاه البوَّابة. «دعونا نتحدّث هناك».

«لا فرق بين الأماكن بالنسبة لي».

«لا نريد إيقاظ دينغ ليانغ»، أوضح يويه جي.

مضوا نحو بوَّابة المدرسة، واتّخذوا مكانًا لهم تحت أفاريز المبنى المجاور. حدَّق الشابّان بعضهما ببعض، في محاولة لتحديد مَن عليه أن يتحدَّث أوّلًا. في نهاية المطاف أومأ غن تشو إلى يويه جي. «تفضّل!».

لكنّ يويه جي ردَّ قائلًا: «لا، من الأفضل أن تتحدَّث أنت».

رفع غن تشو نظره إلى وجه جدِّي، واستقرَّت عيناه للحظات. عضَّ على شفتيه حتَّى تلاشتا تقريبًا، ثمَّ مرَّر طرف لسانه عليهما، وقال أخيرًا: «يا أستاذ، أنا ويويه جي لن نبقى على قيد الحياة طويلًا. لقد فكَّرنا في الأمر مليًّا، وهناك شيءٌ يغلي في صدرَيْنا ونودُّ أن نبوح به».

انتظر جدِّي.

«نحن مَن حبسنا دينغ ليانغ ولينغ لينغ داخل المخزن»، اعترف غن تشو مبتسمًا.

انقلبت ملامحُ جدِّي: امتقع وجهه وبان عليه الارتباك، بل بدا مذعورًا بعض الشيء. عالقًا بين براثن الغضب والخوف، بدا كرجلٍ يكاد يفلتُ قبضته ويسقط في قاع الهاوية. نظر إلى دينغ يويه جي متوقِّعًا أنَّه، على الأقلّ، سيطأطئ رأسه أو يبدو مستميحًا الأعذار. لكن لم يكن ثمَّة أيُّ أثرٍ للندم على وجه الشاب. كان يويه جي منتصبَ الرأس، ترتسم على وجهه ابتسامة غن تشو ذاتها، الابتسامة الوقحة التي سبق أن رآها جدِّي كثيرًا على وجه ابنه. لم يقل الشابّان شيئًا، كأنّهما يرتقبان رؤية ردِّ فعل جدِّي.

اكتفى جدِّي، المندهش من تصرُّفهما، بالتحديق.

«لزامٌ علينا أن نخبرك الحقيقة الكاملة. فبعد أن حبسناهما، أرسلنا شخصًا كي يعطي المفتاح لزوج لينغ لينغ».

وأضاف يويه جي: «أراد غن تشو أن يعطي نسخةً من المفتاح لزوجة ابنك أيضًا، لكنّني منعتُه».

رمق غن تشو صديقه. «لم أفعل ذلك كرمى لك يا أستاذ. لقد فكّرتُ بكَ، لا بابنك».

«أيّها العم، هناك شيء آخر نودّ الحديث به. نعلم أنَّك لا تريد لزوجة ابنك أن تكتشف الأمر. لذلك جئنا إليك باقتراح. سيكون كلّ شيء على ما يرام إن وافقتَ عليه. لن يحدث أيُّ مكروه».

«أوافقُ على ماذا؟»، استفسر جدِّي.

«فلتخبره يا غن تشو».

«لا فرقَ في ذلك».

«لا يهمُّ، فلتخبره أنت».

«لا بأس». استدار غن تشو ليواجه جدِّي. «حسنٌ يا أستاذ دينغ، آمل ألا يغضبك ما سأقوله. كان هذا أخشى ما نخشاه، ولذلك أتينا لنحدّثكَ وجهًا لوجه. نعلم أنَّك رجلٌ عاقلٌ وبوسعنا مناقشة هذا الأمر بكلّ هدوء. لو كان مكانك شخصٌ آخر، لي سانرين مثلًا حين كان على قيد الحياة ولا يزال عمدة القرية وأمين الحزب، لكنّا مضينا قدمًا دون أن نسأل عن شيء».

«ما الذي تحاولان قوله بحقّ السماء؟».

«ما نودُّ قوله هو أنَّك لست مضطرًّا إلى أن تبقى مسؤولًا عن أمور المدرسة بعد الآن، أو عن رعاية شؤون أهالي القرية المرضى. من الآن فصاعدًا، سنتولّى أنا ويويه جي زمامَ كلّ شيء».

«هذا صحيح»، ردّ يويه جي. «ما عليك إلا أن تعتبرنا مديرَي المدرسة الجديدَيْن، المسؤولَيْن عن كلِّ هؤلاء المرضى. تصرَّف كأننا عمدة

القرية وأمين سرّ الحزب، وافعل كلّ ما نقوله لك. لأنَّك إذا استمعتَ إلينا، فسيفعل الجميع ذلك أيضًا».

قهقه جدِّي. «أوه، أهذا كلّ ما بحوزتكما؟»‌.

«هذا كلّ شيء»، أجاب غن تشو متجهِّمَ الوجه. «نريدكَ أن تدعو لاجتماع، وتعلنَ أنَّنا، نحن الاثنين، من الآن فصاعدًا المسؤولان عن كلِّ شيء في المدرسة، بما في ذلك الإعانات الغذائيَّة الحكوميَّة. عرفنا أيضًا أنَّ ختم القرية الرسميّ بحوزة دينغ هوي. نريدكَ أن تحصل عليه منه وتسلّمه إلينا. يمكنك أن تعتبرنا العمدةَ الجديد وأمين الحزب الجديد».

حدَّق جدِّي بهما في صمت.

«ما عليكَ سوى الإدلاء بالتصريح».

أضاف غن تشو: «وإن لم تفعل، فسنخبر تينغ تينغ بكلِّ شيء عن قصّة زوجها، وسيتدمّر زواجهما، ونجرّ الخراب على العائلة بأكملها».

«لا تقلق أيّها الأستاذ. إن تولّينا، كلانا، مسؤوليَّة المدرسة والقرية، فما الضير في ذلك؟»‌.

«ونعدكَ بأن نقوم بعملٍ أفضل ممّا قمتَ به. يعلم الجميع أنَّ دينغ هوي يبيع النعوش التي حصل عليها مجّانًا من الحكومة. سمعنا أنّه يحاول جمع الأموال لنقل أسرته من القرية، إمَّا إلى كايفنغ أو إلى عاصمة المقاطعة. ودينغ ليانغ لم يكتفِ بخيانة زوجته فحسب، بل خانها مع زوجة ابن عمّه! بوجود هذين الولَدين، هل تظنّ أنَّك ما زلتَ مؤهّلًا لإدارة هذه القرية أو هذه المدرسة؟»‌.

تابع غن تشو مستهزئًا: «إننا نطلب إليك أن تفعل ذلك يا أستاذ من أجل مصلحتكَ، ومن أجل مصلحة عائلتك. وإذا لم توافق، فسنخبر زوجة ابنك كيف قبضنا على زوجها نائمًا مع لينغ لينغ. ستجد نفسك حينها في ورطة كبيرة، وستتدمَّر عائلتك».

تناوب كلاهما، في انسجامٍ محبوكٍ على نحو مثاليّ، كأنَّهما ممثّلان في عرض شوانغ هوانغ[1]. كان أداؤهما شبيهًا بما كان يقدِّمه ما شيانغ لين على المسرح حين كان على قيد الحياة. غير أنَّ جدِّي قد أصبح هو الجمهور، يشاهدُ ويستمعُ تحت الشمس الحارقة. شحب وجهه وتبرعمت حبَّات العرق على جبهته. في تلك اللحظة بدا جدِّي طاعنًا في السنّ على نحو رهيب. كلُّ شعرةٍ في رأسه قد ابيضَّت تمامًا. كان رأسه المكلَّل بفضّة الشيب يتمايل لأعلى وأسفل تحت إفريز المبنى، كأنَّه بالونٌ لَمَّاع من تلك البالونات التي تُباع في المدينة. ولو لم يكن هذا البالون معقودًا إلى رقبته، لربّما طفا في الهواء أو سقطَ على مسمار حديديّ فوق بوَّابة المدرسة.

حين أنهى الشابّان حديثهما، حدَّق جدي فيهما فاغرَ الفمِ والعينين كما كان طوال المحادثة برمّتها. كان إزاء نسيبه وابن أخيه؛ دينغ يويه جي، وجيا غن تشو؛ المنحدر من القرية. كان يعرفهما منذ يوم ميلادهما، بل إنَّه علَّمهما في المدرسة، أمَّا الآن فقد باتا غريبَيْن، كرسمَيْن في كتابٍ مدرسيٍّ لم يُفهم معناهما، كمسألتَيْن حسابيّتَيْن استعصى حلُّهما.

---

(١) تعني: الأداء المزدوج، وهو شكل من أشكال التمثيل المسرحيّ الشعبيّ يؤديه ممثّلان؛ أحدهما يحاكي تطوُّر الأحداث بأفعاله، والآخر -متواريًا في الخلف- يستكملُ بالغناء والتحدُّث. (م)

على الأغصان العالية لأشجار الپولونيا كانت العصافير تغرِّدُ، ينهمرُ تغريدها على باحة المدرسة الصامتة مثل المطر. وقف الرجال الثلاثة بهدوءٍ تحت الأفاريز، يتملّون في وجوه بعضهم بعضًا. كان صمتهم عنيدًا، قاتلًا، لم يرغب أحدٌ في التجرُّؤ على كسره. أخيرًا، تنحنح جيا غن تشو الذي لطالما كان قليل الصبر، حتَّى في فتوّته، وقال: «حسنٌ يا أستاذ، هل فهمتَ ما قلناه لك؟».

٢

تنحَّى جدِّي جانبًا، ممتثلًا لما طُلب إليه. أدلى بهذا التصريح أثناء الغداء. من دون الخوض في الكثير من التفاصيل، قال جدِّي إنَّه غدا عجوزًا، وأنَّ نجلَيْه كانا سببًا لخيبة أملهِ وإحساسه بالعار. لقد أراقا ماء وجهه على مرأى الجميع، لذا لم يكن من الصائب أن يظلَّ مسؤولًا عن المدرسة وسكّانها المرضى، ناهيك عن شؤون القرية بأسرها. من الأفضل أن يتنحَّى ويسلم زمام الأمور لجيا غن تشو ودينغ يويه جي. وكونهما في ريعان الشباب والحماسة، على حدّ تعبير جدِّي، فاضطلاعهما بمسؤوليَّة القرية فيه مصلحة الجميع.

جلس سكَّان المدرس القرفصاء في الفناء المشمس بجوار المطبخ والمخزن، يتناولون طعام الغداء. وحين استحضروا مشهدَ القبض على عمِّي ولينغ لينغ بالجرم المشهود، متلبّسَيْن في المخزن، كان لا بُدَّ من الاتفاق على أنَّ جدِّي قد فقد التفويض. كيف له أن يدير حياة الآخرين وهو عاجز عن التحكُّم بأبنائه؟ بدأ بعض السكَّان يمدّون رؤوسهم ويفتّشون عن عمِّي حولهم. رأَوه مقرفصًا عند الجدار الشرقيّ للمطبخ،

بعيدًا قدر الإمكان عن المخزن. عندما رآهم يحدِّقون إليه، قابلهم بابتسامته الخبيثة، كأنَّ إلقاء القبض عليه مع لينغ لينغ لم يكن أمرًا جللًا. كان من الصعب معرفة ما إذا كانت ابتسامته زائفة –ربّما كان يتظاهر بها فحسب– أم أنَّه لم يشعر بحرجٍ البتّة بشأن فضيحة الليلة السابقة. وفي خضمِّ حيرة القرويّين حولَ معنى ابتسامته، صاح شخصٌ بالقرب من المطبخ: «دينغ ليانغ! لقد عشتَ ليلتك الماضية بالطول والعرض، أليس كذلك؟».

ردَّ عمِّي صائحًا: «عندما تكون على حافّة القبر، عليك أن تعيشَ كلّ يومٍ بالطول والعرض».

لم يسمع دينغ يويه جي وجيا غن تشو هذا الأخذ والردّ، ولم يلمحا ابتسامة عمِّي. وبينما كان جدِّي يدلي بتصريحه، وضعا طبقيهما على الأرض وأنصتا إليه بعناية. بمجرَّد أن فرغ من الكلام، أخرجا ملصقًا كبيرًا أحمرَ اللون وأخذا يلصقانه على جذع شجرة الحور مقابل باب المطبخ.

بمنتهى الجديَّة والصمت، علَّق دينغ يويه جي وجيا غن تشو ملصقَهما على الشجرة، ثم تراجعا بضع خطوات لينظرا بعين الإعجاب إلى صنيعهما. وسرعان ما أدرك سكَّان القرية، الذين تجمهروا حول الشجرة لإلقاء نظرةٍ فاحصة، أنَّ الملصق عبارة عن قائمة من القواعد والأنظمة:

١. شهريًّا، يتعيَّن على كلِّ المقيمين في المدرسة المساهمة بحصَّة محدَّدة من المواد الغذائيَّة من أجل الوجبات الطعاميَّة المشتركة. سحقًا لكلِّ ابن

عاهرة يحاول الغشّ أو التحايل في مقدار المساهمة، ولعلَّ عائلته بأكملها تموت جرَّاء الحمَّى.

٢. ستتولَّى المدرسة وحدَها تنظيم كلّ الإعانات الحكوميَّة من الحبوب والأرز وزيت الطهي والأدوية. كلُّ مَن يملأ الجشعُ قلبَه أو يطالب بأكثر من نصيبه، فلعلَّ اللعنات تحيق بكلِّ أسلافه وتقضي الحمَّى على آخر فردٍ من نسله.

٣. سيتولَّى دينغ يويه جي وجيا غن تشو توزيع النعوش التي قدَّمتها السلطاتُ مجّانًا، ومَن لا يمتثل للتعليمات الصادرة عنهما لن يُحرم من النعش المخصَّص له فحسب، بل سنطلب من كلِّ أهالي القرية أن ينتهكوا شرفَ أسلافه ويكيلوا أقذع الشتائم واللعنات على أحفاده.

٤. لا يُسمَح لأيّ شخص، كائنًا من كان، اختلاس ممتلكات المدرسة أو الاستيلاء عليها لغرض الاستعمال الشخصيّ دون الحصول على إذن صريح من دينغ يويه جي وجيا غن تشو. سيلاقي اللصوص والسارقون العذاب حتَّى الموت وستُنبش قبورهم نبشًا.

٥. في كلّ الأمور المتعلِّقة بالمصلحة العامَّة، صغيرها وكبيرها، يجب أوّلًا أن تُؤخذ موافقة دينغ يويه جي وجيا غن تشو. أيُّ عملٍ يُنفَّذ دون إذنٍ خطّي منهما ممهورٍ بالختم الرسميّ للجنة الحزب في القرية يُعَدُّ باطلًا ولاغيًا. كلُّ مَن يعصي هذه التعليمات سيموتُ قبل أوانه، وسيفقد والدَيْه، وسيثكل أطفالَه ضحايا في حوادث السير.

٦. لا يجوز لنزلاء المدرسة إقامة علاقات جنسيَّة خارج إطار الزواج أو الإقدام على سلوكٍ شائنٍ من شأنه الإساءة للآداب العامَّة،

وكلُّ مَن يُلقى القبض عليه متورِّطًا في أعمال غير أخلاقيَّة سيُقتاد في القرية، معتمرًا قبَّعة ورقيَّة عالية، ولافتة تتدلَّى من عنقه مكتوبٌ عليها تفاصيلُ جريمته على مرأى الجميع. كما سيُلطَّخ وجهه وسائر جسده بالدمِ الملوَّث بالحمَّى.

٧. كلُّ من يعترض على (أو لا يتلزم بـ) البنود المذكورة أعلاه ستصيبه لعنة مدى الحياة، سيشعر بالجسر ينشقُّ تحت قدميه إذ يعبر فوق النَّهر، سيكابد كوابيس الموت المريرة وسينقل الحمَّى إلى كلِّ أفراد أسرته وأصدقائه وأقاربه. بالإضافة إلى ذلك، سيطرد من المدرسة على الفور ولن يُسمح له بالعودة إلى المدرسة مجدّدًا. ومن يماطل في الرحيل سيلاقي الأمرَّيْن.

حام القرويّون حول الشجرة، يقرؤون القواعد والأنظمة الجديدة. بعضهم راح يقرأ بصوتٍ عالٍ وبعض آخر بلا صوت، لكنَّ ابتسامة متعجرفة ندَّت عنهم جميعًا، كأنَّهم قد وجّهوا للتوّ شتيمةً لائقةً لشخصٍ يستحقُّها. اتفقوا جميعًا على أنَّ القواعد مصاغة بشكلٍ جيّد ومقبول ومرضٍ. استداروا لإلقاء نظرة على دينغ يويه جي وجيا غن تشو اللذين كانا يجلسان القرفصاء مستندَيْن إلى الجدار، يتمّان غداءهما. كلاهما بملامح صارمة ووجهٍ مظلمٍ كسحابةٍ رعّادة. لقد أرسيا القواعد والأنظمة ودشّنَا نظامًا جديدًا، وهذا ما كان.

سرعان ما تبيَّن أن الحياة، في ظلِّ النظام الجديد، لم تكن بهذه البساطة. ستجري الكثير من محاولات المراوغة والحوادث المريبة في القرية والمدرسة.

لقد تغيَّرت قرية دينغ، ولن تعود الحياة فيها كما كانت أبدًا.

٣

كان غن باو، شقيق جيا غن تشو الأصغر، مقبلًا على الزواج. لم يكن هذا الأمر محاولة من محاولات المراوغة التي جرت في القرية بل حدثًا عامرًا بالبهجة. ورغم أنَّ غن باو مصابٌ بالحمَّى، لكنَّ أهله وجيرانه – أي القرية بأسرها – تواطؤوا لإبقاء تلك الحقيقة طيَّ الكتمان، وساعدوه في العثور في زوجة. لدى حديثهم مع الغرباء كانوا يطنبون في الإشادة بسلامة صحّته وشهيّته القويّة وكيف أنَّ بوسعه تناول طبقَين من الطعام ووعائين من الحساء وثلاث خبزات في وجبة واحدة. في نهاية المطاف، نجح غن تشو في إقناع شابَّةٍ سليمة ومعافاة من قرية أخرى بالزواج من أخيه. والآن، مع اقتراب المناسبة السعيدة، كانت الأسرة بحاجة إلى عشر طاولات كبيرة لإقامة وليمة الزفاف، ولكن كلّ طاولات الولائم الموجودة في القرية كانت قد استُخدمت لصنع النعوش. ونظرًا لعدم قدرتها على استعارة الطاولات التي يحتاجون إليها، قرَّر جيا غن تشو وشقيقه أخذَ بعض المقاعد من المدرسة.

قضى جيا غن تشو أغلب صباحِه في نقل المقاعد من الصفوف وتحميلها على متن العربات. وبينما كان يهمُّ للمغادرة، استوقفه جدِّي عند البوَّابة وقال له إنَّ المقاعد مخصَّصة للطلاب، ولا يُسمح لأحدٍ نقلها. وإذا كان غن باو يرغب في إخراج المقاعد من المدرسة، فلن يتمَّ ذلك إلّا على جثّة جدِّي.

كانت المقاعد المطليَّة بالأصفر جديدة تمامًا، وقد كُدِّس ستَّة منها في

عربة واحدة. راح جدِّي يفرغ إحدى العربات من المقاعد، بينما أقدم غن باو، ذو الاثنين وعشرين عامًا، على إعادتها إلى العربة من جديد. أدَّى ذلك إلى مناوشة دفعت كلَّ النزلاء للخروج والمشاهدة.

كان جيا غن تشو ودينغ ويويه جي هناك، أيضًا.

كان قد مرَّ على استلام الرجلَيْن مسؤوليَّة المدرسة ثلاثة أيَّام. في غضون هذه المدّة، لم يأكلا ما يزيد عن حصّتهما العادلة من وجبات الطعام، ولم يتناولا نصيبًا يفوق استحقاقهما من الأدوية العشبيَّة، لكنَّهما توجّها مرّتَيْن إلى أقرب مدينة لطلب المساعدة من المسؤولين المحليّين بالنيابة عن نزلاء المدرسة. حتَّى ذلك الوقت، كانا قد حصلا، عبر المفاوضات، على دعم قدره عشرة أرطال من الدقيق ومثلها من الأرزّ لكلِّ قرويٍّ مريض، بالإضافة إلى تخفيض الضرائب على الأراضي البيتيَّة بنسبة الثلث، الضرائب التي تُجمع بعد الحصاد. لقد كانت نعمةً غير متوقّعة: فلم يقتصر الأمر على الحصول على طعام مجّاني فحسب، بل توفير الأموال التي تقتطعها الضرائب. فعلى أقلّ تقدير سيوفِّر عليهم هذا عناءَ الجدالِ مع جباة الضرائب حين يأتي موسم الحصاد. في هذا الجوِّ السعيد كان جدِّي على وشك أن يخوض معركة مع شقيق جيا غن تشو الصغير.

«لا يُسمَح لأحدٍ بإخراج المقاعد من المدرسة»، قال جدِّي لغن باو.

«ولكنّي مصاب بالحمّى يا أستاذ دينغ، ألا تعلم ذلك؟»، قال الشابّ.

«إذا كنتَ مصابًا بالحمَّى، فلماذا ستتزوّج تلك الفتاة؟».

«ماذا تتوقَّع مني أن أفعل؟ أن أبقى أعزبَ حتّى أموت؟».

عندما أغلق جدِّي البوَّابة كي لا يتمكَّن غن باو من إخراج عربته، حاول الحشد التفاهمَ معه.

«ما الضير في استعارة بعض المقاعد؟ طالما أنَّه سيعيدها فيما بعد»، سأل أحدُ الرّجال جدِّي.

وقال آخر: «بينما كلُّ أهالي القرية يموتون يومًا بعد يوم، ليس من السهل أبدًا العثور على زوجة. هل تحاولُ، يا أستاذ دينغ، الانتقام من غن تشو لأنَّه تولَّى مسؤوليَّة المدرسة؟».

ظلَّ جدِّي حيثُ كان واقفًا عند البوَّابة ولم يقل شيئًا. أشرقت شمسٌ دافئة في أعالي السماء. في هذا الوقت من النّهار، كان معظم النزلاء قد خلعوا معاطفهم. بعضهم يرتدي قمصانًا أو سترات صوفيَّة قديمة. كان واحدٌ من الرجال فحسب يرتدي قميصًا قطنيًّا مع سترة تتدلّى على كتفيه. كان الطقسُ، الذي لا يلبث أن يتقلَّب، باردًا جدًّا لارتداء طبقة واحدة من الثياب، ودافئًا جدًّا لارتداء معطَّف مبطَّن، لذا كان ارتداء طبقاتٍ عديدة حلًّا ملائمًا. ارتدى جدِّي قميصًا صوفيًّا أصفر اللون، يبدو غير مخصَّص لفئة عمريَّة محدَّدة، ما جعل بشرته تبدو شديدة الشحوب. تكاثفت حبَّات العرق على جبهته الباهتة، كقطرات ماء متسرِّبة من سهلٍ مليء بالطمي الأصفر. كان قد حشر جسده بين مصراعي البوَّابة، يدٌ تمسكُ بكلّ جانب، قدماه مثبّتتان على الأرض كوتدَيْن خشبيَّيْن. محدِّقًا في وجوه المحتشدين، خاطبهم جدِّي قائلًا: «إن كان بوسع أيّ شخصٍ منكم أن يضمن أنَّ بعد موته لن يأتي أولادُه إلى هذه المدرسة لتعلُّم القراءة والكتابة، فسأدع غن باو يخرج هذه المقاعد حالًا».

لم يردّ أحد.

«هل تضمنوا لي ذلك؟»، سألهم جدِّي وقد رفع صوته.

كانوا جميعًا صامتين، بلا حراك. تصاعدت برودة الطقس. وبينما كانوا واقفين في باحة المدرسة، يتساءلون عمّا ينبغي فعله، ظهر جيا غن تشو. متئد الخطى، وجهه مكفهرّ جرّاء الغضب المكبوت. افترق الحشد للسماح له بالمرور. حين بات واقفًا وجهًا لوجهٍ أمام جدِّي قال: «هل نسيتَ ما تحدّثنا به منذ ثلاثة أيّامٍ يا أستاذ؟». كان صوته باردًا ومتوعِّدًا.

«طالما بقيتُ وصيًّا على هذه المدرسة، فلا يُسمَح لأحدٍ بإخراج هذه المقاعد»، أجاب جدِّي بهدوء.

«لقد أبليتَ بلاءً حسنًا بدوركَ كوصيٍّ على المدرسة»، اعترف جيا غن تشو. «ولكن أليست هذه المدرسة تابعة للقرية؟ أليست تُدعى مدرسة قرية دينغ الابتدائيَّة؟».

«بلى، هي كذلك بالطبع». لم يستطع جدِّي أن ينكر مثل هذه الحقيقة الواضحة، لكنّه بهذا الاعتراف قدَّم ذريعة لجيا غن تشو الذي أخرج من حقيبته على الفور ورقةً وختمَ لجنة الحزب في القرية. جثم على الأرض ونشر الورقة على ركبتيه، وبعد أن قرَّب الختم من فمه كي يرطِّب الحبرَ عليه، طبعَه على الورقة، تاركًا علامة مستديرة قرمزيَّة على الورقة. سلّم الورقة لجدِّي قائلًا: «أليس هذا دليلًا كافيًا؟ هل ستمسح له بالعبور الآن؟».

عندما رأى جيا غن تشو أنَّ جدِّي قد رَكِب رأسه، جلسَ القرفصاء مرَّة أخرى وكتب السطر التالي بقلم الرصاص على الورقة: «بعد إجراء

تحقيقٍ شاملٍ في الأمر، نمنح بموجب هذه الوثيقة الإذنَ لجيا غن باو بأن يستعير اثني عشر مقعدًا من أملاك مدرسة قرية دينغ الابتدائيَّة». بعد أن أمضى توقيعه المزخرف فوق الختم الرسميّ الأحمر، وقف ولوَّح بالورقة أمام وجه جدِّي. «هل لديكَ شيء آخر تودُّ قوله؟».

ألقى جدِّي نظرة سريعة على الورقة، متبيّنًا الكلمات المكتوبة بقلم الرصاص والختم الأحمر ذا المظهر الرسميّ، ثمّ حدَّق في جيا غن تشو مرتابًا. لقد كانت تحديقته من ذلك النوع الذي يوجِّهه المرء إلى طفلٍ صغيرٍ يختلق الأكاذيب، تحديقة ممزوجة بالشفقة والازدراء. كلُّ الحشد، بمن فيهم جيا غن تشو، لاحظوا ذلك لكنَّهم، على ما يبدو، شعروا بأنَّ جدِّي لم يكن على حقٍّ هذه المرَّة. وفي آخر المطاف فليست هذه نهاية العالم، والمسألة لا تتعدَّى بضعة مقاعد. ثمَّ ألم يكن بحوزته وثيقة موقَّعة وممهورة بالختم، وردت فيها عبارات من قبيل: «بعد إجراء تحقيقٍ شاملٍ» و«نمنح بموجب هذه الوثيقة الإذن»، بشكلٍ يدحضُ التهمة في إخراج بعض ممتلكات المدرسة؟ من جانب آخر، لا يبدو من الصائب أن يلاقي جيا غن باو سوءَ المعاملة عشيَّةَ زفافه.

اندفع عمِّي من قلب الحشد، للتوسُّط من أجل عائلة جيا.

«يا أبي، ما دامت هذه المقاعد ليست ملكًا لنا، لماذا تهتمُّ لأمرها؟».

«اخرس»، قال جدِّي. «هذا كلُّه من جرائر أفعالك!».

ابتسم عمِّي ولم يقل شيئًا. اختفى وسط الحشد من جديد وهو لا يزالُ يبتسم ويقول: «حسنٌ، حسنٌ، سأبقى بمنأى عن الأمر. لا شأن لي بذلك».

تشاو شيو تشين كانت ثاني من تقدَّم.

«أستاذ دينغ، لا يُعقل أنَّ عنادك يصل لهذا الحدّ؛ ذلك أنّني لم أرَ اسمك منقوشًا على أيٍّ من هذه المقاعد».

«وكيفَ عرفتِ ذلك يا شيو تشين؟ ما دمتِ لا تستطيعين أن تميّزي اسمك حتّى»، ردَّ جدِّي.

فغرت تشاو شيو تشين فمها لكنَّ صوتًا لم يخرج منه. لقد انعقد لسانُها.

عندئذٍ، شقَّ دينغ يويه جي طريقه بين الحشد. «أيّها الأستاذ، أنا مَن منحتُ غن باو الإذنَ بأخذ تلك المقاعد. ابتعد عن الطريق ودعه يمرّ».

«وهل منحُكَ الإذنَ له يخوِّله بأخذها؟». قرَّب جدِّي وجهه من وجه يويه جي، لكأنَّه يريد أن يبتلعه بمحجريه.

حدَّق يويه جي، غيرَ آبهٍ، في جدِّي دون أن يرفَّ جفناه. «أنا وجيا غن تشو منحناه الإذن»، أعلن بصوتٍ عالٍ، «تباحثنا في الأمر وقرَّرنا السماح لأخيه بأخذِ المقاعد».

تسمَّر جدِّي ورنا نحو السماء، متجاهلًا جيا غن تشو ودينغ يويه جي. بعدها، رمق الحشد بنظرةٍ خاطفةٍ ورفع رأسه قائلًا: «لن تجتاز هذه البوَّابة إلا فوق جثّتي».

سحب جدِّي مصراعَي البوَّابة المعدنيَّة بحيث حُوصر جسده بينهما. بدا جسده ملتحمًا بالبوَّابة، غيرَ منفصلٍ عنها مهما عمد غن تشو ويويه جي إلى الدفعِ والسحبِ واللكمِ.

كان الوضعُ قد وصل إلى طريق مسدود. الجوُّ مشحونٌ بالجمود. لم ينبس أحدٌ بكلمة واحدة. تنقّلت الأنظار من جيا غن تشو إلى دينغ يويه جي إلى جدِّي، في انتظار رؤية كيف سيتجاوز الرجال الثلاثة هذا المأزق. شيئًا فشيئًا، أدرك الجميع أنَّ الأمر ما عاد يتعلَّق بمجرَّد إذنٍ لاستعارة المقاعد من المدرسة أو حتَّى بحقيقة اكتشاف العلاقة بين عمِّي ولينغ لينغ. بل كان جوهرُ الأمر صراعًا للسيطرة على المدرسة... وعلى كل شيءٍ بداخلها.

وهكذا ظلّوا جميعًا صامتين.

صمتٌ مظلمٌ كالليلِ. صمتٌ جعل المرضى يرتعشون رغم الدفء الذي جلبته شمس الربيع الباكر.

ارتجفت الوثيقة الموقَّعة والممهورة بالختم في يد جيا غن تشو؛ كان ارتجافًا طفيفًا. امتقع وجهه امتقاع الغيومِ إبان العاصفة، شفتاه مزمومتان مثل خيطٍ مشدود. رمق جدِّي بحذرٍ، كما لو أنَّ هذا الرجل المسنّ ثورٌ عجوزٌ لم يفقد قوَّته للصراع. ثورٌ عجوزٌ يأبى أن يموت ببساطة.

بخلاف جيا غن تشو، لم تبدُ على دينغ يويه جي أمارات الغضب. كان وجهه البائس وجهَ رجلٍ تلقَّى بصقة للتوّ. ففي كل الأحوال، يبقى جدِّي هو عمُّه ومعلِّمه السابق، أيضًا. كان يويه جي مقيّدًا في هذا الموقف. لذا راح ينظر إلى غن تشو، على أمل أن يفعل هذا الأخير شيئًا يحملُ جدِّي على الابتعاد عن البوَّابة والسماح لغن باو بالمغادرة ومعه المقاعد. ولمّا كان شقيق جيا غن تشو هو الذي سيتزوَّج، وعائلته هي التي أرادت استعارة المقاعد من أجل مأدبة الزفاف، فقد بدا أن حلَّ الموقف منوطًا بغن تشو.

كان الجميع يعلم أن شقيق غن تشو ذا الاثنين وعشرين عامًا مصابٌ بالحمَّى، ولكنَّ أحدًا لم يكن يعرف كيف أُصيب بالعدوى طالما أنَّه لم يبع دمَه قطُّ. والسبب الوحيد الذي جعل غن باو قادرًا على إيجاد زوجة -أي خداع فتاةٍ من قرية أخرى للزواج منه -هو أنَّ كلَّ سكان قرية دينغ تواطؤوا لإخفاء حقيقة مرضِه عن الغرباء. كانت خطيبة غن باو التي تصغره بعامين شابة جميلة ومتعلِّمة، تقدَّمت لاختبار القبول بالجامعة لكنَّها رسبت. رسبت بفارق بضع علامات فحسب. لو أنَّها حصلت على بضع درجات إضافيَّة، لاجتازت الاختبار ودخلت الجامعة وما عادت مضطرّة للزواج من جيا غن بو. لكنَّها لم تنجح، وعُقد قرانها مع شابٍ من قرية دينغ، عُقد قرانُها مع الحمّى.

«لكن يا أمي، يُقال إن كلّ سكان قرية دينغ مصابون بالحمَّى»، تذمّرت الفتاة.

«أقسم القرويّون لي أنَّ غن باو ليس مصابًا بها»، أجابتها أمُّها. «وبما أنَّه ليس مصابًا، ممَّ تخشين؟».

«لقد أرسلتُك إلى المدرسة لعشر سنوات، وفشلتِ في اجتياز اختبار الجامعة حتَّى!»، ذكَّرت ابنتها. «لم أفنِ نفسي من أجل إطعامكِ وإلباسكِ وتعليمكِ طوالَ عشرين عامًا كي أرى كلَّ ذلك يذهب سدى. هل تظنِّين أنَّكِ ستبقين أمام عينيَّ، آكلة شاربة نائمة مجَّانًا حتى يأخذك الربُّ؟».

انفجرت الفتاة بكاءً.

وفي النهاية، كان عليها أن تمسح دموعها وتوافق على الزواج من شابٍ في قرية دينغ. تقرَّر عقد الزفاف في غضون أيَّام. كان غن باو

في عجلةٍ من أمره، وكلُّ همِّه أن يتزوَّج كي يتمكَّن من إنجاب طفلٍ وضمان نسله، ولم يلقِ بالًا لنقل العدوى إلى زوجته. ولأنَّه كان مصابًا بالحمَّى، فقد لا يعيش طويلًا بما يكفي للتعرُّف على أطفاله، لكنَّه على الأقل سيموت بلا حسرة. كان ينتظر حفل زفافه بفارغ الصبر، وأجرى التحضيرات بسعادةٍ، ولم يتبقَّ أمامه سوى العثور على بعض الطاولات من أجل مأدبة الزفاف. لم يكن بحسبان غن باو قطُّ أنَّه قبل أيَّام قليلة من زفافه، سيجد جدِّي معترضًا طريقه.

لم يكن جدِّي يعترضُ طريق المقاعد فحسب، بل طريقَ سعادتِه. كان غن باو، الشاب النحيل الواهن، لا يزال في أولى مراحل المرض. لم تكن الحمَّى الأوليَّة قد تلاشت بعد، وقد تركتْه ضعيفًا خاملًا. ولأنَّه كان صغيرًا جدًا ومريضًا، وكان جدِّي يكبره بسنوات كثيرة، لم يكن بوسع غن باو أن يفعل شيئًا سوى أن يبدوَ مثيرًا للشفقة ويأملَ من أخيه الأكبر إنقاذه. لقد قطع غن تشو وعدًا بأنَّه طالما كان على قيد الحياة، ومسؤولًا عن شؤون المدرسة والقرية، فلن يدعَ شيئًا يعرقل مستقبل العائلة وأمنها. شمل ذلك دفع تكاليف حفل زفاف شقيقه الأصغر وإجراء ترتيبات جنازة الوالدَيْن المسنَّيْن وبناء عدّة غرف إضافيَّة في البيت، وهو الأمر الذي كانوا قد عقدوا العزم على القيام به خلال موجة بيع الدم ولكنَّهم لم يتمكَّنوا من تحمُّل نفقته. ومع ذلك، كان جدِّي يعترض الطريق، رافضًا السماح لغن باو باستعارة بعض المقاعد المهترئة. الطريقة التي نظر بها غن باو إلى أخيه الأكبر، حاثًّا إيَّاه على قول شيءٍ ما يجعل جدِّي يبتعد عن الطريق ويسمح لهما بالمغادرة مع المقاعد اللازمة لمأدبة الزفاف، بدت جديرة بالشفقة.

بنظرةٍ ممزوجة بالتفاؤل والإحراج، حدَّق غن باو في أخيه الأكبر، مرتقبًا أن يتفوَّه بشيء. بعد لحظات قليلة، قال غن تشو بهدوء: «غن باو، أعِد هذه المقاعد إلى مكانها».

حدَّق غن باو في أخيه مشدوهًا.

«نفّذ ما قلتُه. أعدْها إلى مكانها».

على مضضٍ، أدار غن باو عربته بحزنٍ، وراح يسير عائدًا نحو مبنى المدرسة. تركت العربة ذات العجلات، التي كانت تئنُّ تحت وطأة المقاعد، أثرًا من غبارٍ في أعقابها. وبينما كان المقيمون يشاهدون العربة تتقهقر ببطءٍ في ساحة المدرسة، بدت على وجههم خيبة الأمل وتعابير القنوط. لم يفهموا سبب تراجع غن تشو، أو لماذا وصلت المواجهة إلى هذه النهاية السحيقة. كانت أشعة الشمس قد بلغت منتصف الباحة، والجوُّ مشبعٌ بروائح أوائل الربيع. العشب والأشجار النامية في أرجاء السهلِ ملأت الهواء بالرطوبة، رطوبة تشبه الندى المتصاعد من النهر.

تفاجأ جدِّي، أيضًا، بأنَّ الأمور انتهت على هذا النحو. من المؤكَّد أنَّه لم يتوقّع أن يكون جيا غن تشو عقلانيًّا إلى هذا الحدّ، أو أن يستسلم بهذه السهولة. لقد شعر فجأة بالذنب، كأنَّه أخطأ في حقِّ غن تشو بطريقة أو بأخرى، أو أنَّه تسبَّب بإفساد حفل زفاف شقيقه الصغير. محدِّقًا نحو مبنى المدرسة، رأى جدِّي الشاب الضعيف وهو يفرغ عربته من المقاعد، فالتفتَ نحو غن تشو قائلًا: «سأساعدكَ في استعارة بعض الطاولات. لا أصدِّق أنَّه لم يتبقَّ في هذه القرية طاولة مأدبة واحدة».

«لا ضرورةَ لذلك»، أجابه غن تشو ببرود. كانت كلماته فاترة، صريحة، متعمّدة. وحين مرَّ بجوار جدِّي عند البوَّابة، كان وجهه قاسيًا وغاضبًا، انتبجت عروقُ عنقِه كأغصان الصفصاف الزُّرق الشاحبة. الجميع رؤوا ذلك، رؤوا البرودة التي قابلَ بها جدِّي عندما اجتاز البوَّابة سائرًا نحو القرية. لم يبدُ في عجلةٍ من أمره. كان يمسك بعصاه، وهي جذع شجرة أُزيلت أغصانها، وراح يعرج على مهلٍ عبر السهل.

٤

أخذت الأحداث تشكِّل حلقات. حلقة إثر حلقة من الأحداث، مترابطة بعضها مع بعضٍ كالسلسلة.

تزامنت عودة جيا غن تشو إلى القرية مع مغادرة زوجة عمِّي. شأنها شأن زوبعةٍ شعواء، اجتاحت تينغ تينغ الطريقَ نحو المدرسة الابتدائيَّة. شفتاها ترتعشان، تجرُّ ابن عميّ شياو جون بيدها، وهي تجري بسرعة كبيرة لدرجة أنَّ الصبيَّ اضطرَّ إلى الركض لمجاراتها، بينما كانت قدماه الصغيرتان تتعثَّران بالتراب. مكتبة سُر مَن قرأ

كان السهلُ رقعةً منفسحة من القمحِ الطريِّ اليافع الذي يتلألأ في ضوء الشمس. في الحقول غير المحروثة، التي غزتها الخُضرة البريَّة، أطلَّت النباتات الصغيرة برؤوسها خارج التربة لتصل إلى الأعلى وتلقي نظرةً أوسعَ على العالَم من حولها. على امتداد السهل، في قريتَي تو-لي والينبوع الأصفر، كان أولئك المتنعّمون بصحَّة جيِّدة تسمح لهم بالعمل قد خرجوا إلى الحقول لسقاية المحاصيل والاعتناء بها. انتصبت أجسادهم تحت السماء البعيدة، مثل فزّاعات تتمايل في مهبّ الريح. وفي

تلك اللحظة، كان جسدٌ آخر صغير آتيًا من القرية، يجرُّ طفلًا خلفه. مشهدٌ لا يختلف كثيرًا عمّا حدث في تلك الليلة داخل المدرسة، عندما جرَّ دينغ شياو مينغ زوجته خارج المخزن، وعاد بها إلى البيت.

كان النهار قد انتصف، وهو الوقت الذي اعتاد فيه القرويّون تحضير الغداء وتناوله. ولكن في هذا اليوم، لا أحدَ في قرية دينغ كان يعدُّ الطعام، ناهيكَ عن تناوله. ربّات البيوت اللواتي عادة ما يضرمن النيران في المواقد عمدنَ إلى إخمادها. سُكب الماء البارد في القدور لمنعها من الغليان. تُركت الأطباق فارغة على المناضد. لم يكن أحد يعرف تمامًا ما حدث، لكن كان هناك شعورٌ بأنَّ حدثًا عظيمًا على وشك الوقوع. حشدٌ من الرجال والنساء، من الصغار والكبار، البالغين والأطفال توافدوا خلف زوجة عمّي كجحافل من سلاح الفرسان، مخلِّفين وراءهم سحبًا متطايرة من الغبار. صاح رجلٌ واقفٌ عند المدخلِ بزوجته التي انضمَّت للتوّ إلى الحشد قائلًا: «أما كفاكِ تدخُّلًا في شؤون الآخرين؟ عودي إلى بيتك!». وسرعان ما خرجت زوجته من تيّار الحشد وانسلَّت داخل بيتها.

صرخت عجوزٌ في ساحة القرية قائلة: «ألم يكفِكم كلُّ الذين ماتوا بالحمَّى؟ أتريدون تنغيص أولئك المساكين حتَّى يشنقوا أنفسهم بسبب اليأس؟». تسمَّر ابنها وحفيدها حيث كانا ولم ينضمّا إلى الحشد.

لكنَّ أمهاتٍ أخريات انتزعن الأطباق من أيدي أطفالهنّ وحثثنهم على الالتحاق بالحشد. «اذهبوا... اذهبوا واعرفوا سبب هذه الجلبة... أسرعوا، ولا تدعوا خبرًا يفوتكم...». هرع الأبناء والبنات للحاق بالحشد السائر نحو المدرسة.

لم تشهد قرية دينغ هذا القدر من الإثارة منذ سنوات. منذ أن جاءت الحمَّى، لم يحدث مشهد مماثل، ويبدو أنَّ القرية على موعدٍ مع حدثٍ أشدّ إثارة للاهتمام من حفل ما شيانغ لين حتَّى. حدث أكبر وأفضل: دراما حقيقيَّة مفعمة بالواقعيَّة، لا مجرَّد تمثيليَّة تؤدَّى على خشبة المسرح. في هذا الوقت من اليوم، كان الهدوء يعمُّ المدرسة. وكانت تشاو شيو تشين تعدُّ الطعام في المطبخ برفقة مساعدتيها. معظم سكَّان المدرسة في غرفهم. باحة المدرسة صامتة ومهجورة، تغمرها الوحشة التي تسودُ الريف في الشتاء. كان ذلك حتَّى اقتحمت زوجة عمِّي برفقة ابنها بوَّابة المدرسة، يتبعها حشد كبير من القرويّين الذين يخبطون الأرض بخطواتٍ صاخبة. عندما فُتحت البوَّابة الحديديَّة، كان الصرير المعدنيّ المدويّ كافيًا لجعل أسنانك تصطكّ.

جدِّي وعمِّي هما أوَّل من تناهت إلى مسامعهما الجلبة. كانا جالسين في غرفة جدِّي، يتجادلان حول ما قد جرى، وحول ما إذا كان جدِّي قد أخطأ أم لا في معاملة جيا غن باو.

«أبي، لا تنسَ أنَّ غن باو مصابٌ بالحمَّى أيضًا».

«هذا سببٌ إضافيّ لعدم خداع تلك الفتاة المسكينة التي سيتزوّجها».

«إنَّها ليست من بنات قرية دينغ، ليست واحدة منّا... لماذا تهتمُّ لأمرها؟».

«أنت تحديدًا لستَ بأفضل حالًا منه»،قال جدِّي بغضبٍ ونهض ليغادر.

لكنَّ المتاعب كانت قد وصلت إلى المدرسة. كانت قد وصلت إلى

عتبة غرفته. وحين دخل إلى الغرفة الرئيسة، رأى زوجة عمِّي واقفة عند الباب.

حين تلاقت عيناهما، تسمَّر كلٌّ في مكانه، مثل سائقَيْن متهوِّرَيْن يطلقان صرخات الذعر قبيل الاصطدام برفَّة عين؛ إنَّما بصمت.

لاحظ جدِّي أنَّ وجه تينغ تينغ المتورِّد عادةً بدا شاحبًا بعض الشيء. لقد أدرك على الفور ما حدث، وأدركَ ما كان على وشك الحدوث. ولا بدَّ أن عمِّي، المرتعد من ورائه، قد أدرك ذلك أيضًا، لأنَّه انكمشَ فزعًا وعاد إلى الغرفة الداخليَّة وأغلق الباب خلفه.

التفت جدِّي وصرخ: «ليانغ! اخرج واعتذر من زوجتك!».

لا همسة ولا صوت من داخل الغرفة. لكأنَّ ما من أحدٍ بداخلها.

استشاط جدِّي غضبًا. «اخرج يا عديم الحياء! اخرج أيّها الوقح! اركع معتذرًا أمام زوجتك!».

هذه المرَّة، لم يكتفِ عمِّي بالامتناع عن الخروج فحسب، بل قفلَ الباب أيضًا.

مشى جدِّي نحو الباب المتين المصنوع من خشب الصفصاف وراح يركله بقوَّة. وحين لم يجدِ ذلك نفعًا، حمل كرسيًّا خشبيًّا ورفعه فوق رأسه وهمَّ بتحطيم الباب. في تلك اللحظة تحديدًا، حدث شيءٌ ما دفعه إلى عكسِ مساره. كانت تينغ تينغ قد خطت نحو عتبة الباب وخاطبته بلطفٍ: «مهلًا يا أبي».

بهذه الكلمات، تلاشى غضبه، كفيضانٍ ينحسرُ، كإعصارٍ يخمد. التفتَ ليرى تينغ تينغ واقفة في منتصف الغرفة، الحنقُ يتبدَّدُ من وجهها،

ويعودُ لونُ بشرتها إلى سابق عهده. عندما استعادت هدوءها ورباطة جأشها، رمقت الباب الموصد بنظرة خاطفة، ودسَّت خصلة الشعر المتطايرة خلفَ أذنها وقالت: «لا تكلّف نفسك عناء مناداته يا أبي. إنَّه أجبن من أن يردَّ... إنَّه ليس برجلٍ».

وقف جدِّي بلا حراك، والكرسيُّ لا يزال معلَّقًا في الهواء.

وتابعت تينغ تينغ كلامَها بهدوء: «لا بأس. لم أقترف، طوال حياتي، ما من شأنه أن يخيّب أمل العائلة ويسيء لسمعتها. بوسعي أن أحصل على الطلاق وأعود إلى بيت أهلي، ولن أقلق حينها حيالَ نقل العدوى لي أو لشياو جون».

أنزل جدِّي الكرسيّ ببطء، بمنتهى البطء، حتّى صار مستندًا إلى جانبه كدمية مربوطة بخيط.

ساد صمتُ الإحراج. احمرَّت وجنتا تينغ تينغ بلون قرمزيّ غامق، ثمّ لعقت شفتيها الجافّتين وقالت: «سآخذ شياو جون معي. أهلًا وسهلًا بكَ في بيت أهلي متى ما أردتَ رؤية حفيدك. ولكن إذا ما جاء دينغ ليانغ وراه إخوتي، فسيعود إليكَ بلا ساقيه».

استدارت تينغ تينغ وغادرت الغرفة. غادرت قبل أن يتمكّن جدِّي من قول أيّ شيء.

لقد رحلت زوجة عمِّي.

٥

بعد عودة جيا غن تشو من القرية، انعزل مع دينغ يويه جي في صفٍّ فارغٍ. وحين ظهرا بعد وهلةٍ، انطلقا بحثًا عن دينغ شوي يانغ، المعروف أيضًا باسم الأستاذ دينغ. بالنسبة لي، كان اسمه جدِّي فحسب.

كانت تينغ تينغ قد غادرت حين وصلا إلى غرفة جدِّي، لكن حشد المتفرّجين لم يكن قد تفرَّق.

«تحرّكوا الآن، عودوا إلى بيوتكم. ليس هناك ما تهمُّكم رؤيته»، صاح غن تشو بهم.

وبدا القرويّون، الذين لم يدروا عن انقلاب المدرسة، في حيرة من أمرهم إزاء لهجة جيا غن تشو التسلُّطيَّة؛ كان يتحدَّث وكأنَّه مسؤول في الحزب.

تولَّى دينغ يويه جي، الواقف بجانب غن تشو، مهمَّة الشرح. «لقد سمعتم ما قاله الرجل. منذ الآن فصاعدًا، هو من سيتخذ القرارات هنا. أنا وغن تشو المسؤولان عن المدرسة».

وهكذا، دخل الرجلان غرفة جدِّي. «لدينا شيء آخر نودُّ مناقشته معك يا أستاذ»، قال دينغ يويه جي مبتسمًا.

سلَّم جيا غن تشو، دون أن يبتسم، جدِّي ورقةً ممهورة بختم القرية الرسميّ. كانت تشبه إلى حدٍّ كبير الورقة التي سلَّمها إليه سابقًا عند البوَّابة، لكن الكلمات مختلفة، والرسالة أكثر إثارة للقلق. تقول: بعد إجراء تحقيق شامل في هذا الخصوص، قرَّرنا بموجبه إلغاء أوراق اعتماد

دينغ شوي يانغ معلّمًا ومشرفًا على شؤون مدرسة قرية دينغ الابتدائيَّة. من هذا اليوم فصاعدًا، لم يعد الرفيق دينغ شوي يانغ موظفًا تابعًا لمدرسة قرية دينغ الابتدائيَّة، ولا يجوز له التدخُّل في أيٍّ أمرٍ يتعلَّق بالمدرسة.

أدناه، وضع دينغ يويه جي وجيا غن تشو توقيعهما والتاريخ. مرَّر جدِّي عينيه على نصّ القرار، ورفع عينه غيرَ مصدِّق، ثمّ قرأه من جديد بتمعُّن أكبر، وكان وجهه المتغضّن يرتعش سخطًا. فكَّر في التقاط الورقة وتجعيدها وإلقائها في وجهيهما، لكنَّه رأى العديد من الشباب يقفون خلفهما: جيا هونغ لي وجيا سانغ إين ودينغ سان تزي ودينغ شياو يويه. كلُّهم من أقارب غن تشو ويويه جي، شباب في أواخر العشرينيات وأوائل الثلاثينيات من العمر أُصيبوا مؤخرًا بالحمَّى. وقف بعضهم مكتوفي الأيدي، وآخرون استندوا عند المدخل، هازئين بجدِّي كما لو أنَّه عدوٌّ لدود وقعَ أخيرًا بين أيديهم.

«هل تحاولون التخلُّص مني؟»، سأل جدِّي.

«من الواضح أنَّك لم تعد مؤهّلًا لإدارة هذه المدرسة بعد الآن»، قال غن تشو. «لقد مصّ ابنك الأكبر دماءنا ثم باعنا النعوش. سمعتُ أنَّه يبيع النعوش المخصَّصة لقرى أخرى الآن. أمَّا ابنك الأصغر فليس أحسن من أخيه، فهو مصاب بالحمَّى ويأتي إلى هذه المدرسة للعبث مع زوجة رجل آخر، مع زوجة ابن عمّه، لا أكثر... دينغ شوي يانغ، لقد كنت معلِّمًا... ألا تعلم أنَّ ما فعله ابنك يندرج تحت سفاح القربى؟».

استكمل غن تشو: «الآن، فلتخبرني أنت، أما زلت تعتقد أنَّك جدير بإدارة شؤون هذه المدرسة؟».

ثمَّ أعلن: «ابتداءً من اليوم، لم تعد معلِّمًا أو حارسًا لهذه المدرسة، وعليه ينبغي لك أن تكفّ عن إخبار الناس ما يجب عليهم فعله وما لا يجب».

وقف جدِّي صامتًا وسط الغرفة. شعر بأنَّه يذوي، كأنَّ عضلات جسده وعظامه قد ذابت. لوهلةٍ بدا موشكًا على الانهيار، لكنَّه ثبَّت كعبيه أرضًا وأرغم نفسه على البقاء واقفًا حيث كان.

في وقتٍ لاحق من ذلك المساء، كانت المصابيح في معظم الصفوف لا تزال مشتعلة، لكنَّ المبنى الصغير المجاور لبوَّابة المدرسة كان غارقًا في العتمة. ظلام دامس لا يُخترق، كأنَّ الغرفتين مغمورتان بكومةٍ من الحجارة السوداء. جدِّي وعمِّي كانا عالقين بين الشقوق، مختبئين في الغرفة الداخليَّة. جلس جدِّي مطاطئًا، الدموع تبلِّل وجهه ويديه. استلقى عمِّي على سريره، يحدِّق في الليلِ من خلال النافذة. أحسَّ بالظلمة تُطبق على صدره، ما جعله يكابد لالتقاط أنفاسه.

كان الجوُّ خانقًا على نحوٍ لا يُطاق.

«عليك أن تعود إلى البيت يا بني»، قال جدِّي.

«لماذا؟».

«عليك أن تذهب وتقابل تينغ تينغ، وتحاول إقناعها بعدم المغادرة».

قلَّب عمِّي الأمر في رأسه قليلًا، وقرَّر أنَّ جدِّي كان على حقّ. عليه أن يذهب إلى البيت.

حتّى في هذا الوقت المتأخِّر من الليل، ظلَّ هناك حشد من الناس عند بوَّابة المدرسة. كان جيا غن تشو وأخوه غن باو وأولاد عمومتهما جيا

هونغ لي وجيا سانغ إين لا يزالون يحمِّلون مقاعد المدرسة على العربات. يبدو أن تشاو شيو تشين كانت تساعدهم أيضًا. لم يتمكّن عمّي من سماع ما يقولونه؛ بدا أنَّهم يتحدّثون عن زفاف غن باو المرتقب. انهمرت ضحكاتهم وأحاديثهم في باحة المدرسة مثلَ سيل مياهٍ موحلةٍ تدفَّق في مجرى نهرٍ جافٍ بعد عاصفة مطريَّة غير متوقَّعة.

أنصت عمِّي لبعض الوقت قبل أن يتنحنح معلنًا عن وجوده. هدأ الحديث والضحك واجتاز عمِّي بوّابة المدرسة وانطلق نحو البيت.

عندما وصل إلى بيته، راعه مرأى القفل معلّقًا بالبوَّابة الأماميَّة. اندفع محمومًا يتلمَّس حواف البوَّابة الخشبيَّة حتَّى عثر على مفتاحين مخبّئين في أحد الشقوق. فتح القفل وأسرع إلى الفناء. فتح باب البيت وأشعل المصباح. نظر حوله، فرأى أن كلّ شيء كان كما تركه، باستثناء طبقة الغبار المتراكمة فوق صورة والدته وعلى مذبح أجداد العائلة. رأى كومة من ثيابه غير المغسولة على كرسيٍّ مقابل الحائط. دخل غرفة النوم وفتح خزانة الملابس ليجدها خالية من ملابس تينغ تينغ وشياو جون. نبّش في زاوية الخزانة، حيث اعتاد أن يخفي الأشياء، عن النقود ودفتر البنك الأحمر. بحث وفتَّش طويلًا قبل أن يسحب يده الفارغة وقد أدركَ أنَّ تينغ تينغ قد غادرت حقًّا. أدرك أن أسرته قد تدمَّرت وأنَّ ابنه وزوجته قد رحلا.

تغرغرت عيناه بالدموع إذ راح يفكِّر بموته الوشيك... بالخسران.

الفصل الثالث

١

لقد حدث ما تنبأ به جيا غن تشو: دُمِّر زواج عمِّي، هجرته زوجه وطفله، وتفكّكت الأسرة. حدث ذلك في وقتٍ أقرب ممَّا كان متوقَّعًا.

لقد جاء الخراب باكرًا هذا العام، جاء مع حلول الربيع.

كان السّهل بساطًا سميكًا من اللون الأخضر. في الحقول، بدأ محصول القمح الجديد يطلُّ برأسِه، والتربة الخارجة من سبات الشتاء حوَّلت طاقاتها الكامنة إلى نماءٍ وفيرٍ. في هذا الوقت من العام، كانت التربة الخصبة والفقيرة، على حدّ سواء، زاخرة بما يكفي من الخيرات لتغذية القمح اليافع وتزويده بالازدهار الكافي. يستغرق الأمر أسبوعين آخرين على الأقل، أو ربّما شهرًا آخر، قبل أن يظهر التغيُّر النسبيّ -صعودًا أو هبوطًا- في خصوبة التربة. بحلول منتصف الربيع، حين تُستنفد العناصر الغذائيَّة في التربة السطحيَّة الرمليَّة، ستصبح بعض النباتات هزيلة ورقيقة وشاحبة. أمَّا الآن، في الأسابيع الأولى من الربيع، فكلُّها تبدو مخضوضرة ومكتنزة.

اصطفَّت الأعشاب والزهور البريَّة على جانبي الطرقات، وتبرعمت لتملأَ الفجوات بين الحقول وتغزوَ الأراضي غير المحروثة. لقد نما العشب بجنون، بجموحٍ... تخلَّلت خصلاته الخضراء أزهارٌ حُمرٌ وبِيضٌ وصُفرٌ وبنفسجيَّة تمايلت في مهبّ الريح، وبدا المشهد شبيهًا بطبعات أقمشة الكاليكو. برز اللون الأحمر بوضوحٍ وجرأة على خلفيَّة ضبابيَّة مشوبةٍ بصفرة شاحبة ولطخات من الخضرة. كان السهلُ خليطًا من الألوان، عالمًا مبعثرًا، تمتزج فيه كلُّ ورقةٍ من العشب وكلُّ زهرةٍ لتكوين أشكالٍ مجنونةٍ وجامحة. حتَّى الأشجار المتناثرة ضجَّت بها الحياة، وتبرعمت الأزهار الغضّة من أغصانها، وتمايلت بلطفٍ مع النسيم. بدا السّهل كلُّه غارقًا في أغنية.

كان المسار القديم للنهر الأصفر خلف الحقول. قناة مطمورة بالطمي وملأى بالرمال ظلَّت جافّة لقرون عديدة وربّما لآلاف السنين. يبلغ عرض المسار ألف ياردة في أضيق نقطة له، يلتفُّ عبر السهل الأوسط لأميالٍ وأميال. لا أحد يعرف طوله بالضبط، فبالنسبة للقرويّين كان لامتناهيًا كالسماء. رقعة رمليَّة تمتدُّ أخفضَ مستوى السهل بعدَّة أقدام مثلَ حزام رماديّ مشدودٍ بإحكام حول بطن الأرض، كأنَّه تذكيرٌ دائمٌ بنهرٍ هزمَه الزمن. الآن وقد حوَّل الربيعُ الحزامَ الرمليَّ إلى رقعة خضراء، وملأها بالنباتات البريَّة، بات من غير الممكن تمييز القناة عمّا يحيط بها. لقد تحوَّل السهل إلى فسحةٍ مستويةٍ بلا حدود، مساحة شاسعة من اللون الأخضر.

أرض خضراء. سماء خضراء. قرى خُضرٌ. لقد أصبح العالَم كلّه خصبًا ومخضوضرًا.

أفاقت عجلات الصناعة أيضًا مع حلول الربيع. كان أهالي مدرسة قرية دينغ الابتدائيَّة يجوبون المبنى بهمّة ونشاط كأنَّهم قد استعادوا بأعجوبة صحّتهم وعافيتهم، فراحوا ينقلون الأغراض من المدرسة إلى بيوتهم. قسّم جيا غن تشو ودينغ يويه جي ممتلكات المدرسة بين الأهالي: المقاعد والكراسي والسبورات والصناديق والمغاسل والأسرّة والمفروشات والعوارض والألواح الخشبيَّة.

عاد عمِّي إلى القرية، إلى بيته. أرسلت تينغ تينغ، التي عادت إلى بيت أهلها لتقيم مع والدتها، رسالةً مفادها أنَّها لا تريد رؤية عمِّي مرَّة أخرى ما دامت على قيد الحياة. أو ما دام هو على قيد الحياة. قالت إنَّها ترجو أن يكون لقاؤهما التالي عندما تراه راقدًا في نعش. وبمجرَّد أن يموت، ستعود إلى القرية لتبيع البيت وتأخذ الأثاث. وهكذا لم يكن أمام عمِّي من خيار سوى ترك المدرسة والعودة إلى بيته لمراقبة ممتلكاته التي ستُباع أو يُستولَى عليها بعد موته.

لم يعد جدِّي مسؤولًا عن المدرسة. لم يعد أحد ينظر إليه كمسؤول عن شؤون المدرسة أو يعامله كمعلِّم فيها. بات مجرَّد رجلٍ عجوز من القرية صدفَ أنه يقيم في المدرسة. كان في عزلةٍ عن البقيَّة، فلم يشاركهم تناول الطعام وشرب منقوع الأعشاب ولم ينخرط في الأحاديث ومباريات الشطرنج وكذلك لم يجارِهم في تقلُّبات المرض. لم يعد أحد يفيه حقَّه من الاحترام. ورغم أنَّه ظلَّ يعيش بجوار البوَّابة الرئيسة، فإنَّ قلَّة قليلة من المارَّة هم من التفتوا نحوه. وإذا تكرَّم بعضهم وألقوا التحيَّة عليه، فذلك لأنَّه هو من بادر بها أوّلًا. كلّما بادره أحدٌ بإيماءة

كان، بفارغ الصبر، يردُّ عليه بتحيَّة. أمَّا ما كان يدور من أحاديث ويجري من نشاطات داخل تلك المهاجع، فلم يكن يعرف عنها شيئًا. لقد كان محظوظًا بمجرَّد سماحهم له بمواصلة العيش في المدرسة.

ذات مرَّة، حين كان أحد سكَّان المدرسة يجتاز البوَّابة، وهو شاب في أوائل العشرينيات من عمره، سأله جدِّي: «الآن بعد أن عقد أخو غن تشو الصغير زفافه، هل أُعيدت تلك المقاعد التي استعاروها؟».

«هل تقصد المدير جيا؟ لم يعد أحد يدعوه غن تشو منذ مدَّة».

حدَّق جدِّي في الرجل، معقودَ اللسان.

«ألا تعلم أن العمّ جيا والعمّ دينغ هما مديرانا الجديدان؟».

واصل الشاب طريقه إلى باحة المدرسة، تاركًا جدِّي العاجز عن الكلام عند البوَّابة، يحملقُ مشدوهًا كمسافرٍ منبوذ عند معبرٍ حدوديّ. لقد صارت المدرسة بلدًا مختلفًا، وجدِّي ما عاد مواطنًا.

في اليوم التالي، عند الغسق، بينما يتحوَّل اللون الأصفر اللامع إلى ورديٍّ باهتٍ، عادت تشاو شيو تشين من القرية حاملةً سلَّة خيزران ملأى بالملفوف والجزر وشعيرية الأرزّ وسمكتين وبضعة أرطال من اللحم وزجاجة ويسكي. اللحم بدا طازجًا ومن أفخر أنواع الخنازير. اللصاقة على الزجاجة تعود لشركة «سونغ هي»، أفضل شركات ويسكي الذرة البيضاء في المنطقة، وبوسعك أن تشمَّ رائحة المشروب المميَّزة على بعد أميال حتَّى لو أنَّ الزجاجة مغلقة.

عندما رآها تعبر البوَّابة، ابتسم جدِّي بلطفٍ وقال لها: «آها... هل أصبحنا أثرياء دفعةً واحدة؟».

ابتسمت الطبَّاخة قائلة: «نعم، وهذه الأطايب من أجل عشاء المدير جيا والمدير دينغ هذه الليلة».

تبلبل جدِّي. «إذًا هذا اللحم كلُّه ليس من أجل الجميع؟».

«تمكَّن المدير جيا والمدير دينغ من الحصول على مساعدات ماليَّة لنا من الحكومة، لذا ارتأينا جميعًا أن نساهم ونعدّ لهما عشاءً فاخرًا. تعبيرًا عن شكرنا وامتناننا، كما تعلم».

لحظتئذٍ، أدرك جدِّي أن جيا غن تشو ودينغ يويه جي قد عُيِّنا مديرَيْن مساعدَيْن لفريق العمل المعنيّ بفيروس عوز المناعة البشريّ والإيدز في قرية دينغ، ومن هنا جاءت هذه الألقاب الرفيعة. ثمَّة نظام اجتماعيّ جديد في المدرسة، ولم يعد أيّ شيء كما كان من قبل. ربّما لا يختلف الأمر كثيرًا عن التعديلات السياسيَّة الدوريَّة التي تطرأ على إدارة القرى والمقاطعات والأقاليم.

لقد انقلب الكون رأسًا على عقب.

شعر جدِّي بالمرارة، شعر بالاستلاب إلى حدٍّ ما. لكنَّه من ناحية أخرى رأى أن المرضى يقضون أيّامًا هادئة في نهاية المطاف، وهذا ما لا يمكن إنكاره. ليس عليه أن يتدخَّل في أشياء لا تعنيه طالما لا قدرة له على فعل شيء ولا ثمّة من يصغي إليه.

استيقظ في صباح اليوم التالي، وهو لا يزال يشعر بالخمول واللاجدوى. بعد أن تسكَّع قليلًا عند البوَّابة، قرَّر أن يتمشّى خارج المدرسة. تنزَّه مثل رجلٍ يحوم حول ممتلكاته الخاصَّة، متأمِّلًا أوراق الشجر التي كانت تغطي الجزء الخارجي من سور المدرسة في هذا الوقت

من الربيع. حين وصل إلى البوَّابة مرَّة أخرى، وجد حشدًا من الناس مشغولين بنقل الأشياء خارج المدرسة.

حملَ بعضهم المقاعد وكابد آخرون لرفع السبورات الكبيرة. انكبَّ بعضٌ في ثنائيَّات لحمل العوارض الثقيلة بينما عمل بعضٌ آخر في مجموعات ثلاثيَّة أو رباعيَّة على دفع عربات محمَّلة بأسرَّة مأخوذة من غرف المعلِّمين. كان سكَّان المدرسة يتصبَّبون عرقًا بسبب الإجهاد، بينما تشرق وجوههم حماسةً إذ يعودون إلى بيوتهم في القرية حاملين غنائمهم. تمامًا كما رأى جدِّي في حلمه: بداية الربيع الملأى بالزهور، الذهب ينمو من التربة، والقرية تسارع بكنوزها إلى البيوت...

وبينما كان السكَّان يذرعون المكان، استرقوا النظرات بعضهم على أغراض بعضٍ وقارنوا غنائمهم:

«مقعدك أفضل من مقعدي... خشبه أسمك بكثير!».

«إذا بعتَ لوح خشب الدردار هذا، فسيكون أغلى ثمنًا من لوح الپولونيا هذا!».

«هل حصلت على سرير من خشب الكستناء؟ السرير الذي كان من نصيبي مصنوع من الماهوجني».

فُتحت البوَّابة المعدنيَّة للمدرسة مثل سدٍّ، فتدفَّق سيل من القرويين. جدِّي الذي تساءل عمَّا يجري، حثَّ خطاه ولحق بجيا هونغ لي، ابن عم جيا غن تشو الأصغر، والذي رغم مرضه كان يحمل على كتفيه ثلاثة مقاعد مدرسيَّة لامعة.

«ماذا تفعلون؟»، سأل جدِّي.

رمق جيا هونغ لي جدِّي بطرف عينيه. «ماذا نفعل؟ لماذا لا تذهب وتسأل ابنك الأكبر دينغ هوي!»، قال بحنقٍ.

انطلق الشاب بحمولته من المقاعد مثل عنزة جبليَّة صغيرة تحاول جرَّ جبلٍ من العشب على ظهرها. ما زال جدِّي مرتبكًا. وقف عند البوَّابة حتَّى رأى ساكنًا آخر يقترب لاهثًا وهو يحمل سبورة ضخمة. لم يستطيع جدِّي رؤية وجه الرجل، لكنَّه تعرَّف على السبورة من خلال المسمار البارز من إحدى زواياها. لقد كانت السبورة المفضّلة لديه أيَّام الدروس التعويضيَّة التي كان يعطيها؛ سبورة كبيرة ذات إطار من خشب الدردار الناعم، سطحها اللامع الصقيل تنزلق عليه الطباشير. ومن أجل الراحة كان جدِّي قد دقَّ مسمارًا في الزاوية السفليَّة اليمنى حتَّى يتمكّن من تعليق قطعة قماش لمسح السبورة. الآنَ كانت السبورة تتقدَّم ببطءٍ في باحة المدرسة، مغطّية ظهر الرجل كقوقعة حلزون.

عندما وصل الرجل إلى البوَّابة، رفع جدِّي السبورة عن ظهره ووضعها أرضًا. ظهر تشاو دي تشيوان بابتسامته الخجولة قائلًا: «أوه... أستاذ دينغ»، قال بتوتُّر.

«هذا أنتَ إذًا!»، هزَّ جدِّي رأسه. «تراك تخطِّط لإعطاء الدروس في بيتك، أليس كذلك؟».

تلفَّت تشاو دي تشيوان حوله مذعورًا للتأكُّد من عدم وجود مَن هو قادر على سماعه.

«لا خيار أمامي سوى أن آخذها. لقد منحنا المدير جيا والمدير

دينغ هذه الأشياء، وأخذ كلُّ حصّته. إذا رفضتُ أن آخذ، فسيبدو الأمر مسيئًا وسيشعر الجميع بالإهانة، بمن فيهم المديرَيْن».

التفت تشاو دي تشيوان للنظر وراءه. وعندما رأى أنَّ باحة المدرسة فارغة، قال لجدِّي: «إذا كنتَ لا تستطيع التخلّي عن هذه السبورة، فسأساعدك على إخفائها في غرفتك. لكن عليك ألّا تخبر أحدًا أنني أعطيتكَ إيّاها».

«ماذا كنتَ تخطّط أن تفعل بها في كلِّ الأحوال؟»، سأله جدِّي وهو يمرِّر يده على السبورة.

«أردتُ أن أصنع منها نعشي بالطبع»، أجاب تشاو دي تشيوان مبتسمًا. «يقول الجميع إنَّ ابنك دينغ هوي كان يبيع النعوش المجانيَّة التي خصّصتها الحكومة من أجل هذه القرى. والآن ارتأى المديران تعويضنا عن طريق إعطاء كلّ شخص ما يكفي من الخشب لصنع نعشه».

حدَّق جدِّي في تشاو دي تشيوان مذهولًا. تحت ابتسامته الرماديَّة الخافتة، استطاع جدِّي أن يميِّز تلك المسحة الرماديَّة، ذلك الشحوب الذي يغزو وجه رجلٍ يحوم حوله ظلُّ الموت. لو أنَّ لون بشرته معيار لمدّة بقائه، فلا بُدَّ أنَّه سيحتاج النعش في وقت قريب جدًّا، ربّما في غضون أيّام.

إنَّ تعليق تشاو دي تشيوان الذي أشار إلى دينغ هوي جعل جدِّي يدرك أنَّه، خارج أحلامه، لم يرَ ابنه الأكبر منذ أكثر من شهرين. تذكَّر حلمًا راوده منذ فترة طويلة، رأى فيه أبي يجمع النعوش من المصنع، وحلمًا آخر قبل بضع ليالٍ فقط، كان فيه أبي يجول في أنحاء الريف كي يبيع النعوش...

٢

في الليل، كان ضوء القمر ساطعًا ومشرقًا كالشمس.

في النهار، كان ضوء الشمس وديعًا وخابيًا كالقمر.

حلَّ الربيع بكامل حضوره أخيرًا. سنابل القمح الفتيَّة التي أطلَّت برأسها على العالَم باتت الآن صلبة وشامخة. انتشر هنا وهناك المزارعون وهم يسقون حقولهم أو يزيلون الأعشاب الضارّة. كُلّ من تمتَّع بصحّة جيّدة للعمل كان قد خرج إلى حقله، حتَّى أولئك المصابون بالحمَّى. في قرية دينغ والينبوع الأصفر وتو-لي، وحتّى القرى الصغيرة البعيدة كقرية المعبر والجدول العتيق ومينغ، بدأ موسم الزراعة الربيعيّ. وبينما كان القرويّون يُعمِلون معاولَهم ومجارفَهم، سافر أبي من قرية إلى أخرى، كي يبيع نعوشه السود.

حالما يصل إلى قرية جديدة، كان أبي يضع طاولة عند مدخل القرية عليها كومة من الاستمارات المهورة بختم المقاطعة الرسميّ. بعدها يعلن للقرويّين أنَّ كلَّ مصابٍ بالحمّى يحقّ له الحصول على نعش أسود واحد مقدَّم من الحكومة. كُلُّ ما على الشخص فعله هو تعبئة الاستمارة بالمعلومات الشخصيَّة كالاسم والعمر وقصّة مرضه وأعراضه الحاليَّة وما إلى ذلك... ثمّ عليه أن يحصل على ختم لجنة الحزب في القرية ويضع توقيعه وبصمة إبهامه في الأسفل للتأكيد على الإصابة بالحمَّى التي قد تودي بك، وأنت في حقلك، في أيّة لحظة. عندها يحقُّ لك شراء نعش أسود واحد بسعر التكلفة. يبلغ ثمن هذا النعش في السوق ما يقارب أربعمئة أو خمسمئة يوان، أمَّا شراؤه بعد ملء الاستمارة البسيطة فيكلّف

مئتي يوان فقط. أيّ شخص يستوفي المعايير، وبحوزته مئتا يوان نقدًا، يحقُّ له الاستفادة من هذا الدعم الحكوميّ السخيّ...

لاقى أبي ترحابًا كبيرًا، واصطفّت طوابير الناس أمام طاولته في كلّ قرية زارها. يومًا تراه «يخدم الناس» في قرية الجدول العتيق، وفي اليوم الذي يليه تجده يؤدّي واجبه تجاه المرضى في قرية مينغ، وهي مستوطنة واقعة على الضفة الشرقيَّة لمسار النهر الأصفر القديم، على بعد خمسة أو ستة أميال من قرية دينغ. لقد تضرَّرت هذه القرية من الحمَّى بشدَّة، وصار سكَّانها في حاجة إلى النعوش بقدر ما كانوا في حاجة إلى القمح خلال سنين المجاعة. بعد انطلاقه في وقتٍ باكر ذلك الصباح، توقّف أبي في عاصمة المقاطعة لتسليم الاستمارات التي جمعها في اليوم السابق، واستلام شاحنتين تحملان ثمانين نعشًا أسودَ. كان في طريقه إلى قرية مينغ لبيعها.

وعندما رأى القرويّون الشاحنتين تسيران على الطريق بجوار مسار النهار القديم وتتوقّفان عند مدخل القرية، هرعوا من الحقول لاستقبالها. كانت قرية مينغ تتلألأ بأكملها تحت شمسٍ ذهبيَّة. سقطت أشعّة الشمس على الأسطح المبلّطة لبيوت الحيّ ذات الطابقين التي بُنيت بالدماء. تدفّق الضوء عبر الأبواب والنوافذ الزجاجيَّة وانعكس لامعًا عن واجهات البورسلين الأبيض الناصع، ممّا جعل القرية تبدو متوهّجة ودافئة. رُكنت الشاحنتان الكبيرتان، بحمولتهما المكوَّنة من أربعين نعشًا أسود في كلّ واحدة، خارج البوّابة مثل سلسلتَين جبليَّتَين سوداوَيْنِ. امتزجت رائحة الطلاء الأسود الطازج مع روائح أخرى:

العبق اللطيف لنشارة الخشب والغراء الأصفر اللزج وبُرادة المسامير المعدنيَّة. انتشر خليطُ الروائح نحو الحقول، ليغطّي على أريجِ الربيع ويتغلغل في الممرّات والأزقة مانحًا القرية جوًّا جنائزيًّا.

لم يكن أبي وحدَه. كان لديه طاقم من الشباب مهمّتهم تفريغ الحمولة من الشاحنات ومساعدة القرويّين على ملء الاستمارات بينما هو جالسٌ على طاولة منفصلة، يرتشف الماء وينادي القروِيِّين واحدًا تلو الآخر لتسليم الاستمارة وتسديد المستحقّات. بعد أن ينتهي من عدِّ النقود، ويضعها في حقيبته الجلديَّة السوداء، يقطع إيصالًا ويوجِّه الشخص نحو الشاحنة كي يستلمَ نعشه.

كانت قرية مينغ أكثر ثراءً من قرية دينغ؛ لعلّها تضاهي قرية شانغ يانغ، التي تعدُّ النموذج المثاليّ في بيع الدماء، والتي سبق أن زارها أبي برفقة مجموعة من أهالي قريتنا منذ عدَّة سنوات. غير أنَّ نسبة الإصابة بالحمَّى فيها أعلى من قرية دينغ. نادرة هي الأسر التي لم يمسّها شبح الحمَّى، بل إنَّ معظم البيوت ضمَّت أكثر من مصابٍ على الأقلّ. ولأنَّ قرية دينغ كانت النموذج المثاليّ في بيع الدماء وبلغ ثراؤها حدًّا كبيرًا خلال الموجة، عزف أهلها عن لفِّ موتاهم بحصائر القشّ أو دفنهم في قبور بسيطة خارج القرية. كانت النعوش السُّود هي الموضة الرائجة. ولكن، بعد عدد من الوفيات ظهر النقص في الأخشاب المخصّصة للنعوش. قطع الأهالي كلّ الأشجار الصالحة للاستعمال في القرية وما حولها. حتّى الأشجار المتناثرة على طول الطريق الرئيس وفي القرى المجاورة لم تسلم من فؤوسهم التي عرّت الطبيعة.

مثّل قدومُ أبي مع حمولته من النعوش مجيءَ شحنةٍ من الفحمِ قبيل عاصفة ثلجيَّة كبيرة. كزائرٍ جاء في أوانه، في أوج الحاجة إليه.

هرع القرويّون من حقولهم واصطفّوا عند بوّابة القرية متلهّفين للحصول على فرصةٍ لشراء النعش بسعره المخفّض. امتدَّ طابور الناس الهائل مسافة مئتي ياردة. ولمنع أيّة عائلة من شراء نعوش أكثر ممّا يحقُّ لها، استعان أبي بعمدة القرية.

«سيّدي العمدة، أتساءل ما إذا كنتَ ستساعدني في تدقيق استمارات الأهالي هذه».

فكَّر العمدة في الأمر. «لا أعرف... إن لم أعتنِ بأرضي في أسرع وقتٍ فستموت المحاصيل».

«هل يعاني أحدٌ في عائلتك من الحمَّى؟»، سأله أبي.

«كلّا. لم يبع أحدٌ منّا دمَه».

«هل لديك أفراد مسنُّون في العائلة؟».

«والدي في الرابعة والثمانين».

«ما رأيكَ في أن أبيعك نعشًا الآن، ويبقى موجودًا عندك لحين الحاجة إليه؟».

بعد صمت طويل سأل العمدة: «هل ستمنحني خصمًا؟».

أجرى أبي عمليَّة حسابيَّة سريعة. «سأبيعك إيَّاه بمئة وخمسين. أي أقل من التكلفة بخمسين».

«هل تضمن أنَّه من النوع الجيد؟».

«لديَّ ثلاثة نعوش من الدرجة أ، يمكنك أن تختار واحدًا منها».

وهكذا وافق العمدة، وبيمناه ختم القرية الرسميُّ، على مساعدة أبي في تدقيق استمارات المتقدِّمين. أوَّل ما فعله كان تفحُّص الطابور بحثًا عن أفراد ليس لديهم مرضى في عائلاتهم وإخراجهم. ثمَّ جلس بجوار أبي ونظر في كومة الاستمارات، واستبعد المتقدّمين الذين زعموا أنّهم يعانون من حمّى شديدة بينما في الواقع كانت حالاتهم طفيفة. وحين انتهى من ذلك انتقل إلى شؤون بيع النعوش.

وبحلول منتصف النهار، كان القرويّون قد أتمّوا عمليّات الشراء وعادوا إلى بيوتهم حاملين نعوشهم. اكتظّت شوارع القرية بأشخاص يحملون نعوشًا سُودًا لامعة، ويكيلون المدائح لفريق العمل المعنيّ بمكافحة فيروس عوز المناعة البشريّ والإيدز، ويتحدّثون عن حسن حظّهم بسخاء الحكومة وطيب تعاملها معهم. لدى وصولهم إلى البيوت، اكتشف بعض القرويّون أنّ ليس لديهم متّسع لوضع النعوش، لذلك وضعوها وسط الفناء أو أسندوها بجوار الأبواب. أينما تنظر ترَ نعوشًا سودًا لامعة. كانت قريةُ دينغ بحرًا من النعوش. غمرت السعادة أهالي القرية لأنّهم حصلوا على النعوش بسعر مخفّض حتّى كادوا ينسون كلَّ شيء عن الحمّى، كلَّ شيء عن مرضاهم الراقدين في أسرّة الموت. تجوّل العديد منهم في الأرجاء، مبتسمين خاليي البال، في حين ذرف بعضهم دموع الفرح. تمكّنت قلّة من الأسر التي لا تضمّ مرضى بين أفرادها من التحايل على القوانين وشراء النعش في نهاية المطاف. ولّما كانوا غير قادرين على التباهي بغنائمهم الثمينة، خبّؤوا نعوشهم داخل

البيوت بعيدًا عن الأنظار، ثمّ وقفوا على العتبات يتبادلون المجاملات مع المارّة ويشيدون بجمال الطقس الربيعيّ.

في اليوم التالي، توجّه أبي إلى قرية الجدول العتيق التي لا تبعد كثيرًا عن قرية مينغ. كان قد جلب ثلاث شاحنات ملأى بالنعوش هذه المرّة. أوعزَ إلى السائقين بركن الشاحنات في منطقة مهجورة على بعد ميل واحد كي يتمكّن من السير إلى القرية بمفرده واستطلاع الوضع. وبينما راح أبي يتجوّل في القرية، لاحظ الطرق الإسمنتيَّة والبيوت متعدّدة الطوابق التي بُنيت خلال العقد الماضي. استطاع أن يتبيَّن ثراء القرية وأنَّ أهلها، بلا شكّ، قد باعوا الكثير من الدماء في ما مضى. أدرك أنّهم يعانون بشدّة الآن من الحمَّى، وأنَّ معظمهم قد ادّخر ما يكفي من المال كي يشتري نعشه. بعد أن تأكَّد أبي من هذه الأمور، استدلَّ على بيت أمين لجنة الحزب في القرية، وقدَّم نفسه بصفته نائب رئيس الفريق المعنيّ بمكافحة فيروس عوز المناعة البشريّ والإيدز، وقدَّم خطاب التعريف الصادر من حكومة المقاطعة. بمجرَّد أن قرأ أمين لجنة الحزب، وهو شابٌّ يبدو عليه الارتباك، الخطابَ، دعا أبي لاحتساء الشاي. وبعد أن طرح عليه أبي بعض الأسئلة المعتادة حول مدى انتشار الحمَّى ومعدّل الوفيات في القرية وما إلى ذلك... قرَّر أن الوقت حان لجسّ النبض.

«هل يعاني أحد أفراد عائلتك من الحمَّى؟»، سأله بعفويَّة وهو يحتسي الشاي.

خفض أمين الحزب الشابّ رأسه، وقد انهمرت الدموع على خدّيه.

«كم عددهم؟»، سأله أبي بمنتهى التعاطف.

«لقد مات شقيقي الأكبر، وأخي الصغير طريح الفراش، ويبدو الآن أنّني مصاب بها أيضًا».

بصمتٍ، أعطاه أبي منديلًا كي يمسح دموعه. وبعد لحظة، قال بحزم: «سيّدي أمين الحزب، ربّما لا يجدر بي فعل ذلك، ولكنّني سأتخذ قرارًا تنفيذيًّا: سأرسل شحنتنا التالية من النعوش إلى هذه القرية، عنايةً بأهلنا المرضى هنا. لكنّني سأحتاج إلى مساعدتك لمراقبة الأمور... لا نريد أن يشتري غير المرضى النعوش بسعرها المخفّض فلا يتبقّى شيءٌ منها لمن هم بأمسِّ الحاجة إليها، أليس كذلك؟ ولأنَّ الحكومة تبيعها بسعر التكلفة، فلا مجال للكثير من اللفّ والدوران. حسب سعر السوق، يكلّف النعش الواحد ما لا يقلُّ عن خمسمئة يوان، وأنا متأكّد من أنّك تعرف ذلك جيّدًا. ولكن بما أنّ الأمر في عهدتي، فلن يدفع أهالي هذه القرية فلسًا واحدًا فوق المئتين».

«أمّا بالنسبة لعائلتكَ...»، توقّف أبي متظاهرًا بالتفكير. «بما أنّ المرض بلغ ذروته لدى شقيقك الصغير، فأعتقد أنَّ بوسعي الحصول على نعشٍ له مقابل مئة يوان، أي بنصف سعر التكلفة».

حدّق أمين الحزب في أبي ودموع الامتنان تترقرق في عينيه.

«حاليًا، تنصُّ التعليمات أنّه لا يحقُّ لك الحصول على نعشٍ حتّى تنقضي مدّة ثلاثة أشهر على الأقلّ على إصابتك بالمرض، ولكنّك أمين لجنة الحزب في القرية وأحد المسؤولين الشعبيّين الموثوقين. وهذا

بالتأكيد لن يذهب سدى. يمكنني أن أجري استثناءً لك... ما رأيكَ أن تختار لنفسك واحدًا من هذه النعوش، وبالسعر نفسه، بعد أن أنتهي من توزيعها على أهالي القرية؟ لا تدع أحدًا يعرف بالأمر فحسب».

سرعان ما توارى أمين لجنة الحزب ليخرج بعد لحظات ومعه مئة يوان سلَّمها إلى أبي. بعدها، مغمورًا بالسعادة، راح يقرع الجرس لاستدعاء القرويين إلى التجمُّع في الساحة.

بحلول الظهيرة، كانت قرية الجدول العتيق ملأى بالنعوش السُّود اللامعة. شأنها شأن جارتها قرية مينغ، أصبحت بحرًا من نعوش. كانت رائحة الخشب والطلاء الطازج تجوب الشوارع والأزقَّة وتتخلَّل في كلِّ زاوية من زوايا القرية. والآن، بعد أن حصلوا على نعوشهم، صار بمقدور سكَّان قرية الجدول العتيق، المرضى والأصحّاء على حدّ سواء، أن يحظوا براحة البال. فلقد تخلّصوا، على الأقلّ، من همٍ كبيرٍ كان يؤرّقهم. عاد صدّى الضحك والأحاديث يتردَّد في أرجاء القرية بعد اختفاءٍ دام عامين.

٣

كان جدِّي يريد التحدُّث إلى أبي الذي لم يرَه منذ شهرين. وكان عليه أن يأتي إلى بيتنا، لكنَّه تساءل عمّا سيقوله لأمّي إذا كانت بمفردها هناك في استقباله. ظلّ يفكّر طوال اليوم دون أن يتوصّل إلى قرارٍ.

قبيل الغسق، ظهرَ عمِّي عند عتبة باب جدِّي وبادره قائلًا: «أبي، يدعوك هوي لتناول العشاء. يريد أن يتحدّث معك في أمرٍ».

بلا أدنى تردُّد، ترافق جدِّي وعمِّي في طريقهما إلى بيتنا. ألقت أشعة الشمس اللطيفة وهجًا أصفرَ ساحرًا على الجدران المكسوَّة بالبورسلين الأبيض، كما هو الحال في بيوت قريتي مينغ والجدول العتيق اللتان رآهما جدِّي في أحلامه. الاختلاف الوحيد يتمثَّل بوجود رقعة مزروعة بالخردل الحارِّ في الطرف الجنوبيِّ من فِناء بيتنا، الذي كانت تشغله حظيرة الخنازير وخم الدجاج فيما مضى. كانت الغراس بلونٍ أخضر غامق، بطول عيدان الطعام. شكلُ أوراقها يشبه تمامًا أوراق شجرة الصفيراء، لكنّها أثخن وأقلّ لمعانًا ومغطّاة بشبكة من العروق الرقيقة. تهافتت النباتات بحثًا عن حيِّزٍ لها محتلَّةً نصفَ الفناء الذي ملأته رائحة نفّاذة مُسكِرة. لا تختلف رائحة الخردل الحارّ عن رائحة النعناع الرقيقة الصافية سوى بفجاجتها. كانت هذه الفجاجة على وجه التحديد السبب الذي جعل نائب حاكم المقاطعة يستلذُّها كثيرًا. كانت على ذوقه. وبطبيعة الحال فقد زرعها والداي من أجلِهِ.

في طريقهما عبرَ الفناء، كان أوَّل ما لفت انتباه جدِّي هو الرقعة الكبيرة المزروعة بالخردل الأخضر الحارّ. استقبلتهما أمّي وهي في طريقها إلى المطبخ حاملةً وعاءً مملوءً بالدقيق. «أهلًا وسهلًا يا أبي. لدينا وجبة لذيذة على الغداء اليوم؛ معكرونة بمرق الخردل الأخضر الحارّ»، قالت.

تعاملت أمّي مع جدِّي كأنَّ شيئًا لم يحدث. كأنَّها لا تزال عروسًا جديدة في هذه الأسرة وقد وصلت لتوِّها إلى القرية. أبي بدوره أيضًا تعامل مع جدِّي كما لو ليس هناك صراع بينهما. عندما لاح له جدِّي

عند الباب، سرعان ما رسمَ ابتسامةً على وجهه وسحب كرسيًّا ذا مسندٍ ووسادةٍ مريحة كي يجلس عليها جدِّي. جلس الرجال الثلاثة؛ جدِّي وأبي وعمِّي، في مثلَّث يقابل كلٌّ واحدٍ فيه الاثنين الباقيين.

توجَّس جدِّي من الاستقبال اللطيف، ولم يكن مرتاحًا لدفءِ المعاملة التي لاقاها من ابنه وزوجته لدرجةٍ جعلته يشعر بأنَّه غريبٌ عنهما. أدار رأسه بعيدًا وراح ينظر في أنحاء الغرفة وقد احمرَّت وجنتاه حرجًا. لقد كانت الغرفة على حالها تقريبًا. بجدرانها البِيض وطاولتها الحمراء الممتدَّة بجانب الحائط، وجهاز التلفزيون في طرف الغرفة تقابله أريكة في الطرف الآخر. كانت خزانة التلفزيون حمراء وأبوابها مزيَّنة بزخارف من أزهار الفاوانيا المذهَّبة.

لاحظ جدِّي وجودَ شبكة ضخمة من خيوط العنكبوت في أحد زوايا الغرفة. لم يكن هذا الشيء ليفوت أمّي، فقد درجت العادة أن تجرفها بالمكنسة بمجرَّد أن تظهر. لكنَّ هذه الشبكة تدلَّت من زاوية السقف نحو أعلى الثلّاجة. جعلت هذه الشبكة البيت يبدو مختلفًا عن ذي قبل. استشعر جدِّي أنَّ ثمَّة شيئًا ما قد تغيَّر. حين تلفَّت حوله رأى عدَّة صناديق خشبيَّة مكدَّسة في الزاوية خلف الباب. كان ذلك كافيًا ليدركَ أنَّ أبي يخطِّط للانتقال.

لم يستطع جدِّي أن يرفع عينيه عن الصناديق الخشبيَّة.

قال أبي وهو يسحبُ نفسًا من سيجارته: «لا حاجة للمقدّمات، أردتُ أن أخبرك بأنّنا قد عزمنا على الانتقال».

حدَّق فيه جدِّي. «إلى أين؟».

أجاب أبي وهو يشيح بنظره بعيدًا. «إلى عاصمة المقاطعة أوّلًا. وبعدها، إذا استطعنا توفير ما يكفي من المال، سننتقل إلى كايفنغ».

«هل صحيحٌ أنّك نائب رئيس فريق العمل المعنيّ بمكافحة فيروس عوز المناعة البشريّ والإيدز؟»، سأله جدّي.

سُرَّ أبي وقال: «أوه، فقد وصلك الخبر إذًا!».

«وهل صحيحٌ أنّك كنت تبيع النعوش في قريتي مينغ والجدول العتيق في الأيّام القليلة الماضية؟».

متفاجئًا، أزال أبي السيجارة المتدلّية من فمه. «كيف سمعتَ بذلك؟».

«لا يهمُّ. أنا أسألكُ عمّا إذا كان ذلك صحيحًا».

تجهَّمت تعابيرُه. حدَّق في جدِّي ولم يقل شيئًا.

«ألم تبع شاحنتين محمَّلتين بثمانين نعشًا في قرية مينغ؟»، ألحَّ جدِّي في سؤاله. «وثلاث شاحنات محمَّلة بمئة وعشرين نعشًا في قرية الجدول العتيق؟».

تكاثفت علائمُ الدهشة على وجه أبي، كغشاءٍ من الطين المتيبّس الذي يمكن أن يتفتّت في أيّة لحظة. لقد خيَّمت الصدمة على ملامحه، جمودٌ بدا عصيًّا على الذوبان. كان بوسع الرجال الثلاثة، الجالسين في مثلَّثٍ، سماع صوت النشَّابة التي تدحرج أمّي بها العجينَ في المطبخ. تردّدت أصوات خفيفة قادمة عبر الفناء يُخال إنَّها ناجمة عن يدٍ بدينةٍ تضرب الجدار خلفهم بإيقاعٍ متكرّر. أطفأ أبي سيجارته بغتةً، ساحقًا العقبَ الطويل تحت حذائه حتّى لم يتبقَّ منه سوى فتاتٍ من التبغ ومزقٍ

من الورق. رمق عمِّي بنظرة خاطفة ثم التفتَ إلى جدِّي، محدِّقًا في عينيه وشعره الأشيب.

قال: «أبي. الآنَ وقد عرفتَ كلّ ما تحتاج إلى معرفته، ليس هناك فائدة من الحديث في الأمر. أريد أن أقول شيئًا واحدًا فقط: بغض النظر عن مدى سوء معاملتكَ لي، لكنّك تظلّ أبي وأظلُّ ابنكَ. غير أنّه من المستحيل أن أرضى بأن تقيمَ عائلتي في هذه القرية. لقد تناقشتُ في المسألة مع زوجتي وقرّرنا أن نعطي البيت، بكلّ ما فيه، إلى ليانغ. لن نأخذ إلا ملابسنا. أعرف أنَّ ليانغ لن يعيش طويلًا، لكنّني أعتقد أن زوجته ستعود إليه إن عرفت بأنَّه حصل على البيت والأثاث. لا أستطيع أن أصدّق أنَّها ستفوِّت فرصة الميراث الكبير هذا. أما بالنسبةِ لكَ...»، توقَّف. «فبوسعك الانتقال معنا إلى المدينة إذا أردتَ، أو يمكنكَ البقاء هنا لرعاية ليانغ وعندما يرحل، بوسعك الانضمام إلينا وسأرعاكَ في شيخوختك».

كان هذا كلُّ ما في جعبة أبي من كلام.

وكانت دموع الامتنان تبلِّل وجهَ عمي.

مكتبة
t.me/soramnqraa

٤

راح جدِّي يتقلّب في سريره. حاول جاهدًا أن يغفو لكنَّه لم يستطع. منذ أن غادر بيتنا، كان عقله غارقًا في دوّامات من الأفكار، عن أبي الذي يبيع النعوش ويخطِّط للانتقال مع أسرته خارج القرية. لقد أزعجته مسألة المتاجرة بالنعوش قبل كلِّ شيء. لم تفارقه فكرة أنَّه كان قد أحسن صنعًا لو قتلَ ابنه البكر هذا. أرّقته هذه الخواطر وصدَّعت رأسه. تذكَّر

فجأة كيف كانت العائلات المتناحرة من أهل السهل تدفن العصي خارج بيوت أعدائها كتعويذة تجرُّ عليهم اللعنات. كانوا يقطفون غصينًا من شجرة صفصاف أو خوخ ويشحذون أحد طرفيه ثم ينقشون عليه اسم الشخص الذي يتمنّون موته. وبعد أن يمرِّروه على باب العدوِّ أو جدار بيته، يدفنونه عميقًا في الأرض متضرّعين أن تحيقَ به لعنة الموت. لقد فعلوا هذه الأشياء حتَّى وهم يعلمون أنَّها ليست كافية للتسبُّب في موت شخصٍ ما. لا أحد يدري، فقد تؤدّي إلى وفاة باكرة أو إلى كسر ذراعٍ أو ساق أو على الأقلّ فقدان قدمٍ أو إصبع في حادثةٍ ما.

نهض جدِّي من سريره وأشعل الضوء وفتّش حوله حتَّى عثر على غصين صفصاف. شحذ أحد طرفيه حتّى صارت نهايته حادَّة وكتب على قصاصة ورق: «ابني دينغ هوي يستحقُّ الموت» ولفَّ الورقة حول الغصين. تحت جنح الظلام، تسلَّل إلى القرية ليدفن الغصين خلف بيتنا.

وبعد عودته إلى الغرفة، خلع جدِّي ملابسه بعجالة وعاد إلى سريره وغطَّ في النوم بسرعة.

رغم لعنة جدِّي المدفونة مع غصينِ الصفصاف، بقي أبي على قيد الحياة، وبصحّةٍ جيّدة.

أمَّا تشاو دي تشيوان، فقد كان الموت يطرقُ بابه. يبدو أنَّه لن يشهد انقضاء هذا الربيع، الفصل الذي تزدهر فيه الحياة. عادةً، إذا كان المرء يكابد مرضًا فتّاكًا مميتًا، فما عليه سوى محاولة اجتياز أشهر الشتاء القاسية وصولًا إلى الربيع، فإذا تمكَّن من الصمود حتّى ذلك الحين، فسيحظى بفرصة جديدة للحياة وقد يعيش عامًا آخر.

لكنَّ حالة تشاو دي تشيوان لم تبعث على كثيرٍ من الأملِ. ففي اليوم الذي حمل فيه السبورة القديمة ذات الإطار الثقيل من خشب الدردار، من المدرسة إلى القرية، اضطرّ للتوقّف عدّة مرّات على الطريق للاستراحة. وعندما بلغ القرية، تلقّفته أسئلة القرويين المزعجة: «مرحبًا يا دي تشيوان! ما قصَّة هذه السبورة؟ هل ستعطي الدروس منذ الآن فصاعدًا؟». كان بعضهم، كجدِّي، يعارضون توزيع أثاث المدرسة على المرضى. «مَن كان يظنُّ أنَّ المرضى الذين انتقلوا إلى المدرسة سيتقاسمون ممتلكاتها العامَّة فيما بينهم؟».

وتساءل آخر: «يا إلهي، حتَّى السبورات لم تسلم منكم! ألن يذهب أطفالكَ إلى المدرسة بعد أن تموت؟».

حثَّ تشاو دي تشيوان خطاه حين وجد نفسه عاجزًا عن الإجابة على هذه الأسئلة. عبر القرية من غربها إلى شرقها دون التوقُّف للراحة. انعطف إلى زقاقٍ ضيِّق ووصل أخيرًا إلى بيته. عبرَ البوَّابة وأسندَ السبورة على الجدار ثم انهار هناكَ، وسط الفناء.

قبل أن يمرض تشاو دي تشيوان كان يستطيع أن يرفع مئتي رطلٍ بكلِّ سهولة –حمولة من الحجارة على سبيل المثال أو عدّة أكياس من الأرزّ– ويحملها لأميالٍ دون أن يتوقّف لأخذِ نفسٍ. أمَّا الآن، فهذه السبورة التي يبلغ وزنها مئة رطل، بل أقلّ من ذلك بكثيرٍ، جعلته يتصبَّب عرقًا قبل أن يجتاز بضع مئاتٍ من الياردات عبر القرية. حين وصل إلى بيته كان منهكًا، انهارَ على الأرض مشلولًا، غيرَ قادرٍ على النهوض، أنفاسه اللاهثة تشبه صفيرَ الريحِ.

«بحق السماء، ماذا دفعك لحمل هذه السبورة، على كتفيك، طوال الطريق إلى البيت؟»، سألته زوجته.

«لأنّهم أعطوني إياها... لأصنع منها نعشًا لي»، شهقَ دي تشيوان وقد امتقع وجهه بشحوبِ الموت؛ أراد أن يضيف شيئًا ما، ولكنّ حلقه بدا مسدودًا بكتلةٍ من البلغم، حاول أن يبصقها ولم يتمكّن. راح يلهث وقد احتقن وجهه. تضخّمت البثرات الأرجوانيَّة الداكنة على وجهه كأنَّها على وشك أن تنفجر. هرعت زوجته مذعورة وراحت تضربه على ظهره. تمكَّن أخيرًا من بصق شيء ما، كرة من البلغمِ ممزوجة بالدم، ثمّ سقط أرضًا.

الطريق الذي عبره دي تشيوان من المدرسة إلى البيت، حاملًا السبورة، لن تطأه قدامه بعد الآن أبدًا.

بعد بضعة أيَّام، ذهبت زوجته إلى المدرسة للقاء غن تشو ويويه جي.

«أيّها المدير جيا. أيّها المدير دينغ. عندما جاء زوجي إلى هذه المدرسة لأوّل مرّة كان قادرًا على المشي والحركة بلا صعوبة. أمّا الآن فهو راقد في فراشه، يلفظ أنفاسه الأخيرة! كنتم تعلمون أنَّ هذا الرجل المسكين على حافّة قبره... فلماذا بحقّ السماء أعطيتموه تلك السبورة الضخمة في حين حصل الجميع على المقاعد والكراسي؟ لقد أقمتُ في هذه القرية منذ سنوات طويلة، ورأيتُ رجالها يضربون نساءهم ويشتمونهنّ. وطوال كلّ تلك السنوات التي قضيتها معه، لم يرفع زوجي يده في وجهي قطّ، ولم يتلفّظ بكلمةٍ مسيئة قطُّ. إنّه الآن يحتضر، وليس بحوزتي نعشٌ أدفنه

فيه. لقد باع دماءه لإعالة أسرته، كي يبني لنا بيتا جميلًا يأوي أطفالنا... أقل ما يمكننا فعله من أجله هو أن نؤمّن له نعشًا لائقًا».

أخبرها المديران أنَّ لديها مطلق الحريَّة في الذهاب إلى المدرسة وأخذ ما يحلو لها من أشياء يمكن استعمالها لصناعة النعش. لاحقًا، عندما قاداها إلى الغرف الفارغة وصفوف المدرسة المهجورة، رأت كيف أنَّ المدرسة قد أُخليت عن بكرة أبيها. لم يبقَ كرسيٌّ واحدٌ أو مقعدٌ واحد. اختفت كلّ السبورات مع حواملها، وحتّى أسرَّة المعلّمين والخزانات والصناديق. انتُزعت المرايا من إطاراتها وكانت مهاجع المعلّمين خاوية تمامًا؛ منهوبة. امتلأت الأرضيّات بأوراق الامتحانات القديمة ودفاتر الواجبات البيتيَّة والجوارب المهترئة. كانت الصفوف أيضًا فارغة، ملأى بقصاصات الورق والغبار وقطع الطباشير المكسورة. لم يبقَ شيءٌ في المدرسة عدا بعض الأغراض الشخصيَّة لمن أقاموا بها إلى جانب أكياس الطعام في المطبخ.

لقد تخلَّوا عن كلِّ شيء. لقد نهبوا المكان عن بكرة أبيه.

كان إطار مرمى السلَّة المعدنيّ يقف مهجورًا في باحة المدرسة وقد اختفى اللوح الخشبيّ الخلفيّ. استخدمه السكَّان منشرًا لتجفيف ملابسهم. ومع غروب الشمس، وقفت زوجة تشاو دي تشيوان برفقة المديرَيْن في باحة المدرسة، محاولين اتّخاذ قرار بشأن ما ينبغي فعله. لقد أنهوا جولتهم في المدرسة وخرجوا منها صفر اليدين.

«سأعطيكِ كرسيّي إن أردتِ»، عرض عليها دينغ يويه جي.

«انسَ الأمر. علينا أن نذهب ونتحدّث مع ذلك الكلب، لعلّه يعطيها نعشًا»، قال جيا غن تشو.

وهكذا، زاروا أبي برفقة مجموعة من أهالي القرية المرضى.

لم يكن المشهد الذي جرى عند بوَّابة بيتنا مشهدًا وديًّا. ضجَّ الحشد غضبًا مبعثه الشائعات والاتهامات عن بيع أبي للنعوش في قرى أخرى. صرخوا قائلين إنَّهم على علمٍ ببيعه النعوشَ التي كانت من نصيبهم، النعوش التي قدّمتها الحكومة مجّانًا لمَن يموت جرَّاء الحمَّى. أمام كلِّ هذا الصراخ والجدال وحالة الجنون المستعرة فيما بينهم، لم يقل أبي شيئًا. أخيرًا، رفع جيا غن تشو صوته قائلًا: «هلَّا سكتُّم!».

وفيما ساد الصمت، تقدَّم جيا غن تشو ودينغ يويه جي أمام الحشد. «نحن مَن ساعدك للحصول على تلك النعوش الحكوميَّة في المقام الأوَّل. لذا أجبْنا على هذا السؤال: هل صحيحٌ أنَّك كنتَ تبيع النعوش؟»، قال جيا غن تشو.

«نعم»، أجاب أبي. «ما المشكلة؟».

«لمن كنتَ تبيعها؟».

«لمن يريدها. إنَ كنت تريد بعضًا منها، فسأبيعكَ أيضًا».

دخل أبي إلى البيت وخرج بعد لحظاتٍ بيدِه ظرفٌ ورقيّ بنيّ. أخرج منه كتيّبًا صغيرًا يعرِّفه بأنَّه «الرفيق دينغ هوي، نائب رئيس فريق العمل المعنيّ بمكافحة فيروس عوز المناعة البشريّ والإيدز في مقاطعة وي». ثمَّ تناول حزمة من الوثائق، كلِّها مكتوبة على ورقٍ رسميٍّ حكوميٍّ وممهورة بأختامٍ حُمرٍ تبدو رسميَّة. كان بينها رسائل من لجان الحزب في مقاطعة وي وإقليم خنان، وكذلك من مختلف الإدارات الحكوميَّة في المدينة والمقاطعة والإقليم. كانت إحدى الوثائق بعنوان «مذكِّرة مستعجلة

بشأن منع نشر المعلومات المتعلِّقة بقرى الحُمَّى (أو قرى الإيدز)». كانت تحمل الأختام الحُمر الكبيرة لحاكم إقليم خنان ولجنة الحزب فيه. وفي وثيقة أخرى صادرة عن فريق العمل المعنيِّ بمكافحة فيروس عوز المناعة البشريِّ والإيدز في إقليم خنان، جاء عنوانها: «إشعار بشأن ترتيبات الجنائز والنعوش المدعومة بسعرٍ مخفَّض لمرضى الحمَّى». كانت الوثائق التي تحمل أختام فرق العمل المعنيَّة بمكافحة فيروس عوز المناعة البشريِّ والإيدز في المدينة والمقاطعة عبارة عن مذكِّرات حول مذكِّراتٍ وإشعاراتٍ تحيل إلى إشعاراتٍ، جميعها مُرسلة من مستوياتٍ عُليا في الحكومة.

بعد أن عرض أبي الوثائق على جيا غن تشو ودينغ يويه جي، سألهما: «هل أنتما مديرا فريق العمل المعنيّ بمكافحة فيروس عوز المناعة البشريّ والإيدز؟».

حدَّق الرجلان في أبي ولم يقولا شيئًا.

آخذًا صمتهما كتأكيدٍ، ابتسم أبي وقال: «حسنٌ، أنا نائب رئيس فريق العمل في المقاطعة، ممّا يعني أنّني المسؤول عن مبيعات النعوش وشؤون الدعم الحكوميّ لمرضى الحمَّى في هذه المقاطعة بأكملها. أنا مَن وافقتُ على الطلب الذي رفعتماه بشأن الحصول على عشرة أرطال من الدقيق ومثلها من الأرزّ وإعانة نقديَّة لكلِّ مصابٍ بالحمَّى في قرية دينغ... ألم تريا توقيعي أسفل الطلب؟».

وتابع: «في الوقت الراهن، تنصُّ التعليمات على أنَّ هذه النعوش المدعومة حكوميًّا لا يمكن بيعها بأقلِّ من مئتي يوان للنعش الواحد،

ولكن بما أننا جميعًا أبناء قرية دينغ، فبوسعي استخدام نفوذي وعلاقاتي كي أبيعكم النعش بمئة وثمانين يوانًا فقط. إذا ملأتم الاستمارات الآن، ستستلمون النعوش غدًا».

مع انحدار الشمس الغاربة، خيَّمَ وهجٌّ أحمر فوق القرية. انجرفت رائحة الربيع الحلوة في الحقول وتغلغلت عبر شوارع القرية. واقفًا على الدرجة العليا لمدخلِ بيته، مثلَ زعيمٍ سياسيّ يعتلي منصَّة خطابه، تملَّى أبي في حشد القرويّين وخاطبهم بصوتٍ عالٍ:

«في الواقع، هذه النعوش ليست برخيصة جدًّا. لكنَّ تصنيعها سيكلِّف المبلغ نفسه تقريبًا. لو كان شراؤها صفقة جيّدةً لأخبرتكم عنها في وقت سابق، أليس كذلك؟».

«بصراحة، لم أكن لأبيع واحدًا منها لأخي حتَّى لو طلب إليَّ ذلك. خشبُها لم يجفّ بعد... في غضون يومين، ستظهر الشقوق في هذه النعوش، شقوق بعرض الإصبع».

«من الأفضل لكم أن تشتروا الأخشاب وتصنعوا النعوش بأنفسكم. حينها تصنعون النعوش حسبما تشاؤون».

«جيمعنا أهلٌ وجيرانٌ هنا... لا داعٍ لافتعال كلّ هذا الغضب أو تحويل الأمر إلى نوعٍ من المواجهة. لأنّه إذا وصل الأمر إلى ذلك الحدّ...». مشيرًا إلى جيا غن تشو ودينغ يويه جي أكمل: «قد تكونان مسؤولَيْن عن فريق العمل في القرية، لكنّني المسؤول عن المقاطعة بأكملها... من الأقوى برأيكما؟ لمن الكلمة الأخيرة؟ إذا تحوّلت هذه المسألة إلى قتالٍ، إلى صراعٍ بشعٍ، فإنَّ كلمة واحدة منّي ومن كبار المسؤولين ستأتي

بعناصر الشرطة والأمن العامّ إلى هنا بسرعة البرق. لكن لا أحد يريد ذلك، صحيح؟ أيُّ نوعٍ من الجيران سأكون... أيُّ نوعٍ من البشر سأكون حتّى أفعل شيئًا كهذا؟».

بعد ذلك، لم يُقل شيءٌ آخر.

بعد ذلك، لم يبقَ ما يمكن قوله.

تفرَّق القرويّون وعادوا إلى المدرسة. كانت الشمس الغاربة معلَّقة في السماء، حمراء وثقيلة، مثل كرةٍ من الحبر القرمزيِّ المتوهِّج. مثل الرصاص. راحت تغرق ببطءٍ في الأفقِ، تجذبُها الأرض بسبب ثقلها الرصاصيّ. بدت الحدود الغربيَّة للسهل الأوسط كرقعةٍ من نار؛ تكادُ تسمع ألسنة اللهب المحتدمة إذ تتفرقع وتنبثق مثل نيران الهشيم المشتعلة في بستانٍ من أشجار السرو.

الفصل الرابع

١

كانت مدرسة قرية دينغ الابتدائيَّة غارقة في الصمت، نائمة نومَ الموتى. في ذلك اليوم، بدت السماء صافية جدًا، لدرجة أنَّ بوسعك أن تنظر من خلالها إلى فضاءٍ أزرق عميقٍ بلا قرار. أمَّا الآن، في منتصف الليل، فقد تلبّدت السماء بالغيوم الرطبةِ والمظلمةِ كقبورٍ محفورة حديثًا. وفي صمت المدرسة، بئر الصمت السحيق، كان بإمكانك أن تسمعَ صوت احتكاكِ السحُبِ بعضها ببعضٍ. كان الجميع نائمين، بمن فيهم جدِّي.

طق. طق. أحدهم يطرق نافذة جدِّي. لا بُدَّ أن زائر الليلِ المتأخِّر هذا قد دخل بوَّابة المدرسة المفتوحة. فمنذ أن استولى غن تشو ويويه جي على مفاتيح جدِّي، لم يعد أحدٌ مهتمًا بإغلاق البوَّابة ليلًا. بات الناس يذهبون ويأتون في أيّ وقت، وظلَّت البوَّابة مفتوحة دومًا. بوسع أي شخص أن يدخل ويتسلَّل إلى نافذة جدِّي دون أن يشعر به أحد. طق، طق... استمرَّ الطرق بثباتٍ كقرعِ الطبولِ.

«مَن هناك؟»، نادى جدِّي.

«هذا أنا يا أستاذ... افتح لي»، صرخ الزائر.

فتح جدِّي الباب ليجدَ تشاو دي تشيوان عند العتبة. لقد تغيَّر كثيرًا منذ آخر مرّة رآه فيها جدِّي حتَّى بات من الصعب التعرُّف عليه. بينما كان قَبلًا جلدًا وعظمًا، أصبح الآنَ عظمًا فحسب. كان ما تبقَّى من لحم جسدِه متهدِّلًا فوق هيكله العظميِّ، داكنًا وحائلَ اللون، يغطِّيه خليطٌ من الدمامل الجافَّة والمتصلِّبة. غار محجراه كحفرتين عميقتين مظلمتين. من النظرة الأوَّلى أدرك جدِّي أنَّ الموت ينهش جسد تشاو دي تشيوان؛ عيناه باهتتانِ، لا بريقَ فيهما. واقفًا عند باب جدِّي كجثَّة بملابس رثَّة، بدا ظلُّه، تحت ضوء المصابيح الكهربائيَّة، أكثر حيويَّة من شخصه، خيالٌ عاتمٌ يومض على الجدار مثل كَفَنٍ يداعبُه النسيم.

حين فتح جدِّي الباب، بادرته ابتسامة تشاو دي تشيوان؛ ابتسامة سقيمة يبدو أنَّه تجشَّم عناءً كبيرًا لافتعالها.

قال: «أستاذ دينغ، لقد فكّرتُ في الأمر مليًّا، ولمّا رأيتُ أنّني ما زلتُ قادرًا على المشي قرّرت إعادةَ السبورة. لا أريد أن أنهي حياتي وقد اقترفتُ فعلًا وضيعًا لهذه الدرجة. إنَّها سبورة وليست نعشًا. بمجرَّد زوال الحمَّى، سيعود التلاميذ إلى المدرسة وسيحتاج معلّموهم سبورة يكتبون عليها. أفضِّلُ أن أُدفن بلا نعش...»، تنهَّد، «على أن يظلَّ أولئك الأطفال بلا سبورة».

نظر جدِّي نحو الخارج ورأى السبورة محمَّلة على عربة يدويَّة مركونة بجوار البوَّابة.

«ليس بوسعي رفعها وحدي... هل يمكنك مساعدتي في إدخالها؟»، قال تشاو دي تشيوان.

بعد كثيرٍ من القرقعة والجلبة، تمكَّن جدِّي ودي تشيوان من حمل السبورة إلى الغرفة.

«حذارِ أن تؤذي نفسَك»، قال جدِّي بينما كانا يسندان السبورة على الجدار.

«لا بأس. سأموت قريبًا في كلّ الأحوال. إذا رأى غن تشو ويويه جي السبورة، ألقِ اللومَ عليّ... أخبرْهم أنني أنا من أعادها إلى هنا».

وقف تشاو دي تشيوان لاهثًا، يحاول التقاط أنفاسه. تشبّثت تلك الابتسامة السقيمة ذاتها على وجهه، مثل ضمادة لاصقة. توقَّع جدِّي مغادرته بعد أن ساعده في إسناد السبورة على الجدار ونفضَ الغبارَ عن يديه، لكنَّه جلس على سرير جدِّي، وعلى وجهه تلك الابتسامة الصامتة المتخشّبة.

انتظره جدِّي أن يقول شيئًا، لكن يبدو أن الرّجل ليس لديه ما يقولُه. حين قدَّم له جدِّي الماءَ، أشار بيده بعيدًا. وعندما سكب له الماء في الحوض كي يغسل يديه، تجاهل ذلك قائلًا: «يا أستاذ، لستُ بحاجة شيء. لكنّني وددتُ أن أجلس هنا قليلًا إن كنتَ لا تمانع ذلك».

«هل من مشكلة؟ بوسعك أن تخبرني أيَّ شيء»، قال جدِّي وقد جلس على كرسيٍّ مقابل السرير.

تلاشت ابتسامة تشاو دي تشيوان. «حقًّا ليس ثمَّة شيء».

جلسا صامتَيْن، هادئَيْن كالليلِ المحيطِ بهما. الصمتُ يخيِّم على السهلِ.

بين حين وآخر، تُسمع زقزقة هنا أو صرخة هناك تخرقُ السكون. أصوات حشرات صغيرة تُسمع بين الفينة والأخرى، وبعدها يعمُّ الصمت، ومن ثمّ المزيد من الصمت.

«لا بدّ لكَ من أن تعود إلى المدرسة»، قال جدِّي بحرج محاولًا استهلال الحديث.

حدَّق تشاو دي تشيوان. «ألست ترى الحال التي وصلتُ إليها؟ لا أخال أنني سأعيش أكثر من بضعة أيَّامٍ».

«كيف لك أن تقولَ ذلك؟»، بذل جدِّي قصارى جهده كي يكون مطمئِنًا. «لقد صمدتَ طوال الشتاء وحتَّى الربيع. وبلا شكٍّ ستعيش عامًا آخرَ على الأقلّ».

ابتسم تشاو دي تشيوان ابتسامةً ساخرة، غيرَ مقتنع. وبينما كان يعدِّل جلسته على السرير، أومض ظلَّه على الجدارن مثل كفنٍ جنائزيّ من الحرير الأسود. من الواضح أنَّه يواجه المصاعب في الحركة، لكنَّ ظلَّه حافظَ على نشاطه. كان الأمر كما لو أنَّ روحه قد غادرت جسده بالفعل وراحت تحوم في مكانٍ قريب من حوله.

أدرك جدِّي أنَّ تشاو دي تشيوان على حقٍّ؛ أنَّه سيموت قريبًا.

«هل لديك نعش؟»، سأله وقد رأى أنَّه من الأفضل أن يكون مباشرًا في كلامِه. «حتَّى لو لم يكن نعشًا من الدرجة الممتازة، لكن لا بُدَّ من وجودِ شيءٍ ما يأوي جثمانك».

بدا تشاو مرتبكًا. «منح جيا غن تشو ودينغ يويه جي زوجتي الإذن بقطع إحدى أشجار البولونيا لصنع نعشي».

تمسَّك تشاو بحافة السرير بحثًا عن دعامة، كأنَّه يهمُّ بالوقوف والمغادرة. ولكنَّه تابع حديثه بدلًا من أن يرحل. «أستاذ دينغ، في الحقيقة هذا ما جئتُ إلى هنا كي أخبركَ بشأنه. أعطى غن تشو ويويه جي زوجتي إذنًا خاصًّا بقطع شجرة لصنع نعشي. ولكنّي أرى الجميع الآن يتسلّقون العربات ويقطعون أشجار البولونيا والحَور. بعض هؤلاء الناس ليسوا بحاجة إلى النعوش حتَّى. إنَّهم يقطعون كلّ أشجار القرية... أخشى أنَّه مع بزوغ الفجر لن يتبقَّ منها أيَّة واحدة».

«عليكَ أن تفعلَ شيئًا يا أستاذ. لن تعود هذه القرية كما كانت إذا اختفت كلُّ أشجارها. حتَّى لو لم أحصل على نعشي، فليس ذلك ما يهمُّني. الشيء الوحيد الذي أريد أن أفعله قبل أن أموت هو أن أهدي زوجتي السترة الحريريَّة الحمراء التي وعدتُها بها. وفي نهاية المطاف، ما فائدة النعش حين تكون قد متَّ؟ الأمر لا يستحقُّ قطع كلِّ أشجار القرية».

٢

خرج جدِّي من بوَّابة المدرسة، وقد تردَّد للحظةٍ قبل أن يشقَّ طريقه نحو القرية. كان الظلام يغطّي السهلِ مثل بحيرة سوداء واسعة. لا قمَرَ ولا نجوم في السماء، بل ظلالٌ مُبهمة متذبذبة تملأ الأرجاء فحسب. العتمة ابتلعت الدرب، فاسحةً المجال للتعثُّر في أجزائه الوعرة أو للضلال عن الطريقِ في الحقول الممتدّة على كلا الجانبين. كان على جدِّي أن يسيرَ بحذرٍ، مسترشدًا ببقع النورِ القادمة من المدى البعيد. ومع اقترابه من مشارف القرية، اشتمَّ رائحة نشارة الخشبِ الطازجةِ التي تملأ هواء الليل الحالك. في البداية، كانت مجرَّد نفحة خافتة قادمة من

جهةِ الضوء. ثمّ أخذت الرائحة تتكاثف أكثر فأكثر، وتحوَّلت النفحات الخافتة إلى موجاتٍ متتابعة قادمة من الطرف الغربي للقرية، ومن الشمال والجنوب، متدفقّة عبر الأزقة نحو الشرق. حملت هذه الموجات معها تيّارًا من الأصوات: أزيز المناشير ودويّ الفؤوس الهاوية على جذوع الأشجار ولغط الأحاديث. أعادت هذه الأصوات إلى جدِّي ذكريات سنوات بعيدة، عندما كان كلّ أفراد القرية يكدّون ليلَ نهار في صهرِ الفولاذ في أفران الفناءات الخلفيَّة لبيوتهم أو في بناء شبكات الريّ الضخمة.

حثَّ جدِّي خطاه، ومشى صوب أقرب مصدرٍ للضوء. وجدَ دينغ سان تزي ووالده يعملان عند طرف حقلهما، يحفران تحت شجرة حور كبيرة. وعلى ضوء فوانيسهما، استطاع جدِّي أن يرى الحفرة الكبيرة بحجم غرفة التي حفراها، والتي عرَّت جذور الشجرة. كان والد دينغ سان تزي، الذي خلع ثيابه وأبقى ملابسه الداخليَّة، يتصبَّب عرقًا وهو يضرب الفأس على الجذرَيْن المتصلَيْن المتبقّيين، كلٌّ منهما بقطر طبقٍ كبيرٍ. بينما كان يلوح بفأسه، تطايرت شظايا الخشبِ والتراب في الهواء والتصقت بجلده المتعرِّق ممَّا جعله يبدو غارقًا في الوحل. بعيدًا، في منتصف الحقل، كان دينغ سان تزي يحاول سحب الشجرة بحبلٍ ثقيلٍ مربوط بتفرُّع جذعِها. مستجمعًا كلَّ عزمه في الشدِّ، التقف الحبلَ بقوَّة فتأرجحت الشجرة. اصطدمت الجذور اصطدامًا مدويًّا وبدت الشجرة لوهلةٍ موشكة على السقوط. وحين رفضت السقوط صاح دينغ سان تزي: «أبي... تعال وساعدني في السحب!».

«انتظر حتّى أقطع الجذر الأخير، وبعدها ستسقط فورًا!».

عندما رفع الوالدُ فأسه، سارع جدِّي لعرقلة طريقه. «مهلًا... من قال إنّ بوسعك قطع هذه الشجرة؟».

تجمَّد فأسه في الهواء، بينما كان والد سان تزي يحدِّق في جدي. وبعد لحظةٍ وضع الفأس ونادى ابنه.

جاء سان تزي ورمق جدِّي بنظرة خاطفةٍ ثمَّ زمجر. بعدها توجّه نحو كومة الملابس الملقاة على الأرض وتناول رسالة مطويَّة من أحد الجيوب وأظهرها لجدِّي.

كانت الرسالة المكتوبة على ورقةٍ صادرة عن لجنة الحزب في قرية دينغ موجزة. تقول: «يُمنح دينغ سان تزي الإذن بقطع شجرة الحور الكبيرة الموجودة بجوار حقلهِ غربيَّ القرية». في الأسفل كان ختم القرية الرسميّ وتوقيع كلٍّ من جيا غن تشو ودينغ يويه جي.

بعد أن قرأ مضمون الرسالة على ضوء الفوانيس، أدرك جدِّي فحواها بالضبط: الإذن بقطع أشجار قرية دينغ. أمسك الرسالة وحدَّق في الرجلَيْن متسائلًا في قرارة نفسه عمّا إن كان عليه أن يمنعهما من قطع الشجرة أم لا. بينما كان يحاول اتخاذ قراره، انتزع دينغ سان تزي الرسالة من يدِهِ ومشى بعيدًا. طوى الرسالة وأعادها إلى جيب قميصه ثمّ قال بهدوء: «لقد باع ابنك دينغ هوي نعوشنا، والآن تأتي أنت لتمنعنا من قطع شجرةٍ نصنع منها نعوشنا!».

ما زال دينغ سان تزي يتمتَّع بالقوّة رغم إصابته بالحمّى. عاد إلى حقلهِ والتقط الحبل واستمرّ في محاولة سحب الشجرة الكبيرة. مغلوبًا

على أمره، وقف جدِّي لبعض الوقت، ثمّ قرّر الذهاب إلى القرية ورؤية ما يجري هناك. لم يكن قد قطع مسافة كبيرة عندما تناهى إلى مسمعه صوت صدعٍ قويٍّ قادم من الخلف، صوت تشقُّق الخشب. تردَّد صدى الصوت في صدرِه كأنَّ ألمًا شديدًا يعتصر فؤاده. في تلك اللحظة، انتابت جدِّي من جديد تلك الرغبة بخنقِ ابنه الأكبر بيديه كلتيهما. أحسَّ بأنَّ راحتيه تتعرَّقان وأنَّ الأوتار الهرمة في يديه تتقلَّص.

دخل جدِّي القرية مستهديًا بوهج الفوانيس المعلَّقة بأغصان شجرة صفصاف كبيرة. كان ثمَّة إشعار ملصق على جذع الشجرة، مطابق للذي كان بحوزة دينغ سان تزي. إشعار مكتوب على النوع نفسه من الورق ويحمل التوقيعَيْن نفسهما وختم القرية. جاء فيه: «يُمنح جيا هونغ لي الإذن بقطع شجرة الصفصاف المعمّرة الموجودة في الركن الشماليّ الغربيّ لمفترق الطرق الواقع غربيَّ القرية».

تمعَّن جدِّي في الورقة الملصقة على جذع الشجرة وكأنَّها إعلان حكوميّ رسميّ في لوحة حائطيَّة. كان معقود اللسان. وعلى ما يبدو فقد بات قطع الأشجار قانونيًّا وعلنيًّا. وقف جدِّي مذهولًا، يحدِّق في الفانوس المتدلّي من غصن الشجرة. استطاع أن يرى جيا هونغ لي في غمرة الضوء، وقد تسلَّق إلى أعلى الشجرة وراح يقصّ الأغصان. وبعد التفكير لثوانٍ صرخ جدِّي.

«يبدو هذا خطيرًا يا هونغ لي! ألا تخشى السقوط؟».

توقّف هونغ لي وأجاب: «وما الضير في ذلك؟ لن أعيش طويلًا في كل الأحوال».

ناشد جدِّي والد هونغ لي الذي كان يقف تحت الشجرة، قائلًا: «جيا جون! أتسمح لابنك أن يخاطر بحياته من أجل شجرة؟».

ابتسم الأب وأشار إلى الإشعار الملصق على جذع الشجرة. «كلّ شيء على ما يرام. ثمّ إننا حصلنا على إذنٍ بقطعها، ألم تره؟».

هزّ جدِّي رأسه وواصل سيره. في طريقه رأى أنَّ كل أشجار القرية الكبيرة بما يكفي كي يُستفاد من أخشابها قد عُلِّق عليها إشعار القطع، أشجار من كلّ الأنواع؛ الدردار والصفيراء وخروب العسل والأرز والپولونيا. في كلّ حارة وزقاق، في كلّ ركن من أركان القرية، كان الناس يقطعون الأشجار على ضوء الفوانيس أو مصابيح الكيروسين أو الشموع. بعض الأشجار والجدران الخارجيَّة مضاءة بمصابيح كهربائيَّة متصلة بأسلاك تمديد رماديَّة طويلة (تعرف في القرية بحبالِ ذيلِ الجرذ) تتسلَّل إلى داخل البيوت المجاورة. كل البيوت كانت مضاءة على نحوٍ ساطع، ما جعل قرية دينغ كتلة من النور، تغشي الأبصار كشمس النهار. بدا الأمر كأنَّ كلّ شجرة من أشجار القرية تلقَّت حكمًا بالإعدام. وكان هواء الليل مشبعًا بضجيج التقطيع وأصوات النشر المسترسلة، إلى جانب الرائحة النفّاذة للخشب المقطوع حديثًا والممزوج بعصارة نسغ الأشجار.

بدت قرية دينغ منتعشة: جاب الأهالي الشوارع حاملين الفؤوس والمناشير بحثًا عن الأشجار التي سُمح لهم بقطعها. وبطبيعة الحال، مُنح القرويّون المرضى الأشجار الملائمة لصنع النعوش، كالصفصاف والحور والپولونيا. ولكن لأنَّ الأشجار ملكيَّة عامَّة، ولكلّ فرد الحقّ في الحصول

على نصيبه منها، فقد سُمح حتّى للقرويّين الأصحّاء بقطع الأشجار. مُنح هؤلاء أشجار الأرز والتوت الصينيّ والصفيراء، التي كانت أخشابها عرضة للتعفُّن ونخر الحشرات، وبالتالي ليست صالحة لصنع النعوش. غير أنّهم كانوا بارعين في صنع الأثاث والأسرّة والطاولات والكراسيّ التي يمكن تقديمها للأبناء والبنات كهدايا زفاف.

أُعطيت كلُّ عائلة في القرية، باستثناء عائلتنا، شجرة واحدة للاستفادة من خشبها. لذلك، في هذه الليلة الربيعيَّة، كان أهالي قرية دينغ كلّهم يعملون بجدٍّ في تقطيع الأشجار وجرِّها إلى بيوتهم.

الربّ وحدَه يعلم من أين ظهر هذا الكمُّ الهائل من الفؤوس والمناشير. كأنَّ القرية كانت على علمٍ مسبق بعمليَّة قطع الأشجار الكبيرة وقد اشترت المعدَّات اللازمة استعدادًا. ظلَّ صوت اصطدام المعادن يتردَّد طوال الليل، تخلَّلته أصوات تشقُّق الخشب وانكسار الأغصان. تناهت أصوات الطرف الشرقيّ للقرية نحوَ السهل الغربيّ البعيد، وكذلك تناهت ضوضاء الطرف الغربيّ إلى أزقَّة القرية الشرقيَّة. كانت قرية دينغ مثل خلية نحل يحتدم فيها الضجيج والنشاط، تغلي بحماسة نادرة. لم يتوقَّف وقع الخطى لوهلةٍ وكذلك صرير العربات السائرة في الشوارع، صدى أصوات القرويّين إذ يقارنون جودة أخشابهم بجودة أخشاب جيرانهم. حامت نظرات الحسد حول كلِّ بقعة من الضوء الساطع وفي أعقاب كلِّ فانوس متوهّج محمولٍ في الشارع.

توهّجت وجوه القرويّين المرضى، الذين لا يقوون على العمل، بحماسةٍ مبعثها عمليَّة قطع الأشجار هذه. انكبَّ الأصحاء على العمل

بمنتهى النشاط كأنّهم في موسم زراعةٍ أو حصادٍ كبيرٍ. طوال الليل، ضجَّت القرية بأصوات العمّال وروائح الحطب ونشارة الخشب الزكية. لم تخرج المحادثات التي رافقت كلّ هذا الصخب عن النمط المعتاد:

«أوه! لقد حصلتم على شجرة دردار!».

«نعم، كنا بحاجة لعارضة من أجل السقف، لذلك طلبنا شجرة دردار».

«تبدو هذه القطع قصيرة جدًّا، بماذا ستستخدمونها؟».

«واضحة وضوح الشمس! حجمُها مثاليٌّ للأرفف».

محادثة أخرى جاءت على هذا النحو:

«هل سمعتَ الخبر؟ لقد حصلت عائلة لي وانغ على شجرة الأرْز الكبيرة الموجودة في الطرف الغربيّ من القرية!».

«لي وانغ؟ لا أصدِّق ذلك!».

«وهل تراني أكذب عليك؟ ابنتهم مخطوبة لابن عمّ دينغ يويه جي، هذا هو السبب».

على هذا المنوال دارت الأحاديث. كان المتحدِّث يهمس ببعض المعلومات الغامضة، فيردُّ عليه المستمع قائلًا: أوه أو آه دلالةً على فهمِ المقصود، ثم يفترق الاثنان كلٌّ في طريقه لنقل النميمة إلى آخرين.

سار جدِّي في القرية كئيبًا، وكلّما مرَّ بشجرة هنا وهناك توقَّف أمامها كأنّه يقدِّم لها تحياته الأخيرة قبل أن تُقطع. تراءى له حلمه عن قرية دينغ: زهورٌ على السطحِ وذهبٌ تحت التراب. جاب القرية مذهولًا، يتلفَّت

حوله حائرًا. حين وصل إلى ساحة القرية، تفاجأ لرؤية شجرة الصفيراء الجليلة العتيقة -الضخمة جدًّا بحيث تحتاج إلى ثلاثة أو أربعة رجال لتطويق جذعها- قد جُهّزت للقطع أيضًا. وقفت تشاو شيو تشين وزوجها وانغ باو شان بجانب شقيقيها، وهما شابّان قويّا البنية من قرية مجاورة، اللذين أزالا الجرس الثقيل المعلّق بأحدِ فروع الشجرة. علّقاه فيما بعدُ على شجرة صغيرة قريبة ثمّ صعدَ واحدٌ منهما السلّم وأخذ ينشر الأغصان بينما انكبَّ الآخر على نبش الجذور.

في المرّة الأخيرة التي مَرّ فيها جدّي بشجرة الصفيراء العتيقة هذه، كانت لا تزال آمنة مطمئنة. أمّا الآن، فبعد الوقت القصير الذي استغرقه خلال جولته الوحيدة حول القرية، غدت الشجرة محاصرة بأناسٍ يهمّون بتقطيعها وقصِّ أغصانها. اقترب جدّي أكثر، وانحنى ليمرَّ تحت سلكٍ ممدودٍ من بيتٍ مجاور نحو أغصان الشجرة العتيقة. وتحت وهج مصباح بقوّة مئتي واط، كانت الفسحة المحيطة بالشجرة، حيث عُقدت اجتماعات القرية فيما مضى، مشرقة كأنّها في وضحِ النهار.

«هل سمحوا لكِ حقًّا بقطع هذه الشجرة يا شيو تشين؟»، صاح جدّي.

رفعت تشاو شيو تشين، الجالسة في بحيرة الضوء أسفل شجرة الصفيراء، رأسَها وقد احمَرّت وجنتاها بحمرة عدم الارتياح. بدت مُحرَجة للغاية لأنَّ عائلتها تلبّست بقطعِ أقدم أشجار القرية وأضخمها وأكثرها إجلالًا من قبل الأهالي.

أجابت بضحكةٍ متوتّرة: «لم يكن بحسباني أن يكنَّ المديران جيا

ودينغ كلَّ هذا الامتنان لي! لقد كنتُ أؤدّي واجبي فحسب، أطبُخ وجباتهم المفضّلة وأحرص على تقديم كلّ ما يحلو لهم من طعام وشراب... عندما أخبرتهما أنَّ كلَّ الأشجار الكبيرة في القرية قد قُطعت بالفعلِ، وأنَّ هذه هي الشجرة الوحيدة المتبقية، لم يتردّدا للحظة في منحي الإذن بالحصول عليها!».

وسط الضوضاء الناشزة للأشجار التي تُقطع، وقف جدّي يائسًا، واستذكر حلمَه بالزهور التي تملأ السهل والذهب الكامن تحت السطح.

٣

لقد حدث ما قاله تشاو دي تشيوان بالضبط.

اختفت أشجار قرية دينغ بين عشيَّة وضحاها.

تلاشت الأشجار الكبيرة كلّها. في البداية، دارت النقاشات، كما يبدو، حول قطع الأشجار التي يبلغ حجمها حدًّا معيّنًا فقط، ذوات الجذوع الكبيرة بحجم دلوٍ على سبيل المثال. ولكن عندما طلع الصباح، استيقظ أهالي القرية ليجدوا أنَّ حتَّى الأشجار الصغيرة لم يبقَ لها أثر. أيّة شجرة ذات جذعٍ بحجمِ طبق الطعام قُطعت للاستفادة من خشبها. تناثرت الإشعارات المُهملة الصادرة عن لجنة الحزب في شوارع القرية كأوراق الشجر المتساقطة عقب أمسيّة عاصفة. أشرقت شمس الربيع بدفئها المعتاد، لكنَّ القرية، بعد زوالِ أوراق الشجرِ وظلال الشجيرات، لفحها الحرُّ والكدر.

قُطعت كلّ أشجار الدردار الناضجة، والصفيراء والپولونيا والأرز والتوت الصينيّ والحَور والخرما، ولم يتبقَّ سوى شتلاتٍ ذات جذوعٍ بالكاد تصل ثخانتها إلى ثخانة ذراع رجل. حتّى هذه الشتلات كانت نادرة، كسنابل القمحِ في حقلٍ جديبٍ. منذ أن أشرقت الشمس، بدأت تصبُّ لهيبها على القرية وتكوي لحوم أهاليها.

في الأيّام القادمة، سيستيقظ القرويّون من نومهم، ويقفون عند عتبات أبوابهم، ويحدّقون باندهاشٍ في العالَم من حولهم. سيحدّقون في المروج القاحلة ويتساءلون عمّا جرى.

«انظر هناك! يا إلهي!».

«كيف حدث هذا؟».

«هذا ما انتهت عليه الحال إذًا...».

٤

وكما قضت الأشجار نحبها، كذلك فعلَ تشاو دي تشيوان.

توفّي عند الظهيرة، في اليوم الذي تلا قطع الشجرة الكبيرة. عشيَّة الليلة التي سبقت وفاته، طلب جدّي إلى عمّي: «هل تستطيع أن تذهب إلى بيت أهل لينغ لينغ وتحصل على سترتها الحريريَّة الحمراء؟ أريد أن أعطيها لتشاو دي تشيوان».

وافق عمّي على الذهاب إلى قرية لينغ لينغ التي تبعد قرابة ستة أو سبعة أميال عن قرية دينغ. كان بوسعه أن يذهب ويعود في الليلة نفسها، لكنَّه قرر المكوث ليلًا، وعاد في اليوم التالي. حين وصل إلى القرية

بحلول الظهر، كان تشاو دي تشيوان لا يزال على قيد الحياة. بينما كان يشاهد عمِّي وهو يعطي سترة لينغ لينغ الحريريَّة الحمراء لزوجته، ابتسم تشاو دي تشيوان، وأغمض عينيه، ومضى بهدوءٍ من هذه الحياة.

كانت الابتسامة لا تزال مرتسمة على وجهه حين أودعوه في النعشِ.

دُفن تشاو دي تشيوان وابتسامةُ السترة الحريريَّة الحمراء على وجههِ.

الكتاب الخامس

الفصل الأوَّل

١

عاش عمِّي ولينغ لينغ معًا. عاشا كزوجين، بلا خجل، وعلى مرأى الجميع في القرية.

كانا كالماء والرمال، كالبذورِ والتربة، كالين واليانغ، كقطبَي مغناطيس؛ موجبٍ وسالب. تدفَّق الماء فتشرّبته الرمال، ذرتِ الريحُ البذور فالتقفتها التربةُ في جوفها، اتّحد الين واليانغ معًا في كينونة واحدةٍ؛ مثلِ قطبَيْن متجاذبين بلا فكاك.

بعد حادث المدرسة، تعرَّضت لينغ لينغ للضرب من زوجها، وللشتائم من أهلِه، ثمّ أُعيدت إلى بيت والدتها. وبمجرَّد رحيلها شرعت عائلة دينغ شياو مينغ في البحث عن زوجةٍ بديلة للابن. شعر الجميع أنَّ الضربَ كان مبرَّرًا، وأنَّ لينغ لينغ كانت تستحقُّ ما لاقتْه: فهي لم تجلب الحمَّى إلى بيت زوجها فحسب، بل خانتْه مع ابن عمِّه. كان التصرُّف الأمثل هو ما قام به شياو مينغ الذي ما زال في منتصف العشرينيات من عمره ولم تصبْهُ العدوى، حيث طردها وهمَّ في البحث عن زوجةٍ

جديدة. إذا تمكَّن من العثور على امرأة مناسبة، فبوسعه الزواج مرَّة أخرى بعد وفاة لينغ لينغ أو أن يطلب إليها الطلاق ويعقد قرانه الجديد دون أن ينتظر شيئًا. كان أهل لينغ لينغ من العقلاء الصالحين، فحين أتوا لاصطحاب ابنتهم قدَّموا الاعتذار لأهلِ شياو مينغ قائلين: «نأسف لأنَّنا لم نحسن تربية ابنتنا على الوجه الصحيح. قد يكون الأفضل للجميع هو أن يتزوّج دينغ شياو مينغ من فتاة أخرى. وإن كان بحاجةٍ للمساعدة في دفع المهر، فسنعيد له هدايا الزفاف الخاصَّة بلينغ لينغ».

وهكذا بدأ أهلُ شياو مينغ رحلة العثور على زوجة جديدة لابنهم.

أمَّا والدا لينغ لينغ فقد اصطحبا ابنتهما إلى البيت وهما يتذمّران وينهالان عليها بالشتائم.

لكنَّ الربيع جاء باكرًا في ذلك العام وسارع الصيف في أعقابه. صار الطقس دافئًا، ثمّ غدا حارًّا، واستُبدلت بمعاطف الشتاء المبطّنة السترات الربيعيَّة أوّلًا والقمصان تاليًا. وعندما حلَّ الوقت الذي باتت فيه طبقة واحدة من الملابس كافية، عادت لينغ لينغ إلى بيت زوجها لإحضار ملابسها الصيفيَّة. وبينما كانت تخرج من الباب ومعها صُرَّة أغراضها، حدّقت حماتُها في الصرَّة المنتفخة وسألتها: «هل تأكَّدت من أنّك لم تأخذي شيئًا لا يخصُّك؟».

«نعم، متأكِّدة»، أجابت لينغ لينغ.

تابعت حماتها: «في غضون بعض الوقت سيجد شياو مينغ زوجةً جديدة. فإن كنتِ لا تزالين على قيد الحياة، ريثما يتمُّ ذلك، فعليكِ القدوم لمنحه الطلاق».

لم تقل لينغ لينغ شيئًا. بعد أن اجتازت الباب، استدارت لتنظر إلى البيت ذي الجدران المكسوَّة بالبورسلين الأبيض اللمَّاع. كانت الشقوق الفاصلة بين البلاطات مستقيمة وسوداء كأنَّها مرسومة بالحبر. بعد لحظات قليلة، شقَّت طريقها إلى خارج القرية.

وصلت إلى الطريق الإسمنتيّ خارج القرية. كان عبارة عن خطٍّ مستقيمٍ يعبر الحقول، ويرتفع قرابة نصف قدم عن التربة المحيطة به، مع وجود خنادق لتصريف المياه في كلا الجانبين. اختفى رتلا أشجار الحور على جانبي الخنادق. امتلأت الخنادق بالأعشاب والنباتات البريَّة التي تتمايل في مهبّ الريح. في هذا الوقت من العام، كانت سنابل القمح التي رفعت رؤوسها وشحذت أشواكها تنتصب بشموخ، وكانت الحقول ملأى بالمزارعين الذين يسقون محاصيلهم.

كان السير في الطريق الرئيس الخالي من الأشجار تحتَ شمس منتصف النهار الملتهبة أشبهَ باجتياز ممرٍّ من النيران. شعرت لينغ لينغ برغبة في حكّ البقع التي غزت وجهها جرَّاء الحرارة، لكنَّها لم ترغب في خدشها خوفًا من جرح جلدها. راحت تمسِّد وجهها برؤوس أصابعها، بلطفٍ، كأنَّها تداعب وجه رضيعٍ. سارت ببطءٍ، بلا وجهةٍ، تمسّد وجهها وعيناها شاخصتان على الرصيف أمامها. فجأة سمعت أحدًا ينادي باسمها؛ بصوتٍ ليس بالعالي ولا بالمنخفض. صوت بدا كأنَّه يسقط من الأعلى.

«لينغ لينغ...». كان صوت عمِّي.

توقّفت ورفعت رأسها. كان عمِّي يقف على جانب الطريق، على بعد عدّة خطوات منها. لم يختلف مظهره عمَّا بذاكرتها. ربّما زاد شحوبه

بعضَ الشيء؛ ربّما كان أقرب قليلًا إلى الموت. حدَّقا بعضهما ببعضٍ لوهلةٍ. سرعان ما تذكّرت لينغ لينغ أين هي، فتلفّتت بعصبيَّة حولها.

«وحدنا هنا»، قال عمِّي. «ولكن حتّى لو لم نكن كذلك، فليس ثمَّة ما نخشاه».

«ماذا تفعل هنا؟»، سألْته.

جلس عمِّي على جانب الطريق. «سمعتُ أنّك عدتِ، لذلك انتظرتُك هنا».

«ماذا تريد؟».

«تعالي اجلسي بجانبي».

تردّدت لينغ لينغ.

«تينغ تينغ غادرت البيت وعادت إلى قريتها»، أخبرها عمِّي.

جلست لينغ لينغ بجواره، كتفًا إلى كتفٍ.

وبعد صمتٍ مرتبك تحدَّث عمِّي. «عدتِ إذًا لأخذ ملابسك الصيفيَّة؟».

«اممم»، تمتمت لينغ لينغ وهي تهزُّ الصرَّة بين ذراعيها.

«وكيف صحّتُكِ؟».

«على حالها».

«وأنا أيضًا. لقد تمّكنتُ من اجتياز الشتاء ومعظم الربيع، لذا لا بُدّ أنّني سأستطيع الصمود خلال الصيف، وربّما لفترة أطول».

انتهت المحادثة، وظلّا صامتين لفترة من الوقت. ثمّ ابتسم عمِّي

وأمسك بيدها. رغم أنَّه لم يمضِ وقتٌ طويل على وفاة تشاو دي تشيوان، ولا على زيارة عمِّي لبيت أهلِ لينغ لينغ لأخذ سترتها الحريريَّة الحمراء، لكنَّهما تصرَّفا كشخصين لم يلتقيا منذ سنوات، اليدان متشابكتان، عينا أحدهما لا تفارق عيني الآخر، وأفكارهما الصامتة طيّ الكتمان. أدار عمِّي يدها، وتفحّص القشور الجافّة على معصمها وراح يخدشها بحنانٍ ولطفٍ. ارتعدت لينغ لينغ في انكماشٍ. سحبت يدها بعيدًا بعد أن ترقرقت عيناها بالدموع.

«لا ترحلي»، قال عمِّي فنظرت إليه لينغ لينغ مذهولة. «تينغ تينغ تريد الطلاق، وكذلك شياو مينغ. هذا يعني أنّ بوسعنا أن نكون معًا».

ظلَّت صامتة.

«كلانا ليس أمامه الكثير من الوقت»، قال وقد أدمعت عيناه. «يقول الجميع إنَّ الحمَّى ستبلغ ذروة شديدة بعد هذا الشتاء. لا علينا ممّا قد يحدث في هذه الحياة، المهمُّ أن نكون معًا في الموت. يمكن أن نُدفن معًا، جنبًا إلى جنبٍ، وسنبقى مترافقَيْن إلى الأبد».

رفعت لينغ لينغ رأسها من جديد. لمعت الدموع في عينيها مثل لآلئ كبيرة برَّاقة.

«لِمَ تبكين؟»، سألها عمِّي وهو يسمح دموعها. «طالما أنَّه لا مفرَّ من الموت، فلمِ نهتمُّ بما يقوله الآخرون؟ علينا أن نعيش معًا. أودُّ أن أرى كيف سيحاولون الوقوف في طريقنا. دعينا نعيش معًا وعلى مرآهم كلّهم. تينغ تينغ وشياو مينغ وكلّ أهالي القرية...».

استرق عمِّي ابتسامةً من بين الدموعِ. «ألا يريد كلٌّ من شياو مينغ

وتينغ تينغ أن يحصلا على الطلاق؟ دعينا نعيش معًا ونقيم دعاوى الطلاق».

«إذا عدتِ إلى البيت، فسيشعر والداك وأخوكِ بالأسف عليكِ، ولكن ماذا عن زوجة أخيكِ؟ إنّها تعلم أنَّك مصابة بالحمَّى، لذلك ستسيء معاملتكِ».

«بإمكانكِ الانتقال إلى بيتي. وإذا كنتِ لا تريدين أن تكوني قريبة ممّا له علاقة بتينغ تينغ، فبوسعنا العيش خارج القرية، في المبنى المجاور للبيدر. سأحضر بعض القدور والمقالي وأدوات الطبخ، وسيصبح بيتًا لا ينقصه شيء».

وهكذا انتقل عمِّي ولينغ لينغ للعيش معًا.

لقد عاشا معًا، بلا خجل، كزوج وزوجة. كعاشقَيْن في مقتبل العمر. كمجنونَيْن.

*

شرع عمِّي ولينغ لينغ في تحويل المبنى ذي الغرفتين المبنيّتَيْن من الطوب الطينيّ والقرميد إلى بيت. جلب عمِّي من بيته أطباقًا وقدورًا وملاءات وبطّانيات كي يتمكّنا من الإقامة بكلِّ راحة. كانت الحقول المحيطة بالقرية مقسَّمة إلى أراضٍ خاصَّة، بخلاف البيدر الذي ظلَّ مشتركًا، وقد تقاسمته قرابة عشر أسرٍ. فبعد تأسيس الحكومة الشيوعيَّة عام ١٩٤٩، قُسِّمت أراضي البيدر بين «فُرُق المعونة المتبادلة». وفي وقت لاحقٍ، عندما تشكلَّت كومونات الشعب، تقاسمت الأراضي «ألويةُ الإنتاج». والآن بعد أن حُلَّت الكومونات، وعاد القرويّون إلى زراعة أراضيهم الخاصّة،

جرى تقاسم البيدر بشكلٍ غير رسميّ بين مجموعات من الأسر. وعندما انهار الكوخ المسقوف بالقشّ المجاور لهذا البيدر، سارع أهالي القرية لبناء مبنى من غرفتين بطوب الطين والقرميد. وخلال مواسم الحصاد العامرة، حين تناوب القرويّون على دَرْس القمح، مثَّلَ المبنى ركنًا للراحة أو القيلولة. وخلال ما تبقَّى من العام، اُستُخدم مخزنًا للمعدَّات الزراعيَّة.

أمَّا الآن فقد أصبح البيتَ الجديدَ لعمِّي ولينغ لينغ.

أعدّا موقدًا مؤقّتًا في الغرفة الخارجيَّة التي تحوَّلت إلى مطبخ. ومن ألواح الخشب جهّزا سريرًا في الحجرة الداخليَّة التي غدت غرفة للمنامة. ركّبا أرففًا على الجدران وملآها بالأحواض والأوعية. ثبّتا السلاسل على الجدران بمسامير وملآها بعيدان الطعام. رتّبا القدور والأطباق والأواني الفخاريَّة. وأخيرًا، حين بات كلُّ شيءٍ في مكانه، وبات كلُّ ما يحتاجونه في متناول اليد، بدا المبنى الصغير المبنيُّ بطوب الطين مثل بيتٍ. مبنى يمكن تسميته بيتًا، مأوى يشعران فيه وكأنَّهما في البيت.

في البداية، كان عمِّي متحفِّظًا بشأن هذه الخطوة، لذا كان ينتظر حتّى حلول الظلام كي يتسلَّل عائدًا إلى بيته ويجلب أغراضه. ولكن بعد بضعة أيّام، عندما أدرك أنَّه مهما تخفَّى، فلن ينجو من أعينِ أهالي القرية، ضرب بحذره عرض الحائط وغامر بالخروج في وضح النهار. ما الذي يهمُّ حقًّا بعدما يقع الفأس بالرأس؟ كان مرتاحًا لتجاوزاته، مستسلمًا لمصيره. لذا لم يُخفِ حقيقة أنَّه كان ينقل الطعام والوقود والأثاث، وهي ضروريّات الحياة اليوميَّة، من بيته إلى البيدر. وحين صادف شخصًا حاول أن يستدرجه بالأسئلة، أجابه بلا مواربة.

«مرحبًا يا دينغ ليانغ! إلى أين أنت ذاهب بكلّ هذه الأشياء؟»، صاح به الرجل.

توقَّف دينغ ليانغ.

«وما شأنك بهذا؟ هل تراني أخذتُ شيئًا من أغراضك؟».

الآخر، الذي أسكته الردّ المفاجئ، فكَّر لوهلةٍ ثمّ تمتم: «ما الذي دهاك بحقّ الجحيم... كنت أودّ مساعدتك فحسب!».

«إذا كنتَ تودُّ مساعدتي، فخذ مرضي وهات جسدك السليم!».

«يا لَك من رجلٍ لا تُطاق...».

«أوه، حقًّا؟ لماذا؟».

«اذهبْ هيّا! أكمل طريقك!».

لكنّ دينغ ليانغ وقف حيثُ كان، دون أدنى نيَّة بالتحرُّك. «ولماذا تأمرني بالذهاب؟ وكأنّني واقفٌ في غرفة نومكَ».

عندما رأى الرجل أنَّ دينغ ليانع لن يتزحزح، لم يجرؤ على سؤاله عن أيّ شيء له علاقة بلينغ لينغ، وما كان أمامه سوى أن يغادر. لكنَّه لم يعد إلى بيته، بل ذهب مباشرة إلى دينغ شياو مينغ. بعد لحظات، خرجت حماة لينغ لينغ من بيتها بوجهٍ يشتعل غضبًا وشعرٍ أشعث. وجدت في طريقها عصا طولها متر وسمكها بحجم ذراع، التقطتها ولوّحت بها تهديدًا كأنّها هراوة، واندفعت بتهوُّر كزوبعةٍ في طريقها نحو البيدر. في أعقابها سار حشدٌ من الفضوليّين، معظمه من النساء والأطفال.

عندما وصلت أرض البيدر، أطلقت سيلًا من الشتائم الصاخبة: «لينغ لينغ! اخرجي أيّتها العاهرة! تعالي واجهيني يا مَن تعبرُ الشاحنة بين فخذيها!».

لم تخرج لينغ لينغ، بل عمّي هو من خرج من البيت المبنيّ بطوب الطين لمواجهة الحماةِ الغاضبة. عندما صار على بعد أمتار قليلة منها، توقّف ووضع يديه في جيبَيْه واتّخذ وضعيّة تحدٍّ: قدم إلى الأمام وأخرى إلى الخلف، بحيث كان رأسه متراخيًا إلى الوراء قليلًا. «إذا أردتِ شتم أحدٍ يا عمّتي فلتشتميني أنا»، قال بلهجةٍ لطيفة وابتسامة متكلِّفة تتسلَّل على شفتيه، «إذا أردتِ ضربَ أحدٍ، فاضربيني أنا. أنا الذي أغويتُ لينغ لينغ وأقنعتها بالمجيء والعيش معي».

حدَّقت المرأة بدينغ ليانغ. «لا. أخبرها أن تأتي في الحال!».

«إنّها زوجتي الآن، إن كان لديكِ مشكلة معها، فيمكنك حلّها معي».

«زوجتكَ!؟»، اتسعت عيناها ذهولًا. «ريثما يتمُّ طلاقها من شياو مينغ، فهي ما زالت زوجته! ما زالت زوجة ابني! انظر لعارك! ألا تخجل! أخوك كان رجلٌ له احترامه بين الناس، وأبوك قضى عمره معلّمًا... لستُ أفهم كيف يمكن أن يكون لديهما أخٌ أو ابن مثلك، بلا ذرّة من الشرف».

قهقه عمّي. «عمّتي، الآن وقد عرفتِ أنّي لا أملك ذرّةً من الشرف، فبوسعك ضربي وشتمي إن أردتِ. يمكنك أن تشتميني بقدر ما تريدين، وأن تضربيني حتّى الموت، ولكنّ هذا لن يغيّر حقيقة أنَّ لينغ لينغ ملكٌ لي. إنّها لي».

لم تعد حماة لينغ لينغ غاضبة فحسب، بل استشاطت كمدًا. قوسُ قزحِ الغضبِ، بطيف ألوانه المتدرّجة، اجتاج وجهها؛ فمن بياض الصدمة، إلى رماديّة الاحتدام، ومن حُمرة الحنق، إلى أرجوانيَّة الغِلّ. كأنَّ عمِّي وجَّه لها إهانة شخصيَّة، كأنَّه بصق في منتصفِ وجهها. ارتعشت شفتاها ويداها تحت وطأةِ الانفعال. في تلك اللحظةِ، لم يكن من المعقول ترك الأمر ينتهي عند هذا الحدِّ دون ضربٍ أو المزيد من الشتمِ. كان الصراخ الذي خرج من بين شفتيها غير مفهومٍ، ولكنَّ ذراعها المرفوعة عاليًا في الهواء وتلويحتها بالعصا الكبيرة، جعلت كلَّ شيء مفهومًا.

أخرج عمِّي يديه من جيبيه، وتقدَّم بضع خطواتٍ للأمام وجلس القرفصاء على الأرض أمامها، متذلِّلًا.

«هيّا يا عمّتي. اضربيني. اضربيني حتّى الموت إن كان هذا ما تريدينه».

ظلَّت يدها مرفوعة والعصا متجمِّدة في الهواء. إن كانت ترغب في ضربه، فها هو جاثمٌ على الأرض أمامها. ولكن هل هذا حقًّا ما كانت تريده؟ ربّما كانت شتائمها لغاية الاستعراض فحسب، وسيلة للتنفسِ عن غضبها وحفظ ماء وجهها أمام أهالي القرية. لو أنَّها لم تشتمه، فكيف كان لها أن تمشي بين الناس ورأسها مرفوع؟ كيف كانت ستجرؤ على العيش بينهم؟ لكن لا، لم تستطع أن تجبر نفسه على ضربه، بعد أن جثا أمامها على الأرض وتذلَّل على هذا النحو وهو يناديها «عمّتي».

غمرت شمس الربيع البيدرَ بضوء شاحبٍ شفّاف، تلألأت تحته سنابل القمح نديَّةً خُضرًا. وفي حقلٍ مجاور، كان هناك معزاة وحيدة ترعى

-فالماعز باتت ترفًا في هذه الأيّام، فمَن لديه القدرة والطاقة على تربيتها؟- أطلقت ثغاءً طويلًا رقيقًا راح يرفرف في الهواء كشريط من حرير.

جثم عمِّي على الأرض، مصالبًا ذراعيه على صدره، يرتقب انهيال الضرب عليه. لكنَّ ذلك لم يحدث. أنزلت الحماة عصاها والتفتت نحو القرويّين. «هل رأيتم؟ لا أدري كيف يمكن لدينغ ليانغ أن يعدّ نفسه رجلًا وهو يجثو على التراب أمامي حتّى أضربه من أجل تلك العاهرة القذرة التي أوقعته في حبالها».

ثم رفعت صوتها وتابعت: «رأيتم ذلك، صحيح؟ كلُّنا رأينا ذلك. علينا أن نذهب إلى المدرسة الآن ونحضر مَن فيها كي يروا الابن الذي ربّاه دينغ شوي يانغ. هذا الرجل الذي لا يجد غضاضة في أن يذلّ نفسه من أجل عاهرة رخيصة!».

وبعد أن سئمت من الصراخ والشتم، استدارت لتعود إلى القرية. لم تتوقف عن الصراخ حتى وهي تمشي، يتبعها حشد المتفرجين الذين تزايد عددهم في هذه الأثناء. ظلّوا يلتفتون نحو عمِّي، لقد رأوه ينهض ويقف على قدميه ببطءٍ. شاهدهم وهم يغادرون فراح يصرخ بصوت عالٍ: «حسنٌ يا عمّتي! لقد شتمتِني وأرقتِ ماء وجهي. أنا ولينغ لينغ سنكون دائمًا معًا، في الحياة والموت، سواء أحببتِ ذلك أم لا. ولا تظنّي أنّني سأريكم هذا الوجه اللطيف في المرة القادمة!».

منذ ذلك الحين، لم يلقِ عمِّي ولينغ لينغ بالًا لأيّ شيء. بين الحين والأخر، مدندنًا لحنًا سعيدًا، كان ينطلقُ إلى بيته ليجلب مقدارًا من الأغراض، ثمّ يتجه عائدًا إلى عشّ حبِّه.

كان أهالي القرية الأكبر سنًّا، الذين يتمتّعون ببصيرة صقلتها سنوات التجربة الطويلة، متعاطفين علنًا مع الزوجين الشابّين. وحين كان أحدهم يصادف عمّي في الطريق، كان يحدِّق فيه لوهلةٍ قبل أن يعرض عليه المساعدة. «ليانغ، هل أنتَ بحاجة لأيّ شيء؟ يمكنني أن أعيرك ما ببيتي»، قال له رجلٌ مسنٌّ ذات مرَّة.

توقَّف عمِّي، متأثرًا بهذا اللطف، وشكره على اهتمامه. قال والدموع تترقرق من عينيه: «هذا لطفٌ بالغ منك يا عمِّي. لدينا كلُّ ما نحن بحاجته. ومن جانب آخر، إن ساعدتنا فقد تصير أضحوكة على ألسن أهل القرية».

«دعهم يضحكون. العمر هو العمر، طال أم قصر. حين تكون على بعد خطوة من الموت، فما عليك سوى أن تعيش وأن تدع غيرك يعيش».

راح عمِّي يبكي، غير قادرٍ على حبس دموعه.

إن صادف أحد رجال القرية الأصغر سنًّا عمِّي وهو في طريقه إلى البيدر يتصبَّب عرقًا ويكابد لنقل حملٍ ثقيلٍ من الطعام أو الأثاث، كان يأخذ عنه الحمولة. وبّخه أحد الشباب قائلًا: «جسدك لا يقوى على حمل هذه الأشياء. إن كنت بحاجة لنقل أيّ شيء، نادِ لي فحسب».

ضحك عمِّي. «أستطيع أن أحملها. لم أصبح عديم الفائدة بعد».

ابتسم الرجل واقترب قليلًا. «اصدقني القول يا أخي... ألا تمنعك الحمّى من فعل ذلك الشيء مع لينغ لينغ؟ تعرف قصدي؟».

«لا على الإطلاق. نفعل ذلك مرتين كلّ ليلة»، قال عمِّي متفاخرًا.

توقَّف الرجل الذي تتدلّى الحمولة عن كتفيه مندهشًا. «حقًّا؟».

«بالطبع. وإلّا فلماذا كانت لينغ لينغ على استعداد لتلطيخ سمعتها وجاءت للعيش معي؟».

مقتنعًا، هزَّ الشاب رأسه في ذهول.

بمجرَّد وصولهما إلى البيدر، استولى الصمت على الشاب حين رأى لينغ لينغ تعلِّق الغسيل أمامه، فلم يستطع أن يزحزح عينيه عنها. كشفت لينغ لينغ، من الخلف، عن روعة جسدها الممشوق: خصر رشيق وردفين مكتنزين وكتفين قوّيتين ينسدل عليهما الشعر الحالكُ الناعم كالشلّال. وحين لاحظ عمِّي أنَّ زائره يحدِّق مسحورًا في شعر لينغ لينغ، دنا منه وهمس في أذنه: «مشّطتُه بيديّ هاتين».

أخذ الشاب نفسًا عميقًا والتفت لينظر إلى عمِّي وقال: «وقتًا طيّبًا!».

ضحك عمِّي. سمعت لينغ لينغ الصوت خلفها، لكنّها واصلت نشر الغسيل والقيام بالأعمال البيتيَّة التي أظهرت مفاتنها للزائر. كانت لينغ لينغ تفوق سونغ تينغ تينغ، زوجة عمِّي، من كلِّ النواحي. قد لا يكون وجهها االمستدير يتمتّع بجذابيَّة وجه تينغ تينغ البيضاويّ قليلًا، لكنَّها كانت فتيَّة، في أوائل العشرينيات من عمرها، وكان جسدها يفيض بحيويَّة الشباب من الرأس وحتى أخمص القدمين. كانت تتمتّع بطاقة الفتوّة التي تفتقر إليها تينغ تينغ.

عندما رأى عمِّي أن الشاب لم يرفع عينيه عن لينغ لينغ، مأخوذًا بالكامل، ركله على مؤخرته. احمرَّ الشاب خجلًا، وكذلك لينغ لينغ. وعندما تذكَّر الحمولة التي على كاهله، دخل إلى البيت ليضع الأغراض. سكبت لينغ لينغ كوبًا من الماء للزائر، ولكن بعد أن تلبَّس وهو يحدِّق

إليها بشكلٍ صارخ، وجد حرجًا في الجلوس وشرب شيء ما. اختلق عذرًا وغادر بعد أن رمق لينغ لينغ بنظرة أخيرة. اصطحبته لينغ لينغ إلى الباب، ورافقه عمِّي إلى الخارج.

«لقد أحسنتَ عملًا يا أخي. لو كان لدي امرأة كلينغ لينغ فلن يهمّني إن أصابتني الحمَّى مرة ومرّتين»، قال الشاب حين وصلا إلى حافة البيدر.

«حين تعلم أنَّك ستموت قريبًا، عليك أن تنتزع الحبّ انتزاعًا، بكل ما لديك من قوّة، أليس كذلك؟»، ابتسم عمِّي.

«ينبغي لك أن تتزوّجها. وبعدها بوسعك أن تعود إلى بيتك في القرية وتعيشا معًا بشكلٍ لائق»، قال الشاب بجدِّية.

فيما كان عمِّي يشاهد زائره يمشي بعيدًا، تلاشت الابتسامة على وجهه. بدا تائهًا في أفكارِه.

٢

ذات يوم، بينما كان جدِّي يتجوّل في غرفته، جاء عمِّي ليزوره. كانت بجعبته بعض الأخبار؛ فقد أراد أن يتزوج بلينغ لينغ. قرَّر عمِّي تطليق زوجته، وكذلك قرَّرت لينغ لينغ مع زوجها. لقد جاء أيضًا لالتماس خدمة.

يبدو أنَّ هناك الكثير بين عمِّي وجدِّي ليتحدّثا بخصوصه.

«أريد الزواج من لينغ لينغ يا أبي»، أعلن عمِّي مبتسمًا.

حدَّق جدِّي به مندهشًا. «ولديك الجرأة كي تأتي إلى هنا!».

كانت هذه هي المرّة الأولى التي يزور فيها عمّي جدّي، أو يتحدّث معه، منذ أن انتقل للعيش مع لينغ لينغ قبل أسبوعين. ورغم أنّه جاء لمناقشة مسألة حسّاسة، إلّا أن عمّي كان يبتسم الابتسامة الكسولة المعتادة نفسها. حتّى ردة فعل جدّي الغاضبة لم تكن كفيلة بمحوِ تلك الابتسامة عن وجهه.

«أريد الزواج من لينغ لينغ»، كرَّر عمي وهو ينحني قليلًا نحو الطاولة.

«لا فرق بينك وبين أخيك»، نظر جدّي شَزْرًا إلى ابنه الأصغر. «الموت خيرٌ لكما».

اعتدل عمّي وقد تبدَّدت ابتسامته. «أنا جادٌّ في ما أقوله يا أبي. سوف أتزوّجها».

حدَّق جدّي غيرَ مصدِّق. وبعد لحظات، قال وقد زمَّ شفتيه: «هل جُننت؟ كم من الوقت تظنُّ أنَّك ستعيش؟ أو كم من الوقت بقي أمام لينغ لينغ حتّى؟».

«أين الجنون في ذلك؟ وما أهميّة الوقت المتبقي لدينا؟».

«أتظنُّ أنَّك ستعيش حتّى الشتاء القادم؟».

«على الأغلب لا. ولهذا السبب أنا في عجلة من أمري للزواج منها. الأيّام باتت معدودة».

طال صمت الجدّ لوهلةٍ بدت كالأبد.

«كيف يمكنك أن تتزوّجها؟»، سأله.

«سأزور تينغ تينغ وأطلب منها الطلاق». حين تحدَّث عمِّي، أضاءت وجهه ابتسامة متعجرفة، كأنَّه حقَّق انتصارًا ما أو قال شيئًا ذكيًّا للغاية.

«هذه المرّة أنا سأطلب الطلاق، وليس هي»، قال وقد اتسعت ابتسامته.

أصبح وجهه جديًّا. «لكن لينغ لينغ تخشى أن تطأ بقدميها بيت أهلِ زوجها، لذا أريد منك أن تتحدَّث مع شياو مينغ وأهله كي يمنحوها الطلاق».

لفترة طويلة، طويلة جدًّا، لم يتفوَّه جدِّي بكلمة. وبعد دهرٍ من الصمت، بل أكثر من دهرٍ، تفوَّه جدِّي من خلال شفتيه المزمومتين. كانت كلماته باردة وقاسية.

«لن أفعل ذلك. أشعر بخجلٍ شديدٍ».

غادر عمِّي. وفي طريقه، قال وقد شفع كلماته بغمزةٍ وابتسامة: «إن لم تفعل ذلك، فسأرسل لينغ لينغ كي تركع أمامك وتتوسّل إليك».

٣

وهذا بالضبط ما فعلته لينغ لينغ.

جاءت إلى غرفة جدِّي، وجثت على الأرضِ أمامه.

«أرجوكَ يا عمِّي»، قالت. «أرجوك أن تساعدنا. دينغ ليانغ لن يعيش حتّى الصيف. حتّى لو فعل، فلن يصمد حتّى الخريف أو الشتاء. القيح ملأ التقرُّحات التي غزت مغبنيه. إنّها ملتهبة بشدّة لدرجة أنّني أضطر لقضاء ساعات كلّ يوم وأنا أمسحها بمنشفة دافئة».

«أنا أيضًا لا أخالني سأتمكّن من إتمام هذا العام. شياو مينغ وأهله لا يريدونني، وعائلتي كذلك. عندما عدتُ إلى بيت أهلي، كان أخي وزوجته وحتى أبي يتجنّبونني كالوباء. ولكن ألا يجدر بي أن أستمرّ في العيش ريثما تحين لحظة موتي؟ أليس صحيحًا؟ إلى أين يأتي يوم وفاتي، عليّ أن أجد سببًا يدفعني لمواصلة الحياة».

«تنيغ تينغ تريد الطلاق، وكذلك شياو مينغ. حتّى والدا شياو مينغ موافقان على ذلك. طالما أنّ هذا ما يريده الجميع، فلماذا لا نمضي به ونجعله أمرًا واقعًا؟ وبهذا يمكنني أن أتزوج من ابنك. حتّى لو كان ذلك لبضعة أشهر فقط، فعلى الأقلّ سيكون زواجنا قانونيًا وعندما نموت، يمكن أن نُدفن معًا شأننا شأن الأشخاص المحترمين».

«عمّي، أريد أن أناديك أبي ولو لمرة واحدة قبل أن أمضي للأبد. عندما أموت، أريدكَ أن تدفنني بجوار ابنك. نحن نحبُّ بعضنا، وينبغي أن ندفن كزوج وزوجة، كأسرة. وطالما كنتُ أنا برفقته، فلن تقلقَ بشأنه بعد الآن أبدًا. وحين ترحل أنت عن هذه الدنيا، بعد أن تبلغ عامك المئة أو أكثر، أعدكَ أن أكون زوجة ابنك في الحياة الأخرى، وسأبذل قصارى جهدي للاعتناء بك وبزوجتك».

«أرجوك يا عمي... تحدَّث إلى شياو مينغ وأهله. بصفتي امرأة تحبُّ ابنك، بصفتي زوجة مستقبليّة لابنك، أتوسَّلُ إليك... مستعدّة لأجثو أمامك، لأركع على الأرض، من أجل أن تساعدنا فحسب...».

مع هذه الكلمات، ضربت لينغ لينغ رأسها بالأرض، مؤدية طقس الخضوع.

مرّة. مرّتين. ثلاث.

لم تتوقّف حتى نالت موافقة جدّي على المساعدة.

الفصل الثاني

١

أمسية صيفيَّة باردة وعذبة. على امتداد السهل، لم يكن أحدٌ يريد النوم. كان من الخسران بمكانٍ البقاء في الداخل والغرق في النوم بينما تتألَّقُ الأمسية الصيفيَّة بهذا البهاء. جلس سكَّان قرية دينغ وضيعة الصفصاف وكل القرى الأخرى في السهل، الأصحّاء منهم أو المرضى، على عتبات بيوتهم أو في ساحة القرية، يتجاذبون أطراف الحديث، عن الماضي والحاضر، يثرثون عن شؤون الآخرين، ويتنقّلون من موضوعٍ إلى آخر وهم يتلذّذون بنسيم الليلِ العليل.

كان عمِّي ولينغ لينغ أيضًا يستمتعان بهذه الأمسية الجميلة. جلسا معًا خارج بيتهما الصغير، المبنيّ من طوب الطين والواقع عند البيدر. القرية قابعة في جهةٍ، والمدرسة على الجهة الأخرى وبيدر القمح في منتصف المسافة بينهما تقريبًا. يفصله أقلّ من ميلٍ عن كلٍّ منهما، محتلًّا نقطة الوسط الهادئة.

أطلقت الأضواء البعيدة في كلا الاتجاهين وهجًا أصفر خافتًا، ووميضًا كامدًا بدا أشدّ سطوعًا، بطريقة ما، من نورِ القمر والنجوم. لم يكن

هذا البيدر ذا علاقة باسمِهِ إلا في موسم حصاد القمح، ففي بقيّة العام لم يكن أكثر من فسحةٍ ممتدّة من التراب، مساحة فارغة لا يطؤها أحد.

في تلك الليلة، بدا القمر كأنّما يطفو فوق الرؤوس. بالنسبة لأهالي القرية، حسبوه معلَّقًا فوق بيوتهم تمامًا. ولكن، من جهةِ البيدر، بدا متدلّيًا فوق السهل، يغمر الأرجاء بضوءٍ من ألوانٍ مائيَّة. تحت ذلك القمر الشاحب، كان السهل بحيرة واسعة ذات شطآن متوارية. مسطّحة، وهادئة وعاكسة. وحين ينبح كلبٌ في القرية، كان الصوتُ يموِّجُ صمتَ السهلِ مثل سمكة تثب إلى سطح الماء. ومن الحقول المحيطة جاء حفيف سنابل القمح الخافت شبيهًا بخرير الماء إذ يتدفّق في تربة رمليَّة.

جلس عمِّي ولينغ لينغ في الخارج يستمتعان بالأمسية اللطيفة والنسيم الرقيق، والأهمّ من ذلك كله، بصحبتهما اللذيذة.

«تعالي اجلسي هنا، بجانبي»، قال عمِّي.

قرّبت لينغ لينغ كرسيّها، بحيث باتت تجلس أمامه.

هناك، خارج بيتهما الصغير وسط البيدر، جلسا وجهًا لوجه، يحدِّقانِ بعضهما ببعضٍ. انحنيا إلى الأمام حتى تلامس وجهاهما. كانت ملامحهما بالغة الوضوخ تحت ضوء القمر، وأنفُ كلٍّ منهما يلقي ظلًّا خافتًا على سائر الوجه. حين يزفر أحدهما أنفاسه، كان الآخر يحسُّ بالهواء يدغدغ خديّه.

«هل أعجبتكَ المعكرونة التي أعددتُها؟»، سألتْه.

«كانت شهيّة جدًا. أشهى بمئة مرّة من تلك التي كان تعدُّها تينغ تينغ»، أجاب عمِّي.

بينما كان يتحدَّث، خلع عمِّي حذاءه، وأراح قدميه على فخذي لينغ لينغ. متنهدًا من السرور، أرجع رأسه ونظر إلى السماء الشاسعة الملأى بالنجوم. بمداعبةٍ ومرحٍ راح يفرك قدميه على جسدها، وقرصها بأصابع قدميه. ثمّ قال وهو يتنهّدُ: «كان من الأفضل لنا لو تزوّجنا قبل سنوات».

«أفضل من أيّ ناحية؟».

«من كلِّ النواحي».

عدّل عمِّي جلسته، وحدّق في عيني لينغ لينغ، نظر إليهما بعمق، مثل رجلٍ يبحث عن شيء ما في قاع بئر عميق. ظلّت بلا حراك، سامحة له بأن يتملَّى فيها. تحت ضوء القمر الذي صبَّ نوره على جانب واحدٍ منها، بدت كامرأة تتخذ وضعيّة كي يلتقطَ لها صورة. كانت ملامحها هادئة، لكنّ يديها مشغولتان بتدليك ساقي عمِّي وفرك جلده ومنحه كل الراحة التي بوسعها أن تقدّمها له. كل الراحة التي عليها أن تقّدمها له. ورغم صعوبة تمييز ذلك تحت ضوء القمر، لكنَّ وجهها احمرَّ بشكلٍ طفيف. بدت خجلى كأنَّ نظرات عمِّي قد جرّدتها من ملابسها.

«من حسن الحظّ أننا أُصبنا بالحمَّى»، قالت.

«لماذا؟».

«لولاها، كنت سأبقى زوجة لشياو مينغ، وستكون أنت مع تينغ تينغ. كان من المستحيل أن نكون أنا وأنت معًا».

فكَّر قليلًا. «لا أظنُّ ذلك».

للحظة، شعر كلاهما بامتنانٍ للحمَّى التي جمعتهما معًا. قرّب كلٌّ منهما كرسيّه، وواصلت لينغ لينغ تدليك ساقيه.

وبعد أن انتهت، أزاحت ساقيه من حجرها وساعدته على ارتداء حذائه. ثمّ خلعت حذاءها ووضعت ساقيها في حجره، باحتشام ودون حركات خليعة. بدأ يدلّك ربلتيها، ثم انتقل إلى كاحليها قبل أن يعود إلى ركبتيها وفخذيها.

وفي كلّ مرة كان يزيد ضغط يديه، ويسألها: «أتتألمين؟».

«قليلًا»، تجيب.

«والآن؟».

«ألطف».

تدريجيًّا، أدرك عمِّي ما تعنيه لينغ لينغ، وعرف أين عليه أن يطبّق ضغطًا كبيرًا وأين عليه أن يخفّف. عندما سحب بنطالها، لمعت ساقاها في ضوء القمر مثل عمودين ناعمين، برّاقين، من اليشم. كانت ساقاها شاحبتين وطريّتين، نديّتين ورقيقتين، خاليتين من القروح وعلامات الحمَّى. بحماسة وخرق، راح يدلِّك ساقيها ويداعبهما، فيما يستنشق عبقَ جسدها الشهيِّ.

«هل تشعرين بالراحة؟»، سألها.

ابتسمت. «جدًّا».

بدت ملامح عمِّي رصينة. «أريد أن أسألك سؤالًا جادًّا يا لينغ لينغ؟».

رفعتْ رأسها. «أسمعُك»، قالت وقد تلاقت عيناهما.

«وعليك أن تقولي الحقيقة»، أضاف.

«اسألني!».

فكَّر للحظة. «هل تعتقدين أنني سأعيش حتَّى الصيف؟».

مع إيماءة خاطفة قالت: «ما هذا السؤال؟».

«إنَّه مجرَّد سؤال».

«ألا تعلم ما يقوله أهالي القرية؟ أنَّك إذا صمدت خلال الشتاء، فبوسعك أن تعيش عامًا آخر؟».

استأنف تدليك ساقيها. «رأيتُ في الأيَّام القليلة الماضية أحلامًا عديدة... كانت أمِّي تناديني».

مندهشةً، استقامت لينغ لينغ على كرسيها. أزاحت ساقيها من حجر عمِّي ودسَّت قدميها في الحذاء، ثم نظرت إليه بقلقٍ، كأنّها تحاول اكتشاف معنى كلماته. استجمعت شجاعتها وسألته: «وماذا قالت؟».

«قالت إنّها تشعر بالبرد حين تنام رغم أنَّ الجوّ حارّ. قالت إنَّ ساعةَ أبي لم تحن بعد، وطلبت إليّ الاستلقاء في السرير بجانبها كي أدفِّئ قدميها».

ظلَّت لينغ لينغ صامتة، تفكِّر في ما قاله عمِّي.

ظلَّ عمِّي صامتًا، يفكِّر في ما قالته أمُّه في الحلم.

أخذ الصمتُ الموحش يمتدُّ أكثر فأكثر. وبعد برهة، رفعت لينغ لينغ عينها لتنظر إلى عمِّي.

«متى توفّيت أمُّك؟».

«في العام الذي بدأ فيه بيع الدم».

«العام نفسه الذي ماتَ فيه والد زوجي».

«كيف مات؟».

«بالتهاب الكبد».

«هل أُصيب به جرّاء بيع الدم؟».

«لستُ متأكّدة».

غرق الاثنان في الصمت؛ صمت الموت المُطبق. كأنَّ إنسانًا واحدًا لم يبقَ على وجه الأرض، ولا حتّى هما. كأنَّما الجميع قد ماتوا ودُفنوا. كأنَّما لم يبقَ سوى الرملِ والتراب والنبات والشجر وصرير الحشرات في أماسي الصيف والقمر الساطع من علٍ. تحت الضوء الفضيّ، كان صرير الحشرات الخافت قادمًا من الحقول. بالإمكان سماع خشخشة الديدان المتحرِّكة في جوف الأرض، كأنَّها تشقُّ طريقها بينَ صدوعِ نعش. صوت الوقوف عند القبرِ، صوت يبعث القشعريرة في العمودِ الفقري وينخرُ العظام. كهبّة ريحٍ باردةٍ، تتغلغل بين الجروح والمفاصل، لتنسلَّ إلى لُبِّ العظامِ. كان الناس ليرتعشون من هذا الصوت، غير أنَّ لينغ لينغ وعمِّي اهتزَّا على نحوِ طفيفٍ فحسب؛ فقد تحدَّثا عن الموت مرارًا، وما عادا يخشونه.

تبادلا النظرات.

«لقد تأخَّر الوقتُ».

«هيّا نخلد للنوم».

دخلا إلى غرفة نومهما وأغلقا الباب.

سرعان ما صارت غرفة النوم دافئة برائحتهما. وثيرة مثل ملاءاتٍ مغسولة ومنشَّاة حديثًا، بهيجة مثل سرير عروسَيْن.

لقد كانت أمسية عذبة من أماسي الصيف الأولى، أمسية منعشة وعليلة. استمتع عمِّي ولينغ لينغ بالأمسية شأنهما شأن كلِّ أهالي القرية الآخرين. وبينما كانا يمارسان الحبّ في الغرفة المضاءة بالشموع، سألتْه لينغ لينغ فجأة: «ليانغ، هل أنا الشخص الوحيد الذي تفكِّر فيه الآن؟ هل أنا الوحيدة في قلبك؟».

«بالطبع أنتِ كذلك».

«لا أظنُّ ذلك».

«كم سأكون أحمق لو كنتُ أفكِّر بسواكِ الآن».

«لديّ طريقة تجعلك تنأى بأفكارك عن أمكّ وأحلام الموت بحيث لا تفكِّر إلّا بي».

«وما هي الطريقة؟».

«اعتبرني أمّك، لا لينغ لينغ. نادِني «أمّي»... لعلَّك تكفّ عن الحلمِ بها والقلقِ بشأنِ الموت».

توقَّف عمِّي عمَّا كان يفعله وحدَّق بها.

زحزحت لينغ لينغ جسدها من تحت جسده ثمّ جلست على السرير.

قالت وهي تنظر في عينيه: «لقد مات أبي منذ عشر سنوات، كما

حال والدتك. كلانا فقد أحد أبويه. منذ الآن فصاعدًا، ستكون أبي وسأكون أمَّك».

احمرَّت لينغ لينغ خجلًا. لم تكن خجولة ممّا كانا يفعلانه، بل لأنَّها عبَّرت عمَّا يعتمل بداخلها أخيرًا. لم يكن خجلًا بسبب الإحراج، بل بسبب الجدِّية. ورغم أنَّ لينغ لينغ تتصف بالحياء في حضور الآخرين وكثيرًا ما تتحدَّث وقد أخفضت رأسها، لكنَّ عمِّي كان يعرف أنَّ شخصيّتها الحقيقيَّة مختلفة كلّ الاختلاف. حينما يكونان بمعزلٍ عن الآخرين، يتلاشى خجلُها وتحلُّ مكانه نزعةٌ جامحة ومغامِرة. وفي بعض الأحيان، كانت أشدَّ جموحًا من عمِّي.

لأنَّها لا تزال صغيرة، في أوائل العشرينيَّات من عمرها.

لأنَّها ستموت عمَّا قريب.

لأنَّ كلَّ ليلةٍ وكلَّ ثانيةٍ وكلَّ ذرَّةٍ من السعادةِ هي جزء مهمٌّ لا يتجزَّأ من حياتها.

رمت لينغ لينغ أغطية السرير، كاشفةً عن جسد عمِّي العاري. جلست على حافّة السرير، تبتسمُ ابتساماتٍ شيطانيَّة، كطفلٍ يتلهَّى بلعبة. «منذ الآن فصاعدًا يا لياانغ فلتنادِني ماما، سأحبُّك مثلما تحبُّ الأمُّ، سأفعل كلَّ ما تريد مني، حتّى لو طلبتَ أن أغسل لك قدميك. وسأناديكَ بابا، وعليكَ أن تحبَّني مثلما يحبُّ الآباء، وتفعل كلَّ ما أريدُه منك، كما فعل أبي حين كان على قيد الحياة».

انحنت لينغ لينغ نحو عمِّي وحدَّقت فيه مثل طفلٍ مدلَّل يتوسَّل لجذب الانتباه. ثمَّة ظلٌّ لابتسامةٍ على وجهها، وإيماءة ترقُّب، كأنَّها لا

تطيق الانتظار حتّى تناديه «بابا»، أو يناديها «ماما». راحت تمسِّدُ جلدَه برؤوس أصابعها، وتمرّر لسانها على لحمِه. كانت لمساتها مثل نفحاتٍ من ريحٍ باردة تهبُّ على جلده؛ تدغدغه، تثيره، توخزه. تلوَّى عمِّي غير قادرٍ على تحمُّل هذا الإحساس. كان عالقًا بين رغبته بالضحكِ وبين رغبته بأن يحشر جسدها تحت جسده.

«أيَّتها اللعوب».

مكتبة
t.me/soramnqraa

«أيُّها الشيطان».

«يا لكِ من مشعوذة فاتِنة».

«يا لكَ من ساحرٍ مُحتال».

«ماما... يا ماما... أريد أن أفعلها».

تجمَّدت لينغ لينغ، كأنَّها لم تتوقَّع أن يستخدم الكلمة حقًّا. ماما. بدت ذاهلة لأنَّه قالَها، وربَّما خائفة بعض الشيء. رفعت رأسها لتنظر إليه، وراحت تبحث في وجهه عمَّا يدلُّها على أنَّه يقصد ما يقوله حقًّا، أم أنَّه يزيِّف الكلام فحسب. لكنَّ عمِّي كان يبتسم تلك الابتسامة المعتادة نفسها. الابتسامة الكسولة والحمقاء. بصفاقة، ولكن مع لمسة من الصدق. لم تكن لينغ لينغ متيقّنة من أنَّها أحبَّت ما رأته في وجهه، وحين مدَّ يده ليلمسها، نأت بلطفٍ. لم يتحمَّل عمِّي ذلك؛ كان يريد أن يحصل عليها. اضمحلَّت ابتسامته وصارت ملامحه جادّة. تمعَّن بها قليلًا قبل أن يفتح فمه ويقولها من جديد:

«ماما...».

في البداية، لم تستجب لينغ لينغ. اغرورقت عيناها بالدمع، ولم

تستطع كبح نفسها عن البكاء. وبعد لحظات، مدَّت بصمتٍ يدَها إلى يد عمِّي، اليد التي دفعتْها بعيدًا للتوّ، ووضعتها بهدوءٍ على صدرها. شيءٌ من قبيل المكافأة.

بعدها بوقتٍ طويل، ظلَّت الغرفة هادئة باستثناء الأصوات التي نجمت عنهما. تنهُّدٍ وتأوُّهٍ. صرير السرير الإيقاعيّ، أنين الخشب تحت ثقلهما، كأنَّ ساق السرير قد انكسرت أو كأنَّ السرير على وشك الانهيار. كان كلٌّ منهما منغسمًا في شغفه المجنون. ممارسة الحبِّ رغم التنائي.

سقطت الأغطية عن السرير، وتناثرت الملابس على الأرض لكنَّ أحدًا لم يلقِ بالًا أو يلاحظ حتّى. وحين انتهى الأمرُ، كان كلُّ شيء على الأرض.

عندما استيقظت لينغ لينغ، كانت الشمس قد أشرقت عاليًا في السماء. استغرقت لحظةً لتدرك أنَّها لم تمت أثناء معركةِ الليلة السابقة، المعركة الجنونيّة التي أنهكتها تمامًا. كان الأمر شبيهًا بالموت في الحلم ثم الاستيقاظ عند صباح اليوم التالي لتجد نفسك لا تزال على قيد الحياة.

استيقظت لينغ لينغ قبل عمِّي الذي كان يملأ الغرفة بشخيره المزعج. اكتست وجنتاها بلونٍ قرمزيٍّ داكنٍ إذ راحت تستذكر الجنون المحموم لليلة السابقة، كيف كان يناديها «ماما» وتناديه «بابا»، وكيف فعلا كلَّ تلك الأشياء، وكيف صرخا ونعتا بعضهما بعضًا بكلِّ تلك النعوت. مستلقيةً بجوار عمِّي النائم، تفكِّر في الليلة الماضية، شعرت لينغ لينغ بالخجل وابتسمت. نهضت من السرير بهدوء واتّجهت نحو الباب لتفتحه. ضربها شعاع الشمس بكاملِ قوَّته، وجعلها تترنَّح، فتشبّثت بإطار الباب لكيلا

تسقط. عندما استعادت توازنها، عرفت من موقعِ الشمسِ في السماء أنَّ الوقت يشارف على الظهيرة. في الحقول المحيطة كانت سنابل القمح الذهبيَّة طويلة ومكتنزة، تملأ الهواء برائحتها الفوَّاحة.

كالعادة، كانت قرية دينغ غارقة في صمتها وسكونها. لمحت لينغ لينغ زمرةً من الناس قادمين من الاتجاه المقابل، مجموعة من القرويّين يحملون المجارف والحبال وأعمدة الخشب. يبدو أنَّهم في طريق عودتهم إلى القرية. ارتدى بعضهم قبّعات جنائزيَّة وثياب حدادٍ، غير أنَّ تعابير وجوههم المتخشبّة والصامتة لا تنمُّ عن حزنٍ أو فرح. اثنان من الرجال فحسب كانا يضحكان ويتحدّثان أثناء سيرهما. استطاعت لينغ لينغ أن تسمع مقتطفاتٍ من حديثهما حملتْها الريح: *لا يغرَّنك الطقس الجميل. من المؤكّد أن القمح ينمو بشكلٍ جيّد الآن، ولكن بحلول الخريف، سيحلُّ الجفاف... من الذي قال لكَ ذلك؟ هذا ما تقوله الروزنامة. بحلول الشهر القمريِّ السادس سيأتي الجفاف...*

عندما انعطف موكب القرويّين حول زاوية البيدر، استطاعت لينغ لينغ أن تميّز بعضًا منهم؛ كانوا من جيران دينغ شياو مينغ. كانوا أصدقاءها وجيرانها أيضًا حين كانت تعيش في بيت شياو مينغ. وقفت عند باب البيت الصغير، ونادت لأحد الرجال قائلة:

«مرحبًا يا عمِّي! مَن مات؟»، صاحت.

«تشاو شيو تشين»، أجاب الرجل.

اعترتها الصدمة. «لكنّني رأيتُها قبل بضعة أيَّام في القرية، كانت قادمة من المدرسة تحمل كيسًا من الأرزّ!».

«حسنٌ، تعرفين أنَّها مصابة بالحمَّى منذ أكثر من عام، ويا لحسن حظّها أنَّها استطاعت الصمود حتّى هذا الوقت. غير أنَّها ماتت لهذا السبب الذي قلتِه أنت، لأنَّها أحضرت كيس الأرزّ إلى بيتها. حالما وضعت الكيس عند الباب، وبمجرَّد أن أدارت ظهرها، هجم أحد خنازيرها على الكيس والتهمه. تعرفين شدّة مزاجها... لقد جُنَّت غضبًا من ذلك الخنزير، وراحت تطارده في الفناء وانهالت عليه بالضرب. ضربته وضربته حتّى كسرت ظهره. لكنَّ ذلك أرهقها هي، نعم لقد أنهكها. على إثر ذلك حدث معها نزيف داخليّ وراحت تسعل دمًا غزيرًا، وفي الليلة قبل الماضية توفّيت».

امتقع وجه لينغ لينغ بلون السقمِ الرماديّ. شعرت بأنَّها تنزف من الداخل، وقد امتلأ بطنها بالدم. باحتراسٍ وتردُّد مرَّرت لسانها على شفتيها ولم تجد طعمَ الدم. اطمأنَّت لذلك لكنَّ قلبها ظلَّ يخفق بقوَّة، يدقُّ جدران صدرها، وكان لزامًا عليها أن تستند إلى الجدار.

«ألم تبدئي إعداد الغداء؟»، سألها الرجل.

«كنتُ على وشكِ البدء».

تابع موكب الجنازة طريقه. حين همّت لينغ لينغ بالاستدارة والعودة إلى داخل البيت، لمحت زوجها في ذيل الحشد. كان يحمل مجرفة وبدا أنَّه يفتعل التخلُّف عن الآخرين. أرادت أن تسرع في الدخول ولكنّ الأوان قد فات، فقد رآها بالفعل. وكان عليها أن تقول شيئًا ما.

«هل جئت للمساعدة في الدفن؟»، صرخت.

حدَّق شياو مينغ في وجهها. «لقد ماتت شيو تشين وهي تحظى

بعائلة وأصدقاء وجيران يهتمّون لأمرها. أمّا أنتِ فليس لديكِ أحد، وتعيشين هنا كالمنبوذة. كان يجب أن تكوني محلَّها». رفع صوته. «كان يجبُ أن تموتي منذ وقتٍ طويل!».

ضربتها كلماته الحانقة كعيارٍ ناريٍّ. وقبل أن تتمكّن من استجماع كلماتها للردّ، كان قد تجاوزها مسرعًا للالتحاق بالحشد.

وقفت لينغ لينغ ذاهلة، تراقبه وهو يختفي بعيدًا باتجاه القرية. وبعد لحظات، استدارت ودخلت البيت بخطى بطيئة. وجدت عمّي مستيقظًا، يجلس على حافة السرير ويرتدي ملابسه.

اغرورقت عيناها بالدمع. «دعنا نفعل ذلك حقًّا»، قالت بصوتٍ متنهّدٍ. «دعنا نتزوّج في أقرب وقتٍ ممكن ثمّ نعود إلى القرية، حسنٌ؟ لمرّة واحدة قبل أن نموت، أريدُ أن نكون زوجين محترمين. عِدني بذلك... يا بابا».

الفصل الثالث

١

بعد مدّة ليست بطويلة، ذهب عمِّي ليطلب إلى زوجته الطلاق. كانت تينغ تينغ تعيش في مسقط رأسها بقرية سونغ الواقعة على بعد خمسة أو ستة أميال من قرية دينغ. رافقته لينغ لينغ في الرحلة التي قاما بها سيرًا على الأقدام وجلبا معهما كيسًا من المأكولات الخفيفة لابن عمِّي، جون. دخل عمِّي القرية بمفرده وانتظرته لينغ لينغ في ظلّ شجرة على مشارف القرية.

بعد أن جلس عمِّي وزوجته التي هجرته، وحدهما، في غرفة المعيشة ببيت أهلها، قال لها: «أظنُّ أننا يجب أن نتمّ الطلاق. وكي أصدقك القول فأنا أرغب في الزواج من لينغ لينغ قبل أن أموت. أريد أن أحظى ببعض الأيّام السعيدة قبل أن نرحل».

امتقع وجهها. بدت كأنَّها كانت تفكِّر في شيءٍ ما. «حسنٌ»، أجابت بعد وهلة. «سأمنحك الطلاق إذا طلبت من أخيك أن يحضر لي نعشين جيّدين. لكن عليك أن تتأكّد أنّها من النوع الجيّد... أريد أجود نوع، ذلك الذي يحتوي نقوشات على جوانبه».

«لأجلِ مَن؟».

«هذا ليس من شأنكَ».

«بوسعي أن أخمّن مَن هو أحدهما»، قال مبتسمًا بخبث. «إنَّه يعاني من الحمَّى، أليس كذلك؟».

أشاحت تينغ تينغ برأسها ولم تقل شيئًا. ثمَّة دموعٌ ترقرقت في عينيها.

لم يستطع عمِّي أن يضيف شيئًا آخر، لذا ترك الحديث ينتهي هنا.

٢

ذهب جدِّي إلى شياو مينغ كي يتحدَّث إليه بشأن الطلاق.

حين وصل إلى البيت، ولم يجد أحدًا هناك، توجَّه إلى حقل العائلة. في طريقه التقى بوالدة شياو مينغ. مثل مَن يسأل شخصًا غريبًا عن الاتجاهات، صرخ بفظاظة: «مرحبًا! أنتِ التي هناك! هل أنت ذاهبة لسقاية الحقول؟».

تبيَّن أنَّها كانت في طريقها لسقاية القمح. كان حقل عائلتها واقعًا شرقيَّ القرية، قرب مسار النهر الأصفر القديم. وحين كانت هناك، خطرت ببالها فكرة أن تخلط الأسمدة الكيماويّة مع مياه السقاية، وبذلك توفّر على نفسها عناء تسميد الحقل يدويًّا في وقتٍ لاحقٍ. كانت في طريقها إلى البيت لإحضار كيس السماد حين صادفت جدِّي بجوار مسار النهر القديم. في البداية لم تعرف إلى مَن كان يصرخ. تلفّتت حولها لترى إن كان ثمَّة غيرها، لكنَّها لم ترَ سوى العشب الطويل، النامي على

جانب الطريق والذي يقارب الخصر في ارتفاعه. أدركت أنَّ سؤاله موجَّه إليها.

«نعم. لقد آن الأوان لذلك»، أجابت ببساطة.

اعترض جدِّي طريقها. «بوسعي أن أقتلَ ابني ذاك، أقولها لكِ بصراحة».

«كنتُ أخشى أنَّك جئتَ هنا وسيطًا للزواج... للتحدُّث مع شياو مينغ بشأن منح تلك العاهرة الطلاق»، قالت بابتسامة جليديّة.

شحب لون جدِّي قليلًا. «كلاهما وصمةُ عارٍ».

نخرت والدة شياو مينغ بازدراء. حدَّقت في جدِّي للحظات، وقد التوت شفتاها سخريةً. بعد لحظات، تلاشت حدَّة تعابيرها وقالت بلطف: «سأخبرك شيئًا... بما أننا أقارب، سأكون صادقة معك. الطلاق ليس مستبعدًا. فقد حظي شياو مينغ بخطيبة الآن، وهي فتاة صغيرة وجميلة وعذراء، كالزنبقة البيضاء. لكنَّها طلبت خمسة آلاف يوان لشراء جهاز العروس. وإذا تمكّن من جمع المبلغ، فستوافق على المضي قدمًا وعقد القران».

نظرت والدة شياو مينغ حولها، كأنَّها تتأكَّد أنَّ أحدًا لا يتربَّص في العشب الطويل ويتنصَّت إلى كلامها. وتابعت: «ابنكَ في عجلةٍ من أمره للزواج من لينغ لينغ والعيش معها بلا خجلٍ أو خوف، أليس كذلك؟ فلماذا لا نطلب إليهما أن يدفعا الخمسة آلاف يوان؟ حينها يتمكّن شياو مينغ من تحمُّل تكاليف زيجته ويمكن للاثنين الآخرين أن يشهرا زواجهما أمام الجميع ويُدفنا معًا بكرامةٍ بعد موتهما».

وقف جدِّي بلا حراك، مذهولًا. هبَّت ريحٌ قوية ضمَّخت وجهه وملابسة برائحة الشيحِ النفّاذة.

«ابني وفتاته يتمتّعان بصحّة جيّدة. حتّى أنّها أرته وثيقة من المستشفى تثبت أنَّها غير مصابة بالحمَّى. أمَّا ابنك وعاهرته فليس أمامهما الكثير من الوقت، وأصلًا ليس بوسعهما المطالة كثيرًا. إذا استطاعا تأمين المبلغ، فسوف يوافق شياو مينغ على الطلاق فورًا. حينها بمقدور ابنك أن يتزوج عاهرته ويتزوّج ابني تلك الفتاة، وسيكون الجميع سعداء».

بقي جدِّي متسمّرًا في مكانه. تجاوزته والدة شياو مينغ مواصلةً طريقها وهي تعرج نحو القرية. صاح جدِّي، إذْ كان يشاهدها وهي تغادر: «تقول كلُّ الكتب إنَّ وضع الأسمدة مع مياه الريِّ فكرة سيئة. سيتبخَّر نصفها أو ينتهي به المطاف لتسميد الحشائش البريَّة أو يتدفَّق إلى حقلٍ مجاور!».

سارت والدة شياو مينغ أبعدَ قليلًا قبل أن تستدير وتصرخ: «لقد كنتَ معلّمًا يا بن حميَّ! ألا تخجل من نفسكَ وقد أصبحت وسيطَ زواجٍ لهذين الوغدين!».

وقف جدِّي متجذّرًا في الأرض، مثلَ صُوَّة خشبيَّة بلا جدوى على مسارِ نهرٍ قديمٍ جافّ. مثلَ جذع مُغضَّن ذابل محاط بحقول خُضرٍ مورقة.

كان الوقت قد اقترب من الغسق عندما صادف جدِّي ابنَ أخيه. كان دينغ شياو مينغ قد انتهى من سقاية حقوله وراح يتمشَّى على امتداد مسار النهر القديم، مسترخيًا بعد يوم عملٍ شاقٍّ. عادت أمُّه إلى البيت

لإعداد العشاء. كان غروب الشمس قد صبغَ السهلِ بلونٍ بنفسجيٍّ غامقٍ، اللون الذي يتولَّد حين تمتزج حمرُة الشمس بزرقة السماء بخضرة الحقول. ثمَّة ضوء ضبابيّ بنفسجيٌّ تطاير فوق الأنحاء مثل بخار يتصاعد من التربة. حين وصل جدِّي، وجدَ ابن أخيه يدخِّن سيجارة تحت شجرة صفيراء عند السدّ، نافثًا أعمدة من دخان تحوَّل لونها إلى الذهبيّ تحت أشعّة الشمس الغاربة.

«متى اكتسبت هذه العادة السيئة يا شياو مينغ؟»، وبّخه جدِّي. «لم تكن من هواة التدخين قطُّ».

رمق شياو مينغ جدِّي بنظرة خاطفة ثمّ أدار رأسه بعيدًا.

متجاهلًا الإهانة، جلس جدِّي القرفصاء. «ألا تعلم أنَّ التدخين يضرُّك؟».

عبَّ شياو مينغ نفسًا طويلًا آخر من سيجارته، كأنَّه يحاول أن يثبت أنَّه يعرف ضررَ التدخين عليه ولكنَّه غير مهتمّ بالأمر. «من المؤسف أنّني لستُ من مسؤولي المقاطعة الكبار، مثل ابنك دينغ هوي... الذي يُغدق عليه الناس أفخر أنواع السجائر والمشروبات الكحوليَّة... طالما ليس بوسعي تدخين السجائر الفاخرة، ألا يحقُّ لي أن أقضي وطري بتدخين هذه السجائر الرخيصة برأيك؟».

ضحك جدِّي وجلس بجانب شياو مينغ. بابتسامة حزينة قال: «أعرف أنَّ ابنيَّ لا يصلحان لشيء. كم سأسعد لو سمعتُ خبر دعسهما بسيّارة. ولكنَّ هذا لا يبدو محتملًا، فماذا بوسعي أن أفعل؟ لا أستطيع خنقهما بيديّ، لقد تقدَّمت في السنّ وما عادت لديّ القوَّة».

ابتسم شياو مينغ. كانت ابتسامة تهكُّمية وضئيلة، بدت مقيَّدة إلى زوايتي فمه بخيطين ذهبيّين. «وهكذا جعلتهما يفعلان ما يحلو لهما، صحيح؟ دينغ هوي يعيش في الجنّة، وهو ليس بمريضٍ حتّى. ودينغ ليانغ حصل، بدوره، على جنّته، على الأقلِ ريثما يلفظ أنفاسه الأخيرة».

حدَّق جدِّي بابن أخيه في صمت. احمرَّت وجنتاه كأنَّ شياو مينغ قد صفع وجهه بغضب. طأطأ جدِّي رأسه لوهلةٍ ثم رفعه من جديد، كأنَّه يمنح الفرصة لصفعة أخرى.

«شياو مينغ، إذا كنتَ تريد أن تفرّغ غضبك في شخصٍ ما، فأنا أمامك. هيّا. اضربني. اصفعني على وجهي».

قهقه شياو مينغ بمرارة. «هذا نبلٌ كبيرٌ منك يا عمِّي. أيّها الأستاذ دينغ. ولكنّني إن لمستكَ بإصبعي فسيرسل دينغ هوي رفاقه لاعتقالي، وسيسكب دينغ ليانغ دمَه الملوَّث في أطباق بيتنا ويصيب كلّ أفراد عائلتي بالإيدز».

«أهونُ عليّ أن أقتل نفسي من أن أدع هوي يمسُّك قيد أنملة»، تعهَّد جدِّي. «وإذا تجرّأ ليانغ أن يرفع صوته في حضورك، فسأقطع رأسه بيدي».

لم يضحك شياو مينغ هذه المرَّة ولم يبتسم. لم تعد ملامح المرارة أو السخرية على وجهه، بل بات محتقنًا كدمٍ متخثِّر واعتراه الغضب والقسوة. «إنَّك ماهرٌ في الكلام يا عمِّي»، قال بهدوء. «لا شكَّ أن مهارتك نابعة عن سنوات طويلة من قراءة الكتب والعمل كمعلِّم. لطالما نظرتُ إليك كرجلٍ عاقل. ولكن عندما سرق ليانغ امرأتي، لماذا

لم تقل شيئًا؟ لماذا لم تحاول منعه؟ كان يجدر بك أن ترديه ضربًا، أو أن تشتمه شتيمة تليق بفعلته، بدلًا من من أن تسمح له الآن بأن يعيش معها تحت سقف واحد».

«شياو مينغ. اصدقني القول وأنا عمُّك العجوز». صارت نبرة صوته رقيقة. «من أعماق قلبكَ، هل تريد عودة لينغ لينغ؟ هل تريد أن تمضي بقيّة حياتك معها؟».

شخر شياو مينغ. «لو أتيح لي أن أركل تلك القذرة بقدمي، فلن أفعل... مهما بلغ بي اليأسُ».

«فلماذا لا تتطلّقها وتتركهما يعيشان معًا؟».

«عمّي، بما أنّك طلبت منّي أن أكون صادقًا، فيجدر بي أن أخبرك الحقيقة. لقد خطبتُ فتاة، وهي أصغر سنًّا من لينغ لينغ، وأجمل وأطول وأصفى لونًا... متعلِّمة وأنيقة ولا تريد مني فلسًا واحدًا. كلُّ ما تريده مني هو أن أذهب إلى المستشفى وأجري اختبارًا للإيدز كي أثبت أنّي غير مصاب بالحمّى ولم أبع دمي قط. ستجري اختبارًا مماثلًا بدورها. شهادة المستشفى بأننا بصحّة جيّدة هي هديّة الزفاف لبعضنا بعضًا. كنّا نخطّط للزواج بحلول نهاية هذا الشهر، وإذا بلينغ لينغ ودينغ ليانغ ينتقلان للعيشِ معًا تحت سقف واحدٍ ودونما خجل... إنّهما يريدان الزواج أيضًا، صحيح؟ أن يعيشا بشكلٍ شرعيّ كزوج وزوجةٍ خلال ما تبقّى أمامهما من وقت، وأن يُدفنا معًا عند الموت، أليس كذلك؟ حسنٌ، طالما الأمر كذلك، فأنا فقدتُ رغبتي بالزواج ولن أمنح لينغ لينغ الطلاق. لقد أرادا أن يعيشا كزوجٍ وزوجة، أليس كذلك؟ بالأحلام... فلينتظرا إذًا!».

أدرك جدِّي بعدما استمع إلى حديث شياو مينغ الغاضب والمكلوم، وكلماته المتعجرفة والانتقاميَّة، أنَّ لا أملَ يُرتجى من هذا الرجل. ما كان منه إلّا أن هبط ضفّة النهر القديم وشقَّ طريقه عائدًا إلى المدرسة.

ألقت شمس الغروب ضوءها الشفَّاف على السدِّ، بينما انتشر في كلِّ مكان شلَّالٌ من اللَّونِ الأحمر قادمًا من الغربِ، جاعلًا المشهدَ مثل بحيرة ممتدَّة تشوبها ظِلال حُمر وذهبيَّة. تناهت نداءاتُ أولى زيزان الحصادِ لهذا الموسم؛ صرخات جماعيَّة أشبه بجوقة من أجراسٍ صغيرة متصدِّعة ترنُّ قادمةً من مكانٍ ما بعيدٍ وتخفت حتَّى تتلاشى. بعد أن قطع جدِّي بضع خطوات متباطئة، التفت ورأى شياو مينغ واقفًا عند السدِّ، يهمُّ بالعودة إلى بيته. تلاقت عيناهما، وتوقَّف جدِّي حيث كان. نظرَ إليه شياو مينغ كأنَّما لا يزال لديه شيءٌ يريد أن يخبر جدِّي به.

لم يتزحزح جدِّي، منتظرًا أن يفاتحه الآخر بالكلام.

أخيرًا سمعَه يصرخ: «قل لليانغ ولينغ لينغ أن ينتظرا... دعهما ينتظران حتّى الموت! لأنِّي سأتزوَّج في اليوم الذي يموتان فيه... عندما يكونان تحت التراب!».

استدار جدِّي وواصل سيره.

بعيدًا، عند ضفّة رمليّة ضحلة كانت ذات يوم مغمورة بالمياه، نما الشيح حتّى صار بطولِ أشجار الصنوبر. ذكّره ذلك بالأشجار التي رآها في العاصمة. كان الشيح يغزو السهلَ برمّته. ههنا ثمَّة غابة صغيرة منه، مجموعة من شجيرات الشيح الطويلة والثخينة تغطّيها الأوراق الغزيرة بلونها الأخضر الشاحب الذي تتخلَّله صُفرة.

اقتفى جدِّي المسار الضيِّق بين شعابِ الشيح وهو ينفض أسراب الجنادب التي التصقت بحذائه وسرواله وقميصه. سار ببطءٍ، بصمتٍ، تحت آخر أشعة الشمس الغاربة. تلاشى الضوء تقريبًا، وكان على وشك الانعطاف على الطريق نحو المدرسة، عندما سمع وقع الخطى القادم من الوراء. استدار ليرى شياو مينغ على بعد بضع خطوات منه، يركض للحاق به. كان الأخير يتصبَّب عرقًا ويلهث لالتقاط أنفاسه وقد تلوَّث وجهه بالرملِ والأوساخ التي ركلها على امتداد الطريق. حين رأى جدِّي يلتفت نحوَه توقَّف في مكانه.

«مرحبًا! عمِّي!»، صرخ.

«شياو مينغ؟ ما الذي جاء بك إلى هنا؟».

«أتيتُ لأقول إنّني سأطلِّقها. سأدعهما يعيشان معًا، بشرطٍ واحدٍ. عليكَ أن توافق عليه، أنتَ ودينغ ليانغ».

«وما هو الشرط؟».

«أولًا عليك أن تعدني بالموافقة».

«أخبرني أوَّلًا ما هو».

«حسنٌ. بعد أن فكَّرتُ في الأمر مليًّا، أنا على استعداد لمنح لينغ لينغ الطلاق الآن والسماح لها بالزواج من دينغ ليانغ. إنّهم يريدون إشهار زواجهما رسميًّا قبل أن يموتا، أليس كذلك؟ حسنٌ، سأوافق على هذا الأمر إذا تعهَّد ليانغ بكتابة وصيَّة تنصُّ على أن أحصلَ على بيته وكلّ ممتلكاته عندما يموت. وطالما أنَّ ابنك الآخر غادر القرية إلى غير رجعة، فسيبقى بيته فارغًا. بيته أجمل من بيت ليانغ بأضعاف المرات. يمكنك

البقاء في بيت هوي، بحيث سيكون لديك بيت يأويك في شيخوختك، بينما يتنازل ليانغ عن بيته وممتلكاته من أجلي».

ثمَّة أجمة شيح على أحد جانبي المسار، وخندق عميق على الجانب الآخر. وقف جدِّي بينهما، يحدِّق في ابن أخيه، بعينين نصف مغمضتين.

«ماذا تقول يا عمِّي؟ إذا وافقت، فسأذهب في الغد إلى المدينة وأقدّم أوراق الطلاق، وحينها بوسعهما أن يذهبا في اليوم التالي والتقدُّم لتسجيل زواجهما».

جدِّي العالق بين الخندق والشيح ظلَّ يحدِّق بعينيه المزرورتين.

«هل سمعتَ ما قلتُه يا أستاذ دينغ؟ أنا ابن أخيك في نهاية المطاف، وأنت تعرف المثل القديم الذي يقول: لا تدع سمادَ حقلِك يُذرى في حقول الغرباء. يجب حفظ الثروة ضمن العائلة، أليس كذلك؟ من الأفضل لدينغ ليانغ أن يوصي بالتنازل عن ممتلكاته لي، أنا ابن عمّه، بدلًا من أن يرثها شخص غريب، مثل سونغ تينغ تينغ. أو الأسوأ من ذلك، أن تنتهي إلى جيب الحكومة!».

خندق. شيح. ابن أخٍ. كان جدِّي واقعًا في شركٍ بين هؤلاء، يحدِّق.

«إذا فكّرت في ذلك يا عمِّي، ستجدّ أنَّه منطقيّ تمامًا. ما فائدة البيت حين يموت صاحبه؟ لن يستطيع أخذه معه إلى القبر. هذا ما عليكَ أن تقوله له. بالتأكيد لن أستعمل تلك الأغراض ما دام على قيد الحياة. لن أنتقلَ إلى البيت إلّا بعد أن يرحل هو ولينغ لينغ. لكن عليه أن يتعهّد بكتابة ذلك في وصيته. وإلّا، فلن أمنح لينغ لينغ الطلاق، ولن يكون

بوسعهما الزواج أبدًا. وإن مات قبل أن يتدارك فعلته ويصونَ عرض تلك المرأة، فإنَّ ذنبها سيرافقه إلى أبد الآبدين».

في تلك اللحظة، تغيَّمت رؤية جدِّي وتحوَّل ما تبقَّى من مشهدِ غروب الشمس المكوَّن من ظلالٍ حُمر وذهبيَّة إلى غشاوةٍ من دمٍ وضباب. طفا العشب والشجر والشيح والقصب أمام عينيه، والتفَّ حول قدميه ثمَّ تبدَّد بعيدًا. حتّى ابن أخيه بدا كأنَّه تضاءلَ وأصبح الآن مجرَّد لطخة ضبابيَّة صغيرة تدور في دوَّامة...

«عليَّ أن أذهب». بدا الصوت بعيدًا. «لا تنسَ أن تخبر ليانغ بما قلتُه واطلب إليه أن يفكِّر في الأمر مليًّا. ففي النهاية، مَن يدري كم يومًا سعيدًا تبقّى لديه في هذه الحياة؟ كما جئنا إلى هذه الدنيا بلا شيء، نغادرها بلا شيء. ليس بمقدور أحد أن يأخذ متاع الدنيا معه. كلُّ ما بوسع المرء أن يفعله هو الاستمتاع قدر الإمكان. السعادة... هي الشيء الوحيد الحقيقيّ الذي لا يُقدَّر بثمن».

مع هذه الكلمات الملأى بالحكمة، غادر شياو مينغ. سار على الطريق الممتدّ واختفى تحت الشمس الغاربة، تاركًا الشيحَ والخندقَ بعيدًا خلفَه.

٣

في أقاصي السهل، على امتداد الأفق الغربيّ، بدت الأشجار والقرى ساكنة بلا حراك أمام غروب الشمس، ثابتة ثبات الرسومِ على الورقِ. كانت ضفاف النهر الأصفر القديم، التي باتت مجرَّد كثبانٍ رمليَّة متهالكة، مغطَّاة ببقعٍ متفاوتة من النباتات البريَّة. في الأماكن المواجهة للشمس، نما

العشب طويلًا، أمَّا تلك الواقعة في الظلِّ، فكانت جرداء وبدت تربتُها الرمليَّة كقشورٍ فوق جرحٍ مندملٍ. كانت قمم السدود المتماثلة في خوائها، إلى جانب حواجزها المغطَّاة بالرملِ، تلمع تحت أشعة الشمس الغاربة كذهبٍ برَّاق. تضمَّخ الهواء برائحة العشبِ والرمالِ التي دفّأتها الشمس؛ رائحة حلوة نفّاذة كأنَّ السهلَ قد غُمِر بموجةٍ عملاقة من دبس السكّر. عند الغسق، كان السهل كبحيرةٍ واسعةٍ من الدفءِ الذي تمتزجُ فيها الملوحةُ بالحلاوة، جسمٍ من الماء يتمدَّد إلى اللانهاية، باعثًا رائحة نديَّة حلوة.

معزاة وحيدة كانت تتجوَّل نحو القرية قادمة من جهة المدرسة، ثغاؤها الرقيق يموِّجُ الصمت مثل قصبةٍ تطفو على سطح بحيرة. رجلٌ قاد ماشيته في صفٍ واحدٍ إلى القرية بعد أن أخرجها لترعى. تردَّد صدى خوارها عبر الحقول، وكانت أجسادها أشبه بحقلٍ من الطين يتقدَّم ببطءٍ عبر السهلِ، في طريقه إلى الغسق.

وقف رجلٌ على مشارف القرية وصاح لجاره الذي يعمل في حقله.

«مرحبًا يا جار! هل أنتَ مشغولٌ غدًا؟».

«ليس كثيرًا. لماذا؟».

«لقد تُوفّي أبي وآملُ منك أن تساعدني في دفنه».

مرَّت لحظةُ صمت قبل أن يسأله الرجل الذي يعمل في حقله: «ومتى تُوفّي؟».

«اليوم، في الصباح الباكر».

«هل جهّزتَ النعش؟».

«نعم، أعطانا يويه جي وغن تشو شجرةً من أشجار الصفصاف».

«وماذا عن ملابس الجنازة؟».

«لقد جهّزتها أمّي قبل مدّة».

«حسنٌ. سآتي في صباح الغد».

ثمّ غرق السهل في الصمت من جديد، في سكونٍ يشبه سكونَ البحيرة وقد انطفأتِ الريح.

٤

أنا دينغ ليانغ، وبكامل قواي العقليّة والجسديّة، أوافق على منح دينغ شياو مينغ كلَّ ما أملك بعد وفاتي أنا وشيا لينغ لينغ. دينغ شياو مينغ هو المخوَّل بأن يحصل على البيت والفناء والأشجاء وكلّ الأشياء الموجودة بداخل البيت، إلى جانب نصف فدان من الأراضي الزراعيَّة الواقعة شمال مسار النهر القديم بين حقول عائلتَي تشانغ ووانغ. يتكوَّن العقار الرئيس من بيتٍ يضمُّ ثلاث غرف مبنيَّة من الطوب والقرميد، ومبنيَيْن مجاورين (مطبخ ومخزن)، وفناء به ثلاث أشجار پولونيا وشجرتا حَور، نتعهَّد أنا وشيا لينغ لينغ بعدم قطع هذه الأشجار أو بيعها ما دمنا على قيد الحياة. تشتمل أغراض البيت ومفروشاته على خزانة ملابس جداريَّة وطاولة واسعة وصندوقين خشبيّين وعلّاقة معاطف ومغسلة وأربعة كراسي مطليَّة باللون الأحمر وخمسة مقاعد وأريكتين وسرير مزدوج وسرير مفرد وجرّتَي مياهٍ كبيرتين وأربعة خوابٍ من الفخّار. نتعهَّد أنا وشيا لينغ لينغ بعدم بيع أيٍّ من هذه الأغراض أو التخلّي عنها أو تدميرها

أو إتلافها أو إزالتها. ونظرًا لكون اتفاقي الشفهيّ مع دينغ شياو مينغ غير ملزم قانونيًّا، فقد دوَّنتُ شروط اتفاقنا في هذه الرسالة التي ينبغي عدّها وصيتي الأخيرة. ائتمنتُ ابن عمِّي الأصغر دينغ شياو مينغ على الاحتفاظ بهذه الوثيقة ريثما تصبح سارية المفعول بعد وفاتي أنا ولينغ لينغ. لا يجوز لوالدي، دينغ شوي يانغ، الاعتراض على هذه الوصيَّة أو المطالبة بأي شيءٍ من ممتلكاتي.

التوقيع: دينغ ليانغ

التاريخ: ــــ/ــــ/ــــ١٩

٥

حين ذهب عمِّي إلى بيت دينغ شياو مينغ كي يسلِّمه الرسالة التي تضمُّ وصيّته الأخيرة، التقيا عند بوَّابة الفناء. وقف عمِّي في الخارج، غير راغبٍ في أن تطأ قدمه أرض عدوِّه، أمَّا ابن عمّه فوقف على تماسٍ مع البوَّابة مباشرة، غيرَ راغبٍ في الخروج إلى أرضٍ غير محميَّة.

«ها هي! خذها!»، قال عمِّي وهو يرمي الرسالة في وجه شياو مينغ.

رفرفت قبل أن تحطّ على الأرض. انحنى شياو مينغ لالتقاطها، وبعد أن قرأها بعجالة، قال متظلِّمًا: «يا ابن عمِّي... أنتَ مَن سرقتَ زوجتي... لا يجدرُ بكَ أن تعاملني بهذه الطريقة».

الفصل الرابع

١

تزوَّج عمِّي من لينغ لينغ. لقد باتا زوجًا وزوجة رسميًّا. والآن، أخيرًا، صار بوسعهما الانتقال إلى بيت عمِّي للسكن.

في يومِ الانتقال، استعارا عربة وتمكَّنا، برحلتين، من نقل كلِّ شيءٍ من البيدر إلى القرية. حين وصلا البيت أخيرًا كانت لينغ لينغ تتصبَّب عرقًا. ولكن كان هناك أعمال أخرى يتعيَّن القيام بها، كتفريغ الصناديق وترتيب الأثاث وأدوات المطبخ وغرفة النوم. حين أتمَّا ترتيب كلِّ شيء كانت لينغ لينغ غارقة في عرقها. خلعت بعض ملابسها وخرجت لتستنشق الهواء. خفَّ تعرُّقها ولكن، بحلول الليلِ، عاودها الشعورُ بأنَّها عطشى ومحمومة، كأنَّ جسدها بكامله يحترق. ظنَّت أنَّها مصابة بنزلة برد، فأخذت بعض الأدوية وشربت شايًا بالزنجبيل، ولكنَّ شيئًا من ذلك لم يخفض حرارتها.

لم تدرك ما جرى لها إلّا بعد مرور أسبوعين.

لم تكن حمّى، بل الحمَّى. كان مرضها قد بلغ ذروتِه. كانت على شفا الموت.

لم يتبقَّ رمقٌ من العزمِ في جسدها. لم تقوَ على تناول الطعام أو حتّى على حملِ الطبق. ذات يوم، أعدَّ لها عمِّي بعض الشاي بالزنجبيل من أجل خفض الحرارة، ولكن حين رفعَ الكوب إلى شفتيها رفضت أن تشرب. حدَّقت بقلقٍ في وجهه الهزيلِ وفي البقع الجديدة التي ظهرت على جبهته.

«متى ظهرت هذه البقع على وجهك؟»، سألتْه.

«لا تشغلي بالك، أنا بخير».

«اخلع ملابسك».

«أنا بخير»، قال عمِّي مبتسمًا ابتسامته المعتادة.

«إن كان ما تقوله صحيحًا، فاخلع ملابسك وأريني!»، رفعت لينغ لينغ صوتها.

عندما خلع عمِّي قميصه وفكَّ سرواله، رأت لينغ لينغ الطفح الجلديّ المكوَّن من تقرُّحات حُمر امتدَّت حول بطنه. كانت بقعًا قاسية ولَّاعة، كأنَّها محتقنة بالدم. كان عمِّي قد توقَّف عن ارتداء حزامه الجلديّ لأنّه يفاقم الطفح، واستبدل به زُنَّارًا طويلًا من القماش مرَّره في حلقات سرواله. لم تنتبه لينغ لينغ لهذا الزُنَّار القماشيّ من قبل، لأنَّ عمِّي حرص على إخفائه تحت القميص. بدا عمِّي وقد تدلَّت أطراف هذا الزنَّار من خصره مثل واحدٍ من المزارعين القدامى الذين يربطون سراويلهم بأيّة قطعة من القماش تقع عليها أيديهم.

بينما كانت تحدِّق في الطفح الجلديّ على خصر عمِّي، اغرورقت عيناها بالدمع. ثمّ، ورغم الدموع، بدأت تضحك.

قالت مقهقهة: «ربّما من الأفضل أن يكون الأمر على هذا النحو... أن تندلع الحمَّى لدينا في الوقت نفسه. قبل بضعة أيّام فحسب، كنت قلقة من أنّني سأموت قبلك وينتهي الأمرُ بك لأن تعود إلى تينغ تينغ».

راح عمِّي يضحك أيضًا. «كنتُ أخشى أن أخبركِ، ولكنّ الحمَّى اندلعت لديَّ قبلك. منذ اليوم الذي توقّفتُ فيه عن ارتداء حزامي الجلديّ، حسبما أظنُّ. كنتُ أفكِّر في قرارة نفسي وأقول: ربّاه، أرجوك، اجعل الحمَّى تتفاقم لدى لينغ لينغ أيضًا. لا تتركني أموت وهي هنا حيَّة وبصحّة جيّدة».

ابتسم عمِّي ابتسامة خبثٍ. مدَّت لينغ لينغ يدها وقرصته بلطفٍ.

«لم ألمسكِ منذ أسابيع»، قال عمِّي وهو يضع كوب شاي الزنجبيل على الطاولة بجانب السرير. «لقد مرَّت أسابيع على آخر مرَّة فعلنا فيها شيئًا في السرير. ألم تلاحظي ذلك؟ ألم تشعري بأنَّ مرضي يتفاقم؟».

هزَّت لينغ لينغ رأسها وابتسمت. بعد ذلك، كان لديهما الكثير ليتحدّثا عنه.

«حسنٌ، أليس هذا رائعًا؟ بمجرَّد أن انتقلنا إلى هذا البيت، تدهورت صحّتنا فورًا»، قالت لينغ لينغ.

«إن كنّا سنموت قريبًا، فسنموت معًا على الأقلّ».

«آمل أن أرحلَ قبلك، كي تتمكَّن من إقامة جنازة جميلة من أجلي. ولكن عِدْني أن تشتري لي بعض الملابس اللائقة. لا أريد أن أُدفن مرتدية تلك الملابس الجنائزية السوداء المخيفة. أريد فستانًا؛ لا بل فستانَيْن، أحدهما أحمر فاتح. منذ صغري أحبُّ اللون الأحمر الفاتح. أمَّا الفستان

الآخر فليكن عاديًّا، وذا لونٍ أخفت. هكذا سيكون لديّ تبديلة ملابس في حياتي الثانية، هناك».

«سأشتري لكِ أيضًا زوجًا من أحذية الكعب العالي الحُمر، من ذلك الشكل الجذَّاب الذي تنتعله فتيات المدينة».

ظلَّت لينغ لينغ صامتة لمدَّة. تملَّت في وجه عمِّي كأنَّها تحاول التيقُّن من شيءٍ ما.

«انسَ الأمر. من الأفضل أن تموت أنت أوّلًا... وإلّا فسأقلق كثيرًا»، قالت.

«ولكنّني أريد أن أقيم جنازة عظيمة من أجلكِ. أنا لديّ أخي ووالدي كي يعتنيا بأمري، أمَّا أنتِ، فإن لم أكن أنا موجودًا، فمَن سيلقي بالًا لدفنكِ بشكلٍ لائق؟».

«رغم كلّ ما تقوله... ما زلتُ قلقة عليك»، قالت والدموع تترقرق في عينيها.

«لماذا؟ ألستِ واثقة بي؟».

«ليس هذا ما قصدتُه».

وبعد أخذٍ وردٍّ استمرَّ لبرهة، قالت لينغ لينغ: «الأفضل من ذلك كلّه هو أن نموت معًا».

اعترض قائلًا: «لا. إذا متُّ قبلك ولو بيومٍ واحدٍ، فستكونين حرَّةً لتستمتعي بهذا اليوم المتبقّي. وإذا متِّ قبلي ولو بيومٍ واحدٍ، فسأفعل الشيءَ نفسه».

«إنَّك لا تفكِّر إلا بنفسك»، تجهّمت لينغ لينغ. «إنَّك تفكِّر بيومك التالي، لا بي».

«هذا ليس صحيحًا».

«بل هذا تمامًا ما تعنيه».

واصلا جدالهما الذي لم يكن جديًّا ولا هزليًّا، بل بين بين. ولم ينتهِ إلا حين استدار عمِّي واصطدم بكوب الشاي على الطاولة المجاورة للسرير. سقط الكوب على الأرض وتهشّم.

حينها انتهى الجدال.

حدَّقا في الكوب المكسور. كلاهما كان يعرف أنَّ انكسار كوبٍ يحوي شرابًا علاجيًّا لهو نذير شؤمٍ. كان ذلك يعني أنَّ الموتَ لم يعد سوى مسألة أيَّام قليلة، ولا جدوى من تناول الدواء. حدَّقا بعضهما ببعض صامتيْنِ. كانت الغرفة ساكنة تمامًا. شعرا بأنَّ العرق بدأ ينزح من جسديهما، كما رغيف خبز في قدر البخار، أو كما حبوب البازلاء في وعاءٍ يغلي. كلاهما أصبح نحيلًا، هزيلًا، مُدنفًا. ضمرَ نهدا لينغ لينغ اللَّذان كانا مكتنزين فيما مضى؛ بات الثديان اللَّذان أُغرم بهما عمِّي يتدلَّيان من صدرها مثل كِيسَيْ لحمٍ ذاوٍ. بشرتُها المتورِّدة والنديَّة، التي حافظت على توهُّجها رغم الطفح الجلديِّ والبقع المتناثرة، صارت بلون الرمادِ وشابتها بقعٌ كالصدأ.

غارت عيناها وبدا محجراها كبيرين كبيضتَيْن. برزت عظام وجنتيها كأعمدة خيمة الجنازة. انكمش قوامُها وتضاءل للغاية، وما عادت تبدو كإنسانٍ. لقد فقدت كلّ مظهرٍ بشريٍّ. شعرها الجافّ والباهت، الذي

لم يُمشَّط منذ أيَّام، ارتمى على وسادتها مثل شبكة صدئة، مثل أجمةٍ من الشيح نبتت على الوسادة. أمَّا عمِّي فقد ظلَّت شهيّتهُ على حالها، ولكن مَن يدري إلى أين ذهب كلّ ذلك الطعام الذي تناوله؟ صار وجهه المربَّع كنصل الفأس، وعظام وجنتيه كشفرات السكاكين. فقدت عيناه بريقهما السابق، وصارتا كرتين بيضاوين بعد أن اضمحلَّ بؤبؤاه.

بعد أن انكسر الكوب، حدَّق لفترة طويلة في شظاياه المتناثرة على الأرض.

«لينغ لينغ، عندما قلتُ إنّني أريدُك أن تموتي قبلي، لم أكن أنانيًّا. كنت أفكِّر في ما هو أفضل لكِ. وإن كنتِ لا تصدّقيني فسأقتل نفسي حالًا».

«كيف ستقتل نفسك؟».

«سأشنق نفسي».

«هيّا إذًا». نهضت لينغ لينغ ومرَّرت أصابعها عبر شعرها المتشابك. بدت هادئة ومتماسكة. «سنموت كلانا قريبًا في كلِّ الأحوال. أحضرْ بعض الحبال... حين أراك واقفًا على الكرسي، وحبل المشنقة يحيط برأسك، سأضع الحبل الآخر عى رأسي، وسنركل كلانا الكرسيّ في الوقت نفسه. وما دمنا لا نضمن العيش معًا، فعلى الأقل يمكننا أن نضمن الموت معًا».

حدَّق عمِّي إليها، غير متأكِّد من جديّة ما تقول.

«أحضرْ بعض الحبال»، كرَّرت.

لم يتحرَّك عمِّي.

«هيَّا. أعتقد أنَّ هناك بعضًا منها تحت السرير».

محشورًا في الزاوية، تملَّى عمِّي بها طويلًا قبل أن ينحني للبحث تحت السرير. عثر على الحبل، وسوَّى أنشوطتين، ثمَّ وقف على كرسيٍّ وعلّقهما على العارضة الخشبيَّة في السقف. حين أتمَّ المهمَّة، التفت لينظر إلى لينغ لينغ، كأنَّه يحاول أن يخمِّن شجاعتها ومدى صدق نواياها. كانت نظرة حنونة، لكنَّها ملأى بالتحدّي والاستفزاز. تفاجأ عمِّي عندما اكتشف أنَّ لينغ لينغ - اللطيفة جدًّا في الحياة والجامحة جدًّا في السرير - بمقدورها أن تواجه الموت بكلّ رباطة جأش. بعد أنَّ مكَّن عمِّي الأنشوطتين، وقفت لينغ لينغ بهدوء، وغسلت وجهها ومرَّرت المشط في ثنايا شعرها ثمّ خرجت لتغلق بوَّابة الفناء. عندما عادت، صعدت على الكرسيّ الخشبيّ ونظرت إلى عمِّي.

«إذا متنا معًا، فذلك برهانٌ على أنَّ حبّنا وكلَّ ما جرى بيننا على السرير لم يكن عبثًا».

حلَّت الظهيرة وكانت الشمس معلَّقة في السماءِ الشرقيَّة، في حين تدفَّقتْ أشعَّتها الناريَّة عبر النافذة إلى السرير. كان اللحاف مطويًّا بشكلٍ أنيق، والملابس مرتّبة في الخزانة، والكراسي والطاولات مصفوفة على الجدار. رتّبا كل الأغراض التي نقلاها من البيدر، لذا بدت الغرفة بحالةٍ حسنة. لم يفت لينغ لينغ أن تغسل الستارة المعلَّقة على الباب حتَّى أصبحت تلمعُ من شدَّة النظافة. عدَّت البيت ملكًا لها، وانكبَّت عليه غسلًا وفركًا وتنظيفًا حتَّى اختفى كلُّ أثرٍ لسونغ تينغ تينغ. لقد بات بيتها الآن. حتَّى أنَّها أزالت مرتبة السرير الخاصَّة بتينغ تينغ واستبدلت بها فراشًا اعتادت أن تنام عليه وعمِّي. عكفت، مرارًا، على مسح الصناديقِ

والخزائنِ التي طالتها يدا تينغ تينغ رغبةً في أن تطرد رائحة تلك المرأة. جمعت الأطباق التي كانت تأكلُ بها تينغ تينغ ووضعتها في الحظيرة كي تستخدم لإطعام الدجاجات. فهذا البيت هو بيتها هي وعمّي، وهي توقن أنّها لن تموت هانئة ما لم يكن بيتها مرتّبًا على نحوٍ مثاليٍّ. أخذت المجارف والمعاول من وراء الباب ووضعتها تحت إفريز الفناء. تفحصَّت الغرفة زاويةً زاويةً ورأت أخيرًا أنَّ كلَّ شيءٍ بات أنيقًا مرتّبًا. أربعة جدرانٍ مربَّعة تليقُ بقبرٍ. لم يبقَ غرضٌ لم يوضع في مكانه أو شيءٌ لم يرتَّب تمامًا، لم يبقَ ما يمكنُ فعله سوى الموت. حين اقتنعت بذلك أخيرًا، التقطت منشفة مبلَّلة من حوضِ الغسيل ومسحت وجهها. ثمّ صعدت بهدوء على الكرسيّ الذي وضعه عمّي لها، وأمسكت بالمشنقة المتدلّية من العارضة الخشبيَّة والتفت لتنظر إليه.

في تلك المرحلة، كانا قد بلغا نقطة اللاعودة. لا تقدُّم ولا تراجع. لا خيارَ سوى تعليق الرأسِ على حبل المشنقة. التقف عمّي الأنشوطة بكلتا يديه. فعلت لينغ لينغ الشيء نفسه. حدَّقت مليًّا في عمّي، حملته نظراتُها على وضع رأسه داخل المشنقة، حتّى تتمكَّن من أن تحذوَ حذوه. باتا في خانةِ اليك الآن، أمامها طريق مسدود، الشيء الوحيد المتبقّي لهما هو الموت. في تلك اللحظة، صدحت ضحكةُ عمّي، ضحكة شريرة، وقال: «رغم كلّ شيء، سأعيشُ كلَّ يومٍ أستطيع أن أعيشه. إذا كنتِ تريدين الموت، فلتفعلي ذلك، أمَّا أنا فأريد مواصلة العيش».

وهكذا، نزل عمّي عن الكرسي وجلس على السرير ينظر إلى زوجته التي ما زالت تمسك حبل المشنقة بيديها.

«انزلي يا لينغ لينغ، انزلي وأعدكِ أن أكون خادمك، أن أداريكِ برموشِ عينيَّ».

وقف عمِّي، وأحاط بلينغ لينغ بين ذراعيها، ورفعها عن الكرسيّ ثم وضعها بلطفٍ على السرير وأخذ ينزع ملابسها. راح يحدِّق في جسدها العاري، في بشرتها التي كانت ناصعة الجمال ذات يوم، واليومَ غدت جافّة وباهتة كالعشب الذابل بعد شتاءٍ طويلٍ. بدا وجهها مثيرًا للشفقة، بائسًا وهزيلًا، تلطّخه دموعُ الامتعاض.

«دعنا نفعل ذلك... دعنا نشنق أنفسنا»، توسَّلت إليه.

«لا... كلُّ يومٍ نعيشه لهو أفضل من الموت. فكّري فحسب في مقدار الوقتِ الذي سنحياه. بحوزتنا الطعام والمأوى، والأهمُّ أنّنا معًا. إن جعنا، يمكن أن نعدَّ بعض الفطائر في المطبخ. وإن عطشنا، فيمكن أن نشرب الماء مع السكّر. إن شعرنا بالوحدة، فيمكننا أن نخرج إلى الشارع وندردش مع الناس. أحتاجكِ كثيرًا يا لينغ لينغ. أريدُ أن أداعبَ وجهك وأقبّل شفتيك... الشيء الوحيد الذي يقلقني هو عدم قدرتي على مضاجعتكِ».

لكنَّ هذا هو بالضبط ما فعله عمِّي؛ لقد استجمع كلَّ قواه ومارسَ الحبَّ مع زوجته.

لقد كان مهووسًا حقيقيًّا بهذا الشيء.

بعدها، خطر على بالِ لينغ لينغ أن تسأله: «ليانغ، نحن لم نحضر شخصيًّا لتقديم طلب الزواج. هل تظنّ أنَّ أخاك يستطيع أن يسوّي الأمر؟».

متفاخرًا أجاب عمّي: «لا تقلقي. سمعتُ أنّه سيُرقّى ليصبح رئيس فريق العمل المعنيّ بمكافحة الإيدز في المقاطعة... هذا يعني أنَّ تأمين شهادة زواج لا يحتاج منه أكثر من جرّة قلم».

٢

فعلًا، تمكَّن أبي من تسوية كلِّ شيء. استطاع الحصول على الوثائق التي تثبت الطلاق بين دينغ شياو مينغ ولينغ لينغ من جهةٍ، وبين عمِّي وتينغ تينغ من جهة، إضافة إلى شهادة زواج عمِّي من لينغ لينغ، دون أن يضطرّ أيٌّ منهما إلى أن يطأ بقدميه مكتبًا حكوميًّا. حصل عمِّي ولينغ لينغ على وثيقتي زواجٍ بلونٍ أحمر زاهٍ ممهورتين بختم رسمّي من السجل المدنيَّ التابع للإدارة المحليَّة.

عندما ذهب أبي إلى البيت، كي يسلِّم عمِّي ولينغ لينغ وثيقة زواجهما الحمراء الصغيرة، كان معظم أهالي القرية يتلذَّذون بقيلولة منتصف النهار. كانت الشمس أشبهَ بقارورة سُمٍّ تتدلَّى من السماء، والهواء يضجُّ بطنين الزيزان، وحرُّ الصيف يتدفَّق عبر الشوارع مثل مياه حارقة. كانت القرية بمنتهى الهدوء. كاسرًا الصمت، غادر أبي بيته وسار نحو القرية. كان في طريقه إلى المقاطعة من أجل بعض المشاغلِ، لكنَّه توقَّف بداية عند بيت عمِّي.

كانت بوَّابة فناء عمِّي مفتوحة، وبدلًا من الدخول أو الصراخ لمعرفة ما إذا كان هناك أحد في البيت، قرع أبي البوَّابة الخشبيَّة بقبضته. وعندما لم يجب أحدٌ، طرق بقوّة أكبر.

«مَن هناك؟»، نادى عمِّي من الداخل.

«هذا أنا يا ليانغ. اخرج أريدُك في أمرٍ».

خرج عمِّي مرتديًا سروالًا داخليًّا من القطن الأبيض ليفتح البوَّابة. بدا مندهشًا عندما وجد شقيقه واقفًا هناك. «أوه، هذا أنت»، تمتم بتوتُّر.

«جهَّزتُ هذين النعشين اللذين طلبتهما تينغ تينغ»، قال أبي ببرود. «نعشين من الدرجة أ، يضمّان نقوشات لبيوت ومبانٍ وأجهزة على جوانبهما. لا أخالُ أنَّ فردًا من عائلتها قد حظي بشيءٍ يضاهي هذه النعوش فخامةً وثمنًا».

نصفَ نائمٍ، حدَّق عمِّي إلى أخيه بصمت.

«هل صحيحٌ ما سمعتُه؟ أنَّك أوصيتَ بالتنازل عن هذا البيت والفناء إلى دينغ شياو مينغ؟».

فجأةً، استفاق عمِّي من نومهِ تمامًا. دون أن يجيب على السؤال، أشاح برأسه بعيدًا وراح ينقّل بصره إلى أخيه تارة وإلى الفناء تارةً أخرى.

أخرج أبي وثيقتي الزواج من جيبه، الوثيقتين المطبوعتين على ورقٍ أحمر لَمَّاع، ورماهما في وجه عمِّي بقذفةٍ من يده الممدودة عبر بوَّابة الفناء المفتوحة. اصطدمت الورقتان بصدر عمِّي، والتصقتا للحظةٍ بجلده العاري قبل سقوطهما على الأرض مثل أوراق شجرة يابسة.

«أيُّ عارٍ هذا الذي أنتَ فيه!»، قال أبي بصوتٍ كالهسهسة. «قد تموت في أيّ يومٍ، ومع ذلك، ها أنتَ تتنازل عن ممتلكات العائلة وتقيم الدنيا وتقعدها من أجل امرأة. ستموت بلا نسلٍ، ولن يكون هناك من يقدِّم القرابين عند قبرك. ليس لديك ما تعيش من أجله، فلماذا لا تموت الآن؟».

استدار أبي وبدأ يسير بعيدًا. بعد بضع خطوات، ألقى نظرة خاطفة على عمِّي. «أربع وثائق طلاق بالإضافة إلى شهادتي زواج. أتعلمُ كم كلّفتني هذه الأوراق الستّ؟ كان لزامًا عليَّ أن أمنحَ المسؤول واحدًا من أغلى نعوشي! وبالمجّان!».

هذه المرّة لم يكن يهسهس، بل يصرخ. رحل أبي من دون أن ينظر إلى الوراء. كان الأب ذاته الذي عرفتُه، رجلًا هزيلًا، نحيلًا كالملاءة، غير أنَّه الآن، وبعد أن أصبح قادرًا على شراء ملابسه من المدينة، أصبح يتهندم على نحو أفضل قليلًا. كان يرتدي سترة زرقاء غير مبطّنة ذات ياقة مقلوبة ودرزاتٍ حُمر متباينة، وبنطالًا قطنيًّا رماديَّ اللون مجعّدًا على نحوٍ أنيق. لا بُدّ أن أمّي علّقت السترة وطوت البنطال بعناية فائقة حتّى بدا كلٌّ منهما بهذا الشكل، لأنَّها لم يكن لديها مكواة.

كانت ملابس أبي تميّزه عن سائر أهالي القرية. لقد بات يبدو رجلًا من المدينة، مسؤولًا من مسؤولي المقاطعة الذين يعملون في المدينة. ناهيك عن حذائه الجلديّ الأسود اللامع. كثير من رجال القرية كانوا يرتدون أحذية سودًا لامعة، لكنَّ معظمها مصنوع من الجلد الصناعيِّ. وإن كانت جلدًا حقيقيًّا، فمن المحتمل أنَّها من جلد الخنزير. لكنَّ حذاء أبي كان مصنوعًا من جلد البقر الحقيقيّ، من الصنف الأصليّ. حصل عليه كهديّة بعد أن ساعد أحد الأشخاص في شراء نعش. كان الجلد الأسود مصقولًا لدرجة جعلته يلمع كالمرآة. وبينما كان أبي يسير في الشوارع، كانت أشجار قرية دينغ وبيوتها تنعكس على سطح حذائه. وبطبيعة الحال، في ذلك الوقت لم يكن قد

تبقَّى الكثير من الأشجار في القرية، لذلك كانت الأشجار المنعكسة على حذائه ضئيلة في الغالب.

استعاد عمِّي رشده بعد أن رأى أبي ينعطف عند الزاوية. انحنى والتقط وثائق الزواج. بينما كان يقلِّب الصفحات، لم يجد شيئًا جديدًا. كانت متطابقة تقريبًا مع تلك التي تلقَّاها هو وسونغ تينغ تينغ منذ سنوات عديدة. لقد تغيَّر التاريخ وأحد الاسمَيْن فحسب. كانت الاختلافات طفيفة جدًا لدرجة شعر معها بأنَّ زواجه الجديد خيَّب أمله وأورث شيئًا من الندم في قلبه، وكأنَّ ما حقّقه ما عاد يثير اهتمامًا لديه. حين استدار، رأى لينغ لينغ تقف خلفه وقد بدت شاحبة للغاية. أدرك عمِّي أنَّها قد سمعت كلَّ ما قاله شقيقه، وشاهدته وهو يرمي وثائق الزواج. بدت كأنَّها تلقَّت صفعةً على وجهها للتوّ.

«لو كنت أعلم ذلك، لما طلبتُ هذه الوثائق أبدًا»، قال متذمّرًا.

حدَّقت لينغ لينغ إليه ولم تقل شيئًا.

وتابع: «اللعنة، أما كان بإمكاننا أن نعيش معًا بلا هذه الترّهات؟ وثائق زواج! من يهمُّه ذلك؟ هل كانوا سيقطعون رأسينا؟ هل كانوا سينبشون قبرينا بعدما دُفنّا معًا؟».

«أتظنّ أنّهم كانوا سيدفوننا معًا لو لم نكن متزوّجين؟»، سألته لينغ لينغ. «لم يكن أبوك وأخوك ليسمحا بذلك قطّ».

أخذت لينغ لينغ الوثائق من يد عمِّي وتفحّصتها عن كثب. وبعد أن تملَّت في كلِّ الكلمات والصور، نفضت الأوساخ بلطف، كأنّها كانت تغسل وجهها.

٣

ممّا يدعو إلى الغرابة أنّه وبمجرَّد أن حصلت هي وعمّي على وثائق الزواج، تراجعت حرارتها. انخفضت شدّة الحمَّى واستعادت لينغ لينغ قواها. بدا الأمر كما لو أنّها شُفيت، كأنَّها عادت إلى عافيتها. ورغم أنّها لا تزال نحيلة جدًّا، إلَّا أنَّها استرجعت عزيمتها وبعضًا من ألقها السابق.

بعد أن غادر أبي، كان موعد قيلولة لينغ لينغ وعمّي قد حان. غفا عمّي بسرعة، واستيقظ ليجد لينغ لينغ جالسة على حافة السرير، تنتظر استيقاظه. أثناء قيلولته، مسحت الأثاث وغلست الملابس وكنست الأرض. حتّى أنَّها تمكّنت من الخروج للقرية واشترت بعض علب السجائر وبضعة أرطال من سكاكر الفاكهة المغلَّفة بشكل احتفاليٍّ.

عندما رأى عمّي لينغ لينغ جالسة على حافة السرير ومبتسمة، سألها: «ما خطبُكِ؟».

ضحكت. «صرت بحالٍ أفضل. اختفت الحمَّى لديَّ». أخذت يده ووضعتها على جبهتها كي يحسَّ بذلك. «والآن أريد أن أخرج وأخبر كل أهالي القرية بأننا قد تزوّجنا!».

وضع عمّي يده على جبهتها من جديد، متسائلًا عمَّا إن كانت تهذي.

حملت كيس السكاكر ووضعته على السرير.

«ليانغ، بابا، أقسمُ لكَ أنّني أفضل بكثير. دعنا نذهب إلى القرية ونخبر الجميع بزواجنا. أعلم أنَّنا لن نستطيع إقامة احتفال كبيرٍ بسبب الحمَّى، ولكنّ أقل من يمكننا فعله هو توزيع الحلوى والسجائر وإعلان الأخبار السارّة!».

«رغم أنَّه الزواج الثاني لكلينا، لكنني ما زلتُ في الرابعة والعشرين من عمري، وهو نوعًا ما يُعدُّ زواجي الأوَّل»، قالت بحماسة. «هيّا، دعنا نخرج ونخبر الجميع! حين نعود، أعدك بأن أناديك بابا مئة مرّة أو حتّى أكثر... بقدر ما تريد».

«أسرع يا بابا»، أمسكت بيده. «ألا تريد أن نعود إلى البيت الليلةَ وتسمعني أناديك بابا مجدّدًا؟».

قادته نحو المغسلة، وبلَّلت منشفة وأخذت تغسل وجهه. حرصت على مسح طرفي عينيه وجانبي أنفه وفرك كفّيه وظاهر يديه. عندما انتهت، تناولت بنطالًا وقميصًا وساعدته على ارتداء ملابسه. وبعد أن زرَّرت قميص عمِّي، أمسكت بيد عمِّي، وبيدها الأخرى كيس السكاكر، وخرجا معًا، مثل أمٍّ تقود طفلها ليلعب في الخارج.

تنقّلا من بيت إلى آخر، يشهران زواجهما ويظهران الوثيقة. لقد باتا زوجًا وزوجة الآن، وبحوزتهما ما يثبت ذلك رسميًّا. من بيت إلى آخر تنقّلا، ينشران الأخبار السارّة ويوزّعان السكاكر والسجائر. أوّل بيت زاراه هو بيت جارتهما المسنّة، امرأة في أواخر الستينيات من العمر. قدَّمت لينغ لينغ حفنة من السكاكر نحو المرأة قائلة: «مرحبًا يا جدّتي. لقد أحضرنا لكِ حلوى الزفاف. أنا ودينغ ليانغ متزوّجان وقد حصلنا على الوثيقة للتوّ. وما دام الجميع مرضى في هذه الأيّام، ليس بوسعنا أن نقيم مأدبة، لذا أتينا إليكِ كي نزفّ الخبر السارّ».

وفي البيت الثاني، فتحت الباب امرأة في منتصف العمر. «مرحبًا يا عمّتي، ليانغ وأنا تزوّجنا للتوّ! وبسبب الحمّى لم نقم مأدبة، لذا أتينا إليكِ

لنزفّ الخبر ونحضر لك بعض حلوى الزفاف». بعد أن ملأت جيوب المرأة بالسكاكر، أخرجت لينغ لينغ وثيقة الزواج وأظهرتها للمرأة.

الباب الخامس الذي طرقاه كان باب بيت شياو تسوي؛ الشابّة المتزوّجة حديثًا. كانت الفتاة التي عادت مؤخرًا للعيش مع والدتها هي مَن فتحت الباب. يبدو أنَّ ثمّة خلاف بينها وبين زوجها، وهو رجل من قرية أخرى، غير أنَّ تفاصيل الخلاف لم تكن واضحة. بمجرَّد أن فُتح الباب، مرّرت لينغ لينغ وثيقة الزواج للشابّة وقالت: «شياو تسوي، هلّا نظرت في هذه الوثيقة وأخبرتْني إن كانت تشبه وثيقتكِ... لديّ شعور بأنَّها مزيّفة، اللون الأحمر غامق جدًّا أو شيء من هذا القبيل...».

«أليست تشبه الوثيقة التي حصلتِ عليها عندما تزوّجتِ دينغ شياو مينغ؟»، سألتْها الشابّة.

احمرَّت لينغ لينغ خجلًا. «قارنت بينهما مرارًا وتكرارًا، وما زلت أرى اختلافًا بينهما. اللون الأحمر في هذه الوثيقة يبدو غامقًا أكثر».

وقفت شياو تشوي عند المدخل، تقلّب الوثيقة بين يديها وتتفحّصها من كل الجوانب. حتّى أنَّها رفعتها نحو الشمس كأنَّها ورقة نقديّة مزوّرة. لكنّها لم تتمكّن من العثور على ما يثير الشبهة، وهذا ما قالته للينغ لينغ. «لا أرى أيّ اختلاف. إنّها مطابقة لوثيقتي بالحجم واللون والكلمات والأختام».

«حسنٌ، هذا مطمئن»، قالت لينغ لينغ وقد هدأت مخاوفها. استدارت وشقّت طريقها لاستكمال الجولة. بعد وهلة، تذكّرت أنَّها

لم تعطِ شياو تسوي شيئًا من حلوى الزفاف، فأسرعت عائدة إلى بيتها وأفرغت عدّة حفنات من السكاكر في يدَي شياو تسوي المقعّرتين.

بعد أن انعطفا عند الزاوية وكانا على وشك طرق أوّل بابٍ في الشارع التالي أدركت لينغ لينغ فجأة أنّها، حدَّ اللحظة، مَن كانت تقوم بكلِّ شيء. فبينما كانت تطرق على الأبواب وتزفُّ الخبر السعيد وتوزِّع السجائر والحلوى وتستقبل التهاني وتتبادل دردشات صغيرة مع هذا وذاك، وقفَ عمِّي خلفها، يبتسم ابتسامته الكسولة وهو يقضم بصوتٍ عالٍ سكاكر الزفاف. توقَّفت لينغ لينغ عند الباب وأنزلت يدها والتفتت إلى عمِّي قائلة: «حان دورك. هذا البيت كلُّ سكانه رجال، ولا بُدّ أنَّ رجلًا سيفتح الباب... لذا عليك أن تتولّى المهمّة».

حاول عمِّي الابتعاد لكنَّ لينغ لينغ أمسكت بيده وسحبته نحو الباب.

«حسن. لا تنسي ما وعدتِني به. ستناديني بابا مئة مرّة على الأقلّ هذه الليلة»، قال.

تضرّج خداها وأومأت برأسها.

ابتسم عمِّي. «هلّا قلتِها الآن، مرَّة واحدة فحسب».

«بابا».

«بصوتٍ أعلى».

«بابا!».

مبتسمًا، تقدَّم عمِّي وطرق على الباب.

«من هناك؟»، رنَّ صوت الرجل القادم من الفناء.

«هذا أنا يا عمِّي. أريدُ أن أستعير منك غرضًا».

عندما انفتح الباب، ابتسم عمِّي ومرَّر سيجارة للرجل وأشعلها له.

«ماذا تريد أن تستعير؟»، سأل الرجل.

«كنتُ أمزح. في الحقيقة أنا ولينغ لينغ تزوّجنا وحصلنا على الوثائق اليوم... لذا أصرَّتْ على أن نزور الجميع ونقدّم السجائر وسكاكر الزفاف».

في تلك اللحظة، افترَّ ثغر الرجل عن ابتسامة عريضة. «تهانينا يا صغاري! أخبارٌ سارّة! سعيدٌ جدًّا لأجلكما».

بعد وداع الرجل، انتقلا إلى البيت التالي؛ بيت دينغ شياو مينغ. وبعد أن استجمع عمِّي شجاعته وكان على وشك أن يطرق على الباب، أمسكته لينغ لينغ من ذراعه وسحبته بعيدًا.

وبعد جولة طويلة في القرية انتهت بتوزيع كلّ ما بحوزتهما من سجائر وحلوى، عادا إلى البيت لأخذ بعض المال حتّى يتمكّنا من شراء المزيد من الحلوى والسجائر من أجل أهالي المدرسة. لقد خطّطا لزيارة المدرسة وزفّ الخبر السعيد على جدِّي والآخرين. ولكن في طريقهما حدث شيءٌ ما؛ حادث بسيطٌ ذو عواقب وخيمة.

بينما كان عمِّي يسير في فناء بيته، تعثَّر بالعتبة الخشبيَّة وهوى أرضًا. تمزّقت ملابسه الصيفيَّة الرقيقة وانخدش مرفقاه وركبتاه وسال الدم. لم يكن الأمر خطيرًا، بعض الخدوش البسطية وبضع قطرات من الدم، غير أنَّ الألم الناجم عن الإصابات لم يكن شيئًا أمام الألم الشديد الذي

شعر به عمّي في سائر جسده. تسبَّب السقوط في شعوره بألمٍ باردٍ، ثاقبٍ انتشر بدءًا من عموده الفقريّ وجعله يتصبَّب عرقًا. أحسَّ به بمجرَّد أن جلس على الأرض وبدأ يمسح الدماء عن يديه.

«لينغ لينغ... الألم في كلّ مكان»، قال متأوهًا.

أسرعت به لينغ لينغ إلى السرير وساعدته على تنظيف جروحه ومسح العرق والدم عن وجهه وذراعيه وساقيه. جثم على السرير، حانيًا رأسه ومقوقعًا جسده. تساقطت قطرات العرق من جبهته على ملاءات السرير. شحبت شفتاه والتوتا، وكان جسده كلّه يرتجف تحت وطأة الألم. أمسك بيد لينغ لينغ بكلّ قوة حتّى انغرزت أظافره في لحمها وقال: «ماما... أخشى ألّا أقوى على تجاوز هذه الوعكة».

«ستكون على ما يرام يا بابا. تذكّر أولئك الذين أُصيبوا بالحمَّى في الوقت الذي أصابتك به... لقد ماتوا جميعًا وأنت ما زلت حيًّا، أليس كذلك؟ ستتمكَّن من الصمود، كعادتك».

اغرورقتْ عيناه بالدموع. «هذه المرَّة لا. أشعر بأنَّ الألمَ يهشِّم عظامي».

سقته لينغ لينغ شراب أعشابٍ تسكِّن الألم وأطعمته نصف وعاءٍ من الحساء. حين هدأ الألم قليلًا، جلست بجانبه وتحدّثا لفترة طويلة، عن أشياء كثيرة.

«أتظنُّ حقًّا أنّنا لن نتجاوز هذه المحنة؟»، سألتْه.

«لا أخال أنّني أستطيع ذلك»، أجاب بتجهُّم.

«ماذا سأفعلُ إذا متَّ؟».

«واصلي حياتك. عيشي كلَّ يومٍ من أيّامك الباقية. تأكّدي من أنّ أبي وأخي سيحفران قبرًا كبيرًا لنا. أريده أن يكون فسيحًا وعميقًا مثل بيت أو فناء».

«وماذا بشأن النعش؟».

«وعدني أخي بأن يمنحنا نعوشًا جيّدة... تلك المصنوعة من خشب الأرْز أو التونغ والتي يبلغ سماكتها ثلاثة إنشات على الأقلّ».

«ماذا لو لم يفِ بوعده؟».

«يظلُّ شقيقي.. .ومهما حدث نظلُّ عائلة واحدة. ما الذي قد يدفعه للكذب عليّ؟».

«ألم ترَ كيف رمى وثائق زواجنا على الأرض؟ ثمّ صرخ في وجهك قائلًا إنّك تقيم الدنيا وتقعدها وتضيّع ممتلكات العائلة من أجلي. واضحٌ أنَّه حاقد على زواجك بي. وإذا متَّ قبلي، ولم يعطني نعشًا ولم يحفر قبرًا كبيرًا يكفي كلينا، ماذا يفترض بي أن أفعل؟».

«وشيء آخر، ارتفعت أسعار النعوش بشكل جنونيٍّ. كان النعش اللائق لا يكلّف سوى أربعمئة أو خمسمئة يوان على الأكثر، أمَّا الآن فيبيعونه بسبعمئة أو ثمانمئة. إن أعطانا أخوك نعشين، فبحسبة بسيطة هذا يعني أنَّه تبرَّع بحوالي ألف وخمسمئة يوان... أتظنُّ حقًّا أنَّه على استعداد للتخلِّي عن هذا المبلغ من المال؟».

«صدقًا يا ليانغ، إذا قرَّر شقيقك ألَّا يعطيني نعشًا، فلا قدرة لي على فعل شيءٍ. وإذا كان على أحدنا أن يموت أوَّلًا فينبغي أن يكون أنا. بهذه الطريقة ستتأكَّد أنَّهم حفروا قبرًا كبيرًا يكفينا معًا، وأنَّهم منحونا

نعشين فاخرين، جميلين كالبيت. لذا عليك أن تبقى على قيد الحياة يا أبي، حسنٌ؟ وإن كان على أحدنا أن يرحل، فليكن أنا».

تحدّثا بلا انقطاع، وبالكاد توقّفا لالتقاط أنفاسهما. تحدّثا حتّى وقت متأخر من الليل، حتّى كاد ينسى ألمه. كان من المفترض في هذه الليلة أن تناديه لينغ لينغ «بابا» مرارًا وتكرارًا، مئة مرّة. لقد وعدته بأن تعتني به، بأن تخدمه كما يحلو له، بأن يحظى بالراحة والمتعة. بيد أنَّ الحمَّى أحكمت قبضتها عليه الآن وقد تجذَّر الألمُ بداخله. لولا صوت لينغ لينغ لما كان قادر على التحمُّل. الإصابة التي بدأت كجرحٍ في اللحمِ، مجرَّد شقٍّ في الجلد، صارت أعمق الآن، بسبب عجز جسده عن المقاومة. ولأنَّه فقد القدرة على مقاومة الألم أيضًا، أصبحت الوخزة الصغيرة وجعًا مبرِّحًا في مفاصله وعظامه. ألمٌ تغلغل إلى نخاعهِ مثل سكاكين ملتهبة تنغرس في مفاصله وتثقبها وتقتلعها. مثل قضبان معدنيَّة تخلخل هيكله، أو مثل إبرة صدئة، مسلّحة بلولبٍ، تخترق عموده الفقري. كان من نوع الألم الذي يفوق قدرة البشر. أطبق عمِّي فكّيه حتّى آلمته أسنانه وتصبَّب العرق على وجهه غزيرًا.

كان الليل غير متناهٍ كالطريق عبر السهل. تسلَّل ضوء القمر الحليبيّ الشاحب عبر الستائر وسُمعت صرصرة الحشرات قادمة من خارج النافذة. الجوُّ خانق. شعر عمِّي، تحت وطأة الألم، بأنَّ روحه مشتعلة، مثل كومة من الجمر الملتهب. مثل كير الحدَّاد الحامي لدرجةٍ تصهر المعدن. كان مستحيلًا أن يعثر على وضعيّة مريحة؛ جرّب أن يتكوَّر في منتصف السرير، كالقُرَيدس، رافعًا مؤخرته في الهواء، ثمّ تهاوى على

الملاءات واستلقى بوضعيّة الجنين، كقريدس ميت متقوقع ككرّة، حاول بعدها أن يتمدَّد على الأرض، ضامًّا ركبتيه إلى صدره، كقريدس ميت مرميٍّ على ظهره. كقريدس مرَّ حينٌ على موته. كانت هذه هي الوضعيَّة الوحيدة التي خفّفت عنه بعض الألم. بعض الألم لا كلّه. على نحوٍ لم يمنعه من البكاء.

«ربّاه... لا أستطيع أن أتحمَّل أكثر من ذلك... أنا أموت يا لينغ لينغ يا ماما، أعطيني شيئًا يوقف هذا الألم».

صرخ وبكى ونشب أظافره بالملاءات. كان غارقًا في عرقه، تلتصق أغطية السرير بجسده. حاولت لينغ لينغ أن تمسح قطرات العرق وتواصل الحديث قائلة الأشياء التي يحلو له سماعها. أيّ شيءٍ من شأنه تخفيف آلامه؛ أيّ شيءٍ من شأنه أن يلامس روحه. حين لا يعجبه ما يسمعه، كان يضرب الوسادة بقبضتيه ويصرخ: «الألم يذبحني وأنتِ تقولين هذه الأشياء لي؟!».

فتمسح لينغ لينغ عرقه بمنشفة مبلَّلة وتغيّر الموضوع.

«بابا... أريد أن أسألكَ سؤالًا من دون أن تغضب».

أدار عمّي رأسه نحوها. كانت قطرات العرق تتلألأ على جبهته.

«مَن هو حبيب تينغ تينغ الجديد في قريتها؟».

«ما بكِ يا ماما؟ فيَّ ما يكفي من الألم!».

ابتسمتْ. «حسنٌ، بغض النظر عمّن يكون، فمن المستحيل أن يكونا أسعد منّا».

هدأ عمِّي قليلًا.

«لا أظنُّ أنَّ تينغ تينغ تنادي رجلها «بابا» مثلما أفعلُ. ولا أظنُّ أنَّه ناداها «ماما» يومًا... أنا زوجتك الحقيقيَّة الآن يا بابا. ولكن حتّى قبل هذه المرحلة، كنتُ زوجتك في أيِّ وقتٍ أردتَه. داخل المدرسة وخارجها، في حقول القمح أو في بيتنا الصغير عند البيدر... في أيّ وقت، ليلًا أم نهارًا، وقتما كنت تشاء. ما كان عليك سوى أن تطلب، وما كنتُ لأمانع قطّ. أعطيتك دومًا كلّ ما تريد... حين طلبت شيئًا حلوًا، أعددتُه لك. وحين طلبتَ شيئًا مالحًا، أعددتُه لك... لم أدعك تقترب من الموقد، ولم أسمح ليديك أن تتبلّلا بغسل الثياب. أعتقد أنّني لم أقصّر بحقّك، أليس كذلك؟».

وقبل أن يتمكّن من الإجابة، قالت: «نعم، لقد أدّيتُ كلَّ ذلك كما تؤدّيه الزوجة».

بدا الأمر كأنَّها لم تتوقّع منه ردًّا، كأنَّها تتساءل في قرارة نفسها. «وحين أردتني أن أكون أمّك، احتضنتُك وهدهدتُ عليك وألقمتُك نهدي وربّتُّ على ظهرك مثل طفل على وشك النوم. وحين أردتني أن أكون ابنتك، ناديتكُ بابا، عشر مرَّات على الأقلّ في اليوم، كما لو كنت والدي الحقيقيّ. لم أخبرك بأنّني ذات يومٍ أحصيتُ عدد المرات التي ناديتُكَ فيها بابا، وزادتْ على الخمسين. في حين أنَّك، في ذلك اليوم، ناديتني ماما مرَّة واحدة فقط، وذلك فقط لأنّك أردتني أن أغسل قدميك. وكان ذلك كافيًا بالنسبة لي. كنتُ سعيدة وأنا أفرك قدميك ثم أشطفهما بالماء. وفي إحدى المرَّات، أيقظتني في منتصف الليل كي

أحمِّك... أريدكَ أن تخبرَني يا ليانغ، بصراحة، هل قصَّرتُ بحقِّك يومًا؟ هل كنت غير مخلصة تجاهك؟».

حدَّقت لينغ لينغ إلى عمِّي تحديقة المجنيِّ عليها.

«أخبرني يا بابا... هل قصَّرتُ بحقِّك يومًا؟ هل كنتُ غير مخلصة تجاهك؟».

كان عمِّي يدرك أنَّها لم تقصِّر بحقِّه. لقد ظنَّ أنَّه أيضًا لم يقصِّر بحقّها، غير أنَّ كلامها أوحى إليه بأنَّه فعل شيئًا أزعجها أو آلمها بطريقةٍ ما. لم يستطع أن يفكّر في ماهيّة هذا الشيء. أو ربّما هذه الأشياء. كلَّ ما استطاع فعله هو أن يبدوَ معتذرًا، مثل رجلٍ يواجه زوجةً غاضبة أو أمًّا متذمِّرة أو أختًا ناقمة.

كانت لينغ لينغ التي لا ترتدي سوى سروال قصير وقميص نومٍ قطنيّ رقيق جالسة على حافة السرير، ممكسة بيد عمِّي. كانت قد باعدت بين أصابعه وراحت تقرصها واحدًا تلو الآخر، كأنَّها تعدُّها. بدت غير واعية بما تفعل. عندما نظرت إليه، غمرت الحمرة وجنتيها. ورغم النحول الشديد الذي أصابها، إلا أنَّ توهُّجًا ورديًّا كثيفًا أضاء بشرتها. بدت كفتاة خجولة، تجلس بقرب صبيٍّ لأوّل مرّة وتتشارك معه أوَّل محادثة حميمة لها. الضوء الخافت منح الغرفة رونقًا ناعمًا ولطيفًا. في وقت سابق من ذلك المساء، كان البعوض يطنُّ في كلّ أنحاء الغرفة، أمَّا الآن، فقد هدأ، وبات غير مرئيّ، كأنّه ينصت إلى صوت لينغ لينغ. غياب البعوض غمر الغرفة بالهدوء والراحة.

ساد سكونٌ لطيف، دافئ وناعم.

ما عاد عمّي جاثمًا، أو متقوقعًا كقريدس، أو مضطجعًا كجنين. استلقى على جنبه، مادًّا ساقيه، مسندًا رأسه على الوسادة، لا يشكو من الألم أو من حرارة الغرفة العالية، غارقًا في الاستماع إلى حديث لينغ لينغ. مثل طفل ينصت إلى أمّه إذ تروي قصّة، أو مثل صبيّ يستمع إلى حكايات عن أشياء فعلها قبل زمن طويل ونسيها.

«لم أقصِّر معك قطُّ يا بابا. فلماذا تقول إنّك لن تصمد؟ لماذا تستمرّ في القول إنَّك لن تتغلّب على هذه الوعكة؟ بالطبع سوف تتمكّن من ذلك. فكّر في كل الأشخاص الذي ماتوا بسبب الحمَّى. دائمًا ما يموتُ أوّلًا الأشخاص الذي يعانون من مشكلات في الكبد، يليهم الأشخاص الذي يعانون من أمراض في الرئتين أو المعدة. ما دمتَ لا تعاني إلّا من الحمّى، فالموت بعيدٌ جدًا، ومع وجود آلام العظام، فهذا يعني أنّه أبعد بكثير حتّى. رئتاك ومعدتك بخير، ولم أسمعك تشكو يومًا من كبدك. قل لي إذًا لماذا تعتقد أنَّك ستموت قريبًا؟».

وتابعت: «أعلم أنَّك تتألّم، ولكن الجميع يقولون إنَّ آلام العظام تستغرق وقتًا طويلًا حتّى تسبّب الموت. لذا، عندما تصرخ قائلًا إنّك تموت، ألا يعني هذا أنّك لا تريد الحياة؟ أقصد، أليس هذا مجرّد طلبٍ لمجيء الموت؟ حثّ له على الإسراع؟ لا ينبغي لك أن تنادي الموت. لماذا تفعل ذلك؟ ألأنني قصّرت بحقّك؟ ألهذا ترغب في مفارقتي قريبًا؟ أم أنّك تعتقد أنّ الحياة باتت بلا جدوى منذ أن أصابتك الحمّى؟».

«انظر إليّ فحسب، يا بابا. في اللحظة التي حصلنا فيها على وثائق الزواج، تلاشت الحمّى التي كنت أعاني منها منذ أسبوعين. اختفت

وأن الآن بحالة جيدة، كأنّي خلقت من جديد. هل تعرف لماذا؟ لأنني أحبّك. لأنني أحببتُ زواجي بك. كأننا في شهر العسل. أعني... لقد حصلنا على وثائق الزواج للتوّ، وهذا هو أوّل أيام زواجنا. لكننا لم ننم معًا حتّى الآن، لم ننم رسميًّا على الأقلّ. فكيف تحدّثني عن الموت؟ آه؟».

«أما زلتَ تحبّني يا ليانغ؟ إذا كنت تحبّني يا بابا، وما زلت تهتمّ بي كما كنتَ، فأرجو أن تكفَّ عن حديث الموت. توقّف عن قول ذلك. فكِّر بي فحسب، ونادِني ماما، ودعني أعتني بك. سأفعل كل ما يحلو لك... سأطعمك وألبسك وسأساعدك في السرير حتّى».

«الآن، بعد أن تزوّجنا، أصبحنا عائلة بشكل رسميّ. لقد ناديتُك بابا كثيرًا، ولكن لم تسنح لي الفرصة لأن أنادي والد زوجي: يا أبي. الأستاذ دينغ بات أبي الآن. أريد أن أذهب غدًا إلى المدرسة وأدعوه كي يعيش معنا. أستطيع أن أعتني بكما معًا. سأطهو وأنظّف وأغسل ملابسكما، وعندما أستعيد قوّتي، سأحيك السترات والسراويل الصوفيّة لكما. لم ترَ بعد مدى مهارتي في الحياكة. فيما مضى، كان كلُّ الجيران يأتون إلى بيتنا ويطلبون إليَّ أن أحيك لهم السُّترات».

لاحظت لينغ لينغ أنَّ عيني عمِّي مغمضتان.

«هل غفوتَ يا بابا؟».

«أشعر بثقلٍ في أجفاني».

«هل خفَّ الألم؟».

«نعم، يبدو أنَّه اختفى. لا أشعر بالألم إطلاقًا».

«أغمض عينيك من جديد وحاول أن تغفو... كلّ شيءٍ سيكون على ما يرام في الصباح. سنستيقظ في وقتٍ متأخر غدًا، وقد نبقى في السرير طوال النهار. سننام إلى أن تشرق الشمس فوق ظهورنا ثمّ نفطر وقت الغداء».

بينما كانت تتحدّث، انغلقت عينا عمّي، كأنّهما محمّلتين بأكوام من الحجارة. ظنّت أنّه نائم حتّى تمتم قائلًا: «لا أشعر بالألم، بل بحرارة في كلّ مكان. أشعر بأنّ صدري يحترق».

«ماذا عليّ أن أفعل؟».

«امسحي جسمي بمنشفة مبلّلة».

غمستْ لينغ لينغ منشفة في حوض من الماء الفاتر ومسحت بها صدر عمّي وظهره. «هل شعرتَ بتحسُّن؟»، سألتْه بعدما انتهت.

«صدري ما زال يحترق»، أجاب عمّي من دون أن يفتح عينيه. «هلّا أحضرتِ لي بعض الثلج؟».

رغم أنّ الليل قد انتصف، خرجت لينغ لينغ إلى بئر القرية وسحبت بعض الماء المثلّج. وعندما عادت، بلّلت المنشفة بالماء البارد ورطّبت بها جسد عمّي. «هكذا أفضل؟».

أجاب عمّي وهو يفتح عينيه: «قليلًا».

سرعان ما أصبحت المنشفة دافئة بعد ملامستها جلده الساخن. تقلّب عمّي من شدّة الضيق الذي أطبق عليه، وتقوقع من جديد.

«أحترق. أرجوكِ أحضري لي بعض الثلج».

فكَّرت لينغ لينغ للحظةٍ ثمّ خلعت ملابسها الصيفية الخفيفة وعلّقتها على عمود السرير وخرجت مع المنشفة المبلَّلة. كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل، والصقيع يتصاعد من الأرض متسرّبًا إلى الحقول. هبَّت ريح قارصة في الفناء وحوّلته إلى بئر عميق مظلم. القمر متوارٍ، وليس هناك سوى النجوم في الأعالي وضباب بعيد يخيّم فوق السهل الغربيّ. تغلغل صمت القرية البارد إلى الفناء، مصطدمًا بالجدارن. وقفت لينغ لينغ عارية تمامًا وسط الفِناء بجوار دلو الماء وراحت تسكب الماء البارد على جسدها حتّى تبلَّلت وارتشعت من البرد. ارتعشت على نحوٍ لم تستطع التحكّم به، ثمّ جفّفت جسدها بالمنشفة وانتعلت حذاءها ودخلت إلى البيت بسرعة. انسلّت في السرير بجوار عمِّي وضغطت جسدها البارد على جسده اللاهب، كأنَّها رقاقة ثلجٍ بشريّة.

«هل هذا أفضل يا بابا؟».

«أنتِ لطيفة ورائعة جدًّا».

ظلَّت لينغ لينغ ملتصقة بعمِّي حتّى نام، تاركةً جسدها البارد يمتصّ حرارته ويخلّصه من الحمّى. عندما انتقلت الحرارة من جسده إلى جسدها، راح يشكو مجدّدًا من شعوره بالاحتراق. ركضت لينغ لينغ إلى الفناء وغمرت نفسها بالماء البارد حتّى بدأت تسعل وترتعش، ثم هرعت عائدة إلى غرفة النوم لتضغط جسدها على جسده وتمتصّ حرارته ونيرانه. مرارًا وتكرارًا قفزت من السرير إلى الفناء لتغمر نفسها بالماء ثم تعود إلى السرير تسعل وترتعش. بعد المرَّة السادسة، بدا كأنَّ الحُمَّى قد غادرت جسد عمِّي الذي دخلَ في سُباتٍ هادئ وراح يشخر بصوتٍ عالٍ.

٤

كان عمّي يشخر كما النافخ في الكير. عكَّر شخيره الغرفة مثلِ سيلٍ موحلٍ مرَّغ أحد الحقول. كان الوقت متأخّرًا في الصباح والشمس قد أشرقت منذ ساعات طويلة. حين أفاق عمّي من أحلامه، كانت الحمَّى التي اعترته قد تلاشت وأحسَّ بارتخاءٍ ورقّة في جسده، كأنَّه خرج للتوّ من حمَّام ساخن بعد يومٍ طويلٍ من الكدّ في الحقول. فتح عيناه وأدرك أن لينغ لينغ لم تكن نائمة بجانبه. آخر ما يتذكّره هو أنّها كانت مستلقية بالقرب منه، وجسدها العاري ناعمٌ وباردٌ كعمودٍ من اليشم. نام وهو يحتضن برودتها، ولكن عندما استيقظ لم تكن في السرير.

لم تكن في السرير لأنَّها لم تنم في السرير. كانت مستلقية بكامل ملابسها على حصيرة من القشّ على الأرض.

في الليلة السابقة، بعد أن نام عمّي، فردت لينغ لينغ حصيرة قشٍّ جديدة على الأرض واختارت ملابس جميلة وارتدتها: تنورة زرقاء وبلوزة قطنية ورديَّة فاتحة، ورغم أنَّ الطقس صيفيّ، اختارت زوجًا من الجوارب الحريريَّة. كانت قد ارتدت ملابسها ومشَّطت شعرها بعناية كأنَّها تستعدُّ للخروج. كانت الجوارب ذات اللون اللحميِّ والتنورة ذات اللون القمريِّ، والبلوزة التي يشبه لونها غروبَ الشمسِ في الشتاء، منتقاة بمهارةٍ وبتناسقٍ جيّد يعطي انطباعًا منعشًا ولطيفًا وممتعًا للناظر. ممتعًا لعينَيْ عميّ، وهذا هو سبب اختيارها لهذه الملابس.

بكامل هندامها، استلقت لينغ لينغ على حصيرة القشّ وغرقت في النوم. لقد ماتت وهي نائمة. حتّى في أوجِ الموت بدت وكأنَّها نائمة.

كانت أساريرها منكمشة، قليلًا فحسب، كأنَّها كابدت قليلًا. ولكن في الأعمّ الأغلب، بدا وجهها هادئًا مسالمًا.

عندما جلس عمِّي في السرير، ورآها مستلقية على الأرض، ناداها باسمها. لكنّها لم تجب، فناداها ماما. وعندما لم تستجب، قفز من السرير وجثا بجوارها وراح يصرخ عليها كي تستيقظ. كاد قلبه يتوقّف حين أدرك أنَّها لا تسمعه. وخشية من أنّها ماتت بالفعل، سحب يدها وحوَّط رأسها بين ذراعيه وراح يصيح: «ماما... ماما...».

لم تتحرّك لينغ لينغ بعد أن أخذها بين ذراعيه. ظلَّ رأسها متكئًا على صدره. بدت مثل فتاةٍ لا تستطيع أن تستفيق. ورغم التورُّد الخافت المتبقّي في خدّيها، إلا أنَّ شفتيها بدتا جافّتين ومتشقّقتين كأجنحة يعسوب. لقد أدرك أنَّها عانت من حمّى شديدة قبيل موتها، حمَّى نجمت عن غمر جسدها عدَّة مرَّات في الماء المتجمِّد الليلة السابقة.

بينما احتدمت الحمَّى لدى أحدهما، تفاقمت بضراوةٍ لدى الآخر فأجهزت عليه وأخذت من هذا العالَم رغمًا عنه. أخذتْها الحمَّى من قرية دينغ ومن عمِّي. كأنّما كانت موقنة من موتها، لكنّها لم ترغب في إزعاج نومِ عمِّي، لذا نهضت من السرير وارتدت أجمل ملابسها واستلقت على الأرضِ تاركة الحمَّى تستحوذ عليها.

لقد أحرقتْها الحمَّى وهي حيَّة. بدت شفتاها الجافّتان متفحّمتين. ومع ذلك، فقد ارتسمت عليهما ابتسامة باهتة، ابتسامة الرضا عمَّا فعلته من أجل عمِّي، وعمَّا فعلته في حياتها. ابتسامة بلا ندمٍ.

الفصل الخامس

١

عندما وصل جدِّي إلى البيت، كان عمِّي قد غرز السكّين في فخذه وقد تدفَّق منه ينبوع الدم. في اليوم السابق، كاد يقتله الألم بعد أن سقط في الفناء. أمَّا جرح ساقه هذا فكفيلٌ بأن يجهز عليه. لقد جاء دوره ليموت. كانت لينغ لينغ مستلقية على الأرض، تنتظره أن ينضمَّ إليها، وكان عمِّي في عجلةٍ من أمره للحاق بها.

بسرعة الريح ظهرَ جدِّي عند عتبة الباب، مثل شخصيّة خارجة من حلم. كان قد تجشّم العناء ليخرج من حلمه ويشقّ طريقه، بطريقةٍ ما، إلى بيت عمِّي. حين وصل كان ابنه قد مات بالفعل. لقد فاز عمِّي في سباقه مع الموت وتمكَّن من اللحاق بلينغ لينغ.

توفّي حوالي الظهيرة. كانت القرية دافئة وصامتة كما في اليوم السابق، وقد غرق أهالي القرية في قيلولة منتصف النهار. داخل المدرسة، بحث المرضى عن بقعةٍ من الظلِّ يمكنهم الاستلقاء فيها وأخذ قسط من الراحة. كان جدِّي غارقًا في حلمه. وفي حالته المشوَّشة تلك، تخيَّل

أنَّه سمع صوت لينغ لينغ وهي تصرخ: «بابا... بابا... بابا...». كانت صرخاتها تخترق الهواء مثل شفرات حادّة. معتقدًا أنّها كانت تناديه، نهض جدِّي في سريره ونظر في أرجاء الغرفة، لكنّ لينغ لينغ لم تكن هناك. استلقى من جديد واستعان بطنين الزيزان القادم من خارج النافذة كي يساعده على الغرق في النوم من جديد. مرّة أخرى سمع صرخات ثاقبة، أصوات مضطربة ترنُّ في أذنيه. عرف جدِّي أنَّه كان يحلم، لكنَّه سمح للحلم أن يغمره، وأن يسحبه موجُ المدِّ، متجاوزًا المدرسة، عابرًا السهل، إلى القرية ونحو صوتِ لينغ لينغ...

رأى جدِّي عمِّي يخرج من بيته إلى الفناء. كانت لينغ لينغ على الأرض خلفه، تتشبّث بساقه وتبكي. «بابا، لا تفعل ذلك! أنتَ لا تريد أن ينتهي بكَ المطاف مثلي...». لم يفهم جدِّي لماذا كانت لينغ لينغ تنادي زوجها بابا، بدلًا من اسمه.

في حيرةٍ من أمره، وقف جدِّي في الفناء وراقبهما وهما يصرخان ويتصارعان كأنَّه يشاهد عرضًا مسرحيًا. رأى لينغ لينغ تمسك بساق عمِّي وتحاول منعه من المغادرة، لكنّها كانت ضعيفة وهشّة بحيث لم تستطع أن تقف في وجهه. بدأ عمِّي يعبر الفناء جارًّا لينغ لينغ خلفه.

كان الفناء كما كان عليه قبل أن ينتقل عمِّي ولينغ لينغ ليعيشا معًا. فيه أشجار الپولونيا وارفة الظلال. تدفّقت أشعّة الشمس الساطعة عبر الفجوات بين الأوراق، تاركةً بركًا متناثرة من الضوء على الأرض الظليلة الباردة. كان هناك حبل الغسيل نفسه المعلَّق بين شجرتين أُصيب جذعهما بندوبٍ عميقة بسبب الأسلاك المعدنيَّة الملفوفة حولهما.

هناك معاول ومجارف صدئة مسنودة على الجدار الخارجيّ، وحوض لإطعام الخنازير عند باب المطبخ. رحلت تينغ تينغ وخنازيرها لكنّ الحوض المهجور بقي مكانه. بالكاد تغيَّر أيُّ شيء. كان الفارق الوحيد دلوًا من الألمنيوم، نصف ملأى بالماء، تركها أحدهم بلا مبالاة وسط الفناء، بحيث يمكن أن يتعثَّر فيها أيُّ شخص. عندما لا تكون الدلو قيد الاستعمال، كنت تجدها في المطبخ، لذا خمَّن جدِّي أن أحدًا استخدمها للاغتسال في نهارٍ صيفيٍّ حارٍّ ونسيَ إعادتها إلى المطبخ.

عندما مرَّ عمِّي عبر الفناء، توقَّف وحدَّق في الدلو لبضع ثوانٍ قبل أن يدخل عارجًا إلى المطبخ. كانت لينغ لينغ لا تزال ممسكة بساقه. عندما التقط عمِّي سكينًا من لوح التقطيع ورفعه فوق رأسه، افترض جدِّي أنَّه كان ينوي طعن لينغ لينغ. كان على وشك الاندفاع لإيقافه حين رأى ابنه يرفع ساقه اليسرى ويضع قدمه على لوح التقطيع ويغرس السكين في فخذه.

عندما انغرزت السكين في اللحم، صرخ عمِّي: «أيّها الوغد، لقد ماتت زوجتك، فلماذا لا تزال على قيد الحياة؟».

تجمّد جدِّي بعدما سمع صراخ عمِّي. رأى وميضًا لشيءٍ أبيض، انعكس ضوء الشمس على نصل السكين، ثمّ رأى تيارًا من الدماء بعد أن سحب عمِّي السكين من فخذه. تدفَّق الدم من الجرح كنافورة، كان التيّار بشكل حبَّة فطرٍ تتناثر منها قطرات الدم على الأرض مثل لآلئ حُمرٍ لامعة. اخترق شعاع الشمس نافذة المطبخ وحوَّل النافورة إلى عمودٍ نصف شفّاف من الدم، عمودٍ من الزجاج الأحمر المتلألئ عالقٍ في ساق

عمِّي. تطاير الدم عاليًا ثمّ تقوّس في الهواء قبل أن يتساقط على الأرض أو ينساب على ساقه. تناثرت قطرات الدم على الأرض مثل حبوب القمحِ على أرضيّة غرفة البيدر.

فجأةً صمتت لينغ لينغ التي كانت جاثية على الأرض تبكي. شحب لونها على نحوٍ مروّعٍ وتبلَّل وجهها بالدمع.

«أوه يا بابا»، انتحبت. «لماذا كنتَ غبيًّا لهذا الحدّ؟ ألستَ من كان يقول دومًا إنّه ينبغي استغلال كلّ يوم نحظى به وعيشه حتى آخر رمق. لماذا تعجّلتَ في اللحاق بي؟».

ابتسم عمِّي نحوها. كانت ابتسامة سقيمة وضعيفة، كأنّه خائر القوى. لم تبقَ على وجهه طويلًا. اعترت جسده موجة مباغتة من الألم، دفعته لأن يسقط السكين ويقبض على ساقه ويلفّ كلتا يديه حول الجرح الذي اخترق لحمه حتّى العظم. متلوِّيًا من الألم، جثم بجوار لوح التقطيع، وكانت جبهته مغطّاة بقطرات العرق...

انتزعَ جدِّي نفسه من الحلم وقفز من السرير. هرع إلى بيت عمِّي عابرًا أقصر طريق يعرفه. عندما اقتحم البوَّابة، رأى دلو الألمنيوم اللامعة في منتصف الفناء، تمامًا كما رآها في الحلم. كانت الدلو نصف ملأى بالماء، والمغرفة تتمايل على سطحه مثل زورق صغير. تطنُّ الحشرات في أشجار البولونيا، وطنينها يتساقط من الأغصان كثمار الفاكهة الناضجة. بين البرك المتناثرة لضوء الشمس، رأى جدِّي أثرًا من الدم يتدفَّق من المطبخ إلى داخل البيت، خيطًا أحمر طويلًا يتعرَّج عبر الفناء. الهواء عابقٌ برائحة الدم الكريهة. حدَّق جدِّي حوله مذهولًا، وسرعان

ما دخل إلى البيت واقتحم باب غرفة النوم. بمجرَّد أن وقعت عيناه على عمِّي الممدَّد على الأرض بجانب لينغ لينغ، عرف أنَّ ابنه قد مات، أنَّ كليهما قد مات. دينغ ليانغ وعروسه كانا مستلقيَيْن وجهًا لوجهٍ على حصيرة من القش. وكان طرف تنورتها، المبلَّلة بدمائه، قد تفتّحت فيه أزهارٌ حُمر زاهية.

٢

كانت الجنائز مجرَّد مظاهر خارجيَّة. في بعض الأحيان كانت وسيلة لإعادة تأهيل سمعة المرء أو لتصفية حسابات قديمة.

وهكذا تراكمت الجثث. توفّي دينغ شياو يويه، شقيق دينغ يويه جي الصغير يومَ وفاة عمِّي. كما فقد جيا غن تشو شقيقه الصغير، جيا غن باو، في اليوم نفسه الذي فارق فيه عمِّي لينغ لينغ. أربع وفيات في غضون أقلِّ من يومين. أربعة جثامين يجب دفنها، ولكن ليس هناك ما يكفي من الأيدي التي تساعد لإتمام ذلك. حين ذهب جدِّي إلى القرية كي يطلب المساعدة في حفر القبر، وجد أنَّ دينغ يويه جي وجيا غن تشو قد سبقاه. كلّ الذين طلب جدِّي منهم المساعدة قالوا الإجابة نفسها ولكن بطرق مختلفة:

«آسف فقد وعدتُ بتقديم المساعدة للمدير جيا (أو المدير دينغ)».

«إن كان بوسعك الانتظار بضعة أيّام ريثما ندفن شياو يويه وغن باو، سيكون من دواعي سروري أن أساعدكَ».

«لقد مات غن باو قبل لينغ لينغ، وسبق شياو يويه ليانغ ببضع

ساعات... أنت تعلم كيف تجري الأمور بالنسبة للدفن، مَن يمت أوّلًا يُدفن أوّلًا».

عندما ذهب جدِّي إلى بيت جيا غن تشو ليسأل عمّا إذا كان بإمكانه الاستغناء عن بعض الرجال، حدَّق فيه غن تشو لفترة طويلة قبل أن يتحدَّث. وأخيرًا قال: «لماذا لا تطلب مساعدة ابنك؟ سمعتُ أن كبار المسؤولين يقدّمون نعوش جميلة لرؤساء كلّ فرق العمل في القرية، مكافأةً لهم على عملهم الشاقّ. أنا ويويه جي مديران لفريق العمل في القرية، فلماذا لا تذهب وتسأل ابنك عن النعوش المخصصّة لنا؟».

عندما ذهب جدِّي لطلب المساعدة من ابن أخيه دينغ يويه جي، رفع الشاب ذقنه وحدَّق في السماء. «قل لي يا عمِّي... كيف حصل كلُّ مسؤولي القرى الأخرى على نعوش مجانية من كبار المسؤولين؛ بينما لم يعطنا هوي شيئًا؟».

عاد جدِّي مسرعًا إلى بيت عمِّي، خائب الرجاء. جلس بجانب جثمان ابنه وزوجته، يحدِّق تارة إلى السماء وتارة إلى الأرض، مرتقبًا عودة ابنه هوي من عمله في المدينة.

وصل هوي إلى البيت بعد الغسق. عندما رأى الجثمانين موضوعين فوق بابين خشبيين في غرفة المعيشة هزَّ رأسه وتنهَّد. لفترة طويلة، جلس وجدِّي في الفناء المضاء بنور القمر، وقد طأطأا رأسيهما، كلٌّ منهما منغمس في أفكاره الخاصّة. كان الليل صامتًا ساكنًا، كأنَّ ما من روحٍ حيّة تبقَّت في القرية. بعد منتصف الليل بقليل، سمعا وقع خطى. كان

الرجال الذين ذهبوا لحفر قبرَي يويه جي وغن تشو قد عادوا إلى القرية ومرّوا أمام البوَّابة الأماميَّة. رفع جدِّي رأسه ونظر إلى ابنه.

«ليس بوسعنا الانتظار. ينبغي أن ندفنهما. إذا مرَّ يوم آخر فستبدأ الجثث بالتعفنّ».

وتابع: «لقد رأيتَ كيف هو الأمر يا هوي... ليست المسألة أنَّه لا يوجد ما يكفي من الرجال للمساعدة، بل أنَّ أهالي القرية يكرهوننا. كان عليك أن تسمع كلامي حين أُتيحت لك الفرصة. لو أنَّك جثوت على ركبتيك وقدّمت اعتذارك لما وصلنا إلى هذا الحضيض».

رفع دينغ هوي قدميه ببطءٍ. نظر إلى أبيه ثمّ إلى جثّتَي أخيه ولينغ لينغ وأطلق شخرةً ساخرة.

«لا تقلق يا أبي. سأقيم لهما جنازة لم يشهدها أحدٌ من قبل، وسأفعل ذلك دون أن أطلب مساعدة أيّ أحدٍ في قرية دينغ. حتّى المجرفة لن أستعيرها منهم، انتظر وسترى بعينك».

وهكذا، خرج دينغ هوي من الفناء وتوجّه إلى البيت. سار بسرعة وغضبٍ، قدماه تخبطان الشوارع بقوّة كافية لتفكيك الحصى المرصوف أو لجعل الحجارة تتطاير في أنحاء القرية والسهل.

وظلَّ جدِّي وحيدًا، يراقب الجثتين.

٣

مرَّت الليلة بصمتٍ وهدوء. ولكن في اليوم التالي، مع بزوغ الفجر، ظهرت مجموعة من الرجال الغرباء في قرية دينغ، حوالي عشرة

من الرجال الأشدّاء الأقوياء الذين ينحدرون من قرى مجاورة وتتراوح أعمارهم بين الثلاثين والأربعين عامًا، يتمتَّعون بسنوات من الخبرة في الحفر وبناء القبور. وصلوا برفقة رجلٍ مسنٍّ علم أهالي القرية فيما بعد أنَّه نقَّاش كبير في السبعين من العمر. استغرق الأمر يومًا واحدًا كي يحفروا قبر لينغ لينغ وعمِّي. في أرض عائلتنا الواقعة جنوب غرب القرية حفروا خندقًا بجوار قبر جدّتي، فتحوا له مدخلًا من أحد الجوانب، ثمّ شرعوا في حفر حجرة الدفن الكبيرة تحت الأرض. كان القبر واسعًا كبيتٍ صغيرٍ، أكبر بكثير من أيّ قبرٍ عاديٍّ. فبحلول ذلك الوقت، بعد أن اجتاحت الحمَّى السهل ومات الناس بأعداد كبيرة وتساقطوا كأوراق الخريف، تعيَّن تقليص حجم القبور إلى النصف مع تراكم الجثث التي ينبغي دفنها. لكنَّ قبر عمِّي كان ذا حجمٍ ملكيٍّ، قبرًا مبنيًّا لاستيعاب شخصين، وكان يفوق حتّى تلك القبور العائليَّة التي اعتاد الناس أن يحفروها قبل الحمَّى. كان قبر عمِّي أكبر منها كلّها؛ أكبر بكثير.

والأهمُّ من حجم القبر هو العناية التي أُوليت في بنائه. مستخدمًا سكّينًا ومعولًا ومجرفةً صغيرةً، غطَّى النقَّاش المسنّ أحد جدران القبر بخريطة منحوتة بدقة متناهية لدونغ جينغ، عاصمة سلالة سونغ القديمة (مدينة كايفنغ الحديثة الآن). كان تصويره للمقصورات الشهيرة والمعابد والحدائق والبحيرات ومذابح الأسلاف مثل لوحات في قصور الأباطرة. لقد أضفت على القبر طابعًا كلاسيكيًّا ونفحةً من الأناقة والفخامة العتيقة.

على الجدار المقابل، نقش مشهدًا طبيعيًّا لمدينة كايفنغ الحديثة بما

تضمُّه من مبانٍ شاهقة ومعالم تاريخيَّة ونوافير وساحات عامّة وقاعات ومكاتب للجان الحزب الشيوعيّ إلى جانب المناطق التجارية المزدهرة والأسواق المزدحمة التي تصطفّ أكشاك البائعين على جانبيها. العبارة المكتوبة بالخطّ الغامق فوق المشهد الكلاسيكيّ تقول: «عاصمة سلالة سونغ». بينما المشهد الحديث كان معنونًا بعبارة: «كايفنغ الحديثة». ورغم خشونة المناظر الطبيعيَّة بعض الشيء، حيث لم تكن رقيقة كأنَّها مرسومة على لفائف الورق مثلًا، لكنَّها ظلَّت أعجوبة فنيَّة قلَّ مثيلها في هذا المكان. بدا الأمر كأنَّ كلَّ عجائب الأرض قد اجتمعت في قرية دينغ، لمنح تجربةٍ حيَّة غنيَّة بالتفاصيل على جدران قبرٍ. انتشر الخبر بسرعة في القرية وتوافد الناس للمشاهدة.

جاؤوا أفواجًا أفواجًا، مثل مسافرين في رحلةٍ سياحيّة منظّمة.

كلُّ من زار القبر خرج وهو يكيل المدائح؛ يا لروعة النقوش! يا لجمال النحت! ما أجملها من تفاصيل نابضة بالحياة! ما هذه التنانين والعنقاوات المنقوشة على المقصورة... تبدو حقيقيَّة تمامًا. وهذه الحشود من الناس... كأنَّ بوسعك أن تسمع أصواتهم! ومع انتقال الأخبار المدهشة من شخص لآخر، اجتذب القبر المزيد من أصحاب الفضول. جاء الصغار والكبار لإلقاء نظرة على قبر عمِّي ولينغ لينغ. كأنَّه قصر إمبراطوريّ انبثق فجأة من الأرض أو كأنَّه مدينة مفقودة منذ أمدٍ بعيدٍ اكتُشفت للتوّ في السهل.

في اليوم الذي كان من المقرَّر أن يدفن فيه عمي ولينغ لينغ، توافد الناس نحو القبر مثل متفرّجين في موكب جنازة إمبراطوريّ. كان ذلك

بعد شروق الشمس مباشرة، وقد بدا الأفق الشرقيّ كبحيرة من القرمز، كبحرٍ من النيران. الحقول مشرقة بالضوء، وسنابل القمح الذهبيَّة اللامعة كانت قد وصلت إلى ارتفاع الركبة تقريبًا. وحول الحقول كانت أجمات العشب تتلألأ بظلالها المتدرّجة من الأخضر اليانع وحتّى الأصفر الباهت. كان قبر عمِّي ولينغ لينغ يقع في الطرف البعيد لأرض عائلتنا. ثمَّة تلّتان من التراب على جانبي الخندق تحدِّدان مدخل القبر. ورغم أن أقدام الزوّار الكثر قد وطأت الأرض مرارًا، لكنَّ رائحة التربة الطازجة ما زالت كثيفة وعابقة في الهواء.

نزل القرويّون إلى الخندق وخرجوا منه يتشدّقون بعبارات الدهشة. بعد تفحُّص القبر، كانوا يتساءلون فيما بينهم: «هل تصدّق ما رأيت؟». وكان الوافدون الجدد يقولون أشياء كهذه: «هذا القبر يستحقُّ أن تموت من أجله!»، أو: «أتمنّى أن أحظى بقبرٍ كهذا!»، أو: «لو أعرف أنّني سأدفن هنا، لتمنّيتُ أن أُصاب بالحمَّى مئة مرَّة!».

سرعان ما وصل الرجال الذين ساعدوا في دفن جيا غن باو ودينغ شياو يويه لرؤية القبر. كانوا أكثر أهالي قرية دينغ خبرةً في الحفر وبناء القبور. أفسح لهم الناس الطريق كي يتمكّنوا من رؤية القبر بأعينهم. حين نزلوا إلى القبر، ساورتهم الريبة، ولكنهّم خرجوا مبتسمين ومقتنعين تمامًا. أحدهم، وهو حفّار قبورٍ في منتصف العمر، سأل الشابَّ الجالس عند القبر لحراسة الأدوات: «أأنتَ من أنجز هذه النقوشات؟».

«لا. بل عمِّي».

«أين تعلَّم النقش بهذا الشكل؟».

«تقليد متوارث في عائلتنا».

«أتظنّ أنّه على استعدادٍ لإجراء بعض النقوشات على القبرين اللذين نحفرهما؟».

«هذا قبر على الطراز الإمبراطوريّ. في ما مضى، كان المسؤول من الدرجة الرابعة يحظى بقبرٍ كهذا. أمّا في الوقت الحاضر فقد اختلفت الأمور، حتّى أن عمّي بحاجة لإذن من كبار المسوؤلين كي يتمكّن من إجراء هذه النقوش. لا يمكنه أن يفعل ذلك بلا أمرٍ موقّع ومختومٍ من مسؤول حكوميّ. إذ ليس بوسعك أن تنحت أشياء كهذا على قبر كائنٍ من كان».

«وكيف تمكّن دينغ ليانغ من الحصول على ذلك إذاً؟».

«بفضل شقيقه دينغ هوي... رئيس فريق العمل بالمقاطعة».

وبذلك انتهى الحديث. عاد حفّارو القبور المحلّيون إلى القرية. وفي هذه الأثناء، كان الوقت قد حان تقريبًا للبدء في تجهيز الجثمانين ووضعهما في النعوش التي كانت تنتظر أمام بوّابة بيت العائلة لكلٍّ منهما. كان النعشان قد صُنعا في وقتٍ مسبق، في الوقت الذي قُطعت فيه الأشجار الكبيرة. كلاهما مصنوع من ألواح خشب البولونيا التي تبلغ سماكتُها أربعة إنشات، إلى جانب ألواحٍ من خشب الأرْز بسماكة ثلاثة إنشات على كلا الطرفين. كانت أطراف النعشين، المنقوشة برسومات جنائزيَّة كبيرة مطليَّة باللونين الذهبيّ والفضيّ، تتلألأ مثل زهورٍ معدنيَّة. رغم جمال النعشين لكنَّهما لا يضاهيان، بأيّ شكل من الأشكال، ما بناه أبي من أجل شقيقه الصغير. كان قبر عمي قبرًا إمبراطوريًّا، يليق بمسؤول

رفيع المستوى. ملأه أبي بنقوشٍ تصوِّر ماضي كايفنغ المجيد وحاضرها، بحيث يرقد عمي بسلامٍ وسطَ هذه المشاهد الأخّاذة.

تعاظمَ سخط جيا غن تشو ودينغ يويه جي أمام حقيقة أنَّ اثنين من زناة القرية سيشغلان هذا القبر الفاخر. لم يكن بوسعهما إلّا أن يأخذا الأمر على محملٍ شخصيٍّ وعدِّه إراقةً لماء الوجه. لحسن الحظّ، حظى شقيقاهما الصغيران بنعوش جيّدة، من النوع الذي عادةً ما يُخصَّص لكبار القرية ورجالها من ذوي الشرف والاحترام. من النوع الذي لا يتوفَّر إلا لدى العائلات الميسورة ذات السلطة والنفوذ؛ نعوش تعكس الثروة والمكانة إمَّا لشاغليها أو لأقاربهم.

كان بيتا العائلتين على الطريق نفسه، بينهما بضعة أبوابٍ فحسب. وبينما كان أهالي القرية يحومون حول النعشين، تحدّثوا عن مدى جمالهما وأشادوا بالفخر الذي يشعر به الفقيدان الآن والذي لم يكن ليتمَّ لولا الجهود الكبيرة من شقيقيهما جيا غن تشو ودينغ يويه جي. ورغم أنَّ هذه النعوش، على حدّ تعبيرهم، لا تضاهي القبر الذي بناه دينغ هوي لأخيه، لكنّهما أحسنا صنعًا في الإتيان بها...

في تلك اللحظة، دخلت شاحنتان إلى القرية وتوقّفتا أمام بيت عمِّي. كانت كلّ شاحنة تضمّ نعشًا ملفوفًا بعدّة طبقات من القماش والورق السميك. بعد إنزال النعشين، وُضعا على مقاعد خشبيَّة طويلة وفُكَّ تغليفهما بعناية.

وبحلول ذلك الوقت، كانت الشاحنتان قد اجتذبت حشدًا من أهالي القرية الفضوليّين. تجمّعوا حول بوَّابة بيت عمِّي، متلهّفين لإلقاء

نظرة على النعشين. كان ما رأوه عبارة عن زوجٍ من النعوش الثنائيَّة؛ نعش زوجٍ زوجةٍ. كلاهما مصنوعٍ من خشب الجنكو وهو نوع من الأخشاب النادرة باهظة الثمن.

مع تفشّي الحمَّى، غدا الموت أمرًا شائعًا في عموم السهل. مات الناس كما الأوراق المتساقطة، خبا ضؤوهم كالمصابيح المنطفئة. حدث شحٌّ في الأخشاب واحتاج الموتى النعوش بقدر ما احتاج الأحياء لبيوت تأويهم. غدت أشجار البولونيا نادرة كالفضّة، وغدا خشبُ الأرْز ثمينًا كالذهب. لكنَّ النعشين اللذين جلبهما أبي ليسا مصنوعين من البولونيا ولا الأرْز، بل من أجود أنواع الجنكو. كان نعش عمِّي أكبر قليلًا، وله اسم: النعش الذهبيّ. صُنع من ألواحٍ بسماكة ثلاثة إنشات مقطوعة من شجرة جنكو يبلغ عمرها ألف عامٍ. كانت ألياف الخشب خالية من العيوب، وسطح اللوح ناعمَ الملمس ومتينًا ممّا جعله مثاليًّا للنقش والرسم. وباستثناء قاعدة النعش التي ستستقرّ على التربة، كانت كلُّ سطوح النعش الأخرى مزيّنة بنقوشٍ لمشاهد مترفة ومناظر طبيعيَّة ساحرة. مشاهد الطبيعة الكلاسيكيَّة من جبالٍ وأنهارٍ وسحبٍ سماوّية إلى جانب مشاهد المدن الكبرى ذات الشوارع الواسعة والطرق الضيقة وطوابير السيّارات والمشاة والجسور وتقاطعات الطرق المتعرّجة. كان ثمَّة حدائق غنَّاءَ بالأشجار، فيها أطفال صغار يطيّرون الطائرات الورقيَّة أو يسيّرون قواربهم في البحيرات.

في الماضي، كانت النعوش الثنائيَّة تُنقش بمشاهد تقليديَّة منها ما هو مستوحى من فضائل برّ الوالدين الموجودة في كتاب «الأماثيل الأربعة

والعشرين للأبناء»، أو من حكاية الزوجة المخلصة مينغ جيانغ؛ أو من حكاية العاشقَيْن الفراشتَين، ليانغ وتشو، روميو وجولييت الصينيّين[1].

لكنّ النقوش التي زيّنت نعش عمِّي ولينغ لينغ كانت في معظمها تصوّر مشاهد لمدن كبيرة تضمّ معالم شهيرة: ساحة تيان آن من في بكين وبرج لؤلؤة الشرق في شنغهاي والفنادق الشاهقة في غوانجو والعديد من المناطق التجاريَّة الصاخبة والمتاجر الكبرى والجسور المعلّقة والنوافير والحدائق العامَّة. غنيّ عن القول إنَّ من أنجز هذه النقوش لا بُدَّ أنَّه من أحذق الرحّالة حتَّى تمكَّن من تصور هذه المشاهد الكوزموبوليتانيَّة بهذا الشكل الواقعيّ. لقد أحيا العظمة والثروة والصخب الذي تتمتَّع به المدن الصينيَّة الحديثة كبكين وشنغهاي وغوانجو. تألَّق كلّ مشهدٍ بألوانٍ تضجُّ بالحياة كالأحمر والذهبيِّ والفضيِّ.

تجمهر أهالي القرية حول النعشين، منبهرين أمام روعتهما.

«ربَّاه! أتصدِّقون هذا الشيء؟ إخال أنَّ الأباطرة لم يحظوا بنعوشٍ كهذه!»، صرخت إحدى النساء.

بحذرٍ شديد مدَّت يدها لتلمس النقوش. «تعالوا والمسوها! إنَّها أكثر نعومة من مؤخرة طفل!».

---

(١) تعد «الأماثيل الأربعة والعشرين للأبناء» نصًّا كلاسيكيًّا عن طاعة الوالدين حسب المدرسة الكونفوشيوسة يعود تاريخه إلى القرن الرابع عشر. مينغ جيانغ بطلة حكاية أسطوريّة شهيرة جدًا في الصين، وهي امرأة يموت زوجها أثناء بناء السور العظيم، وبعد بحث طويل تصل إلى قبره وتتسبّب بانهيار جزء من السور بسبب بكائها الهدّار عليه. ليانغ شان بو وتشو ينغ تاي بطلا قصة حب أسطوريّة ومؤسفة تنتهي بموت العاشقين وتحوّل روحيهما إلى زوجٍ من الفراشات. (م)

تجمَّع القرويّون حول النعشين وراحوا يلمسون النقوش ويمررون أصابعهم فوق صور المباني الشاهقة والجسور المكتظّة بالسيارات ومصابيح الشوارع المصطفّة على محيط الساحات العامة وعلى الناس الجالسين بجوار البحيرات. لاحظت امرأة أخرى أنَّ غطاء النعش مفتوح بعض الشيء، فاسترقت نظرة إلى الداخل ورأت أنَّ الجزء الداخلي من النعش يحوي نقوشًا على جدرانه أيضًا. بحذرٍ شديد رفعت الغطاء وكشفت عن المزيد من النقوش وعن صورة مكبّرة لدينغ ليانغ ملصقة على رأس النعش. أعطت النقوش صورة شديدة الرهافة عن الحياة في المدينة الكبيرة: شقّة تحوي ثلّاجة وغسّالة وتلفزيون ومكبّرات صوت وآلة كاريوكي. على الموائد مأدبة عامرة تضمُّ أشهى أطباق الدجاج والبطّ واللحوم والأسماك وزجاجات النبيذ الفاخر إلى جانبها أكواب وكؤوس وعيدان الطعام الحُمر المزركشة. ثمَّة ناطحات سحب ومبانٍ إداريّة ودور سينما ومسارح ومن الواضح أنَّ جميعها ملكٌ لعائلة دينغ. اللافتات الموجودة على مداخل المباني تقول: «مسرح عائلة دينغ»، «سينما عائلة دينغ»، «أبراج عائلة دينغ». حتّى الأجهزة الإلكترونيَّة كانت تحمل اسم دينغ ليانغ.

ولكن ربّما الأهمّ من ذلك كلّه هو المبنى المنقوش عند سفح النعش. كانت اللافتة الموجودة أعلى المدخل تشير إلى أنّه «بنك الشعب الصينيّ». وبهذه الطريقة، فإنَّ الثروة المتراكمة للأمّة بأكملها، وهي ثمرة عقود من التنمية الاقتصاديَّة الصينيَّة، سترافق عمِّي إلى حياته الأخرى. كلُّ قوَّة العالَم ومجده وازدهاره كانت محشورة في نعشٍ واحدٍ.

التفت القرويّون بعدها إلى نعش لينغ لينغ. ورغم أنَّ «النعش الفضيّ» الخاصّ بها أصغر قليلًا من نعش عمّي، لكنّه كان مصنوعًا من الخشب نفسه، وكان الجزء الخارجي منه منقوشًا بمشاهد المدينة الكبرى نفسها. في الداخل، عند رأس النعش، كانت صورة لينغ لينغ وهي تبتسم. أظهرت النقوش الموجودة على الجزء الداخلي من النعشِ أقمشة الحرير والساتان والملابس والمجوهرات وطاولات الزينة وصناديق مساحيق التجميل وغيرها من الأشياء النسائيَّة. كان هناك أيضًا مجموعة من أدوات المطبخ التي لا يمكن لأي امرأة أن تستغني عنها: خزائن جانبيَّة مملوءة بالأطباق والأوعية والأكواب والكؤوس، إلى جانب أفران الطهو الحديثة ذات المراوح والمآزر وقدور الطهي بالبخار المصنوعة من الخيزران. هناك أيضًا نباتات مزروعة في أصصٍ وشجيرات مزهرة وعرائش عنبٍ وأشجار رمّان ترمز للخصوبة. ضمّت النقوش أيضًا صورة مصغّرة للينغ لينغ وهي تعلّق قمصان عمّي وسراويله المغسولة حديثًا كي تجفَّ تحت شجرة الرمّان.

وفيما كان القرويّون مأخوذين بنعش عمّي ولينغ لينغ، خرج جدّي من بيت عمّي مبتهجًا ويبدو أصغر سنًا ممّا كان عليه قبل بضعة أيّام فحسب.

«هذان النعشان ساحران يا أستاذ دينغ! كم كان ليانغ ولينغ لينغ محظوظين!»، قال أحد القرويّين.

«لا أعرف إن كانا محظوظين! ما أعرفه هو أنّهما سيحظيان بدفنٍ كريمٍ»، قال جدّي وهو يقف بجوار النعشين.

«أيُّ نوعٍ من النعوش هذا؟»، سأل آخر.

«كان القدماء يطلقون عليها اسم «النعوش الذهبيَّة والفضيَّة»، لكنَّ هذه النعوش هي الشكل الأكثر حداثة منها. لا بدّ أنَّك لاحظت مشاهد المدينة المنقوشة عليها».

كان الوقت قد حان تقريبًا لوضع الجثمانين في النعوش. وباستثناء جيا غن تشو ودينغ يويه جي، بدا أنَّ كل أهالي القرية قد تجمّعوا عند بيت عمِّي. كانت والدة دينغ يويه جي حاضرة أيضًا، وزوجة جيا غن تشو وابنه على السواء. تجمهرت حشود الناس، بعضهم قادم من قرى مجاورة، خارج البيت وعجَّت الشوارع بهم. كان الجوّ مفعمًا بالحيويَّة، كأنَّ عرضًا مسرحيًّا سيؤدَّى في قرية دينغ وقد توافد الجميع لمشاهدته. زمرة من الجمهور كانت تضحك وتثرثر وتتدافع، رجالًا ونساءً، شيوخًا وأطفالًا، سكّانًا محليين وزوّارًا. كان بعض الأطفال قد تسلقّوا الأشجار أو جلسوا على قمم جدران الطوب كأنّهم يرتقبون بداية العرض.

كانت الشمس قد أشرقت وباتت عالية في السماء. أنعشت أشعّتُها الساطعة الحشدَ، محوّلة الحدث الحزين إلى احتفال. محوّلة الجنازة إلى عرضٍ مسرحيٍّ عامٍّ. لا يزال أبي في البيت، يتحدَّث مع الرجال الذين جلبوا النعشين من المدينة. كانت أمي في بيت عمِّي تقدِّم الشاي وتوزّع السجائر على الضيوف القادمين من خارج القرية لتقديم التعازي أمّا أختي الصغيرة فراحت تركض وسط الحشد، تشقّ طريقها بين أرجل الناس.

أخيرًا، توجّه أبي إلى بيت عمِّي يتبعه حشد من أهالي القرية وزوّارها. عندما رأوه يقترب من بيت عمِّي، صاح أحدهم: «هل ستبدؤون؟».

«نعم. لقد حان الوقت»، أجاب أبي.

لقد حان الوقت لإلباس الجثمانَيْن ووضع كلٍّ منهما في نعشه برفقة الأشياء الجنائزيَّة التي ستُدفن معه: بالنسبة لعمِّي، ستوضع مشروبات كحوليَّة وسجائر من علامات تجاريّة شهيرة بالإضافة لبدلةٍ وزوج من الأحذية الجلديَّة، وبالنسبة للينغ لينغ، سيوضع فستان عاديّ وتنورة مزركشة ومجموعة من المجوهرات المزيّفة التي تبدو كالحقيقيَّة تمامًا. عندما اندفع القرويّون إلى البيت، للمساعدة في حمل الجثمانين وأغراض الدفن الأخرى، لاحظ أبي أنَّ بينهم عددًا قليلًا من حفّاري القبور الذين كان من المفترض أن يساعدوا في جنازتَي جيا غن تشو ودينغ يويه جي.

ورغم سرور أبي بهذا الاهتمام، لكنَّه لم يرغب في أن يُوسَم بالوقاحة لأنَّه سرق رجالًا تعيَّن أن يكونوا في جنازتي غن باو وشياو يويه.

«مرحبًا! لماذا لا تذهبوا لمساعدة عائلتي غن باو وشياو يويه؟ لا ينبغي أن ننساهم الآن!»، صرخ أبي.

«لقد أعطيناهم الأولويَّة في حفر القبور، والآن من العدل أن نعطيك الأولويَّة في مراسم الجنازة»، أجاب أحدهم.

حتّى جدِّي، الذي كان واقفًا عند عتبة الباب، ساءه هذا الوضع. «هذا ليس صوابًا، هذا ليس صوابًا»، كرَّر.

«ليس هناك أيّ خطأ على الإطلاق. جميعنا أبناء هذه القرية، جميعنا أهل وجيران، وفي هذه الأمور ليس هناك أفضليَّة لأحد على الآخرين. لا يهمّ من يدفن أولًا، صحيح؟»، ردَّت والدة دينغ يويه جي وزوجة جيا غن تشو.

وهكذا جرى تناسي جنازتي غن باو وشياو يويه بشكلٍ مؤقت؛ إذْ هبَّت القرية بأكملها للمساعدة في دفن عمِّي ولينغ لينغ.

حظيت جنازة عمِّي وزوجته بحضورٍ غفيرٍ للغاية. كان الحشد المكوّن من أكثر من مئتي شخصٍ يشاهدون وضع النعشين في حجرة الدفن ومن ثمّ إغلاق المدخل بالطوب. دفعَ أبي ثمن شاهدة قبر فاخرة، أشبه بنصبٍ تذكاريٍّ مَهيب من الغرانيت كُتبت عليه العبارة التالية:

هنا يرقد دينغ ليانغ وشيا لينغ لينغ

العاشقان اللّذان صارا فراشتين، مثل ليانغ وتشو

حين رُفع النصب التذكاريُّ، انفجر الحشد بتصفيقٍ مدوٍّ كهزيم الرعد في الربيع. هزيم الرعد الذي يبشِّر بانقضاء الشتاء وقدوم الربيع. الهدير الذي يُسمع حين تصحو الحشرات من سباتها ويرفع التنِّين النائم رأسه[١].

مكتبة
t.me/soramnqraa

(١) صحوة الحشرات واحدة من أربع وعشرين فترة شمسية مدة كلٍّ منها خمسة عشر يومًا، تنقسم إليها السنة وفقًا للتقويم الصيني التقليديِّ. تبدأ هذه الفترة برعدٍ مفاجئ يوقظ التنين -ملك الحشرات- فيرفع رأسه بعد أن نام طوال الشتاء، ويوقظ الحشرات من سُباتها والأرض من نومها الشتوي. يقظة التنين تمثل بداية الربيع الذي يجلب معه الأمطار اللازمة للزراعة، إذْ التنين هو إله المطر. (م)

الكتاب السادس

الفصل الأوَّل

١

وُري عمِّي ولينغ لينغ الثرى.

وكذلك بات دينغ شياو يويه وجيا غن باو في جوف الأرض.

انتهت الجنازة، وغادرت أسرتي القرية.

يومَ دفنه لشقيقه، نقل أبي أسرته إلى المدينة. غادروا قرية دينغ إلى الأبد، من دون أيَّة نيَّة للعودة أبدًا. بارحوا القرية بسرعةٍ كبيرة، كما الأوراق المتساقطة حين تجرفها رياح الخريف. كان احتمال عودتهم إلى قرية دينغ مساويًا لاحتمال عودة كومةٍ من أوراق الشجر المتساقطة إلى الشجرة التي كانت عليها. ما من عودة إلى الشجرة الأمّ.

استقلَّت الأسرة بأكملها، أسرتي بأكملها، إحدى الشاحنتين اللتين جاءتا بنعشي عمِّي وزوجته. لم يأخذوا معهم سوى أغلى ممتلكاتهم: تلفزيون وثلَّاجة وبعض الصناديق المربوطة بخيوط وبعض الحقائب المملوءة بالملابس. ونظرًا لرغبتهم المحمومة في الرحيل، ألقوا الممتلكات كيفما اتفق في الجزء الخلفيّ من الشاحنة، من أجل أن يجلس

عليها جيش حفّاري القبور والنقّاشين وغيرهم من العمّال الذين جاؤوا للمساعدة في الجنازة وكانوا الآن في طريقهم للعودة إلى المدينة. ركب العمَّال في صندوق الشاحنة بينما جلس والداي وأختي داخل المقصورة الأماميَّة.

غادروا بعد منتصف النهار، وكانوا قد أنهوا مراسم الجنازة والشمس الذهبيَّة تلفح السهل وتحرق التربة. اجتاحت أمواج الحرّ المتلألئة السهلَ مثل ألسنة لهب متطايرة. وقبيل المغادرة، وقف أبي بجانب القبر المحفور حديثًا، الذي تفوح منه رائحة التراب العطرة. نادى جدِّي وسأله: «إذًا، هل انتهينا؟».

تلفَّت جدِّي حوله، وبدا مرتبكًا بعض الشيء من السؤال، وقال: «آه، نعم، أعتقدُ أنّنا انتهينا».

«ما دمنا كذلك، فمن الأفضل لي أن أغادر». التفت أبي إلى طاقم مساعديه وصرخ قائلًا إنّ وقت الرحيل قد حان. وبعد أن انطلق الرجال باتجاه القرية، استدار ليرى جدِّي لا يزال واقفًا بجانب القبر، يحدِّق في الشاهدة. من الخارج، بدا جدِّي هادئًا، كأنَّ شيئًا لم يحدث. لكنّه كان ذاهلًا، كأنّه يعلم أنَّ شيئًا ما قد حدث لكنَّه لم يكن متيقنًا ممّا كان عليه هذا الشيء أو ما يعنيه. بدا تائهًا، عالقًا في منتصف الطريق بين الارتباك والإدراك. حدَّق في الكلمات المحفورة على شاهدة القبر كما لو كانت حروفًا من لغةٍ قديمةٍ لا يستطيع فكَّ رموزها.

لكنَّ مجيء أبي للوقوف بجانبه قطع سلسلة أفكاره.

«هل تراني قمت بواجبي تجاه أخي؟»، سأله أبي. «أعتقد أنَّ ليانغ

كان ليشعر بالفخر. لقد منحته قبرًا يليق بالأباطرة، ونعشَيْن فاخرين أيضًا. والسؤال الذي يطرح نفسه: هل كان يستحقّ ذلك؟».

لم يقل جدِّي شيئًا.

«قل لي يا أبي... هل فعل هذان الاثنان شيئًا من أجل أحد؟».

ظلَّ جدِّي صامتًا.

«صنعتُ لهما ما يخلّد ذكراهما مدى الحياة، ولكن ماذا تراهما فعلا من أجلي؟ لقد قمت بواجبي تجاه أخي، وأتوقّع ردًّا بالمقابل». تحدَّث أبي لطف، مشدِّدًا على كلّ كلمةٍ بحذر. «أريدكَ أن تتذكّر ما أقوله يا أبي... إن فتح أحدهم قضيّة بيع الدم، فأريد منك أن تقول إنّ ليانغ هو المسؤول وإنّ الأمر لا يمتّ إليّ بصلة. دينغ ليانغ هو من كان رأس الدم وليس أنا. أنا لم ألمس قطرة دمّ واحدة في حياتي كلّها».

حدَّق جدِّي في ابنه طويلًا قبل أن يتكلّم.

«هوي، أريدك أن تصدقني القول. أصحيح أن الحكومة توزّع النعوش لكلّ مسؤولي القرى المحليّين؟ وإن كان هذا صحيحًا، فلماذا لم تعطِ جيا غن تشو ودينغ يويه جي حصتهما؟».

«لقد أنفقتُ المال على جنازة ليانغ ولينغ لينغ»، أجاب أبي بواقعيَّة. «أتظنّ أنَّ النعوش الفاخرة المصنوعة من خشب الجنكو تهطل علينا من السماء؟ اضطررت لمقايضتها بمئة نعش من خشب الپولونيا، ناهيك عن تكلفة حفر القبر».

استدار أبي وقال دون أن ينظر إلى جدِّي: «عليّ أن أذهب، ولكنني سأعود لرؤيتك».

قالها من غير قصدٍ، كما لو أنّه ذاهب رحلة، وليس عازمًا على الانتقال من القرية نهائيًّا. سار أبي بعيدًا، تاركًا جدِّي الواقف بجانب قبر ابنه.

وقبل أن يختفي، التفت إلى الوراء وصرخ: «لا تنسَ ما قلتُه لك يا أبي! إن فتح أحدهم قضية بيع الدم، أخبره أنّ دينغ ليانغ هو رأس الدم الثري، وليس أنا. وإن لم يصدّقوك، فليحفروا قبره ويسألوه!».

بعد أن قال ما قاله، ركض أبي للحاق بالآخرين. كانت قدماه تخبطان الأرض المغمورة بضوء الشمس وتركلان التراب ممّا لوَّث حذاءه الجلدّي الأسود اللامع.

٢

منذ وقتٍ طويلٍ وإلى الآن، كان سكّان السهل يموتون تباعًا، ويتساقطون كأوراق الخريف التي لن تعود أبدًا إلى أشجارها. ومع العدد الهائل من الموتى، صارت عمليّات الدفن أمرًا معتادًا. كان دفن قريب ميت كالذهاب إلى إحدى ضواحي القرية ومعك مجرفة من أجل أن تحفر قبرًا لكلبك الميت أو لقطَّتك التي نفقت. لا حزن ولا دموع. كانت المقابر صامتة. كانت الدموع مثل قطرات المطر في نهارٍ صيفيٍّ حارق، تتبخَّر قبل أن تصل إلى الأرض.

ولذلك، كانت جنازات لينغ لينغ وعمِّي وجيا غن باو ودينغ شياو يويه عبارة عن أربع جثث أخرى، عن أربعة نعوش أخرى يتعيَّن وضعها تحت التراب. عندما انتهت الجنازة، غادر أهلي قرية دينغ وانتقلوا إلى المدينة الكبيرة. لقد باتوا الآن من سكّان المدينة.

تركوا عمِّي ولينغ لينغ راقدَيْن في قبرهما الموصد ذي الشاهدة التي كُتب عليها: *هنا يرقد دينغ ليانغ وشيا لينغ لينغ، العاشقان اللذين صارا فراشتين، مثل ليانغ وتشو*. وقد اتفق كلُّ أهالي القرية أنَّ النقش كان ملائمًا.

ولكن بعد مرور ثلاثة أيّام، أو أقلّ من ثلاثة أيّام من الدفن، اقتُحم القبر ونُهب. أقدم لصوص المقابر على سرقة نعشَي عمِّي ولينغ لينغ، وتشويه جدران القبر. أحدهم سرق النقوش؛ تلك المشاهد التي تصوّر المدن الكبرى والتنانين والوحوش الأسطوريَّة، عن الجدران مباشرة.

وفي الليلة التي نُهب فيها القبر، رأى جدِّي حلمًا:

ازدحمت السماء بشموسٍ حُمر ساطعة. ثمَّة خمس، ستٌّ، سبع، ثماني، تسع شموس، ازدحمتْ بها السماء في الأعلى والتهبَ تحت وطأتها السهل في الأسفل. كان الجفاف قد يبّس التربة وجعلها متشقّقة. وفي كلّ أنحاء السهل وما وراءه، ماتت المحاصيل وجفَّت الآبار وتلاشت الأنهار. وفي محاولة لإبعاد تلك الشموس وتخليص السماء منها وإبقاء واحدة فحسب، وقع الاختيار على رجال أقوياء من كلّ قرية، رجل من بين كلّ عشرة قرويّين. مدجّجين بالمذاري والمجارف والمناجل، طاردوا الشموس على امتداد السهل محاولين دفعها إلى أقاصي الأرض وإسقاطها من السماء ورميها في عباب المحيط. لأنَّ شمسًا واحدة في السماء كانت كافية بكلِّ تأكيد.

وفيما كان الرجال يدفعون الشموس نحو الأفق، وقفت نساؤهم وأطفالهم وشيوخهم عند بوّابات القرية، يقرعون على الطبول والصنوج

وأحواض الغسيل لتحفيز الرجال ورفع معنويّاتهم. تسارعت الشموس في السماء وقد طاردها الرجال المسلَّحون في السهلِ بالأسفل. في شتَّى الاتجاهات، كانت الأرض ترتعد والهواء يمتلئ بالنار والدخان وصوت قتل الشموس. تصاعد الدخان من العشب والتراب واشتعلت النيران في الأشجار والبيوت التي ابتلعها لهيب الشموس الحارق. نار ودخان ورماد في كلّ مكان... لحقت عصبة الرجال بإحدى الشموس وكانوا على وشك إسقاطها من السماء، وإذا بجدِّي يسمع طرقًا على باب بيته.

*

كان أحد رجال القرية قد جاء راكضًا إلى باحة المدرسة وراح يطرق الباب وهو يصرخ.

«أستاذ دينغ! أستاذ دينغ! تعال بسرعة، لقد اقتحموا قبر ابنك!».

استيقظ جدِّي من حلمه ليجد ضوء الشمس يتدفّق عبر نافذته، غامرًا سريره بالدفء. قفز من فراشه وهرع إلى المقبرة برفقة الرجل الذي جاء من القرية. حين وصلا، كان حشد من الناس يحومون حول مدخل قبر عمِّي ويتفحّصون الطوب المكسور وشاهدة القبر المنهارة. لقد نبشوا كلّ التراب الذي استُخدم لردم مدخل القبر، ممّا خلّف حفرة واسعة وأكوامًا من التراب على الجانبين. خلع جدِّي حذاءه ونزل إلى الحفرة حافي القدمين وألقى نظرة خاطفة على حجرة الدفن. رأى أن جثَّتي ليانغ ولينغ لينغ قد سُحبتا من نعشيهما وأُلقيتا على الأرض. لا أثر للنعشين ولا للأشياء التي كانت بداخلهما؛ المشروبات الكحوليّة والسجائر والملابس والمجوهرات. كما يبدو أن اللصوص قد أحضروا

أدواتهم الخاصّة لسرقة النقوش عن الجدران. اقتلعوا رقعة كبيرة من الجدار الأيسر للقبر تراكمت على إثرها كومة من الحطام بجانب رأس عمِّي، وأجزاء من التراب التصقت بشعره وجلده. بدت المدينة الكبيرة في المشهد المنقوش على الجدران الأيمن قد تعرَّضت لزلزال؛ فقد انهارت المباني والبيوت والجسور وتناثر الحطام على الأرض حول جثّة لينغ لينغ. لقد نهبوا القبر وسرق اللصوص كلَّ شيء.

رائحة الخراب، الباردة والقاتمة، عابقة في الهواء.

وبينما كان جدِّي واقفًا عند مدخل حجرة الدفن بلا حراك، تذكّر أنشودة قديمة كانت شائعة بين أهل السهل، أنشودة ظلّت تتناقلها الأجيال:

لو سرقوا القبور لأجل كنوزها،

لما وجدوا إلا النّزر اليسير؛

لو سرقوا القبور لأجل نعوشها،

لما وجدوا إلا الفيَض الغزير.

الكتاب السابع

الفصل الأوَّل

١

لقد حلَّ صيف الجفاف. جفافٌ التهم السهل كما النيران. خيَّم حرٌّ شديد كأنَّ السماء ازدحمتْ بالشموس.

بحلول أواخر شهر أغسطس، وبلوغ الصيف ذروته، لم يشهد السهل هطولَ قطرة مطر منذ قرابة خمسة أشهر. آخر هطولٍ للمطر كان في أوائل شهر أبريل. في البداية، حوَّل المزارعون، الذين لم يدركوا أنَّهم على موعدٍ مع الجفاف، المياهَ إلى أراضيهم بشتّى الطرق الممكنة. لقد حفروا آبار الري العميقة واستخدموا محرّكات جرّاراتهم لضخِّ المياه من جوف الأرض. وبحلول شهري يونيو ويوليو، كان القمح قد نضج وأشجار الحور قد أزهرت، والتربة فقدت كلّ أثرٍ للرطوبة. ولأنَّ لا أنهار قريبة يُستدرّ الماء منها، تشقّقت التربة وتيبّست.

كانت سنابل القمح قد نمت وبلغ ارتفاعها مستوى الركبة، لكنّ الجفاف جعلها هشّة وجافّة. في الأشهر السابقة، كانت النباتات الصغيرة تستيقظ عند الفجر منتعشة ومخضوضرة بعدما تلذّذت طوال الليل بالنسيم الرطب. ولكن مع مرور الوقت، ما عاد القمح المخضوضر

يُرى عند الصباح، وما كان لرطوبة الليل أثرٌ سوى تليين السنابل الجافّة التي لا تلبث أن تيبس بمجرّد بزوغ الشمس في الأفق. تحت تلك الألسنة الحارقة، تدلَّت رؤوس السنابل وتقصّفت أوراقها وكادت تتفتّت عند أدنى لمسة. ومع كل هبّة ريح، كان الغبار يتطاير من الأرض المسفوعة وينتشر في أنحاء السهل، ترافقه رائحة احتراقٍ خفيَّة.

كان السهل، على امتداد البصر، شاحبًا كالرماد.

ذبلت الأوراق على الشجر وتجعّدت. بدأت أشجار الصفيراء، التي لم تتمكّن جذورها الضحلة من امتصاص ما يكفي من رطوبة التربة، تفقد أوراقها المصفرّة كأنَّ الخريف قد حلَّ قبل أوانه. أمَّا أشجار الدردار ذات الجذور العميقة فقد حافظت على خضرتها لكنَّها جذبت جحافل الحشرات إليها. تمركزت مملكة الحشرات بأكملها على أغصان تلك الأشجار وأوراقها. اتَّخذت الديدان الخُضر الصغيرة والدعسوقات المرقّطة والخنافس الصفراء من أشجار الدردار إقطاعيَّات خاصَّة، وراحت تذرع أغصانها صعودًا وهبوطًا وتقتات على أوراقها وسويقاتها.

كانت الحشرات المتدلّية من أغصان الأشجار عرضة للسقوط في أيّ وقت، وإذا ما مررتَ أسفل شجرة دردار، فقد تشعر بتلك الحشرات إذ تتساقط على رأسك.

اختفت الأشجار التي كانت تظلّل القرية فيما مضى. الآن، أصبحت أشعّة الشمس تلفح وجهك حتّى وأنت واقفٌ تحت شجرة. لقد أقحلت القرية التي كانت خضراء ذات يوم. وتلاشت شيئًا فشيئًا في غمار المشهد المحيط.

ماتت المحاصيل في الحقول. ذبل العشب في السهل. ابيضَّت التربة على امتداد البصر.

نجت بضع بقعٍ صُفر شاحبة وبدت بارزة للعيان وسطَ بحرٍ من القحول.

ظلَّت بعض الأشجار على قيد الحياة ولكنّها لم تكن قادرة على تغذية ذلك العدد الكبير من الأوراق، لذا تناثرت أوراقها وتقزّمت، كانت الجذوع والجذور هي الأجزاء الحيَّة فحسب. ورغم كلّ شيء، لم يقضِ الجفاف على الزيزان، بل على العكس تراها انتعشت وتكاثرت وراحت تطنُّ ليلَ نهار بلا كلل. في النهار، عمَّ طنينها كلَّ مكان، مثل أوراق الفلفل الحارّ المنتشرة في كلّ حدبٍ وصوبٍ لتجفَّ تحت الشمس. وفي الليل، كان طنينها المتقطّع يذكّر بعناقيد العنب المتدلّية عن العرائش.

عندما تشرق الشمس صباحًا، كانت أغصان الأشجار تتلألأ بالزيزان، بأجنحتها وأجسامها الذهبيَّة اللامعة تحت ضوء الشمس. رائحة الاحتراق تعبق في أنحاء السهل. أعمدة الدخان الداكنة تتصاعد من الأرض. وعند الغروب، يختفي الدخان ويندلع السهل نارًا. وبحلول الليل، يكون كلُّ شيءٍ قد أمسى رمادًا.

وفيما كنتَ تتطلّع لنهاية كلّ يوم، سرعان ما يعاجلك اليوم التالي بقدومه الباكر جدًّا. تطلع الشمس وأنت ما زلت في سريرك، منهكًا من الليلة السابقة. كانت أولى ساعات المساء حارّة جدًّا بحيث لا تستطيع أن تخلد للنوم، ولم تكن لتحظى بقسط من الراحة إلا بعد منتصف الليل. وحالما تضع رأسك على الوسادة، كانت شمس اليوم التالي تشرق من

جديد، وتزحف أشعّتها عبر النوافذ والأبواب لتغمر سريرك بالدفء وتداعب جسدك وتدغدغ وجهك. إذا حاولت تجاهلها، ورحتَ تتقلّب يمنة ويسرة رغبةً في أن تغطّ مجدّدًا في النوم، فمن المؤكد أنَّ سببًا آخر سيتكفّل بإيقاظك: الخطى المدويّة في الشوارع والضوضاء الآتية عبر النافذة والطرق على باب بيتك والصوت الذي ينادي عليك ليخبرك أنَّ شخصًا آخر في القرية قد مات.

«عمّاه! تعال للمساعدة. لقد ماتت أمي. لقد ماتت فجر هذا اليوم».

«عذرًا يا أخي ولكنّني بحاجة أن تسدي لي هذا المعروف. عندما احتاجت عائلتك المساعدة لبّيتُ النداء وقضيت ثلاثة أيّام لمساندتكم. والآن نحن بحاجتك، وليومٍ واحدٍ فحسب».

وهكذا كان يبدأ اليوم الجديد، يومٌ جديدٌ يطلع على الأرض المحترقة.

اندلع السهل نارًا.

وكانت مئة ألف شمسٍ تتلظّى في السماء.

٢

كان صيفًا مليئًا بالحمّى. اجتاحت الحمّى السهلَ، بلا مبالغة.

لطالما كان الشتاء والصيف موسمَين للموت، حتى قبل الحمّى، حيث كان الحرّ الشديد أو البرد القارس يودي بحياة معظم المرضى وكبار السنّ. ثمّة مقولة شائعة جدًّا بين الناس في القرية وعموم السهل، وكثيرًا ما كان القدامى يردّدونها، تدور حول أباطرة سلالة تشينغ الذين قُتلوا جميعًا إمّا بسبب البرد القارس أو الحرّ الشديد. أمّا بالنسبة لأهالي

قرية دينغ، المصابين بالحمَّى، فهذا هو الصيف الذي سيزهق أرواحهم بلا شكّ. إنَّ ذلك الأمل الذي لطالما تعلّلوا به، والذي يقتضي أنَّ المرء بوسعه أن يصمد عامًا آخر بمجرَّد اجتيازه فصل الشتاء، لم يعد صالحًا أمام الحرّ الرهيب الذي استحوذ على الجوّ. لقد أحرقت الشمسُ الأرضَ حتّى تصاعد دخان أرجوانيٌّ من التربة. لفح الحرُّ حناجر الناس وخلَّف بثوره الملتهبة في رئاتهم.

مات القمح وذبل العشب. ما تبقَّى من أوراق الشجر تجعَّد وذوى.

شرقيّ قرية دينغ، فقدت عائلة تشاو زوجة ابنهم. توفيت عن عمرٍ يناهز التاسعة والعشرين بعد أيام قليلة من إصابتها بالحمَّى وتركت وراءها طفلًا يبلغ من العمر بضع سنين.

غربيّ قرية دينغ، كان السيد جيا ذو الأربعين عامًا حريصًا على صحته دومًا. ولمّا علم بأنَّه مصاب بالحمَّى وأنَّ جسده فقد قدرته على المقاومة، ظلَّ على أهبة الاستعداد لمكافحة نزلات البرد والزكام وتضميد الجروح والكدمات. كان موسوسًا تجاه طعامه، يتجنّب كلّ ما قد يمرضه أو يزعج معدته. إلا أنَّ ذهابه إلى المرحاض ذات يومٍ أودى به. لقد مشى تحت أشعة الشمس الحارقة ثم جلس القرفصاء في الظلّ البارد للمرحاض، وهذا التضارب في درجات الحرارة تسبَّب في إصابته بنزلة برد. لعدّة أيَّام ظلَّ يعاني من سيلان في الأنف وصداع طفيف. بعدها توقّف أنفه عن السيلان لكنَّ الحمَّى اندلعت بشراسةٍ لديه وتركته طريحَ صداعٍ شديد. ولمَّا لم يستطع تحمُّل كلّ هذا الألم، راح يضرب رأسه بالجدار حتَّى مات.

عثروا عليه غارقًا في دمه، وقد تهشَّمت جمجمته.

في وسط القرية، كانت شابّة جميلة تزوّجت رجلًا من قرية أخرى قد عادت لزيارة أهلها. كانت شياو مي بحالة جيّدة، ولكن بعد قدومها بأيّام قليلة أُصيب سائر جسدها بطفحٍ جلديّ شديد وحاكّ. ومن دون أن تذرف دمعة أو تتلفّظ بكلمة شكوى، أخبرت والديها أنَّ زيارتها شارفت على الانتهاء وأنَّ الوقت حان لتعود إلى بيت زوجها. حزمت أغراضها وغادرت. وفي طريق عودتها، شنقت نفسها على غصن شجرة خرما.

مات دينغ تزوي تزوي، الملقّب بالثرثار، بسبب نكتة. ذات يوم، بينما كان واقفًا عند مفترق الطرق يتحدّث إلى قرويٍّ آخر، وهو رجل مصاب بالحمَّى، روى الثرثار هذه النكتة:

«في يومٍ من الأيام، كان هناك مسؤول صغير حظي بترقية رفيعة، فذهب إلى بيته وطلب إلى زوجته أن تحضّر شيئًا للاحتفال بهذا الحدث. وبعد أن سخّنت النبيذ وأعدّت طبقًا لذيذًا وجهّزت المائدة سألت زوجها: «الآنَ وقد كبرت رتبتُك، هل كَبُر لديك ذلك الشيء أيضًا؟» قال لها: «بكلّ تأكيد، كل شيء بات كبيرًا!».وفي وقتٍ لاحق من تلك الليلة، عندما كانا معًا في السرير، لاحظت الزوجة أن ذلك الشيء قد ظلَّ صغيرًا كما كان دائمًا، فسألته: «ها قد صرت مسؤولًا كبيرًا ولكنَّ شيئًا لم يكبر!». «شيئي بات أكبر بكثير من ذي قبل، غير أنَّك صرتِ زوجة مسؤول كبيرٍ وحظيتِ بترقية مماثلة... لذا صار شيئك كبيرًا جدًا وما عدتِ تشعرين بالفرق!»».

عندما أنهى الثرثار كلامه، ألقى رأسه إلى الخلف وانفجر بضحكة عارمة. كانت واحدة من النكات القديمة الأثيرة لديه. لكنّ الرجل الآخر لم يبتسم حتّى. بل عاد إلى بيته وتناول ساطورًا من المطبخ وخرج ليلاقي الثرثار.

«الجميع يموتون وأنت لا تزال تروي النكات! بحق الجحيم، ما الذي يجعلك سعيدًا لهذه الدرجة طوال الوقت... إذا كنت تريد أن تضحك وتقهقه فلتفعل ذلك في قبرك!»، صاح الرجل.

وانهال الرجل على الثرثار بالساطور وظلّ يطعنه حتّى مات.

مات الناس أفواجًا أفواجًا. ماتوا كما تنفق الكلاب والدجاجات، كما أسراب النمل التي تسحقها الأقدام. ما من نحيب أو بكاء أو لافتات عزاء. كان الموتى يدفنون حال وفاتهم. جُهّزت نعوشهم مسبقًا وحُفرت القبور أمام أعينهم. وبسبب الحرّ الشديد، كان التمهُّل ليومٍ واحدٍ في حفر قبر يعني أن الجثّة بدأت تتعفّن، لذا كانت النعوش والقبور على أهبة الاستعداد لإتمام عمليات الدفن المستعجلة.

وبحلول الوقت الذي اندلعت فيه الحمَّى، كان المرضى من أهالي القرية قد غادروا المدرسة الابتدائيَّة وعادوا إلى بيوتهم.

لم يكن سبب مغادرتهم له علاقة بالحمَّى، بل بقرار كبار المسؤولين إلغاء الدعم الشهري للمواد الغذائيَّة الذي يشمل الحبوب وزيت الطهي. لم يكتشفوا الأمر إلا بعد أن ذهبت مجموعة منهم، من الأصغر سنًّا، لاستلام المواد من المقاطعة وعادوا عند الظهر خالي الوفاض.

«لن تحصل قرية دينغ على أيّة مساعدات حكوميَّة من الآن فصاعدًا، ولا حتى رطل من الدقيق»، أعلن أحد الرجال.

كان جيا غن تشو ودينغ يويه جي ومجموعة من المقيمين يأخذون قسطًا من الراحة في بقعة ظليلة بباحة المدرسة، متجمّعين حول جهاز التلفزيون. وعندما سمعوا الخبر، توقّفوا عن المشاهدة والتفتوا محدّقين.

«لماذا فعلوا ذلك؟»، سأل أحدهم.

«لأنّهم يعتقدون أنّنا اقتحمنا قبر دينغ ليانغ ولينغ لينغ ونهبناه... لذا قرّروا إلغاء الدعم».

اتجهت كلّ الأنظار نحو جيا غن تشو ودينغ يويه جي. كان الجميع يعلمون أنَّ هذا القرار، بلا شكٍّ، من فعائل أبي لأنَّه اشتبه بأهالي القرية في قضيَّة نهب قبر شقيقه. عوَّل سكَّان المدرسة على مديرَيهما كي يذهبا ويتحدّثا إلى والدي ويعيدا الأمور إلى مجراها، كي يخبراه بأنَّ لا علاقة لأهالي قرية بسرقة القبر. لكنَّ المديرين اكتفيا بتبادل نظرات الذنب ولم يقولا شيئًا.

بعد عدَّة أيّام، غادر الجميع المدرسة وعادوا إلى بيوتهم.

في نهار يوم المغادرة، كان جدِّي يعمل في حديقة خضراواته الواقعة قرب بوَّابة المدرسة. قطعة أرض صغيرة، بحجم بضعة حصائر من القشِّ، عند الجدار الخلفي لبيته، بجوار قبري مباشرة. مستخدمًا دلوَيْن معلَّقَتين بعمودٍ خشبيٍّ يحمله على كتفه، راح يسحب الماء من بئر المدرسة نحو رقعة الخضراوات المزروعة بالكراث والثوم والملفوف. سرعان ما ابتلعت التربة الظمآى المياه. كانت السقاية أشبه بصبِّ الماء في وادٍ، أو

سكبه على الكثبان الرمليَّة المتناثرة في مسار النهر الأصفر. قبل الجفاف، كانت أربع رحلات إلى البئر كافية لسقاية حديقته الصغيرة، لكنَّها الآن تحتاج إلى سبع رحلات، أي إلى أربع عشرة دلوًا من الماء.

كان قد فرغ للتوِّ من السقاية حين لمح جيا غن تشو ومعه مجموعة من سكَّان المدرسة يقفون عند البوَّابة ويراقبونه. لاحظ أنَّهم يحملون أغطية الأسرَّة وحقائب السفر والأطباق وعيدان الطعام والمراوح وحصائر القش وغيرها من الأغراض. كان الجميع يحدِّقون به وكأنَّه المسؤول شخصيًّا عن إيقاف الدعم الغذائيِّ عنهم وإخراجهم من المدرسة. كانت كل العيون تنظر إليه، مشيرةً إليه بأصابع الاتهام.

وبينما كان واقفًا في حديقته، بحوزته الدلوين الفارغتين، يحدِّق في بحر الوجوه الماثل أمامه، بدا جدِّي أقلّ خوفًا من ذي قبل. ربّما خذلهم في الماضي، لكنّهم بالمقابل خذلوه أيضًا. لقد كان مدينًا لهم ذات مرّة، أمّا الآن فلا يدين لهم بأيِّ شيء. ربَّما كانوا أصدقاءه في وقتٍ سابق، لكنَّهم الآن باتوا مثل غرباءٍ من قرية أخرى وما كان لديه ما يقوله لهم. كان جدِّي يعرف أنَّ بعض سكَّان المدرسة -ليس واحدًا ولا اثنين فحسب، بل مجموعة كبيرة- قد اقتحموا قبر ابنه. لقد دمّروا قبرًا وسرقوا نعشين لم يُرَ مثيلٌ لهما منذ مئة عام ولن يُرى لهما مثيل في غضون مئة عام أخرى. لكنَّ هذه الحقيقة لم تكدّره، لأنَّها تعني التعادل، تعني أنَّ ذلك الدَيْن الذي في ذمته تجاه قرية دينغ قد سُدِّد بالكامل.

الآن بات بوسعه أن يواجه أهالي القرية. بوسعه أن ينظر إليهم كما نظروا إليه... نظراتٍ باردة وصامتة.

أنهى جيا غن تشو هذه المواجهة بالبصق على الأرض، كأنَّه كان يحاول أن يخرج شيئًا عالقًا في حلقه. ثمّ قاد موكبه بعيدًا.

وبينما كانوا يسيرون نحو القرية، لم يكفّوا عن الالتفات وإلقاء نظرات حقيرة على جدِّي. كانت نظراتهم تقول إنَّ جدِّي مدين لهم، إنَّه ما زال مدينًا لهم، وإنَّ نهْب قبر ابنه لم يكن كافيًا لتصفية الحسابات. كانوا يحسّون بالغبن وعزموا على الانتقام. وقف جدِّي في حديقته، يفكّر في تلك النظرات الحقيرة ويتساءل عن معناها. ماذا يريدون منه أيضًا؟ ماذا بوسعه أن يفعل من أجلهم؟ لقد دنّسوا قبر ابنه ولكنّه لم يتشكَّ ولم يتّهم أحدًا ولم يتلفّظ بكلمة سيئة تجاه أحد. ألا يكفيهم هذا؟ ماذا يريدون منهم أيضًا؟

كان جدِّي على وشك العودة إلى البئر لجلب المزيد من الماء حين رأى آخر المغادرين، دينغ يويه جي، يعبر البوَّابة حاملًا أمتعته.

«مرحبًا يا عمِّي. أراك تسقي حديقتك؟».

قرَّر جدِّي تجاهل هذا الحديث. «عندما نُهب قبر ابن عمّك، لم أقم الدنيا وأقعدها... لم أقل كلمة واحدة حتّى... ماذا تريدون منّي أكثر من ذلك؟ هل تحاولون جرّي إلى حتفي؟».

وضع دينغ يويه جي أمتعته وفكّر لوهلةٍ بعد أن وقف وجهًا لوجهٍ أمام جدِّي.

وببطءٍ قال: «كان دينغ ليانغ رجلًا صالحًا. أمّا شقيقه فله حكاية أخرى. في البداية سرق نعوشنا، والآن ألغى الدعم الغذائيّ عن المرضى. لماذا يظنّ أنَّ لنا يدًا في سرقة قبر أخيه؟ وحتّى لو كان ذلك صحيحًا، فهذا لا يغيّر شيئًا... هذا الفعل لن يجعل منه رجلًا صالحًا».

حدَّق دينغ يويه جي إلى جدِّي تحت الشمسِ الساطعة. «أتعرف ماذا يفعل ابنك الآن؟ بات يرتّب الزيجات لمن ماتوا جرَّاء الحمَّى. في البداية عيّنوه مسؤولًا عن توزيع النعوش والإعانات الحكوميَّة والآن أصبح مدبّر الزيجات لموتى المقاطعة! زيجات ما بعد الحياة! سمعتُ أنَّه يحصل على مئتي يوان مقابل كلّ زيجة يدبّرها. أتعلم كم من الشباب ماتوا عُزَّابًا؟ كم فتاةً ماتت بلا زوج؟ هل تتخيّل مقدار الأموال التي سيجنيها من ذلك؟ ليت الموت كان من نصيبه بدلًا من أخيه!».

حمل دينغ يويه جي أمتعته من جديد وواصل السير نحو القرية. وبينما كان جدِّي يراقبه وهو يغادر، أدرك سبب عداوة سكّان المدرسة له ونظراتهم الحقيرة إليه. أسقط جدِّي الدلوين عن كتفيه وركض لاحقًا بابن أخيه وهو يصرخ: «يويه جي! يويه جي! هل كان صحيحًا ما قلتَه؟».

التفت دينغ يويه جي. «اذهب واسأله بنفسك كي تتأكّد!».

واصل طريقه تاركًا جدِّي واقفًا في منتصف الطريق تحت أشعة الشمس الحارقة، مثل تمثال صغيرٍ من الطين تُرك يجفّ تحت الشمس، مثل عمودٍ خشبيٍّ متآكلٍ مغروسٍ في الأرض.

٣

رغم نيّة جدِّي بالذهاب إلى المدينة لزيارة أهلي ورؤية أختي الصغيرة، إلا أنَّه لم يتمكَّن من اتخاذ القرار. لم يكن قادرًا على حملِ نفسه على السفر، كأنّه، في قرارة نفسه، لا يريد لقاء ابنه وجهًا لوجه.

أمضى أيَّامه في المدرسة الابتدائيَّة. باتت المدرسة مهجورة والصفوف فارغة. اختفت المقاعد والكراسي والسبورات. لم يبقَ أثر للطاولات والألواح الخشبيَّة التي استُخدِمت كأسرَّة. قُطعت كلّ الأشجار الموجودة في باحة المدرسة من أكبرها إلى أصغرها. وحتَّى زجاج النوافذ لم يسلم من الأيدي.

لم يمرّ يوم من دون أن يأتي أحدهم وبحوزته أمرٌ يخوّله من أخذ بعض أغراض المدرسة. كانت هذه الأوامر ممهورة دومًا بختم القرية الرسميّ وتوقيع كلٍّ من جيا غن تشو ودينغ يويه جي. وبعدما أُفرغت المدرسة كليًّا، وجد جدِّي نفسه حارسًا لمبنى فارغ وغرفتين صغيرتين تخصّانه. اعتراه الملل والحال هذه؛ ما من شيءٍ يفعله كي يزجّي به وقته. فكَّر في زيارة أبي في المدينة، ولكنّه، لسببٍ ما، لم يفعل. أحسَّ بخواء الأيَّام، تمامًا كخواء قلبه، قلبه الذي شعر بأنَّه فارق جسده كما فارق ابنه الأصغر الحياة. شعر كأنَّ كلَّ ما أحبَّه قد مات. ورغم أنَّ أبي لا يزال حيًّا وبصحة جيّدة وينعم بحياة هانئة في المدينة الكبيرة لكنّ ذلك لم يعنِ له أيَّ شي. فبالنسبة لجدِّي، لقد مات ابنه الكبير.

خامره الشعور ذاته تجاه قرية دينغ.

فبالنسبة له، ما عاد للقرية وجود.

أمضى جدِّي أيَّامه في المدرسة الابتدائيَّة غيرَ راغب في رؤية أيٍّ من أهالي القرية. كانت المدرسة هادئة وفارغة كما كانت قبل عام. لا معلّمون ولا طلاب ولا مرضى. كان الحرم المدرسيّ الذي تبلغ مساحته قرابة فدّانَيْن يضمُّ بين جدرانه روحًا حيَّة واحدة فقط. الآن وقد أصبح

جدِّي وحيدًا، صار بوسعه الخلود للنوم وقتما يشاء والاستيقاظ وقتما يشاء. بوسعه أن يأكل حينما يجوع ويشرب حينما يعطش، بوسعه أن يتناول وجبته كلّها أو يقسّمها إلى وجبتين. بوسعه ألّا يتكلّف عناء غسل القدر الذي طها فيه، فمن يلقي بالًا لذلك؟ لا أحد سيدري. وماذا يهمُّ إن استيقظ ولم يغسل وجهه؟ ذلك أنَّ أحدًا لن يراه.

بدأ الكسل يثقل كاهله. شعر جدِّي بأنَّه يعيش على هامش العالم، لا بداخله. بين حين وآخر، كان الصراخ والعويل القادم من جهة القرية يخبره أنَّ أحدًا قد مات، لكنَّه لم يتجشّم عناء معرفة الميت. ماذا يهمُّه إن رحل شخص آخر عن هذا العالم؟

كان إذا رأى جنازة خارجة من القرية أو مارّة بجوار المدرسة يقف ويتفرّج للحظات قبل أن يعود ليكمل ما كان يفعله.

لم يكن هناك ما يفعله سوى الاعتناء بحديقته الصغيرة وسقايتها واقتلاع الأعشاب الضارّة منها. وحالما يفرغ من هذه الأشياء، كان يقف أمامها ويتملَّى فيها؛ كلُّ ما بوسعه أن يفعله هو انتظار ظهور حشرات جديدة أو نموّ أعشاب جديدة.

رغم أنَّ الجفاف أودى بالسهل، وجعله مساحة يغطّيها ترابٌ كالرماد، كان ثمَّة واحة خضراء صغيرة. اعتنى جدِّي بحديقة الخضراوات الخاصّة به عنايةَ المرء بروحه. عمِّي ولينغ لينغ ماتا. تينغ تينغ وجون الصغير رحلا. أبي انتقل إلى المدينة مع زوجته وابنته. لم يتبقّ لجدِّي أحدٌ من عائلته في قرية دينغ. عندما كان يفكّر في شتات عائلته، لم يكن ينتابه الأسى. بل كان يشعر بالتطهُّر إلى حدٍّ ما، بالتخفُّف، كأنَّ عبئًا رزح تحت وطأته لعقود

قد انزاح عن كاهله أخيرًا. ومرَّت الأيَّام، كلُّ يوم يشبه أمسه وغده. ومع وصول الصيف لذروته وتساقط ما تبقّى من أوراق الأشجار، ظهر جيا غن تشو عند بوَّابة المدرسة. وقف صامتًا، يراقب جدِّي وهو يصطاد حشرات حديقته، ثم بصوتٍ خافت قال: «مرحبًا يا عمِّي».

استدار جدِّي مذهولًا، وكان ما رآه أكثر إثارةً للذُّهول. كان قد مرَّ أكثر من أسبوعين على آخر زيارة قام بها جدِّي للقرية، وما يزيد عن ثلاثة أسابيع لمغادرة المرضى من المدرسة. ذلك اليوم كان آخر مرّة رأى فيه جدِّي جيا غن تشو. غير أنَّ الرجل المقرفص قرب حديقة الخضراوات لم يكن جيا غن تشو الذي يعرفه جدِّي. بدا هزيلًا جدًّا كأنَّه ليس بشرًا. وجهه ذاوٍ وهالات سودٌ تحوِّط عينيه. انكمشتْ عيناه لدرجة أنَّ محجريه كانا يتسعان لبيضتَيْن، أو ربَّما لقبضتَي يد. جاثمًا في ظلِّ الجدار، ليس بعيدًا عن قبري، بدا أشبهَ بشبحٍ، بروحٍ خرجت من جوف الأرض. جلده قد تيبَّس كأنَّ جسمه ظلَّ في العراء، تحت الشمس وفي مهبِّ الرياح، لفترةٍ طويلةٍ.

بدا غن تشو، الذي لم ينادِ جدِّي بلقب «عمِّي» قطُّ في حياته، محرجًا من هذا التحبُّب. ابتسامة خرقاء صدَّعت وجهه.

«ما خطبُكَ؟»، سأله جدِّي.

«إنَّها أيَّامي الأخيرة». اتسعت ابتسامته وبدت ثقيلةً على وجهه، كقطعةٍ من لحاء الشجر قد تسقط عن الجذع في أيّة لحظة. «لا أعتقد أنَّني سأعيش لأكثر من بضعة أيَّام. ما دام ليس لديَّ أملٌ في البقاء وجدتُ من الأفضل أن آتي وأتحدَّث إليك».

ترك جدِّي حديقته وجلس بجوار قبري، على ارتفاع ستَّة أقدام عن الموضع الذي أرقدُ فيه. التفت نحو غن تشو وأومأ إليه كي يستهلَّ الحديث. كان الوقت قبيل الغروب مباشرة، وموجات الحرِّ تتهادى في أنحاء السهل بينما رطوبة المساء تحاول الانسلال بينها. كان جدِّي وغن تشو، الجالسان في ظلّ جدار باحة المدرسة، يشعران بالراحة تقريبًا فيما نسيمٌ عليلٌ يلاطف وجهيهما.

جوقة الزيزان التي تطنُّ على مسافةٍ بعيدة ذكَّرت جدِّي بما شيانغ لين حين كان يعزف على كمنجته. لقد مرَّ زهاء عامٍ على وفاة ذلك الرجلِ، على العرض الذي أدَّاه في الخريف الماضي.

«سأموت عمّا قريب... علامات الموت واضحة على وجهي، أليس كذلك؟». قال غن تشو وقد قرَّب وجهه نحو جدِّي.

عن كثبٍ بدا وجهُه أشدّ فظاعة.

«لا حاجة للقلق... بمجرّد أن تجتاز موسم الحرّ هذا سيكون كلُّ شيء على ما يرام»، قال جدِّي.

«لست مضطرًا للكذب عليَّ يا عمِّي. هناك شيء أريد أن أخبرك به قبل أن أموت. وإن لم أفعل فلن ترقد روحي بسلامٍ أبدًا».

«أخبرني إذًا».

«سأفعل».

«هيّا».

«حسنٌ».

ابتسم جدِّي. «قلها فحسب يا بني».

«عمّاه، لستُ أستطيع التوقّف عن التفكير في قتل دينغ هوي. طوال اليوم أفكّر في طرقٍ لقتله. في الليل أحلمُ برؤيته وهو يُقتل».

حدَّق غن تشو إلى جدِّي بتمعُّن، محاولًا أن يستشفَّ ردّة فعله. بدا الأمر كما لو كان لصًّا يحاول سرقة شيءٍ ما على مرأى الجميع ويتساءل عمّا إذا كان سيقف أحدٌ في وجهه أم لا. أبقى عينيه شاخصتين إلى وجهِ جدِّي.

بادله جدِّي نظراتٍ ذاهلة. انهالت كلمات غن تشو كالحجارة على رأسه، الأمر الذي أصابه بالدوار وعقد لسانه. شعر كما لو أنَّ الشاب طلب إليه أن يدير له خدَّه كي يلمسه وإذا به يعاجلُه بصفعة قويَّة. شحبُ وجهِ جدِّي كالقمر في أواخر ديسمبر، وأحسَّ بأنَّ عقله فارغٌ كباحة المدرسة، قاحلٌ كمروج السهل. ألقى على غن تشو نظرة فاحصة، متسائلًا عن صحّة ما سمعه، أهو تخليطٌ أم مجرَّد كلامٍ تبادر إلى ذهنه. ورغم أنَّ غن تشو تحدَّث عن القتل إلا أنَّ ملامحه ظلَّت لطيفة، وعيناه بدتا رقيقتين أكثر مما كانتا عليه يومَ غادر المدرسة. كان الأمر كما لو أنَّه يطلب ببساطة أن يستعير من جدِّي أحد أغراضه أو يطلب إليه المساعدة في البحث عن شيءٍ أضاعه.

كانت الشمس تصبُّ لهيبها نحو الغرب الآن. توارت ومضات الضوء الحادّة خلف زاوية الجدار، تاركةً مستطيلًا من الضوء الصافي على الأرض.

«أأنتَ من نهب قبر ليانغ؟»، سأله جدِّي.

«أتظنّ أنّني قد أفعل شيئًا كهذا؟».

«لقد نُبش القبر وسُرقت كلّ محتوياته. لا بُدّ من تصفية الحسابات».

فكَّر غن تشو للحظة. «أتفق معك. ولكن هل تعلم ماذا يجري في القرية؟ على مدار الأسبوعين الماضيين، استخرجوا جثث الفتيات اللواتي متن بسبب الحمَّى وزوّجوهنَّ للشبّان المتوفّين من قرى أخرى. إنّهم يبيعون فتياتنا، يحفرون قبروهنّ ويستخرجون عظامهنّ ويعطونها للغرباء. كان من المفترض أن يتزوّج ابن عمِّي هونغ لي من تسوي تزي؛ ابنة أخت تشاو شيو تشين، لكننا سمعنا بالأمس أنَّها ستتزوّج شابًا من عائلة (ما) في ضيعة الصفصاف. يقول الجميع إنَّ دينغ هوي هو الوسيط الذي دبّر هذه الزيجة وإنَّ كلًا من العائلتين دفعت له مئة يوان... ناهيك عن أنَّ تلك العائلة دفعت ثلاثة آلاف يوان كمهرٍ لتسوي تزي».

صار صوتّه أجشّ. «لستُ الوحيد الذي يريد قتل دينغ هوي. كثيرون سيفرحون لرؤيته ميتًا. لهذا السبب عليك أن تطلب إليه الابتعاد عن قرية دينغ وإلا فقد لا أتمكّن من كبح جماحي وتهشيم رأسه. أنت رجلٌ طيّب يا عمِّي ولذلك أنا أتحدّث إليك الآن. ولولا مكانتك لديّ لجعلت دينغ هوي يأتي إلى القرية وأبرحته ضربًا حتى الموت».

«وكما تعلم، كنتُ في السادسة عشرة من عمري حين بدأت ببيع دمي. ذات يوم، صادفت دينغ هوي في طريق عودتي من المدرسة، وحاول شراء نصف ليتر من دمي. عندما سألتُه عمّا إذا كانت العمليَّة مؤلمة، قال لي إنَّها أهون من لدغة نملة. وحين سألته عن خطورة الأمر

قال لي: ألا ترغب في الزواج يا فتى؟ إن لم تكن مستعدًّا لبيع نصف ليتر من دمك، فكيف تتوقّع أن تستطيع الإنفاق على زوجة؟».

«هكذا بدأت ببيع الدم. وكما ترى يا عمّي فإنني لا أتجنّى عليه. لديّ أسبابيّ التي تجعلني راغبًا في موته، شأني شأن الكثير من الناس الآخرين أيضًا. لذا أخبر ابنك أنَّ من الأفضل له أن يبقى بعيدًا إن أراد ألا يتهشّم رأسه تهشيمًا. إذا ما لمحناه هنا فلا أعرف ماذا يمكن أن نفعل به».

عندئذٍ، نهض جيا غن تشو كأنَّه يهمُّ للمغادرة. خمَّن جدِّي أن الحديث قد انتهى بذلك وليس لدى غن تشو ما يضيفه. وكما يبدو فقد قطع كلّ تلك المسافة ليخبر جدِّي إنَّه راغب في قتل ابنه، وكي يمرِّر تحذيرًا لدينغ هوي بعدم وطء القرية بعد الآن. كانت الشمس قد غربت آنَ حديثِهما، وحوَّلت السهل إلى بحيرة كبيرة وكثيفة من الدماء. كان غن تشو على وشك المغادرة، على وشك السير نحو الشمس الغاربة بحمرتها اللزجة، وإذا به يتوقّف.

«عمّاه؟»، قال بعجالة. «لديَّ طلبٌ آخر، خدمة. لم يتبقَّ أمامي وقتٌ طويلٌ لأعيشه، لذا أقسم لك إنَّه آخر طلب أطلبه إليك. أنت تعلم أنني وابن أخيك من مسؤولي المقاطعة، وبحوزتنا ختم القرية. دينغ يويه جي بحالة سيئة جدًا هذه الأيّام، مثلي تمامًا، ولا أظنّ أنَّه سيعيش حتى نهاية هذا الشهر. على أيّة حال، أوّل أمس تحدّثت معه حول مَن سيُدفن الختم معه. تطوّر الحديث إلى جدالٍ حادّ لأنّ كلينا، بالطبع، أراد الاحتفاظ بالختم. في نهاية المطاف قررنا إجراء قرعة ووقعت عليه. ومنذ ذلك الحين لم يُغمض لي جفنٌ، أظلّ أتقلّب وأتقلّب وبالي مشغولٌ بالختم...

كم أرغب في أن يُدفن في قبري عندما أموت. أعلم أنّني أسأتُ لك ولعائلتك أكثر من مرّة في الماضي، لكنّني الآن رجلٌ على حافة قبره... كلّ ما أريده منك أن تذهب إلى دينغ يويه جي وتناقشه. ذلك أنَّ بينكما قرابة وأعلم مدى الاحترام الذي يكنُّه لك... وإذا طلبت إليه أن يتخلّى عن الختم فأنا متأكّد أنَّه سيوافق».

وقف غن تشو بين حديقة الخضراوات وبوّابة المدرسة، يحدِّق إلى جدِّي متوسِّلًا. كانت الشمس الغاربة خلفه مثل بحيرة من الدماء تبلِّل ملابسه.

نهض جدِّي. كان نصف جسده العلوي مغمورًا بضوء الشمس الباهت، والنصف السفليُّ لا يزال غارقًا في ظلِّ الجدار.

«هل من المهمِّ حقًّا أن تُدفن ومعك الختم؟»، سأله جدِّي.

«ربّما لا يكون مهمًّا، لكنّ قلبي معلَّق بهذا الشيء».

«لماذا لا تحفر ختمًا جديدًا؟».

«حينها سيكون الختم الجديد مزيّفًا. دع دينغ يويه جي يأخذ الجديد وآخذ أنا القديم. إذا أقنعته بالتخلّي عن الختم فأنا أعدك بأن أكفَّ عن التفكير بقتل دينغ هوي».

حدَّق الرجل إلى جدِّي لبضع لحظات، ثم غمغم بشيءٍ ما واستدار ومشى. ورغم أنَّ الجوّ هادئ بلا رياح إلا أنَّ غن تشو سار ببطءٍ، متقلقلًا، كما لو كان يخشى أن تباغته عاصفة قويَّة.

وبينما كان جدِّي يراقبه وهو يتهادى بعيدًا، كقصبة رفيعة في مهبّ الريح، قرَّر أن ينأى بنفسه عن مشكلة الختم. ولكن ما دام جيا غن

تشو على قيد الحياة وقادر على المشي، فمن الأفضل أن يذهب إلى المدينة ويطلب إلى أبي أن يبتعد عن القرية، على الأقلّ لفترة من الوقت.

أو ربّما يطلب إليه الابتعاد عن القرية إلى الأبد.

وفي كلتا الحالتين، قرَّر أن يخلد إلى فراشه باكرًا كي يتمكَّن من الانطلاق باكرًا في صباح اليوم التالي.

الفصل الثاني

١

تمكَّن جدِّي من العثور على ابنه أخيرًا، لكنَّ الأمر لم يكن سهلًا.

اقتفى أثره، بعد رحلةٍ طويلة وشاقّة، في القرية نفسها التي زارها أهالي قرية دينغ قبل عشر سنوات؛ قرية شانغ يانغ التي كانت مثالًا يُحتذى به في بيع الدم. هذه المرّة كان أبي يزور القرية لوضع الإحصائيّات حول عدد الأشخاص الذين ماتوا جرّاء الحمّى، وعدد العُزّاب منهم. أعدَّ قائمة تشتمل على أسماء كلّ الرجال والنساء والشبّان والشابّات غير المتزوجين في القرية، ثمّ بدأ يستلم الطلبات المقدَّمة من عائلاتهم للحصول على خدمة توفيق الزيجات. كان على هذه العائلات تقديم صورة أو على الأقل توصيف جسديّ لفقيدهم أو فقيدتهم. من جانب آخر، تولّى فريق المساعدين، المكوّن من جامعيّين جلبهم أبي من المدينة، تدوينَ بيانات هؤلاء الأشخاص من عمرٍ وطولٍ ووزنٍ وشكل الوجه ولون البشرة. وضع الفريق طاولاته وسط القرية وانكبَّ المساعدون على تدقيق الصور وإعداد الإحصائيّات وتصنيف الموتى إلى فئات. كان أبي يذرع صفّ الطاولات ذهابًا وإيابًا ويتوقّف

بين الحين والآخر ليجلس أو يطرح سؤالًا أو ليعطي بعض التعليمات للمساعدين.

رغم أنَّ أبي غدا من سكَّان المدينة إلا أنَّه كان يخرج إلى الريف كلَّ يوم، بالوتيرة نفسها التي يخرج بها أهالي الريف إلى حقولهم كلَّ صباح. وبعد أن تناهى ذلك إلى معرفة جدِّي، راح ينتقل من قرية إلى قرية بحثًا عن أبي حتّى عثر عليه في قرية شانغ يانغ. قبل عشر سنوات، إبان موجة بيع الدم، كانت القرية في أوج ازدهارها. ما زالت المباني الشاهقة والبيوت المكسوَّة ببلاط البورسلين موجودة لكنَّ الزمن عفا عليها فتداعت. وقف جدِّي حزينًا عند مدخل القرية وحدَّق في الخراب الذي حلَّ بها. تساقطت قطع كبيرة من البلاط الأبيض عن جدران المباني وما تبقَّى من البلاط بدا مصفرًّا ومتآكلًا وفقد ملمسه الصقيل ليصبح خشنًا كأقراص الصنفرة. نبتت الأعشاب بين شقوق الأسطح وقناطر الطوب. كانت هذه الأعشاب شاحبة وذابلة بفعل الجفاف، شأنها شأن العشب الذي نما على المسار القديم للنهر الأصفر.

وبينما كان جدِّي يسير في شوارع القرية ذات الفخامة المعهودة، لاحظ تشقُّق الأرضيَّات وتهالكها وتناثر الحفر وشظايا الحجر فيها. بدت البيوت التي تصطفّ على جانبي الشوارع مشابهة لبيوت قرية دينغ تمامًا، فعلى بوَّاباتها المعدنيَّة تدلّت الأقفال وعلى الأبواب عُلِّقت لافتات العزاء. كان ثمَّة لافتات حديثة وأخرى قديمة تحتوي أسطرًا شعريّة متنوّعة، بعضها كان مؤثّرًا للغاية: «عجوزٌ شعرُه ببياض القمرِ يدفن صغيرًا شعره بسواد الليل/ شجيراتٌ يافعة تبورُ بينما أشجارٌ

معمّرة ما دامت مخضوضرة». وبعضها بدا مستسلمًا للمصير: «انتقل الموتى إلى عالمهم الجديد/ أمّا نحن الأحياء فما زلنا في عالمنا القديم». وبعضها الآخر انطوى على دعابةٍ قاتمةٍ: «على موائد جنّة السماء، ينعمُ الموتى بما لذَّ وطاب/ وفي أوكار جحيم الأرض، يتجرَّع الأحياء مرَّ الطعامِ والشراب». بعض اللافتات كانت بِيضًا خالية، بينما بعضها الآخر يحتوي دوائر كبيرة في مواضع الأحرف. هذه المقاطع الفارغة من الطراز الجديد الذي كان يُنجز عبر غمس القاعدة المستديرة لوعاء خزفيّ بالحبر ثمّ ضغطها على الورق. كانت اللافتات العموديّة المعلّقة على يسار ويمين الأبواب تضمُّ سبع دوائر كبيرة، أمّا اللافتات الأفقيَّة المعلَّقة أعلى الأبواب فكانت تضمُّ أربع دوائر متتالية. أينما نظر جدّي أحسَّ بهذه الدوائر، الجاثمة على مداخل الأبواب، تحدِّق إليه كأعينٍ فارغةٍ.

واصل جدِّي سيره نحو وسط القرية. وحين وصل إلى شارع الازدهار، رأى أنَّ باب النادي الاجتماعيّ مفتوح على مصراعيه. يبدو أنَّ المكان الذي اعتاد القرويّون أن يزجّوا وقتهم بمشاهدة التلفزيون ولعب الشطرنج قد هُجر. كان أحد مصراعَي الباب مفقودًا، ربّما سُرِق، والمصراع الآخر به ثقبان كبيران. الفناء غارقٌ في الفوضى. كأنَّ معركة جرت فيه. تحطَّمت الأبواب والنوافذ وتناثر الزجاج المكسور والركام على الأرض التي غزتها الأعشاب الضارّة. وفي الظلّ الرطب للفناء، نمت الأعشاب بوفرةٍ وشكّلت مأوى للجنادب والضفادع والعثّ والحشرات. تراءى المكان برمّته لجدِّي كقبرٍ في ضريح أسلاف عتيق.

وعند نهاية الشارع وصل جدّي إلى طاحونة مهجورة. تدلّت خطوط الكهرباء المقطوعة من السقف كعناقيد العنب وركضت الفئران بين صفوف الآلات المهملة. كانت آلات الجرش والطحن والتحريك مطليّة فيما مضى باللون الأخضر الفاتح والآن غزاها الصدأ.

بجوار الطاحونة ثمّة مبنى يبدو أنّه كان إسطبلًا أو حظيرة أبقار. وفي هذا الوقت، بعدما توقّف أهالي القرية عن تربية الخيول والأبقار، غدا المبنى خاليًا. اختفى سقفه المصنوع من القشّ وحلّ محله بساطٌ مثبّت على إطار خشبيّ. في الداخل، بدا حوض العلف الخشبيّ متداعيًا وهناك شرخ واسع يمتد إلى منتصفه. كان هناك عجوز وصبيّ صغير، ربّما حفيده، يلعبان قرب الحوض ويصطادان الصراصير.

حيّا جدّي الرجل كأنّه صديقٌ يعرفه منذ أمدٍ بعيدٍ. «كيف حال عائلتك؟ هل هم بخير؟».

أجاب الرجل مشيرًا إلى الصبيّ الصغير: «لقد مات أبوه وتزوّجت أمّه رجلًا آخر، وما عدا ذلك، فالجميع بخير».

هزّ جدّي رأسه وتنهّد، حزينًا لسماع هذا الخبر.

«أبحثُ عن شخصٍ وأتساءل إن كنتَ قد صادفتَه. هناك مسؤول يُدعى دينغ، قادم من مقاطعة وي، هل تعرفه؟».

«هل تقصد دينغ هوي؟ رئيس فريق العمل بالمقاطعة؟»، سأله العجوز.

«نعم نعم. هذا هو الشخص الذي أبحث عنه».

«أوه! يا له من رجلٍ عظيم! رجل شهم!».

راح العجوز يخبر جدّي عن الأشياء الجميلة التي فعلها أبي من أجل مقاطعة تساي وقرية شانغ يانغ. فرغم أنَّ أبي كان مسؤولًا عن مقاطعة وي إلا أنَّه قدَّم نعوشًا بتكلفة منخفضة لسكَّان قرية شانغ يانغ مِمَّا خفَّف الأعباء عن المرضى الذين كانوا على بعد خطوة من الموت. والآن يمنح الأحياء السلوان بخدمة توفيق الزيجات بين الموتى. ما عاد أهالي القرية قلقين بشأن شعور موتاهم العزَّاب بالوحدة في العالم الآخر. ناهيك عن أنّ أبي استطاع تدبير زوجة لرجلٍ من رجال القرية البلهاء والذي باع الكثير من دمه دون أن يتمكَّن من الزواج. الآن بعدما بات راقدًا في قبره، زوّجه أبي من فتاةٍ في الثامنة عشرة من عمرها ماتت جرَّاء حادث سير. ومقابل مهرٍ مقداره خمسة آلاف يوان فقط تمكَّنت والدة الرجل من دفن ابنها بجوارِ عروسٍ عذراء لم تصبها الحمَّى.

اكتشفت فتاة أخرى في القرية، وهي طالبة في أفضل جامعات بكين، إصابتها بالحمَّى فعادت إلى بيت أهلها وتوفّيت بعد بضعة أسابيع. رغم أنّها متعلِّمة وجميلة، إلّا أن والديها عندما بدأا بالبحث عن شريك لها بعد وفاتها لم يطلبوا مهرًا قطّ. كلّ ما أرادوه هو العثور على شابٍ متعلّم، يضاهي ابنتهم في المستوى الثقافيّ، كي يرافقها في العالم الآخر. وعندما خاب مسعى العائلة بعد بحث في كل القرى المجاورة وعلى بعد ثلاثين ميلًا، نهشهم القلق شاعرين بخذلان البنت. إلى أن جاء أبي إلى قرية شانغ يانغ وبحوزته رزمة الملفات والصور. أخرجَ لهم صورة شابٍّ وسيمٍ مات جرَّاء الحمَّى أثناء دراسته في إحدى جامعات

الجنوب. في غضون دقائق اتفقت العائلتان على إتمام الزيجة. حتّى إنّ مأدبة زفاف فاخرة أُقيمت احتفالًا بهذه المناسبة.

«وبتكلفةٍ بسيطة!»، صاح العجوز. «لا تتقاضى الحكومة سوى مئتي يوان لكلِّ زيجة، الأمر الذي يبعث ارتياحًا كبيرًا لدى الأسر».

حدَّق جدِّي إلى الرجل لبضع لحظات. «أتعرف أين يكون هذا الرجل الآن؟».

«نعم، بالتأكيد. لا بُدَّ أنّه ينجز أعماله في ساحة النجمة الحمراء. اعبر هذا الشارع حتّى تصل إلى مفترق الطرق وتجده هناك».

ودَّع جدِّي العجوز وتابع طريقه. قبل عشر سنوات، كان الشارع الإسمنتيّ المعبَّد ناعمَ السطح لكنّه الآن متشقِّق وتملؤه الحفر. حفرٌ تجمّعت فيها الأوساخ والنباتات الضارّة. ومن بين شقوق الرصيف نما العشب الجافّ. حتّى أجزاء الشارع التي حافظت على نعومة سطحها غطّتها طبقة سميكة من التراب وعلى إثرها كانت سحب الغبار تتطاير في الهواء كلّما مَرّ أحدهم. أُغلقت المطاعم وأكشاك الطعام ومحلّات الملابس المصطفّة على جانبي الشارع وذهب أصحابها إلى حيث ذهبوا. هُجر شارع الازدهار شأنه شأن شوارع قرية شانغ يانغ الأخرى. يندر أن تلمح فيه مارًّا، وعندما تصادف واحدًا منهم فإمّا طفلًا وإمّا عجوزًا. يبدو أن جميع أهالي القرية الذين تتراوح أعمارهم بين الثلاثين والأربعين قد اختفوا. القلّة التي رآها جدِّي ذكّرته بجيا غن تشو: نحلاء كهياكل عظميّة، أجسادهم مغطّاة بالبثور والقروح، وظلّ الموت يخيّم على وجوههم.

يعرف جدِّي أنَّ قرية شانغ يانغ ازدهرت خلال موجة بيع الدم، ولكنّها، شأنها شأن قرية دينغ، دمَّرها الدم وعاث فيها خرابًا. مات السكَّان وتحوَّلت القريتان إلى مدينتي أشباح. وسرعان ما ستصبحان خاليتين تمامًا إلا من العجائز والأطفال.

سار جدِّي في الشارع الصامت، المغمور بالموت، حتّى وصل إلى مفترق الطرق الذي يشكِّل ساحة النجمة الحمراء، حيث كانت محطَّة دماء القرية موجودة فيما مضى. ثمَّة حوض زهور دائريّ كبير في الساحة لكنَّه بلا زهور وتربته ممّرغة. هناك أنشأ أبي ومساعدوه متجرًا لترتيب الزيجات في قرية شانغ يانغ. رأى جدِّي حشدًا من القرويّين حول الطاولات، يستفسرون عن هذا الشيء وذاك. بعضهم جاء لتسجيل بيانات الأبناء أو البنات أو الأخوة أو الأخوات في خدمة توفيق الزيجات، وجاء آخرون للاستعلام عمّا استجدَّ بشأن زيجات موتاهم.

مَّرر رجل في منتصف العمر صورةً لمراهقٍ وسيم يبتسم نحو أبي. بعد أن دقَّق في الصورة، نظر أبي إلى الرجل الذي يرتدي قميصًا داخليًّا رثًّا وقبّعة متسخة من القشّ اهترأت بفعل الشمس.

«يا له من فتى وسيم! أهو ابنك؟».

أومأ المزارع برأسه وابتسم.

«كم كان عمره؟».

«ستة عشر عامًا».

«متى تُوفّي؟».

«منذ ثلاثة أعوام».

«ما مستواه التعليميّ؟».

«حتّى المرحلة الإعداديّة».

«هل كان خاطبًا؟».

«نعم، وحين علمتْ أنّه مصاب الحمّى تزوّجت غيره».

«هل تبحث عن نوعٍ معيّن من الفتيات؟».

«لا. أن تكون قريبة من عمره فحسب».

مرّر أبي الصورة إلى المساعد الجالس بجانبه وهو شابّ ذو ملامح أنثويّة، وقال له: «فئة متوسطة».

نقّب الشابّ في كومة من الصور حتّى عثر على فتاة بمظهر مقبول. وبعد أن قرأ معلومات السيرة الذاتيّة المطبوعة على ظهر الصورة نظر إلى المزارع.

«ما رأيك بهذه؟ عشرينيّة، تعليم ابتدائيّ، لا متطلّبات خاصّة باستثناء مهر قدره أربعة آلاف يوان».

«أربعة آلاف؟»، اندهش المزارع.

«أرخص الموجود حاليًّا».

«ابحث مرّة أخرى من فضلك... علّك تجد لنا بأقلّ من ألفي يوان. هذا أقصى ما نستطيع تحمّل نفقته»، قال المزارع مبتسمًا.

راح الشاب، محرجًا، يقلّب في كومةٍ أكبر من الصور. أخرج صورة لامرأة تحمل طفلًا وأظهرها للمزارع قائلًا: «هذه بألفي يوان فقط».

نظر المزارع إلى الصورة. مبتسمًا تلك الابتسامة القسريّة ذاتها قال: «ولكن ابني صبيّ صغير... هذه تبدو أكبر منه بكثير».

وبعد مزيد من البحث، عثر الشاب على صورة لفتاة ذات عينين واسعتين وجسم مكتنز بعض الشيء.

«ما رأيك بهذه؟ عائلتها تريد ثلاثة آلاف يوان».

لم تكن الفتاة قبيحة المظهر برأي المزارع. قلّب في رأسه فكرة اقتراض ألف يوان من أجل تأمين مهرها. وبعد بضعة استفسارات عن عمرها واسمها ومسقط رأسها ووضعها العائليّ، أومأ بالموافقة وسدَّد مبلغ مئتي يوان لقاء رسوم الخدمة.

«متى يمكننا إقامة حفل الزفاف؟»، سأل المزارع.

«سنعلمك في غضون ثلاثة أيام».

«هل يمكنك إخبار أهل الفتاة أن ابني كان خريج مدرسة ثانويّة؟».

«إذا كان هناك شهادة تثبت ذلك».

«لكنّه أجمل منها بكثير».

«اسمعني. هذه العائلة ثريّة جدًا، لديهم معمل طوب وأموال لا تأكلها النيران».

«طالما لديهم كل هذه الأموال فلماذا يريدون مهرًا قيمته ثلاثة آلاف يوان؟».

«لا علاقة لهذا بذاك!»، قال الشاب وقد نفد صبره. «كونهم عائلة ثريّة لا يعني أنهم يتخلّون عن ابنتهم، التي من لحمهم ودمهم، بثمن بخس!».

فكّر المزارع لوهلة. «ابني فتى في غاية اللطافة. لو أنّك قابلته لعرفت ذلك. سيعامل الفتاة كأميرة، سيجعلها سعيدة إلى الأبد».

اضطرّ الشاب للابتسام أمام المزارع الذي بدا في منتهى الجدّية. «لا تقلق يا سيّدي. سنبذل كلّ ما بوسعنا لإتمام الزواج وسنحاول بكلّ الطرق أن نتفاوض مع العائلة لتخفيض المهر قليلًا».

غادر المزارع وعلى وجهه ابتسامة رضا. كان الزبون التالي امرأة في منتصف العمر تبحث عن زوجٍ لابنتها. سلّم أبي مساعده صورة البنت وطلب إليه العثور على صورة شاب في منتصف العشرينيات من عمره.

عندئذٍ ظهر جدّي الذي كان يراقب ما يجري من مسافة بعيدة. تقدّم وتنحنح قائلًا: «هوي؟».

عندما سمع أبي اسمه التفتت ذاهلًا. «أبي! ماذا تفعل هنا؟».

انتحاه جدّي جانبًا كي يتمكّنا من الحديث على انفراد. وقفا عند حافة حوض الزهور الممرّغ، بالقرب من مدخل المبنى الذي كان في السابق بنك دماء القرية. لاحظ جدّي أن الصليب الأحمر الفاتح الموجود فوق المدخل يبدو حديثًا، كأنّه رُسم بالأمس. كاد يشمُّ رائحة الطلاء الطازج ممزوجةً برائحة الدم اللاذعة واللزجة.

أخبر جدّي أبي عن لقائه بجيا غن تشو، ونقل إليه تهديد الرجل بقتله إذا ما وطأت قدماه القرية من جديد.

«لذا أظنُّ أنّه من الأفضل ألا تعود إلى قرية دينغ بعد الآن»، قال جدّي.

حين سمع أبي ذلك، ارتسمت ابتسامة على وجهه. انفرجت شفتاه

مثل بتلات الزهور. «أيُّ نكرة هو جيا غن تشو هذا! أيعرف مدى نفوذي في المدينة؟ بركلة من قدمي أستطيع أن أهدم بيته فوق رأسه!».

«إنَّه على حافة قبره يا بني. ليس لديه ما يخسره ولا يخشى شيئًا».

«عد إلى قرية دينغ واسأله إذا كان يريد تدبير زيجة لابن عمّه هونغ لي. اسأله إذا كان يرغب في أن يعيش والداه بسلام بعد وفاته. وإذا كان يرغب في ذلك فعلًا، فلعلَّه يهتمّ بشؤونه الخاصّة ولا يحشر أنفه في شؤوني».

في تلك اللحظة نادى أحدهم أبي فاستدار وعاد إلى الحشد تاركًا جدِّي بمفرده خارج بنك الدم المهجور.

٢

لم يعد جدِّي إلى قرية دينغ تلك الليلة. عاد بالسيارة إلى المدينة برفقة أبي الذي دعاه لتناول العشاء مع أمي وأختي. في مطعم مكوّن من أربعة طوابق مملوءة بالأضواء الملوّنة، طلب أبي وجبة الدرجة الأولى المكوّنة من دجاج مشويّ وبطّ بكين وصنف من الحساء لم يسمع به جدِّي من قبل. كان الحساء ذو القوام السميك والمقدّم في أوعية صغيرة جدًا مكوّنًا من شرائح شفافّة، ربّما تكون زعانف سمك القرش، ومزيّنًا بأوراق الكزبرة والزنجبيل المبشور. تنبعث منه رائحة سمك غريبة، ويتمتّع بأثرٍ منعشٍ للقريحة. بعد أن تناول جدِّي حساءه، شعر بقشعريرة طفيفة تعبر جسده، كأنّه قد تبرّع بدمه للتوّ. بمجرَّد ما أنهوا أطباقهم، عمدت النادلات الحسناوات إلى إزالتها. نظر أبي إلى جدِّي بترقُّب.

«هل أعجبكَ الحساء؟».

«كان طازجًا جدًا».

«ثمن الطبق مئتان وعشرون يوانًا، أي بسعر النعش تقريبًا». انتظر أبي ليرى ردّة فعل جدّي.

فغر جدّي فمه وامتقع وجهه لدى سماعه السعر. أراد أن يقول شيئًا لكنَّه لم يستطع أن ينبس بكلمة. بعدما انتهوا من العشاء، قررت الأسرة اصطحاب جدّي في جولة حول المدينة. وبينما كانوا يغادرون المطعم المغمور بإضاءة ساطعة، ألحّ جدي في سؤاله عن تكلفة العشاء ولكن أبي رفض الإجابة وأخبره ألّا يقلق بشأن ذلك.

فكّر جدّي بأنَّ تناول المعكرونة أو عصيدة اللفت في البيت كان أفضل من تبذير المبالغ الطائلة على عشاء فاخر كهذا، لكنَّه لم يقل ذلك.

ولّما عبروا الممرّ الضيّق إلى الشارع الواسع دُهِش جدّي بما رآه. لقد تطوّرت المدينة كثيرًا خلال العام الذي انقضى منذ زيارته الأخيرة لمقرّ المقاطعة وأصبحت تضاهي كايفنغ الكبرى. كانت مجمّعات المباني الشاهقة والأبراج السكنيَّة تصطفّ على جانبي شارع عريض يكفي لمرور سبع أو ثماني شاحنات كبيرة جنبًا إلى جنب. ورغم حلول الليل فقد كان الشارع مغمورًا بالضوء الساطع كأنَّهم في عزّ النهار، والمصابيح الصغيرة البِيض تتدلَّى كعناقيد العنب من أعمدة الإنارة. تخلَّلتها ومضات الضوء الأخضر والأحمر القادمة من مصابيح معلَّقة على جذوع الأشجار وأعمدة الإنارة. كأنَّ شحّ المياه وموسم الجفاف لم يمرَّا بهذه المدينة. ففي حين غطَّى شحوب الظمأ الريف برمَّته، كانت الأعشاب والأشجار

والأزهار والشجيرات هنا تتألَّق بألوانها اليانعة. الأحمر أحمر والأصفر أصفر والأخضر أخضر. كانت الأشجار المصطفّة على الأرصفة كثيفة ومخصوضرة لدرجةٍ أنّها بدت مجسّمات مزيّفة تقريبًا. حتّى الرجال والنساء الذين مَرَّ بهم جدِّي بدوا مختلفين تمامًا. منذ وقتٍ ليس ببعيدٍ، كان الناس ما زالوا محافظين بعض الشيء على رونقهم الريفيّ، كما لو أنَّ تربة الحقول ظلَّت ملتصقة بثنايا جلدهم. وبالمقارنة مع أهالي قرية دينغ، كانوا يبدون سكَّان مدينة، أمَّا إذا قارنتهم بسكَّان مدينة كبرى مثل كايفنغ، فكانوا أقرب إلى القرويّين. لكن الآن لا أثر للريف إطلاقًا.

رغم الطقس الحارّ، انتعل كلُّ الشباب من ذوي الشعر الطويل المصبوغ بالأشقر أحذيةً رياضيَّة بيضًا سميكة، بينما أصبحت تسريحات الشعر النسائيَّة أقصر. بعض الفتيات سرَّحن شعورهنَّ بأساليب ذكوريَّة جعلت تمييزهن عن الشبان شاقًّا، غير أنَّ نمط الملابس التي ارتدينها، من قمصان وبلوزات قصيرة، كانت تذكيرًا بأنّهن فتيات، فتيات لا يشعرن بالحرج من كشف بطونهنَّ وإظهار سُررهنَّ على الملأ. رأى جدِّي بطونًا عارية تزيِّنها أوشامٌ زاهية الألوان لفراشاتٍ ويعاسيب وطيور. بعض الفتيات خرمن سُررهنَّ بمجوهرات وأقراط من الذهب والألماس راحت تتلألأ على بطونهنَّ.

رغم مرور عام واحد فقط على زيارة جدِّي لمقرّ المقاطعة، لكنَّه أحسَّ بأنَّ عقودًا انصرمت مذَّاك لأنَّ المدينة تغيَّرت كثيرًا. وبينما كان يسير خلف أبي، يحدِّق نحو الأضواء الساطعة والمباني الشاهقة، شعر بأنَّه داخل عالم مختلف. ضجّت الموسيقى من كلِّ متجر أو مطعمٍ مَرَّ به

على نحوٍ جعل نبضات قلبه تتسارع. أحسّ جدّي بالدوار فطلب إلى أبي أن يعودوا إلى البيت. قادهم أبي بعيدًا عن الشارع ذي الإضاءة المبهرة نحو زقاق طويل ضيّق محاط بالمباني الشاهقة ومعبّد بألواح من الحجر الرماديّ. هناك أشجار سرو ذات جذوع ضخمة لا يستطيع الرجل البالغ أن يطوّقها والعديد من أشجار الجنكو المحاطة بأسيجة معدنيَّة للحماية. كانت أشجار الجنكو ضخمة جدًا لدرجة أنّها تتطلّب عدَّة رجال بأذرعٍ ممدوة حتَّى يتمكّنوا من تطويقها. فجأة، من بين الأشجار، لاح لجدّي صفٌّ من البيوت المكوَّنة من طابق واحد ذات جدران من الطوب الرماديّ وأسقف مكسوّة بالقرميد. كلّ البيوت متشابهة ويبدو أنَّ أعمارها لا تقلّ عن بضع مئات من السنين. كانت أسقف البيوت المكسوّة بالقرميد على نحوٍ متقن تضمُّ أفاريز مرتفعة تزيّنها منحوتات حجرية لأسود وتنانين ووحوش أسطوريّة. وعندما وصلوا إلى البيت الأخير، توقّفوا وفتحت أمي البوَّابة.

«تعيشون هنا؟»، سأل جدّي مذهولًا.

«هنا يعيش كلُّ مسؤولي المقاطعة»، أجاب أبي.

لاحظ جدّي ابتسامة أبي الواسعة التي ارتسمت على وجهه، ابتسامة بلغت أذنيه. ذاتها ارتسمت على وجهه يوم زفافه، ذاتها ارتسمت على وجهه حينما جنى بنك الدم الذي أنشأه أرباحًا لأوّل مرة. بمجرّد أن وطأ جدّي بقدميه الفناء، داعبتْه نفحة من الهواء البارد الرطب وشَمَّ رائحة النباتات والأشجار المنعشة. رائحة تلاشت تقريبًا من قرية دينغ، رائحة افتقدها السهل منذ أشهرٍ عديدة. هناك شجرة جنكو كبيرة وسط

الفناء، تكلّلها الأوراق الكثيفة المتألّقة بلونها الأخضر تحت ضوء القمر. بنظرة شاملة على الفناء، خمّن جدّي أنَّ مساحة البيت تبلغ حوالي واحد مو. رُصف الفناء بألواح من الحجر الرماديّ الداكن، وبُنيت الغرف المحيطة به بالطوب الذي فاحت رائحته كأنّما قد خرج للتوّ من الفرن، فرغم أنَّ البيت يتسم بطابق عتيق، لكنّ تاريخه لا يعود إلى عهد سلالة مينغ أو تشينغ، بل هو بيت حديث البناء صُمّم على الطراز التقليديّ بشكلٍ شديد الإتقان. شجرة الجنكو التي ترخي ظلالها على معظم الفناء ذكّرت جدّي بالنعوش الفاخرة التي ضمّت جثمان عمّي ولينغ لينغ؛ كانت من نوع الخشب النادر ذاته.

تبع جدّي أبي إلى داخل البيت وذُهل بالأثاث البسيط. لا وجود للابتذال المترف الذي رآه في المطعم ولا لمظاهر الحداثة والبهرجة. بل بدا كبيت عائليّ كبيرٍ وقديمٍ يعود تاريخه إلى قرون مضت. كلُّ المفروشات كانت من طراز عهدَي مينغ أو تشينغ، مصنوعة من أخشاب باهظة الثمن كخشب الصندل الأحمر وخشب الكمثرى الصفراء. كانت الطاولات والكراسي والأرائك والمناضد تتلألأ بألوانها الحمراء الداكنة والصفراء الباهتة تحت ضوء المصابيح الزجاجيَّة. رائحة الخشب القويّة والنفّاذة معشعشة في الجوّ. شعر جدّي الواقف في الصالة الفسيحة بأنّه داخل معبدٍ. وبعد أن قدّمت أمي الشاي وذهبت أختي لتحضير دروسها، استغرق الأب والابن في حديث مطوّل وجهًا لوجهٍ.

قال أبي مشيرًا إلى كرسيّ: «اجلس يا أبي».

لكنَّ جدّي ظلّ واقفًا يحدّق في جدران الصالة. ففي حين كانت

الجدران الخارجيَّة المبنيَّة من الطوب الرماديّ بحيث تبدو عتيقة، كانت الجدران الداخليَّة مطليَّة حديثًا ببياضٍ ناصعٍ كالثلج.

«هل بنيتَ هذا البيت بنفسك؟»، سأله جدِّي.

«ليس هذا البيت فحسب... بل المجمَّع بأكمله»، أجاب أبي بفخر.

جلس جدِّي. تلاشت دهشته. وبهيئة رجلٍ يتيقّن من شكوكٍ قديمة سأل: «هل دفعت ثمنها بالمال الذي جنيته من بيع النعوش؟».

رمقه أبي. «كان ذلك عونًا للناس وكانت تلك النعوش فرصة العمر التي لا تتكرر».

«وهل ذهبت الأموال إلى جيبك أم إلى الحكومة؟».

«لو ذهبت كلّها إلى جيبي لكنتُ أملك نصف هذه المدينة الآن»، ردَّ أبي مبتسمًا.

«وماذا عن تدبير الزيجات؟ هل تذهب الرسوم إليك أم إلى المسؤولين الأعلى شأنًا؟».

تبدَّدت الابتسامة. «كما قلتُ لك، هذا مجرَّد عون للناس. أتقاضى راتبًا من حكومة المقاطعة وأتولّى توفيق الزيجات لمن هم بحاجة إلى ذلك».

هنا انتهى الحديث. أخذ الظلام يتسلَّل من الفناء، حاملًا معه رائحة مطر. ذهب جدِّي إلى الباب ورفع رأسه إلى السماء. من خلال أوراق شجرة الجنكو، رأى السماء الملأى بالنجوم وتوقَّع أنَّ الغد سيكون يومًا شديد الحرارة. تلك الرائحة التي حسبها جدِّي رائحة مطر لم تكن سوى ضوع الجنكو الليليّ.

كان الوقت قد تجاوز منتصف الليل وحان وقت النوم. قاد أبي جدِّي إلى غرفة نوم واقعة في الجناح الجنوبيّ من الفناء. الغرفة أصغر من الصالة، لكنَّ أثاثها وطرازها مشابه لها تمامًا، باستثناء وجود سرير خشبيّ كبير.

وبينما كان جدِّي يهمُّ للنوم، باغته أبي بسؤال: «أبتاه، لن تحاول خنقي مرّة أخرى، أليس كذلك؟».

تفاجأ جدِّي بهذا السؤال ولم يعرف كيف يجيب. تجمّدت يده التي كانت تفكّ أزرار قميصه واحمّرت وجنتاه.

ضحك أبي بعدما لاحظ ارتباك جدِّي. «يسعدني أن أستضيفك في بيتي طالما أنَّك لن تحاول خنقي وأنا نائم. ليلة واحدة وتنقضي. هذا أقلّ ما أستطيع فعله باعتباري ابنًا بارًّا».

اجتاز أبي جدِّي نحو باب خشبيّ مطلّي بلون الجدران الأبيض ذاته. لم ينتبه جدِّي لوجوده من قبل لأنَّه بدا مندمجًا مع الجدار ونصفه مغطّى بلوحة لإله الثروة مرسومة بفرشاة الحبر. ضغط أبي على مزلاج مخفيّ أسفل الصورة فانزلق الباب إلى الخلف ليكشف عن حجرة داخليّة صغيرة. أشعل الضوء فإذا بضوءٍ كنور الشمس الساطع يغمر الغرفة ويبهر الأنظار. كان المشهد مبهرًا بالنسبة لجدِّي، كالحلم، لأنَّ الحجرة كانت مملوءة بالنقود. هناك طاولة كبيرة مكدَّسة بشيءٍ ما تغطِّيها مُلاءة بيضاء. سحب أبي الملاءة كاشفًا عن أكداس النقود، أوارق نقديّة من فئة مئة يوان مجمعة في رزم مكوّنة من عشرة آلاف يوان محاطة بأربطة مطاطيَّة حُمر. جُمعت الرزم في قوالب متوسطة الحجم مقدارها مئة ألف

يوان، ثم في قوالب أكبر بقيمة مليون يوان، وكلّ قالب كبير محاط بشريط من الحرير الأحمر المعقود بشكل فراشة أنيقة. بدت الأوراق النقدية جديدة تمامًا، تفوح منها رائحة الحبر النفاذة. كانت شرائط الحرير الحُمر والأوراق النقديَّة الحمراء والخضراء والصفراء والبرتقاليَّة تتلألأ على الطاولة مثل زهورٍ مجفَّفة زاهية الألوان. لم يعرف جدِّي سببَ وضع أبي للنقود في مكان غير آمنٍ كهذا، ملقاة على طاولة. كان على وشك أن يسأله حين توجّه أبي نحو خزانة ذات أدراج وفتحها. الأدراج جميعها ملأى بالنقود. فتح أبواب الخزانة وأدراجها كلّها كاشفًا عن مزيد من أكوام النقود. أينما تنظر ترَ رزم النقود؛ جبالًا من المالِ بشتّى الألوان.

كانت رائحة الحبر قويّة جدًا حدَّ الاختناق. ذلك الكمّ الهائل من النقود جعلَ التنفّس شاقًّا. وضع أبي كرات النفتالين وقطع القماش لامتصاص الرطوبة ومنع العفن. أزكمت الأنوف رائحةُ النفتالين اللاذعة والممزوجة برائحة الليمون والكافور لا سيّما حين اختلطت برائحة الحجرة الكريهة التي لم تُهَوَّى منذ أيام.

أضفى صراع الروائح والألوان على الحجرة طابعًا وحشيًّا غرائبيًّا. كان دخولها مثيرًا للاشمئزاز كما الوقوف بجوار حفرة الصرف الصحّي قبل شروق الشمس. بدا أبي معتادًا على ذلك، كأنّه ولد وترعرع في حجرة كهذه، لكنّ جدِّي شعر بضيق في الحلق وصعوبة في التنفّس. أجبر نفسه على استنشاق الهواء عبر أنفه وراح يفرك منخريه للتخلُّص من الرائحة الكريهة. تساءل جدِّي في قرارة نفسه عمّا إذا كان يحلم وهو يحدّق في أرجاء الحجرة. كان يعلم أنّه نهبة للأحلام، لذا راح يقرص فخذه وبهذه

الطريقة اعتاد أن يوقظ نفسه من دوّامة أحلامه. في العادة كان يجد نفسه في سرير غرفته في المدرسة، لكنّ هذه المرّة، حين قرص نفسه، لم يشعر سوى بألم مبرح. وبدلًا من أن يستيقظ في فراشه وجد نفسه واقفًا مع أبي في حجرة صغيرة تشبه قبو بنك أو مقرّ خزانة الدولة أكثر مما تشبه غرفة نومٍ للضيوف. شعر بأنّه يغرق في بحر من النقود، بين جبالٍ من الأموال. وإلى جانب كلّ هذه الروائح، شمَّ نفحات المطر القادمة من الفناء والتي بات الآن يعرف أنّها رائحة أوراق شجرة الجنكو. ربّما لم يكن يحلم على الإطلاق. ربّما كان متيقظًا ويقف برفقة ابنه وسط أكوام الأموال التي جناها بطرق ملتوية.

«كم يبلغ مجموعها؟»، سأل جدي.

«لست متأكّدًا». ابتسم أبي.

«ما حاجتك لكلّ هذه النقود؟ إنَّها أكثر ممّا بوسعك أن تنفقه في حياتك!».

بدا أبي محرَجًا. «ليس ذنبي أنَّ الحَمَّى لم تنتهِ! إذا استمرّ الأمر على هذا المنوال فلستُ أعرف ماذا سأفعل. لقد افتتحتُ خمسة مصانع جديدة في المقاطعة ومع ذلك ما زلنا غير قادرين على تأمين ما يكفي من النعوش. اختفت كلّ أشجار السهل واضطررنا لاستيراد الأخشاب من الشمال الغربيّ. وفي هذا الشهر أرسلتُ العشرات من فرق تدبير الزيجات إلى مختلف القرى لجمع الإحصائيات وتوفيق زيجات ما بعد الموت. انقضى أسبوعان ولم نتمكّن من تدبير الزيجات سوى لثلث العائلات التي قدّمت طلباتها».

«وهل ترى توفيق الزيجات هذا عملًا خيرًيا؟».

«لقد وهبتُ حياتي كلّها للعمل الخيريّ»، قال أبي مبتسمًا.

أشاح جدّي نظره وظلّ صامتًا للحظة. «وهل يملك المسؤولون الآخرون الذين يعيشون هنا أقبية كهذه؟».

أومأ أبي.

«ملأى بهذا القدر من النقود؟».

«لا أعرف»، هزّ أبي رأسه. «نحن نؤدّي واجباتنا ولا نتدخّل بشؤون بعضنا بعضًا».

لم يقل جدّي شيئًا. تملّى في أكوام النقود حوله ثمّ نظر إلى ابنه الذي بدأ النعاس يستولي عليه.

«خذ بنصيحتي يا هوي وأبقِ عائلتك بعيدًا عن قرية دينغ. الأمر لا يستحق أن تخاطر بحياتك»، حثّه بهدوء.

شخر أبي. «لستُ قلقًا. ليس بوسع أحد أن يمسّ شعرة منّي. وعلى أيّ حال فقرية دينغ هي مسقط رأسي. عودتي إليها لا تحتاج نقاشًا، ولكنني سأزورها قريبًا جدًا... في غضون أيام قليلة سآتي لفتح قبر ابني. عثرتُ له على زوجة وسأقيم من أجله حفلًا كبيرًا. وسأرى حينها مَن سيتحلّى بالشجاعة ويجرؤ على رفع إصبعه في وجهي!».

فرك أبي عينيه الدامعتين ونظر إلى جدّي مبتسمًا ابتسامة ابنٍ بارّ.

«فلتحظَ بقسطٍ من النوم يا أبي. بوسعك أن تنام هنا الليلة. أتمنّى لك أحلامًا سعيدة... هذا أقلّ الواجب».

٣

تلك الليلة، رأى جدِّي، الراقد بجوار الحجرة الملأى بالنقود، أحلامًا ليست من النوع الذي كان يتوقّعه. قبل أن يغفو، كان متيقّنًا أنَّ رؤى تخصُّ المال ستتبادر إلى خياله، لكنَّه لم يَر يوانًا واحدًا في أحلامه. لم يرى سواي، أمدُّ ذارعيَّ نحوه وأناديه كي ينقذني.

عثر لي أبي على زوجة. اسمها لينغ تزي وتكبرني بعدَّة سنوات. لديها تشوُّه في إحدى ساقيها، ربَّما تكون وُلدت بهذه الهيئة. تعاني أيضًا من الصَّرَع وتأتيها النوبات كلَّ يومين. أثناء إحدى النوبات سقطت في نهرٍ وغرقت. كانت الأقبح بين الفتيات العزباوات الميتات لكنَّ أبي وافق على تزويجي بها. لم تكن موافقة فحسب، بل اغتنامًا للفرصة.

كان أبوها رجلًا جبَّارًا.

جاء أبي إلى قرية دينغ برفقة حشد من الناس واستخرج عظامي من القبر ووضعها في نعشٍ جديد. كان النعش مصنوعًا من الذهب وأشدَّ فخامة من نعش عمِّي. استخرجوا جثَّتي كي يتمكَّنوا من نقلي إلى كايفنغ ودفني بجوار زوجتي الميتة. منحنا والدُها قطعة أرض جميلة في المقبرة المطلَّة على النهر الأصفر. لقد كانت قطعة أرض جيِّدة، من ذلك النوع الذي تراه معروضًا في مناشير الوكلاء العقاريِّين: موقعها ممتاز مع واجهة جنوبيَّة وإطلالة على النهر، تبعد خطوات عن الماء، باردة صيفًا دافئة شتاءً. عرض أحدهم مبلغ مليوني يوان لشراء الأرض لكن والد لينغ تزي رفض بيعها وقرَّر تخصيصها لنا.

يوم فُتح قبري، جاء أبي إلى القرية ومعه عشرون شخصٍ أو نحو

ذلك. أشعلوا البخور عند قبري وأحرقوا القرابين الورقيَّة وأطلقوا الألعاب الناريَّة وفتحوا نعشي الخشبيّ البسيط ونقلوا عظامي إلى نعش ذهبيٍّ فاخرٍ تمهيدًا لأخذه إلى مقبرة كايفنغ. لكنَّ ما غاب عن معرفة أبي هو أنّني لم أرغب في مغادرة قرية دينغ في المقام الأول. لم أشأْ ترك قبري الواقع خلف المدرسة، حيث يعيش جدِّي، وكنت أخشى الذهاب إلى مكان غريب. وبمجرّد أن رفعوا النعش الذهبيَّ رحتُ أتخبَّط في الداخل وأنادي جدِّي لا أبي. كنتُ أستغيث به.

«وا جدَّاه! لا تدعهم يأخذونني!».

صراخي هزَّ السماء.

«لا أريد أن أغادر هذا المكان! لا تدعهم يأخذونني!».

صراخي ثقبَ السماء.

«أنقذني... وا جدَّاه... أنقذني...».

استيقظ جدِّي. جلس على حافة السرير ذاهلًا، يحدّق في ضوء الشمس الشاحب وهو يتسرَّب عبر الستائر كالحليب.

الفصل الثالث

مكتبة
t.me/soramnqraa

١

لقد كانت مصادفة سعيدة.

ففي الصباح الذي حزم فيه جدِّي أغراضه عاقدًا العزم لزيارة أبي في المدينة، جاء أبي إليه. بمحض المصادفة مرَّ أبي بقرية دينغ مع فريق توفيق الزيجات الخاصّ به وقرَّر أن يتوقّف عند المدرسة. التقى بجدِّي عند بوَّابة المدرسة حيث كان الأخير يهمُّ بالمغادرة.

كان أبي يرتدي زيًّا مكوّنًا من سروال قصير رماديّ وصندل جلديّ وقميص أبيض قصير الكمّين وقبّعة قشّ، الأمر الذي جعله يبدو شبيهًا بمزارع ينحدر من الجنوب. اسمرَّت بشرته عمَّا كانت عليه حين غادر القرية، وغدا وجهه متورِّدًا ويانعًا بفعل الشمس. حين تلاقيا عند بوَّابة المدرسة، مرَّر إليه أبي صرَّة مغلّفة بالورق ومربوطة بخيط.

«ما هذا؟»، سأله جدِّي.

«جينسنغ... جينسنغ بريّ من أجود الأنواع».

أحسَّ جدِّي بأنَّ الصرّة ثقيلة، ثقيلة جدًّا.

لم تكن الشمس قد بلغت عنان السماء بعد. بل برزت من جهة الشرق ككومة قشّ مشتعلة تصبُّ لهيبها على السهل. المشهد الممتدّ قاحل؛ كلُّ شيءٍ ذابل. مات العشب ومات القمح ومات الناس. يبس كلُّ شيء وأصبح السهل شاحبًا كالرمل؛ كوجه جدِّي حين رأى أبي عند بوَّابة المدرسة.

«هل صادفتَ جيا غن تشو في القرية؟»، سأله جدِّي بترقُّب.

«لا ولكنّني لستُ خائفًا منه. ليس بوسعه أن يفعل أيّ شيء». بدا أبي على علمٍ بما كان يخطِّط له غن تشو وبالحديث الذي دار بينه وبين جدِّي. «لقد حذّرني أهالي القرية يا أبي. قالوا لي لا تعد ولكنني أتيتُ لأريهم أنّني لا أخشى شيئًا. في غضون أيام سأقيم حفلًا كبيرًا للاحتفال بزفاف ابني. وحين يرون ذلك فلن يجرؤ غن تشو على رفع إصبعه في وجهي».

بترقُّب أكثر، حدَّق جدِّي إلى ابنه كما لو كان غريبًا واقفًا عند البوَّابة.

«كان تشيانغ في الثانية عشرة من عمره فحسب. هل ترغب حقًّا في تزويجه؟».

«لقد أنهيتُ كلَّ الترتيبات مع أهل الفتاة».

«من أين تنحدر الفتاة؟».

«من المدينة. إنَّها الابنة المدلَّلة لرجلٍ ثريّ»، قال أبي مبتسمًا. «لم يكن قد مضى وقت طويل على ترقية أبيها لمنصب حاكم المقاطعة وإطلاقه حملات بيع الدم حتّى أصابها مرض غريب وسقطت في النهر وغرقت. تكبر تشيانغ ببضع سنين، ولكن ذلك لا يهمُّ...».

«بكم عامٍ تكبره؟»، سأل جدِّي.

«خمسة أو ستَّة أعوام».

«وهل تظنُّ أنَّها فتاة ملائمة له؟».

«والدها –وهو حاكم المقاطعة!– ارتأى أنَّها زوجة مناسبة له، فمَن نحن كي نعترض؟».

«متى موعد الزفاف؟».

«هذا ما جئتُ لأخبركَ به. سأعود بعد بضعة أيّام لأخذ جثمانه. سننقله إلى مقبرة كايفنغ كي يدفن بجوار الفتاة. يقع قبرهما في قطعة أرض جميلة جدًا».

بعدها أخبر أبي جدِّي بأنَّه لا يستطيع المكوث طويلًا لأنَّ مساعديه بانتظاره عند الشارع الرئيس جنوب القرية. سأله عن أحواله: هل يأكل جيدًا؟ هل يحتاج بعض الثياب؟ هل جفَّ بئر المدرسة؟ وحين همّ أبي بالمغادرة تذكّر أنَّه كان يريد زيارة البيت الواقع في الشارع الجديد والذي لا يزال فارغًا منذ عدّة أشهر. وبدلًا من السير على الطريق، عبر برفقة جدِّي حقول القمح الجافّة الواقعة على مشارف القرية. سارا على طول الأحياد التي تفصل الحقول حتّى وصلا إلى بيتنا في الشارع الجديد في الطرف الجنوبيّ للقرية.

وإذا بالصدمة تعتريهما أمام ما شاهداه.

أقدم أحدهم على تحطيم قفل البوَّابة ورماه على الأرض. اختفت البوَّابة الخشبيَّة مع الباب الأماميّ. ظلَّت إطارات النوافذ سليمة لكنّ ألواح الزجاج تهشّمت وتناثر الزجاج المكسور في الفناء. وفي داخل

البيت لم يكن هناك أثر لأيٍّ من أثاث البيت، لا كراسي ولا طاولات ولا ستائر ولا مغاسل.

نُهب البيت كما نُهب قبر عمّي. وكان الفناء يعبق برائحة البول.

وقف أبي عند المدخل، وجهه يغلي غضبًا، ينظر إلى البيت الفارغ. التفت نحو جدّي قائلًا: «من فعل هذا؟».

هزَّ جدّي رأسه.

ركل أبي الجدار. «اللعنة على أولاد العاهرات هؤلاء! هذه فعائل غن تشو ويويه جي! أعرف ذلك!».

شحب وجه أبي، وارتعش تحت وطأة الغضب. وخشيةً من إقدام ابنه على فعلٍ طائش، جثا جدّي فجأة على ركبتيه وراح يتوسّل:

«هوي، إذا كنت تريد التجنّي على أحد فليكن أنا، حسنٌ؟ فلنقل إنني مَن سرق الأبواب والأثاث وتبوّل في الفناء. إذا كنت تريد معاقبة أحد فلتعاقبني أنا!».

نظر جدّي إلى ابنه كطفلٍ صغيرٍ يتوسّل أباه. رمقه أبي بازدراءٍ، مثل أبٍ نفد صبره تجاه ابنه الأرعن.

وبعد لحظاتٍ، استدار أبي وغادر من دون أن يقول شيئًا. من دون أن يلتفت إلى الوراء.

٢

كان بمقدور أبي أن يسلك طريقًا جانبيًّا لكنَّه اختار أن يتبختر وسط قرية دينغ شامخَ الرأس، على مرأى من القرويّين الجالسين في الساحة.

كان الطقس حارًّا ولكن ليس للدرجة التي تمنع الناس من الخروج إلى الهواء الطلق، لذا توافد أهالي القرية إلى الساحة لتناول الإفطار وتبادل الأحاديث. كان معظمهم قد انتهى من تناول وجبته عندما مرَّ بهم أبي. سار بسرعة وبخطواتٍ عريضة، وحينما اقترب من الحشد توقَّف للحظة كي يمسح حذاءه.

من بين الرجال الجالسين، كان وانغ باو شان أوّل من لمحه، فصرخ قائلًا: «دينغ هوي! ماذا تفعل هنا في هذا الصباح الباكر؟».

ابتسم أبي واقترب من الحشد. «كنت مارًّا بجوار القرية فتوقّفتُ لإلقاء نظرة والاطمئنان على الوضع».

أخرج علبة سجائره باهظة الثمن وناولَ وانغ باو شان واحدة ثمّ بدأ يوزّع السجائر على الآخرين.

قال أبي متفاخرًا: «جرّبوا هذه السجائر... العلبة الواحدة منها بنصف ثمن النعش. السيجارة الواحدة بثمن عشرة أرطال من الملح أو زجاجة كحول أو رطل من اللحم». شهق القرويّون في دهشة.

«أتمزح؟»، سأله وانغ باو شان.

«دخِّن سيجارتك وسترى...»، أجاب أبي وهو يخرّج الولّاعة من جيبه.

وبعد أن أشعل سيجارة وانغ، تنقّل بين الحشدِ ليشعل سجائر الرجال واحدًا تلو الآخر. وحين وصل إلى جيا غن تشو الجالس مع مجموعة من رجال القرية على الناحية المقابلة، تخطّاه مباشرة. حدجه أبيّ بنظرة ثمّ مرَّر سيجارة للرجل الجالس بجانبه. كان وجه غن تشو شاحبًا

تغطّيه القشور الجافّة، وبدا نحيلًا وسقيمًا بحيث يمكن لهزّة بسيطة أن ترديه أرضًا. تغيّمت عيناه وانطفأتا بيأسٍ. كأنّما الحمّى لم تسلبه قواه فحسب بل شخصيّته أيضًا وخلّفته عاجزًا. لم يكن أمامه سوى قبول الإهانة ومحاولة إخفاء انكساره. في البداية، حين رأى أبي يوزّع السجائر أشرق وجهه، ولكن حين وصل إليه وحدجه بتلك النظرة ومرَّر السيجارة للرجل الذي بجانبه، احمرَّ وجهه خجلًا. حمرة داكنة بلونِ الكبد... كبدِ الخنزير.

بعد أن وزَّع أبي كلَّ ما بحوزته من السجائر ودَّع القرويين وعاد أدراجه نحو الطريق الرئيس حيث ينتظره فريق مساعديه. بينما كان يسير مبتعدًا شامخ الرأس استدار ليلقي نظرة أخيرة. كان غن تشو يحدِّق إليه بغضبٍ سافر. غضب واهنٍ وعاجزٍ. تلاقت عيناهما. نظر أبي إلى الرجل الذي توعَّده بالقتل بعينين ثاقبتين، حادّتين، كنصلِ الخنجر.

خنجر يتشهَّى أن ينضحَ آخر قطرة دم في عروقِ غريمه.

٣

بات جدِّي يعرف كلَّ شيءٍ الآن. كأنَّما كلُّ ما فعله أبي غدا كتابًا مفتوحًا أمامَ عينيه. وبينما كان أبي يغادر القرية، أسرع جدِّي في طريقه إليها. كانت محطَّته الأولى عند بيت دينغ يويه جي.

اجتمع يويه جي وأفراد أسرته حول المادة وتناولوا وجبة إفطار فاخرة مكوّنة من اليقطين المقلي والبيض المخفوق مع الكراث وعصيدة الأرزّ الساخنة والكعك. كانوا يتلذّذون بهذه الأطايب خلف الأبواب المغلقة

وإذا بجدِّي يقتحم فناء ديارهم. اعترى يويه جي الذهول، وما كان منه إلا أن دعا جدِّي للجلوس. وأخبره أنَّ الأسرة شعرت، بعد تفاقم مرضه، بأنَّه يستحقُّ أن يأكل ما يحلو له من الطعام. كان من المفترض أن يكون الكعك هديّة تخصُّه وحده غير أنَّه أصرّ على تحضير ما يكفي الجميع منها.

«أكملوا طعامكم... أكملوا طعامكم»، قال جدِّي وهو يجلس.

عرف جدِّي أنَّه منذ مغادرة الجميع للمدرسة، كان يويه جي يتلقّى إعانات غذائيَّة دوريّة من حكومة المقاطعة. ولأنَّ بحوزته ختم القرية الرسميّ فقد تمكَّن من الحصول على أجود أنواع الأرز والدقيق مجانًا. لقد حظيت أسرته، خلف الأبواب المغلقة وبعيدًا عن الأعين، بألذّ أصناف الطعام. تلفَّت جدِّي حوله ورأى في الفناء أكوامًا من المقاعد والكراسي المدرسيّة الجديدة تمامًا. رأى عددًا من قطع الخشب، بطول ستَّة أقدام تقريبًا، وسرعان ما تبيَّن أنَّها مأخوذة من شجرة الپولونيا الكبيرة التي كانت موجودة ذات يوم في باحة المدرسة. هناك أيضًا حوالي عشر لوحات خشبيَّة تحمل أرقام شعبِ المدرسة كانت معلَّقة فوق أبواب الصفوف. ارتبك جدِّي حين رأى هذه الأشياء، المسروقة من المدرسة بشكلٍ سافرٍ، ولكنَّه لم يرغب في أن يشعروا بأنَّه ينظر خلسة إلى أشيائهم فأشاح بعينيه بعيدًا.

تمتَّعت أسرة يويه جي بحياة مريحة. بيتهم مسقوف بالقرميد وفناؤهم مبنيّ من الإسمنت وأكواز الذرة من محصول الشتاء الماضي تتدلَّى عن العوارض الخشبيَّة. كان كلُّ أفراد الأسرة متورِّدي الخدودِ وبصحَّة جيِّدة. حتَّى خنازير حظيرتهم كانت مكتنزة على نحو استثنائي.

حين جاء أحد الخنازير، يتشمَّم حول الطاولة بحثًا عن بقايا الطعام، زجره يويه جي وطرده.

بينما كان الخنزير يفرُّ بعيدًا، استدار يويه جي نحو جدِّي، وقال: «حسنٌ يا عمِّي، ما الذي جاء بكَ في هذا الوقت الباكر؟».

فكَّ جدِّي غلاف الصرَّة التي أعطاها إليه أبي، وأخرج منها ثلاثة جذور كبيرة من الجينسنغ. برؤوسها المدوَّرة والأجزاء المتفرِّعة من أسفلها كأذرعٍ وأرجلٍ، بدت هذه الجذور كدمى صغيرة. قشرتها صفراء شاحبة نصف شفَّافة وتفوح برائحة قويَّة. تحلَّق أفراد الأسرة الذين لم يسبق لهم أن رأوا نبات الجينسنغ البريّ من قبل لإلقاء نظرة فاحصة. «أوه... تبدو تمامًا كما يقولون... مثل أناسٍ صغار»، قالت إحدى النساء.

تناول جدِّي أحد الجذور وقدّمها إلى يويه جي. «هذه لك. يمكن أن تغليها لتحضير شاي الجينسنغ. هذا الجينسنغ من الشمال الغربي. نموّ الجذور لهذا الحجم يحتاج عقودًا من الزمن... يقال إنّه مقوٍّ جيّد للجسم وسيساعدك على مقاومة الحمَّى بشكل أفضل من أي دواء آخر».

رفض دينغ يويه جي قبول الهديّة رغم معرفته بأنَّ الجينسغ البريّ باهظ الثمن على نحوٍ لا يُصدَّق. وحين ألحَّ عليه جدِّي، احمرَّ خجلًا وقال متلعثمًا: «لا لا يا عمِّي. لا أستطيع أن آخذها. هذه هديّة دينغ هوي لك».

لكنَّ جدِّي دفعها بقوّة في يده. «ابن عمّك طلب إليّ، بصريح العبارة، أن أعطيكَ إيّاها».

رضخ يويه جي. وبعد أن لفَّ الجذور داخل الورق بعناية ووضعها على الطاولة، قال فجأة: «عمِّي، عليك أن تطلب إلى دينغ هوي أن يبقى بعيدًا عن القرية. يخطّط غن تشو وآخرون لإيذائه».

«لقد وعدني غن تشو بأنَّه لن يفعل ذلك إذا كنتَ على استعدادٍ للتخلّي عن الختم»، قال جدِّي.

فكَّر يويه جي لوهلة ثم قال مبتسمًا: «حسنٌ. أخبر غن تشو أنّني إذا متُّ قبله فالختم له. لا يهمّني أن أُدفن والختم معي... وكأنّ وجوده سيفيدني بشيء بعد أن أموت».

توقّف قليلًا ونظر إلى مائدة الإفطار الملأى بالأطباق ثمّ تابع وهو محرج بعض الشيء: «ولكنَّ حدسي يقول إنَّه سيموت قبلي. لا أعراضَ لديّ سوى الحكة والطفح. وعلى كلّ حال، فأنا بحاجة للختم من أجل الحصول على إعاناتي الغذائيَّة من مسؤولي المقاطعة».

كانت صرَّة الجينسنغ لا تزال على الطاولة حيث وضعها يويه جي. راح ينظر إليها بريبةٍ، ثمّ سأل جدِّي: «عمِّي، هل أتيتَ للتوسُّط لدى غن تشو؟ لا أظنُّ أنَّك تفعل ذلك... ففي نهاية المطاف، نحن عائلة واحدة، لا ينبغي السماح لشيء أن يفرّقنا».

الآن جاء دور جدِّي كي يبدو مُحرجًا.

«بالطبع لا... بالطبع...»، أكّد له جدِّي.

مكث جدِّي عند ابن أخيه قليلًا وتبادل معه بعض الأحاديث قبل أن يغادر.

كانت محطّته التالية عند بيت جيا غن تشو.

٤

أثناء دخوله إلى فناء بيت غن تشو، متوجّهًا إلى غرفة المعيشة، لاحظ جدِّي تشابهًا كبيرًا مع بيت دينغ يويه جي. عشرات المقاعد والكراسي، المأخوذة من المدرسة، مكدَّسة في الفناء، إلى جانب كومة من جذوع أشجار الحور والپولونيا التي كانت قد تبقَّت بجوار مطبخ المدرسة. استولى غن تشو على مرمى السلَّة حتّى وقد فكَّه وألقاه كيفما اتفق وسط الفناء. داخل البيت، كانت العوارض الخشبيَّة مكدَّسة بإطارات انتُزعت من نوافذ المدرسة. كان هناك أشياء أخرى تعرَّف عليها جدِّي، مكوَّمة في الزوايا أو متناثرة في كلّ أنحاء الغرفة، من أوانٍ وقدورٍ ودلاءٍ وكراسي وسبّورات كبيرة ودفاتر واجبات فارغة وأكياس أقلام الرصاص والطباشير غير المستعملة.

بدت غرفة المعيشة أشبه بمستودع مستلزمات مدرسيَّة.

لمح جدِّي لوحًا معدنيًّا صدئًا خلف باب غرفة المعيشة. اللوح نفسه الذي كان يُستعمل جرسًا في المدرسة. تساءل عن السبب الذي دفع غن تشو للاحتفاظ به أو عمّا كان يخطِّط لأن يفعله به. ربّما ظنَّ أنَّ معدنه ذو قيمة. غير أنَّ جدِّي لم يكن يرى هذا اللوح مجرَّد قطعة معدنيَّة يمكن بيعها كخردة، بل هو جرس المدرسة الذي ظلَّ يقرعه لعقودٍ. أحسَّ بأنَّ هذا الشيءٍ يخصُّه شخصيًّا، لا المدرسة، وأنَّ غن تشو سرق منه شيئًا يخصُّه.

لم يستطع جدِّي أن يزحزح عينيه عن اللوح.

وحين لاحظ غن تشو ذلك، سأله: «لا أظنُّك جئت تبحث عن هذا الجرس، أليس كذلك؟».

ابتسم جدِّي بخجلٍ وأشاح بنظره. وبعد أنَّ أكَّد لغن تشو أنَّه لم يأتِ كي يختلس النظر، وأنَّه لا يمكن أن يفعل شيئًا من هذا القبيل على الإطلاق، أخرج له قطعة الجينسنغ التي جلبها معه. «طلب إليَّ هوي أنَّ أعطيكَ هذه. جينسغ بريّ أصليّ. إذا نقعت هذا النبات في الماء المغلي لفترة من الوقت ثمّ شربته فستسعيد بعض قوتك».

مرَّر جدِّي النبات نحو غن تشو كي يأخذه. «ينبغي لك أن تجرّبه يا بني. منذ العصور القديمة والناس يتناولون الجينسنغ. حتّى الأباطرة استخدموه لعلاج الأمراض التي عجز أطباؤهم عن علاجها. سيخفّف من أعراض مرضك وإن داومتَ على تناوله فقد تشفى».

نظر غن تشو إلى النبات الموجود في يد جدِّي ثمّ رفع رأسه وقال ببرود: «جاء دينغ هوي هذا الصباح إلى القرية ووزّع السجائر على الجميع إلا أنا».

«أوه، كيف ذلك وقد بذل قصارى جهده ليحضر لك هذا النبات! أفضل السجائر وأفخرها لا تضاهي قطعةً صغيرة من الجينسنغ».

«ألا يخشى إذا بدأت أتناول الجينسغ واستعدتُ قواي أن أباغته بضربة على رأسه تبرحه قتيلًا؟»، قال غن تشو ساخرًا.

امتقع وجه جدِّي. تجمّدت ابتسامته للحظة، ولكنّه سرعان ما استعاد رباطة جأشه.

«خذ الجينسنغ يا بني. وإذا استعدتَ قوتك وظللت مصممًّا على

تهشيم رأسه، فاعلم أنَّه سيعود إلى القرية بعد يومين أو ثلاثة للاحتفال بزفاف ابنه... حينها بوسعك أن تغتنم الفرصة وتشفي غليلك»، قال جدِّي مبتسمًا باطمئنان.

٥

عند شروق الشمس، وصل أبي إلى قرية دينغ برفقة مجموعة رجال ونعشٍ مُذهَّب. كان النعش المصنوع من ألواح خشب الجنكو التي يبلغ سمكُها خمسة إنشات يحتوي نقوشًا لمشاهد من بكين وشانغهاي وغوانجو وغيرها من المدن الصينيَّة الحديثة. ثمّة أيضًا مشاهد لمدن أجنبيَّة ما كان بوسع أحد أن يتعرَّف عليها لولا العبارات المكتوبة فوقها: باريس ونيويورك ولندن. لستُ أعرف أين تقع نيويورك أو باريس ولا يهمّني ذلك. كل ما أعرفه هو أنَّ قريتي اسمها دينغ وأنَّ قرية دينغ تقع شرق سهل خنان. لا يهمُّني مدى فخامة نعشي أو ما إذا كان الطلاء الذهبيّ الذي يغطّيه حقيقيًّا أم لا أو ما إذا كان ثمنه يعادل ثمن كلّ أراضي القرية.

كان ضوء الشمس المنعكس على نعشي يعمي الأبصار. كأنَّ الشمس سقطت من السماء وتحوَّلت من كرة إلى مستطيلٍ. عمد أبي ومَن معه إلى استعراض نعشي في أنحاء القرية ممّا جذب الكثير من المهتمّين. خرج كلُّ مَن بقي على قيد الحياة لرؤيته، لتأمُّل النعش المُذهَّب الذي يضمُّ نقوشًا لأماكن لم يروها من قبل ولن يروها أبدًا. هنا، على نعشي تمامًا، ظهرت حداثة المدن الصينيَّة الكبرى وروعتها إلى جانب بهاء مدن العالَم وعظمتها.

وضعوا النعش بجوار قبري وأشعلوا البخور وأحرقوا القرابين الورقيَّة وأطلقوا المفرقعات الناريَّة. ثمّ حفروا قبري ونقلوا عظامي من النعش الخشبيّ البسيط إلى ذاك المذهَّب وحملوه بعيدًا باحتفاءٍ كبير.

حين رفعوا النعش المُذهَّب بدأتُ أتخبَّط بداخله وأنادي جدِّي لا لأبي. كنتُ أستغيث به.

«وا جدَّاه! لا تدعهم يأخذونني!».

صراخي هزّ السماء.

«لا أريد أن أغادر هذا المكان! لا تدعهم يأخذونني!».

صراخي ثقبَ السماء.

«أنقذني... وا جدَّاه... أنقذني...».

صراخي ملأ فناء المدرسة وتردَّد صداه في القرية وعبر السهل. تصاعدت صرخاتي نحو السماء لتتساقط كقطرات المطرِ على الأرض العطشى.

٦

يومَ تزوّجت كان النسيمُ الخفيفُ يبرِّدُ الجوَّ. انطلقت أمي وأختي منذ الصباح الباكر إلى بيت العروس لتشهدا استخراج رفاتها، بينما جاء أبي برفقة حاشية من الناس إلى مدرسة القرية لينبشوا قبري وينقلوني إلى مأواي الجديد. هذه المرّة، وبخلاف العادة، كان العريس هو من سيذهب إلى مسقطِ رأس العروس لا العكس.

كانت الشمس قد أشرقت عاليًا في السماء، كرة ضوءٍ متوهِّجة على

خلفيَّة سماء زرقاء صافية. ولحسن حظّ أهالي القرية فقد هبَّ النسيم العليل في ذلك النهار وكان الطقسُ منعشًا. ولحسن حظّ المحاصيل والنباتات فقد حملت الليلة الماضية معها رطوبةً أحيت السويقات الشاحبة والوريقات الذابلة. ظهرت بقعٌ خضراء هنا وهناك، من بين شقوق التربة.

كان عشرات الناس يقفون حول قبري قرب بوَّابة المدرسة. من بينهم الرجال الذين بنوا قبر عمّي ولينغ لينغ. لقد أحضروا معاولهم ومجارفهم وأكياسًا مملوءة بالمفرقعات الناريَّة والقرابين الجنائزيَّة ونعشًا من الطراز الأول مطليًّا بالذهبِ الخالص ومغطّى بالنقوش. كانت كلّ النقوش تصوِّر مشاهد للمدن الحديثة والثريّة وكأنّها صور من الجنّة. امتلأت المدن بالمباني الشاهقة والشوارع الواسعة والحدائق والساحات والمتاجر والمطاعم. هناك نقوش لروَّاد المطاعم الجالسين أمام الموائد المترفة وحولهم حرَّاسٌ يرتدون زيًّا موحّدًا ومضيفاتٌ يرتدين ثيابًا أنيقة لاستقبال الضيوف عند الأبواب. في الساحة العامّة كانت الحدائق وملاهي الأطفال ملأى بألعابٍ لم أرَ لها مثيلًا من قبل: أفعوانيّة ملتفّة على هيئة تنين ودولاب هواء دوَّار ذي مقاعد صغيرة وسيّارات كهربائيَّة يصادم بعضها بعضًا. بدا المشهد طازجًا ومُسكرًا كبستان أشجارٍ في صباحٍ ربيعيّ باكرٍ حلَّ فيه الكبار والأطفال بملابسهم الأنيقة محلَّ الطيور المزقزقة. كان نابضًا بالحياة وحقيقيًّا حتّى تكاد تسمع ضحكاتهم ودردشاتهم كما لو أنَّ أصواتهم محفورة في الخشب.

رغم الحجم الصغير لنعشي مقارنة بنعوش الكبار، لكن الجزء الداخليّ منه كان غنيًّا أيضًا بالنقوش. أحدها منظر طبيعيّ لأشجار

وزهور وجسور وبحيرة محاطة بتلالٍ مشجرة تطفو قوارب صغيرة على سطحها. وبين الأشجار ظهر بيت قديم الطراز من طابقين مبنيّ من الطوب ومسقوف بالبلاط الأصفر المزجَّج. هناك شجرتا جنكو وسرو في الفناء المحاط بسورٍ حجريّ. ورغم أنَّ عرض اللافتات الحُمر على جانبي البوَّابة لا يزيد عن عرض عيدان الطعام، لكنَّ الكتابة الصغيرة ظلَّت واضحة بما يكفي للقراءة: «في الجنَّة، تمتدُّ الأيام وتطول/ ولكنَّ اخضرار الأشجار دائمٌ لا يزول». كانت اللافتة التي تعلو البوَّابة تشير إلى أنَّ البيت هو «مسكن عائلة دينغ». يمتدُّ المسار المرصوف بالحصى من البوَّابة إلى الغرف الكبيرة والممرَّات وأجنحة البيت. إذا تتبعتَ المسار عبر الفناء وألقيت نظرة من الأبواب والنوافذ فبوسعك أن ترى ما بداخل كلّ غرفة من أثاث وأجهزة إلكترونيَّة وأدوات بيتيَّة. ترى أيضًا لوحات المناظر الطبيعيَّة ولفائف التخطيط والآلات الموسيقيَّة التقليديَّة المعلَّقة على الجدران. لقد حرص أبي على تخصيص رفٍّ للكتب والقصص التي سأقرؤها وتوفير كميات من الوجبات الخفيفة والمشروبات في حال شعرت بالجوع أو العطش. كان هذا هو البيت الذي جهّزه والداي من أجلي وأورثاني ما به من ممتلكات. مكان بوسعي أنا وزوجتي المراهقة أن نستقرَّ فيه ونعيش بسعادة إلى الأبد.

على اللوحة السفليَّة للنعش، حيث سيرقد رفاتي، ثمَّة نقوش لعشرات المباني بشتّى الأشكال والأحجام والأنماط. سُمّي كلّ مبنى باسم بنكٍ صينيّ مشهور: بنك الصين، بنك الصين المركزيُّ، بنك الشعب الصينيّ، بنك الصين التجاريُّ والصناعيُّ، بنك الصين الزراعيُّ، بنك

الرفاه الأبديّ وما إلى ذلك. بدا الأمر كأنَّ كلَّ البنوك الكبرى في البلاد قد افتتحت مقرَّها الرئيسَ على أرضيَّة نعشي. سأرقد وكلُّ أموال الصين تحتي، ستجد عظامي مستقرَّها فوق ثروات العالَم.

وقف أبي بجانب قبري مُعجبًا بالنعش المذهَّب والعالَم الذي أعدَّه من أجلي. عالَـمُ المدن والقرى والمشاهد المثيرة، يشمل كلَّ ما ضمَّه السهل من ثراء وبهاء، مملكةٌ من الغنِى ووسائل الرفاه. بعجالةٍ خاطب أبي أفراد طاقمه الذين كانوا يحملون المجارف والمعاول المزّينة بشرائط حُمر احتفالًا بالمناسبة السعيدة. بعدها بدأ الحفل بإطلاق المفرقعات الناريَّة؛ سلاسل طويلة وصناديق كبيرة من هذه الألعاب، تلاها إحراق مجسَّم ورقيٍّ أحمر لمِحَفّة العرسان. ثمَّ دار الطاقم ستَّ دورات حول قبري، ثلاث منها باتجاه عقارب الساعة وثلاث بعكسها قبل أن ينثروا المزيد من الألعاب الناريَّة على الأرض كي يتسنَّى للضيوف التقاطها وإشعالها بأنفسهم.

لم تحتفل قرية دينغ احتفالًا كهذا منذ سنين. ما كان بوسع الناس أن يتذكَّروا آخرَ مرَّة شهدوا فيها حفلًا مبهرًا وفخمًا لهذه الدرجة. فمن مفرقعات صغيرة تنفجر في لحظاتٍ إلى سلاسل طويلة تفرقع لعدّة دقائق متتالية. منها ما كان يحدث دويًّا حين ينفجر ومنها ما كان على شكل صواريخ تحلِّق عاليًا في السماء وفي ذيلها وابلٌ من الشرر. كان الحفل عرضًا غمرَ السماء بالأنوار وأبهر حواس المتفرِّجين. اختلط ضجيج المفرقعات مع لَغْط المتحدِّثين. تطاير الدخان وشظايا الورق المتفحِّمة في الهواء. كان نعش الجنكو المذهَّب ينتظر بجوار قبري، حوله البخّور

والقرابين الورقيّة والأطباق الملأى بالكعك والحلويات المقليّة والتفاح والكمثرى التي جلبها أبي من المدينة. تنافست رائحة البارود والورق المحروق مع عبق البخورِ والتفاح ورائحة العرق.

وحالما انتهى الحفل، شرع أبي وطاقمه بأداء المهمَّة الجليلة المتمثِّلة باستخراج رفاتي.

كان صوت المفرقعات الناريَّة قد اجتذب وفودًا من أهالي القرية نحو قبري. تدفَّقوا في باحة المدرسة كزوَّار مهرجان المعبد. جاء بعضهم للمشاهدة وبعض للمساعدة وبعض آخر لمجرَّد المشاركة في الحدث السعيد. تحدَّث الجميع عن مدى حظِّي بحفل الزفاف الكبير هذا. فرغم أنَّ العروسين ميتان، لكنّ هذا الحفل كان أفضل من كلِّ حفلات الزفاف التي ما زال فيها الطرفان على قيد الحياة.

كان الحشد غفيرًا رغم أنَّ الموت قد فتك بالقرية مؤخرًا. بدا الأمر كأنَّ نصف أهالي القرية كانوا حاضرين. بعض الجالسين أو الواقفين حول قبري اعتمروا قبَّعاتٍ عريضة من القش تفاديًا لأشعة الشمس الحارقة، وظلَّ بعضٌ منهم بلا قبَّعات. تلألأ الضوء على الرؤوس الصلعاء المتعرِّقة فبدت مثل حبّات بطيخ مغسولة حديثًا تتمايل في بحرٍ من الرؤوس البشريَّة. بعد إشارة من أبي، دقَّ حفَّارو القبور معاولهم ذوات الأشرطة الحمر في الأرض وسرعان ما تراكمت كومتان من التراب على جانبي قبري. وفي هذه الأثناء بدأ مشرفُ الحفل، وهو رجل في منتصف العمر، جولاته وهو يوزِّع السجائر والحلوى كأنَّه أمام طقوسٍ احتفاليّة لا مجرَّد استخراج للرفات. وُزِّعت علب سجائر

من علامات تجاريَّة شهيرة للرجال المتجمهرين، بينما حظيت النساء وأطفالهنَّ بالكعك والسكاكر والحلوى.

قلّما شهدت بوّابة المدرسة نشاطًا عامرًا كالذي شهدته هذا اليوم. تجوّل دينغ يويه جي مع عددٍ من الشباب الآخرين وراحوا يدوسون المفرقعات الناريّة المستهلكة للتأكُّد من انطفائها. أوضح لأبي أنَّ الغرض من ذلك هو تحاشي اشتعال النيران، لا سيّما مع تفاقم جفاف الطقس ووجود أكوامٍ من المواد القابلة للاشتعال في المكان، ناهيك عن أنّه لم يكن ليرغب في رؤيتي محترقًا في قبري.

عندما وصل دينغ شياو مينغ اقترب من أبي والابتسامة تغمر وجهه وسأله عمّا إذا كان بحاجة لأيّة مساعدة. وحين رأى أنَّ أبي قد خطّط جيّدًا لكلِّ شيءٍ التقط معولًا وانضمّ إلى طاقم الرجال الذين انكبّوا يحفرون قبري.

هناك امرأة تُدعى فين، كانت طاهية تساعد تشاو شيو تشين في المدرسة وهي صديقة عزيزة لأمّي. غدت هذه المرأة نحيلة وضعيفة على نحوٍ رهيبٍ، كأنّها لن تصمد أكثر من بضعة أيّام، غير أنّها ظلّت حريصة للاطمئنان على أمّي والسؤال عن أخبارها. أخبرت أبي عن مدى افتقادها لوالدتي وأنّها لن تنسى اللطف البالغ الذي لاقته منها أبدًا. فعندما كانت فين عروسًا، كانت والدتي هي مَن ذهبت إلى قريتها للقائها ورافقتها إلى بيت أهل زوجها في قريتنا.

كان هناك أيضًا شابٌ يُدعى تشاو تشوانغ تزي وقد اكتشف مؤخرًا أنّه مصاب بالحمّى فلازم بيته ولم يغادره منذ ذلك الحين. اليوم

خرج لحضور الاحتفال وبدا في مزاج أفضل. عندما لاحظ أنَّ حفّاري القبور يلوّثون أطباق الطعام القريبة من قبري عمد إلى إبعادها عن الطريق وسأل أبي عمَّا ينبغي أن يفعله بها. لوَّح أبي بيده قائلًا: «خذها إن أردت!». وضع تشاو قطعتين من الكعك في جيبه ووزَّع الحلوى المقليَّة على الأطفال الذين كانوا يلعبون وسط الحشد.

بدت باحة المدرسة كبحرٍ من الرؤوس المتمايلة، كجمهور في حفلٍ موسيقيٍّ. حضر قرابة مئة شخص سواء لمشاهدة الألعاب الناريَّة أو لتقديم العون أو لرؤية مشرف الحفل المسنّ وهو يدير الطقوس الاحتفاليَّة. بعد كلّ مرحلة من مراحل استخراج رفاتي كان يطلق سلسلة من المفرقعات الناريَّة لترهيب الأرواح الشريرة. أشعل السلسلة الأولى من المفرقعات عندما نبشوا التربة وشرعوا بالحفر، والثانية عندما نزل الحفّارون إلى قبري المفتوح. بعدما مسحوا التراب عن نعشي واستعدّوا لفتح الغطاء أطلق السلسلة الثالثة من المفرقعات وأسدل قطعة قماش حمراء كبيرة فوق القبر وطلب إلى الحشد التراجع بضع خطوات لكيلا يتسنّى لأحدٍ أن يرى الحال التي كان عليها جسدي. بعدها أنزلَ سترة حمراء وسروالًا إلى القبر حتَّى يتمكَّن المساعدون من إكساء رفاتي.

بعدئذٍ حان الوقت لرفع رفاتي. كان هذا هو الجزء الأكثر مهابة في الحفل. حبس الجميع أنفاسهم وهو يترقّبون ظهور عظامي المكسوّة باللباس الأحمر. عندها انتحى مشرفُ الحفل بوالدي وطلب إليه أن ينادي لجدّي ثمّ يقفا في مكان بعيد يشاهدان قبري منه. لأنَّه في حال رأى أبي وجدِّي رفاتي وأجهشا بالبكاء فهذا سيروِّع طيفي ويطرده بعيدًا.

طلب إلى أبي أيضًا أن يبحث مع جدِّي مسألة إقامة مأدبة الزفاف في القرية وما إذا كانوا بحاجة لخدماته آنذاك. وعده أبي بالقيام بذلك ثمّ ذهب كي ينادي لجدِّي.

في الواقع، كان أبي قد اتخذ قراره مسبقًا بشأن المأدبة. لقد خطَّط لإقامتها في المدينة، لا في قرية دينغ، فما الجدوى من تقديم الطعام الفاخر لحفنة من المرضى وعائلاتهم؟ ارتأى حجز ثلاثة طوابق في أكبر مطاعم المدينة ودعوة كلّ أصدقائه ومعارفه وزملائه النافذين للوليمة. والد عروسي هو المسؤول الأعلى رتبة في المقاطعة ولا أحدَ يمكن أن يرفض دعوة منه لحدثٍ كهذا. كلّهم سيأتون وسيتطلّعون لمصافحة حاكم المقاطعة.

فتّش أبي المدرسة بأكملها ولم يعثر على أثرٍ لجدِّي. عاد إلى البوَّابة وبحث عنه بين الحشد لكنَّه لم يعثر عليه. حينها أدرك أبي أنَّه لم يَرَ جدِّي منذ أن شرعوا بحفر قبري. حتّى الآخرون، أيضًا، لم يلمحوا جدِّي مذّاك. شكَّل أبي فريقَ تفتيش.

عثروا على جدِّي جالسًا بمفرده على جانب الطريق المؤدّي إلى القرية. أحنى ظهره تحت أغصان شجيرة دردار وهو يدخِّن سيجارة متأمِّلًا القريةَ والسهلَ الذابل المصفرّ. بدا منغمسًا في التفكير. ربّما كان يفكّر في أشياء مهمّة كالحزن والخسران والموت والفناء. مشاعر عميقة الغور، لا قرار لها. أو ربّما كان متعبًا فحسب وأراد مكانًا هادئًا يجلس فيه ويحظى بقسط من الراحة. مكان بوسعه أن ينفرد فيه بنفسه. كان يحدِّق في المحاصيل الميتة والسهول الجافّة وقد بدت عليه علائمُ الكآبة والقلق. كانت شجيرة الدردار التي فيها من الأغصان أكثر ممّا فيها من الأوراق

ترمي ظلًّا ضئيلًا، وكان الجالس تحتها لكأنّه تحت الشمس الحارقة. حين اقترب أبي لاحظ أنَّ ظهر قميص جدّي القطنيّ الأبيض ملطّخ بالعرق.

«ماذا تفعل هنا أبي؟ كيف تجلس هنا والجوّ هكذا؟»، قال أبي باحتراس.

استدار جدِّي ببطء. «أخال أنَّ تشيانغ قد نُقل من قبره؟».

«آه، نعم».

قرفص أبي بجوار جدّي. «ما الذي تفعله هنا؟».

حدَّق جدِّي إلى أبي طويلًا قبل أن يطرح عليه السؤال الذي كان يدور في ذهنه. «كم عمر الفتاة بالضبط؟».

ابتسم أبي. «هل أتيتَ إلى هنا كي تترصّد جيا غن تشو؟ أتخشى من أن يأتي ويفتعل هرجًا ومرجًا عند القبر؟».

تجاهل جدِّي السؤال. «أخبرني يا هوي، كم عمرها؟».

«تشيانغ بحاجة لزوجة تكبره في السنّ كي تعتني به. وبخصوص غن تشو فلن ألقي له بالًا لو كنتُ محلّك. في الحقيقة كنتُ أودُّ لو رأيته اليوم. أودّ أن أرى إن كان يجرؤ على الاقتراب مني قيد شعرة».

«هل صحيح أنَّ الفتاة عرجاء؟».

نظر جدِّي في عينَي ابنه، لكنّ أبي تحاشاه.

«نعم ولكنَّ ذلك ليس واضحًا. يقولون إنَّك لا تستطيع أن تلاحظ ذلك إلا إذا نظرت عن كثب».

ثمّ حاول تغيير الموضوع قائلًا: «إذا تجرّأ غن تشو على افتعال أيّة مشكلة اليوم فسأجعله يندم على الساعة التي وُلد فيها».

تجاهل جدّي ذلك. كنتُ شغله الشاغل. «وصحيحٌ أنَّ والدها حاكم المقاطعة؟».

اكتفى أبي بالابتسام.

«سمعتُ أنَّ الفتاة تعاني من الصرع أيضًا».

حدَّق أبي إلى جدِّي بعينين واسعتين، متسائلًا عن كيفيَّة درايته بكلّ هذه المعلومات.

عرف جدِّي حينها أنَّ الأشياء التي رآها في حلمه كانت حقيقيَّة. تنهّد بعمقٍ ثمّ عاد إلى الطريق وواصل ترصُّده لبيت جيا غن تشو الذي كان مرئيًّا من بعيد، ببوّاباته الخشبيَّة المقفلة التي لم تفتح أو تُغلق منذ وقتٍ طويلٍ. وحالما بدأ جدِّي يقتنع بخلوّ البيت، خرج رجل من البَّوابة يحمل قطعة قماش أبيض مربوطة بعصا خيزران علَّقها على شجرة ثمّ عاد بهدوء إلى الداخل. كانت هذه هي طريقة التعبير عن الموت في قرية دينغ. وحينما رأى جدِّي القماشة البيضاء معلَّقة خارج بَّوابة بيت غن تشو كراية استسلامٍ تسارعت ضربات قلبه. التفت نحو أبي وعلى وجهه علامات أسفٍ وارتياحٍ.

«هوي، أعلم تمامًا كم تحبُّ التباهي والغرور، ولكن هل كان لزامًا عليك حقًّا أن تزوّج ابنك لفتاة كهذه؟».

«من أين كنتُ سأعثر على زوجة أفضل له؟»، قال أبي وقد بدت عليه الحيرة. «ألا تعلم أنَّ والدها من ترقية إلى ترقية أعلى؟ لم يمضِ وقت طويل على تعيينه عمدةً لكايفنغ!».

تنشَّق جدي هزءًا ورمق أبي بنظرة اشمئزاز. ودون أن يفوه بكلمة،

وقف ومسح العرق عن وجهه ونفض الغبار عن سرواله وتوجّه نحو الحشد عند بوَّابة المدرسة. أصبح القماش الأحمر الذي كان مفروشًا فوق قبري ملفوفًا حول نعشي المُذهَّب. عرف جدِّي أنَّ ذلك يعني انتهاء عمليَّة استخراج رفاتي الذي بات الآن داخل النعش الجديد. دُثِّرت عظام ساقيَّ بسروال أحمر، وعظام ذراعيَّ وأضلاعي بسترة حمراء، وعظام قدميَّ بزوج من الأحذية القماشيَّة الحمراء. وبذلك تحوَّلت مراسم الجنازة إلى احتفالٍ مبهجٍ. حلَّ الفرح محلَّ الأسى. وحين قفل جدِّي عائدًا إلى المدرسة تبعه أبي.

«أبي، لقد بلغت من العمر ما بلغتَ، فلماذا لا تأتي وتعيش معي في المدينة؟».

التفت جدِّي ورمقه ثمَّ تابع سيره نحو المدرسة.

«الحياة جميلة في المدينة ولم يتبقَّ لكَ شيءٌ هنا. رحل كلُّ ذوي القربى. لماذا لا تترك هذا المكان إذًا إلى غير رجعة؟».

هذه المَرة لم يكلِّف جدِّي نفسه عناء الالتفات.

عند بوَّابة المدرسة، رفع ثمانيةٌ من الحَمَلَةِ نعشي المُذهَّب على أكتافهم واستعدّوا لنقلي من المدرسة. أشعل مشرف الحفل سلسلة طويلة أخرى من المفرقعات معلنًا انطلاق الموكب وسط ضجيج غامر. ولأنني متُّ يافعًا، لم يكن هناك أبناء متشحون بملابس الحداد يسيرون بجوار نعشي. ولكن كوني على وشك الزواج، فقد زُيِّن رأس نعشي بقماشة حمراء معقودة على شكل زهرة. وعلى هذا النحو غادرتُ قرية دينغ.

على هذا النحو كانوا يحملونني بعيدًا.

يأخذوني بعيدًا عن جدِّي ومدرستي وبيتي.

يأخذوني إلى مكانٍ غريبٍ سأتزوّج فيه بفتاة عرجاء مصابة بالصرع وتكبرني بستّ سنوات.

هكذا أخذوني.

وسط فرقعة الألعاب الناريَّة ولغط المثرثرين ونوافير الشرر المتصاعدة في الهواء وشظايا الورق المحترق التي تتطاير. كان أبي، السائر خلف نعشي، يتلفّت من حوله نحو أهالي القرية الذين جاؤوا للمشاركة في هذا الاحتفال النادر.

أمر حاملي النعش بالتوقُّف للحظة ثمّ صعد على أكمة رمليّة صغيرة وأعلن بصوتٍ عالٍ:

«يا أهالي قرية دينغ، يا أخوتي وأخواتي، يا أصدقائي وجيراني، أتوجّه إليكم بالشكر الجزيل لحضوركم اليوم. في المستقبل، إذا ما احتجتم مساعدة في أيّ شيء، أيّ شيء مهما كان، فلا تتردّدوا في المجيء لزيارتي في المدينة. ولأنني واحدٌ منكم ولا أرغب في إخفاء أيّ شيءٍ عنكم أحببتُ أنّ أخبركم عن مشروعي الجديد: أنا وحاكم المقاطعة نعتزم شراء قرابة ألف فدّان من الأراضي الواقعة على ضفاف النهر الأصفر، في منتصف الطريق بين كايفنغ ومقرّ المقاطعة، بغية بناء مقبرة عليها. ستكون مقبرة تليق بأن يُدفن فيها الأباطرة، تمتاز بموقعها الممتاز وقربها من الماء بما يتماشى مع مبادئ فنغ شوي. ثلاثون فدّانًا منها يمتدُّ على ضفاف النهر الأصفر وما تبقّى منها عند سفح جبال مانغ».

تابع بصوتٍ مدوٍّ: «أعلم أنّكم جميعًا سمعتم المثل القائل: «طوبى

لَمَن مهدُه في سوتشو ولحدُه ما بين النهر الأصفر وجبال مانغ». ولكن كم عدد المحظوظين بما فيه الكفاية لكي يُولدوا في مدنٍ كسوتشو أو هانغتشو؟ بل كم عدد المحظوظين بما فيه الكفاية كي يرقدوا في قبورٍ على ضفاف النهر الأصفر أو عند سفح جبال مانغ؟ وما دام ليس بوسعي أن أجعلكم تُولدون في مكانٍ أفضل، ولكنني بعد أن صرتُ مسؤولًا في المقاطعة، فأقلُّ ما يمكنني فعله هو أن أضمن لكم جميعًا دفنًا كريمًا في مكانٍ جميلٍ. يا أهالي القرية، يا أصدقائي وجيراني، أتعهّد لكم بأنَّ كلّ مَن يرغب في أن يُدفن في تلك المقبرة فسيحظى على أفضل موقع دفنٍ على ضفاف النهر الأصفر، بجوار قبر ابني دينغ تشيانغ. سأسعى من أجل أن تكونوا قادرين على شراء هذه المواقع بأقلّ سعر ممكن. وكلّ مَن يرغب في نقل جثمان أحد أحبّائه إلى هناك، فسيحظى بسعرٍ مُغرٍ، بالمجان عمليًّا، مقابل مثوى رائع ذي إطلالة خلّابة».

بعدما أنهى أبي خطبته، رنا نحو الشمس، التي كانت في تلك الأثناء مشتعلة عاليًا في السماء، ثمّ التفت نحو الحشد قبل أن يهبط عن الأكمة الرمليّة ويشير لحاملي النعش بانطلاق الموكب.

سار أهالي القرية في أعقاب نعشي، يثرثرون بحماسة حول المقبرة المُزمع بناؤها. ظلّ جدّي واقفًا، يريد أن يتحدّث إلى أبي.

«من الآمن أن تغادر القرية الآن. لقد مات جيا غن تشو. لن يضايقك بعد الآن».

قهقه أبي. «أبتاه، طالما أنّك لا تخطّط لقتلي فأنا بخير وأمان دائمًا. لا أحد في كلّ قرى هذا السهل يجرؤ الآن على العبث معي».

انضمّ أبي إلى موكب الجنازة السائر نحو القرية تاركًا جدّي عند قبري الفراغ، بجوار المكان الذي كان فيه نعشي المُذهَّب. شحب وجه جدّي وتجمّدت ملامحُه. يبدو أن كلمات أبي اجترحت شيئًا بداخله، مستدعيةً ذكرى قديمة ظلّت منسيّة طويلًا. أحسَّ باصطفاق قلبه داخل صدره، بالعرق ينضح من مسامه ويلطّخ كفّيه. أشاح بنظره عن التحاق أبي بحشد القرويين السائرين خلف النعش المذهَّب المغطّى بالحرير الأحمر محمولًا نحو القرية كمِحفَّة عرسان. كشعلةِ لهبٍ مرفوعة عاليًا. كانت شمس منتصف النهار ساطعة وطبقة من الضباب تجلبب السهلَ كوشاحٍ مضيءٍ. الصمتُ يعمُّ كل الأرجاء. القرى ساكنة يغمرها ضوء الشمس. حتّى قطعان الماشية والأغنام التي ترعى بين الكثبان الرمليَّة راحت تقضم العشب الجافّ بصمتٍ. كان الصوت الوحيد النابض بالحياة هو صوت الزيزان التي تطنُّ بنشاط من أغصان ما تبقّى من أشجار. تردَّد صدى أزيزها مع انفجار المفرقعات الناريَّة البعيدة في أذنَي جدّي. وعندما استدار لينظر إلى قبري الفارغ، القبر الذي نبشوه ولم يكلّفوا أنفسهم عناء ردمه، هبط عليه الإدراك: كانوا يأخذونني بعيدًا. كان أبي والآخرين يحملون رفاتي وفي طريقهم لأخذي بعيدًا وإلى الأبد. جدّي بمفرده في المدرسة، بلا أصدقاء من القرية وبلا أسرة. لا أعرف كيف لم ألحظ ذلك من قبل ولكن لم يتبقّ ثمّة شعرة سوداء واحدة في رأسه. جعلته خصلات شعره الأشيب يبدو كحَمَلٍ يُقدَّم قربانًا وقد عُلّق في الهواء وعلى وشك أن يسقط أرضًا. تكاثرت التجاعيد على وجهه المسنّ الذاوي كشقوق التربة اليابسة في عموم السهل القاحل، وكانت عيناه اللتان تعقّبتا موكب جنازتي لا تحملان في طيّهما أيَّ حزنٍ

أو غضبٍ أو دموعٍ؛ لم يبقَ فيهما غير اليأسِ الذي لا سبيل لوصفه. بدت عيناه كبركتَين يغمرهما القنوط، كبئرَين متحاذيتين جفّتا منذ أمدٍ بعيدٍ.

حلموني بعيدًا، أبعد فأبعد. وما عاد جدِّي بحلول هذا الوقت سوى بقعة ضبابيَّة بعيدة. رحتُ أصرخ من داخل نعشي.

«وا جدَّاه! لا تدعهم يأخذونني!».

صراخي هزَّ السماء.

«لا أريد أن أغادر هذا المكان! لا تدعهم يأخذونني!».

صراخي ثقبَ السماء.

«أنقذني... وا جدَّاه... أنقذني...».

اجتاحت الفكرة جدِّي اجتياح الصاعقة، فامتقع وجهه وارتعشت يداه. مرتجفًا، انحنى ليلتقط عصا، غصن كستناء متين رماه أحدهم على الأرض ثمّ سار نحو الحشد ملتحقًا بموكب الجنازة. بعدما قطع بضع خطوات سريعة تمكَّن من اللحاق بأبي الذي كان قد شذَّ عن الموكب. رفع جدِّي العصا عاليًا وانهال بها على رأس أبي فهشّمت قذاله. انهالت الضربة بسرعة خاطفة لم تدع لأبي فرصة للالتفات أو الصراخ. تمايل لثوانٍ ثمّ سقط على نحوٍ خافت على الأرض مثل كيسٍ من الطحين.

سالَ الدمُ على الأرض كزهرةٍ حمراء تتفتّح في الربيع.

الفصل الرابع

بقتله أبي، تصرَّف جدِّي كما لو أنَّه قد أسدى خدمة جليلة للقرية. ترك جثّة أبي على الأرض وركض ليزفَّ البشرى في القرية ولكلِّ من يصادفه في طريقه.

«هل سمعتَ الخبر؟ لقد قتلتُ دينغ هوي».

«مرحبًا! لقد مات دينغ هوي. ضربتُه على رأسه بالعصا».

«مرحبًا! أردتُ أن أحيطَك علمًا فحسب... لا داعي للقلق من دينغ هوي بعد الآن. لقد قتلتُه».

حثَّ جدِّي خطاه نحو القرية وقد بدا أكثر نشاطًا كأنَّه أصبح فجأة أصغر بعشر سنوات. ابتداءً من الطرف الغربيّ للقرية، تنقَّل من بيت إلى آخر، فاتحًا الأبواب وداخلًا إلى الفناءات معلنًا خبره.

صرخ وهو يدفع بوَّابة أوَّل بيت قصده: «مرحبًا! هل سمعتم؟ لقد قتلتُ ابني. هشّمتُ رأسه تهشيمًا».

وعند البيت الثاني صاح: «هل والداكَ في البيت؟ حسنٌ، أخبرهما حين يعودان بأنَّ دينغ هوي قد مات وأنا من قتلته. ضربته بعصا الكستناء

على رأسه... عصا بهذا الطول وبهذه الثخانة...». أوضح جدِّي كلماته بإشارات من يديه. «قتلته بضربة واحدة».

وعند البيت الثالث: «مرحبًا! أنتِ في زيارة هنا؟ بوسعكِ أن تحرقي القرابين على قبر أخيك ووالديكِ وتخبريهم أنَّ دينغ هوي قد مات أخيرًا. لقد قتلته بضربة على رأسه».

حين وصل جدِّي إلى البيت السابع، دخل إلى الفِناء ورأى أنَّ كل الغرف مغلقة ومقفلة الأبواب. ثمَّة لافتات عزاء قديمة معلّقة على عتبة كلّ باب. ركع وسطَ الفناء وشابك يديه وانحنى برأسه ثلاث مرّات. بعدها، ورغم أنَّه لم يتبقَّ أحد من سكّان البيت على قيد الحياة كي يسمعوه قال: «يا إخواني، يا إخواني وزوجات إخواني، جئت لأبشّركم. لقد مات ابني دينغ هوي وأنا من قتله».

عندما وصل جدِّي إلى بيت جيا غن تشو ورأى النعش الأسود في الفناء، جثم على ركبتيه ولامس رأسه الأرض. «لطالما عددتُك كابنٍ لي يا غن تشو. أردتُ أن أزفَّ لك الخبر السعيد وجهًا لوجه، عساك ترقد بمزيد من السلام والراحة إذا عرفت بأنَّ دينغ هوي قد مات. قتلتُه بيديّ، ضربته بالعصا على رأسه».

في وقت لاحق، جثا جدِّي أمام مجموعة من القبور التي حُفرت خارج القريّة وصرخ: «اسمعوني جميعًا... لديّ أخبار سارّة! اليوم قتلتُ دينغ هوي، ابني البكر. اقتربت من خلفه وهشّمتُ رأسه. لقد مات دينغ هوي...».

الكتاب الثامن

انتهى الصيف وجاء الخريف من جديد.

مرَّ الصيف من دون قطرة مطر. الآن وقد صار الخريف في منتصفه، لم يهطل المطر منذ أكثر من ستة أشهر. استمرَّ الجفاف لمئة وثمانين يومًا وكان أقسى مواسم الجفاف التي شهدها السهل منذ ما يقارب القرن. ماتت كلُّ المحاصيل والنباتات.

اختفت الأشجار أيضًا. عاجزةً عن مقاومة هذا الظمأ، ماتت أشجار البولونيا والصفيراء والتوت الصينيِّ والدردار والأرْز وخروب العسل النادرة... ماتتْ كلُّها بهدوء.

الأشجار الكبيرة قُطعت والصغيرة قضى عليها الجفاف ولم يتبقَّ أشجار.

جفَّت البِرك. توقَّفت الأنهار. نضبت الآبار.

ومع اختفاء المياه اختفى البعوض.

تخلَّصت الزيزان من جلودها ومضت قبل أوانها. تناثرت جثثها الصُّفر الذهبيَّة على جذوع الأشجار الميتة وأغصانها وأشواكها وعلى

الجوانب الظليلة للجدران والأسوار. لكنَّ الشمس نجت. والريح لم تنطفئ. ظلَّ القمر والنجوم والكواكب على قيد الحياة.

وبعد أيّام قليلة من جنازة أبي، اعتُقل جدِّي. لقد كان قاتلًا، رجلًا قتلَ ابنه، لذا كان عليهم أن يقبضوا عليه. وبعد ثلاثة أشهر من اعتقاله، في ثاني أشهر الخريف، هطل المطر لسبعة أيّام بلياليها دون توقُّف. وعندما توقَّف المطر أطلقوا سراح جدِّي. كأنَّ المطر كان خلاصه. اعتقلوه في ذروة الجفاف، عندما كانت الأعشاب والأشجار تموت، وحقَّقوا معه. سألوه عن قرية دينغ وعن بيع الدماء والنعوش وتزويج الموتى. بعد أن أجاب على كلِّ أسئلتهم وتوقَّف هطول المطر وارتوت الآبار والبحيرات والأنهار، أطلقوا سراحه.

أرسلوه إلى بيتِهِ وأنقذوا حياته.

عاد جدِّي إلى القرية مع حلول غسق أحد أيَّام الخريف المتأخرة. ضرَّجت الشمسُ الأرض والسماء بأحمرها الدامي. وإذْ راحت تقهقه في الأفقِ ملء فمها، ندَّ عن السهلِ الغربيِّ صريرٌ خافت. ضجّت أنحاء الأرض الصامتة بأصوات الحياة؛ زقزقة وأزيز حشرات صغيرة. عادة في مثل هذا الوقت من العام تتساقط أوراق الأشجار إلا أنَّ الأشجار معظمها اختفت. والعشب قد مات، تقريبًا وليس تمامًا. في الحقول وما بينها، وعلى امتداد الكثبان الرمليَّة لمسار النهر الأصفر القديم، نمت بقع خضراء شاحبة نابضة برمقٍ من حياة. فاحت رائحة منعشة كأريج الربيعِ ممزوجةً برائحة الخريف العفنة. رائحة شيءٍ جديد ونظيف.

في السماء الحمراء النيِّرة، كان يحلِّق طائر موسميٌّ بين حين وآخر.

غربان وعصافير، وأحيانًا ترى نسورًا تهبط من الأعالي لتطارد فريسةً فترتمي ظلالها فوق السهل كخيوط من دخان كثيف.

ثمّ عاد جدِّي.

لم يتغيّر كثيرًا. ظلَّ نحيل كما كان دائمًا، بوجهٍ شاحبٍ أقرب للون الرماد. معتمرًا قبعة القش وحاملًا غطاء السرير بيده، بدا مثل مسافر عائد إلى بيته بعد رحلة طويلة. أوّل ما لفت انتباهه في قرية دينغ هو الصمت؛ كثافة الصمت. وفي غضون الأشهر الثلاثة التي غاب فيها، والتي صادفت الفترة الفاصلة بين منتصف الصيف ومنتصف الخريف، تحوَّلت قرية دينغ إلى مكان مختلف.

لا، لا تزال كما كانت، ولكنَّ كلَّ ناسها قد رحلوا. الشوارع صامتة صمت الموت، لا بشر فيها ولا حيوان. لا دجاج ولا خنازير ولا بطَّ ولا قطط ولا كلابَ. بين حين وآخر تمزِّقُ زقزقة عصفورِ الهدوءَ كحجرٍ يسقط على لوح زجاجي. صادف جدِّي كائنًا حيًّا واحدًا؛ كلبًا ضالًّا نتأت أضلاعه من شدة النحول. خرج من بوَّابة بيت تشاو شيو تشين ووقف في منتصف الطريق يحدِّق إلى جدِّي. ثمّ، ومن دون أن ينبح، انسلَّ بعيدًا وذيله ملتوٍ بين ساقيه.

وقف جدِّي وسط القرية، يتأمّل من حوله حائرًا، وتساءل عمّا إذا كان قد اتخذ منعطفًا خاطئًا. ثمَّ لمح شيئًا مألوفًا له: حظيرة أبقار متهالكة. لم تتغيّر كثيرًا منذ آخر مرة رآها؛ فلا تزال على وشك الانهيار. كانت عوارضها الخشبيَّة المتهدّمة قد استقرّت فوق جدران الطوب المتصدّعة كعيدان طعام أُسنِدت على حافّة وعاءٍ متشقّقة.

باتت الشوارع الإسمنتيَّة التي بُنيت قبل سنوات بأموال الدماء مكسوَّة بطبقة من التراب سميكة بما يكفي لزرع المحاصيل فيها. غزتها الشقوق والصدوع المتعرِّجة كحدودٍ إقليميَّة على خريطة.

ظلَّ بيت ما شيانغ لي الواقع عند مفترق طرق القرية على حاله تقريبًا. رأى جدِّي لافتات العزاء البِيض الباهتة المعلَّقة على عتبة الباب ولاحظ أنَّ البوَّابة مفتوحة فدخل إلى الفناء وصاح: «هل من أحد هنا؟».

لا جواب. الصمت مخيّم على البيت.

انتقل جدِّي إلى البيت التالي والذي كان بيت وانغ باو شان. ناداه جدِّي ولكنّ أحدًا لم يجب أيضًا. كان الصمت، أيضًا، مخيِّمًا على البيت. وبدا أنَّ ما من سكَّان فيه سوى الفئران التي أزعجها صوت جدِّي فهرعت من الفناء نحو البيت.

كان البيت التالي مهجورًا أيضًا. بدت القرية بأسرها مهجورة. لا علامة من علامات الحياة في القرية أينما نظرت.

اندلاع الحمَّى أجهزَ على قرية دينغ. من لم يمت رحل. ثمّ جاء الجفاف فجرف آخر السكَّان كأوراق تذروها الريح. أُخمدت القرية كشمعةٍ.

انتقل جدِّي من بيت إلى آخر، من باب إلى باب، يصرخ حتّى بُحَّ صوته. لم يستجب أحدٌ لندائه سوى بضعة كلاب ضالَّة راحت تتبعه وتهزّ ذيولها.

ألقى الغروب الأحمر الزاهي، بلون القماش الذي غطّى نعشي المذهَّب قبل ثلاثة أشهر، عباءته الناعمة على بيوت القرية وشوارعها بسكونٍ مرهف.

سار جدِّي حتى وصل إلى بيت عمِّي في الشارع الجديد. كان دينغ شياو مينغ وعائلته قد استحوذوا على البيت بعد وفاة عمِّي، ولكنّهم هجروا القرية كما يبدو وتركوا قفلًا يتدلَّى بحزنٍ على الباب.

وفي آخر الشارع، كان بيتنا ذو الطوابق الثلاثة لا يزال قائمًا لكنَّه بلا نوافذ ولا أبواب. حتَّى بوَّابة الفِناء انتُزِعت. لقد نهب أهالي القرية البيت نهبًا. بدا الفناء في حالة أفضل بعض الشيء وقد غزته شتلات الخردل الأخضر بأكمله. عبقَ الهواءُ برائحتها النفّاذة والمخدِّرة.

قرَّر جدِّي زيارة المدرسة. وبينما كان يعبر القرية، شعر بأنَّه يجتازُ واديًا لا نهايةَ له، بأنَّه يعبر صحراء قاحلة. كان الطريق إلى المدرسة مقفرًا كمسار النهر الأصفر القديم. غروب الشمس شديدُ التوهُّج والصمت. حمل النسيم البارد مزيجًا من روائح نباتات متعفّنة وأعشابٍ نمت حديثًا في السهل. تدفّقت الروائح في الهواء وتمازجت كتيّارات النهر، النظيف منها يختلط بالموحل. عن بعد، بدت الكثبان الرمليَّة المتناثرة على امتداد مسار النهرِ أصغر من ذي قبل ولكنَّها باتت أطول.

لم تتغيّر المدرسة كثيرًا. نمت بعض الحشائش البريَّة في باحتها وتطايرت في أرجائها أعداد كبيرة من الجنادب واليعاسيب والعُثَث.

كان جدِّي مرهقًا. لم يستطع أن يتذكّر أنَّه أحسَّ بتعبٍ شديد كهذا من قبل. سار إلى غرفته، وألقى نظرة على شهادات التقدير التي غطّاها الغبار على الجدران ثمّ ارتمى على سريره. لم يرغب في النهوض منه مجددًا. سرعان ما غطَّ في النوم، وكعادته، راح يحلم.

في حلمه، مرَّ جدِّي بكل الأماكن التي عرفها، كلَّ القرى التي

زارها من قبل. قطع مئات الأميال عبر السهل وزار مئات القرى والمدن والأسواق، وبدت جميعها متشابهة. أينما ذهب لم يجد بشرًا ولا شجرًا ولا حيوانات. ليس هناك سوى المباني والبيوت. مات الناس أو رحلوا والحيوانات ذُبحت أو ماتت جوعًا. والأشجار، بطبيعة الحال، قُطعت لصنع النعوش.

ظلَّت البيوت قائمة ولكنَّ الأجزاء الخشبيَّة منها اختفت.

جُمعت الأبواب والعوارض والخزائن وإطارات النوافذ وحُوِّلت إلى نعوش.

حتّى في المقاطعات البعيدة جدًا، كان من النادر جدًا أن ترى روحًا حيَّة.

تلاشى البشرُ والحيوانات وأقفر السهل.

في تلك الليلة، هطلَ المطر، مطر غزير حوَّل السهل إلى بركة واسعة من الطين. حلم جدِّي بامرأة تحفر في الطين بغصن شجرة صفصاف. مع كلِّ ضربة من الغصن، كانت تذرو فوجًا من رجالٍ صغار. عدد لا يحصى منهم. كلّما غمست الغصن في الوحل خرج فوج جديد من الرجال الصغار الملطَّخين بالطين وراحوا يثبون من الوحل ويرقصون على الأرض منهمرين كقطرات المطر من السماء.

رأى جدِّي السهل ينبض بالحياة من جديد.

رأى عالمًا جديدًا يتراقص أمام عينيه.

مكتبة
t.me/soramnqraa

"كان أبي رجلًا من أولئك الرجال الذين يولدون في هذا العالم كي يحقِّقوا أشياء عظيمة. لقد شاء القدر أن يجعله ابنًا لدينغ شوي يانغ، وابنًا لقرية دينغ، وأبًا لي.

بادئ ذي بدء، وجد نفسه مسؤولًا عن دماء قرية دينغ ودماء قرى أخرى تبعد أميالًا عنها. لم يكن مسؤولًا عن دمائها فحسب، بل عن مصيرها أيضًا. في النهاية، وجد نفسه مسؤولًا عن نعوشها وقبورها. لم يتخيَّل أبي أنَّه، في يوم من حياته، سيصبح مسؤولًا عن أشياء كثيرة لكنَّه شعر بأنَّه مضطرٌّ للمحاولة. وانطلاقًا من الإيمان بالتجربة والخطأ، ذهب لزيارة مسؤول من معارفه في المقاطعة، دون أن يعرف ما إذا كان الاجتماع سيثمر أم لا. كان أشبه برجل يحاول فتح بابٍ على أمل أن تشرق الشمس من ورائه."

*****

استنادًا إلى أحداث حقيقية وقعت مطلعَ التسعينيات؛ حيث أهلك وباء الإيدز قرىً بأكملها، قرى حاول سكانها، بتشجيع من المسؤولين المحليين، الهروبَ من الفقر المدقع عن طريق بيع الدم. وقائعُ قد تبدو من «ديستوبيا» متخيَّلة؛ من فساد المسؤولين وصمت الحكّام إلى ابتزاز البشر وتسليعهم، ومن خبثِ التجّار وانحطاط الأخلاق إلى جهل القرويين الحالمين بالثراء السريع. هذه رواية عن الموت والتنصُّل من المسؤوليات، عن جرائم بلا قصاص، عن جشعٍ يمسخُ أواصر العائلة وأحلامٍ كالنبوءات. بنثرٍ آسر الجمال، ونبرة طفل بريء، نقرأ رائعةَ «يان ليانكه»، المرشحَ الأبديَّ لجائزة نوبل، وهو يؤسطر التاريخ المطموس رسميًّا.

المترجم

مكتبة
t.me/soramnqraa

يان ليانكه

حلمُ قرية دينغ

منشورات تكوين
TAKWEEN PUBLISHING
9 789921 808186
www.takweenkw.com | takween.publishing@gmail.com